

جامعة ابن زهر

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أكادير

مدينة تيزنيت وباديتها

في الذاكرة التاريخية والمجال والثقافة

المملكة المغربية
جامعة ابن زهر
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير
سلسلة الندوات والأيام الدراسية

مدينة تيزنيت وباديتها

في الذاكرة التاريخية والمجال والثقافة

أعمال الأيام الدراسية

12 - 13 - 14 نونبر 1993

مدينة تيزنيت وباديتها
في الذاكرة التاريخية والمجال والثقافة

1996

المملكة المغربية
جامعة ابن زهر
منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير
سلسلة الندوات والأيام الدراسية

مدينة تيزنيت وباديتها

في الذاكرة التاريخية والمجال والثقافة

أعمال الأيام الدراسية

12 - 13 - 14 نونبر 1993

1996

الفهرس

محور الجغرافيا:

محور الثقافة:

اللجنة المنظمة

التنسيق : الأستاذ حسن بنحليمة
قيدوم الكلية

اللجينات:

1- لجنة المتابعة العلمية:

- أحمد صابر : كلية الآداب بأكادير
- حمدي أنوش : " " "
- صالح أزوكاي : " " "
- عثمان هناكا : " " "
- أحمد الهاشمي : " " "
- عبد الرحيم الحلوي : " " "
- أحمد الرقبي : " " "
- عبد الكريم شعوري : المجلس البلدي - تزنيت.

2 - لجنة الاستقبال :

- أحمد صابر : كلية الآداب بأكادير.
- محمد بيتي : " " "
- محمد بوشلخة : " " "
- عبد الكريم شعوري : المجلس البلدي - تزنيت.
- ناجم كوغرابو : " " "
- محمد كاشور : " " "
- عبد العزيز عمري : " " "

3 - لجنة الإعلام:

- أحمد الرقبي : كلية الآداب بأكادير
- صالح أزوكاي : " " "
- محمد دادسي : المجلس البلدي - تزنيت.
- أحمد حافيضي : " " "

4 - لجنة المعرض:

- حمدي أنوش : كلية الآداب بأكادير.
- البخاري بودميعة : ثانوية المسيرة - تزنيت.
- عبد الله انجارن : المجلس البلدي - تزنيت.
- أحمد حافيضي : " " "

5 - لجنة المتابعة المادية:

- أحمد الرقبي : كلية الآداب بأكادير
- عبد الرحيم الحلوي : " " "
- محمد بوشلخة : " " "
- بوجمعة الحداد : بلدية تزنيت
- محمد واعلو :

6 - لجنة الرحلة:

- رقية أيت واعزيز : كلية الآداب بأكادير
- عثمان هناكا : " " "

كلمة السيد عميد جامعة ابن زهر

الأستاذ مصطفى دخيسي

بسم الله الرحمن الرحيم

سعادة عامل صاحب الجلالة على اقليم تزنيت

سعادة رئيس المجلس البلدي لمدينة تزنيت

سيادة رئيس المجلس الاقليمي

السادة النواب المحترمون

السادة الأساتذة

أيها الحضور الكريم

يطيب لي في بداية هذه الكلمة أن أهنئ المجلس البلدي لمدينة تزنيت وكلية الآداب والعلوم الانسانية بأگادير على هذه المبادرة المباركة المتمثلة في التعاون والدخول في نوع من الشراكة من أجل تنظيم هذه الندوة العلمية حول مدينة تزنيت وباديتها. فإذا كانت هذه التظاهرة تشكل أولى ثمرات هذا الجهد الثقافي والعلمي المشترك بين جامعة ابن زهر والسلطات المحلية والهيآت المنتخبة بتزنيت، فإن الاستعداد من أجل المساهمة الجادة في مثل هذه التظاهرات ليس بغريب عند الطرفين، فلقد سبق لمدينة تزنيت وأطرها المختلفة أن نظمت عدة أنشطة ثقافية إما ذات طابع جهوي أو وطني، كما أن كلية الآداب والعلوم الانسانية بأگادير دأبت منذ تأسيسها على تنظيم عدة ندوات، ارتبط معظمها بالمحيط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للجامعة.

ونحن فخورون اليوم بأن نجني ثمار هذا العمل المشترك الذي تناول موضوعا مهما بالنسبة للتنمية المحلية والجهوية بمنطقة سوس، لا سيما وأن مدينة تزنيت

وباديتها تعد من المواقع الغنية بمقوماتها التاريخية والثقافية والبشرية والاقتصادية المتنوعة، سيكون من دون شك لاعمال هذه الندوة دور كبير في إبرازها وتسليط الضوء على مختلف جوانبها.

وبهذه المناسبة أود التأكيد على ضرورة اندماج الجامعة في محيطها الجغرافي والاقتصادي والثقافي، وذلك بالقيام بدراسات نظرية معمقة حول مختلف جوانب هذا المحيط وتوجيه البحث العلمي في اتجاه البحث الميداني بتنسيق مع مؤسسات الإنتاج والتشغيل والتدبير.

ويمكن اعتبار هذه الندوة المنظمة بتعاون بين كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأگادير ومجلسكم الموقر خطوة أولى في اتجاه تدعيم سبل التعاون بين الجامعة والجماعات المحلية في هذا الإقليم الناهض.

فهنيئا لكل المنظمين والمشاركين والساهرين على سير أشغال هذا الملتقى العلمي الهام، ليس فقط لما لمسناه من تعبئة وتوفير للوسائل والامكانيات المختلفة من أجل إنجاح هذه التظاهرة، ولكن كذلك لما ينتظر منها من نتائج إيجابية وبناءة.

ولا يفوتني قبل أن أنهي كلمتي أن أرحب بضيوفنا الكرام، خصوصا منهم الذين تحملوا مشاق السفر فحلوا بين ظهرانينا.

كما لا يفوتني أن أقدم جزيل الشكر إلى من ساهم في إنجاز هذه الندوة، وأخص بالذكر منهم السلطات المحلية وعلى رأسها السيد عامل صاحب الجلالة على اقليم تزنيت والهيآت المنتخبة وعلى رأسها السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة تزنيت وكذا أعضاء اللجنة التحضيرية التابعة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بأگادير.

وفقنا الله لما فيه خير وطننا، تحت القيادة الرشيدة لجلالة الملك الحسن الثاني نصره الله.

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته

كلمة السيد قيدوم الكلية

الأستاذ حسن بنحليمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسول الله

- سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم تزنيت
- سيادة رئيس المجلس البلدي لمدينة تزنيت
- سيادة رئيس المجلس العلمي
- سيادة النائب البرلماني
- السادة العلماء والأساتذة الأجلاء
- أيها الحضور الكريم

يسعدني ويشرفني بإسمي ونيابة عن زملائي الأساتذة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية التابعة لجامعة ابن زهر بأگادير أن أبارك انعقاد هذه الندوة العلمية حول مدينة تزنيت وباديتها والمنظمة بتعاون مع السلطات المحلية والمجلس البلدي لمدينة تزنيت وذلك فوق هذه الارض الطيبة، أرض العلم والصلاح والجهاد والمقاومة.

ويطيب لي بالمناسبة أن أتقدم بعبارة التحية إلى كل الذين فتحوا لنا أبوابهم وقلوبهم بهذه المدينة الناهضة كما أتقدم بعبارة الترحيب إلى ضيوفنا الكرام الذين تحملوا عناء السفر قصد المساهمة في هذا الملتقى العلمي الهام واغتنمها فرصة لأبلغكم تحيات السيد عميد جامعتنا الذي يعتذر عن الحضور في هذا الإفتتاح نظرا لمشاغل طارئة.

ومن حسن الطالع أن يصادف تنظيم هذه التظاهرة العلمية تخليد الشعب المغربي للذكرى الثامنة عشرة لانطلاق المسيرة الخضراء المظفرة واستعداده للاحتفال بالذكرى الثامنة والثلاثين لعيد الاستقلال المجيد . على أن هذا الشهر يرمز في منطقكم إلى ذكرى أخرى جليلة وعزيزة على كافة المغاربة وهي ذكرى انتفاضة قبائل آيت باعمران ضد الاستعمار الاسباني بتاريخ 23 نونبر 1957 وذلك من أجل التحرير والوحدة.

كما أنه من حسن الطالع أن يصادف افتتاح هذه الندوة تهاطل أمطار الخير في جل هذه المنطقة وذلك بعد سنوات من الجفاف، فحمدا لله سبحانه وتعالى على رحمته واستجابته لعباده.

أيها الحضور الكريم.

إن اختيار مدينة تزنيت وباديتها كموضوع لهذا الملتقى العلمي لم يكن وليد الصدفة، بل جاء تلبية لسنة دأبت عليها الكلية منذ تأسيسها وهي تتمثل في القيام بدراسات وأبحاث حول عدد من المواقع والمراكز الحضرية بالجهة الجنوبية وذلك في إطار ملتقيات علمية متعددة التخصصات تفضي في النهاية إلى ملفات جاهزة ومتسلسلة بالشكل الذي يعزز مبدأ إدماج الجامعة في محيطها الجغرافي والاقتصادي والبشري والثقافي.

وفي سياق هذه التغطية العلمية، لابد من الاشارة إلى أن مؤسستنا سبق لها أن تناولت بالدرس مدينة أكادير الكبرى وحاضرة تارودانت ومدينة الصويرة وحوض درعة وهي الآن بصدد التفكير في تهييء ملتقى علميا حول مدينة كلميم ووادي نون.

وهكذا وفي إطار هذه التغطية وتعزيزا للدور الجهوي للكلية، انكبت اللجنة الثقافية للمؤسسة منذ سنة ونصف على تحضير الملف العلمي لمدينة تزنيت وباديتها.

وقد كانت رغبتنا جميعا منذ انطلاق هذا المشروع هي الدخول في تعاون مع السلطات المحلية والمجلس البلدي لمدينة تزنيت من أجل إقامة هذا النشاط داخل الإقليم إيمانا منا بضرورة تقريب النشاط الجامعي من الأساتذة والباحثين وباقي المواطنين، وفي ذلك إنعاش للحياة الثقافية بالمدن المتوسطة وتحفيز للجامعة لكي تخرج من أسوارها وتتفاعل أكثر مع محيطها.

أيها الحضور الكريم.

لست هنا في حاجة إلى التأكيد على مدى أهمية الموضوع الذي نحن بصدد دراسته اليوم.

فمدينة تزنيت التي تعد من المدن المتوسطة والتي ارتبط ظهورها كمركز مخزني منذ نهاية القرن التاسع عشر بحركات السلطان مولاي الحسن إلى تخوم الصحراء، تعرف اليوم تناميا متزايدا وتوسعا مضطردا وذلك بسبب الوظائف التنموية التي اسندت إليها في العقود الاخيرة، وكذلك بسبب التحولات المختلفة التي تعرفها منطقة سوس.

كما أن بادية تزنيت بالرغم من طبيعتها القاسية تعد من المناطق الريفية المغربية ذات التعمير القديم والكثيف نسبيا، الشيء الذي جعلها تنفرد في سوس بثراء علمي وأدبي زاخر وبغنى حضاري وتراثي جد متنوع سيتمثل في تنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لاحوال السكان بالمدينة والبادية.

وهكذا وللكشف عن الجوانب الخفية في هذا الموضوع وسر خفاياه على ضوء المناهج العلمية الحديثة، كان لابد من تنظيم ندوة يشارك فيها مختصون من مختلف الآفاق وذلك في إطار حوار التخصصات العلمية وتكاملها حول موضوع جهوي.

وقد جاءت الحصيلة متنوعة وغنية وذلك على يد باحثين من تزنيت ومن عدة جامعات مغربية. والمؤمل هو أن يكون هذا اللقاء فاتحة عهد من لقاءات أخرى

تتوطد فيها العلاقات العلمية بين الكلية والباحثين الجامعيين والمهتمين بموضوع تزنيت وباديتها من جهة وبين كل الجهات المعنية بالتنمية المحلية والجهوية على صعيد هذا الإقليم الناهض من جهة ثانية وإننا لنعد بهذه المناسبة بنشر كل الأبحاث التي سيقدمها الاساتذة المشاركون في هذا الملتقى لتعميم الإطلاع عليها.

واسمحوا لي قبل أن أنهي كلمتي هذه أن أتقدم بالشكر الخالص إلى كل الجهات التي دعمت هذه الخطوة وساعدت على إنجازها، وأخص بالذكر السلطات المحلية وعلى رأسها سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم تزنيت السيد مولاي الطيب العلوي وكذا الهيآت المنتخبة وعلى رأسها السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة تزنيت الاستاذ محمد مستعين كما أشكر السيد عميد جامعتنا على كل مظاهر الاهتمام التي أولاها لهذا المشروع والسيد نائب وزير التربية الوطنية بتزنيت على المساعدات القيمة التي قدمها لنا عند تحضير رسوم الاطفال حول تزنيت وباديتها وكذا السادة الذين مدوا المعرض المقام على هامش الندوة بوثائقهم وابداعاتهم.

وأخيرا اسمحوا لي أن أنوه بخصال التعاون التي حفزت كل الذين ساعدوا على تنظيم هذه التظاهرة، فأشكر أولا السادة الأساتذة الباحثين الذين لبوا دعوتنا للحضور في هذه الندوة، كما لا يفوتني أن أنوه بالجهود المضنية التي بذلها أعضاء اللجنة التحضيرية التابعين للمجلس البلدي لمدينة تزنيت أو المنتمين إلى كليتنا، وهنا أود أن أشير بصفة خاصة إلى دور الأستاذ حمدي أونوش الذي كان من أول المتحمسين لهذه الفكرة ومن الملاحقين لها برفقة زملائه الآخرين، فإليهم يرجع الفضل في تحقيق هذا المشروع.

وفقنا الله لما فيه خير بلدنا في ظل موحد البلاد وقائد مسيرتها التنموية جلالة الملك الحسن الثاني نصره الله وأقر عينه بولي عهده الأمير سيدي محمد وصنوه الجليل الأمير مولاي رشيد وسائر أفراد الأسرة الملكية الكريمة. إنه سميع مجيب والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

كلمة باسم اللجنة المنظمة

الأستاذ حمدي أونوش

بسم الله الرحمان الرحيم

- سعادة عامل صاحب الجلالة على إقليم تزنيت
- الاستاذ قيدوم كلية الآداب والعلوم الإنسانية
- السيد رئيس المجلس البلدي لمدينة تزنيت
- أيتها السيدات والسادة الكرام

تتشرف اللجنة المنظمة لندوة تزنيت وباديتها بأن ترحب بالسادة ضيوف الندوة المحترمين، وتنوه بجميع الجهات التي تفضلت بالمساهمة في تحقيق انعقاد هذه الندوة وتوفير الشروط المادية والمعنوية لنجاح أعمالها.

تصادف هذه الندوة الذكرى العاشرة لتأسيس كلية الاداب والعلوم الانسانية التابعة لجامعة ابن زهر باكادير، وتدخل في سياق سلسلة الندوات التي تنظمها الكلية قصد التغطية العلمية لمجال إشعاعها. وقصد تحقيق انفتاح الجامعة على محيطها وتشجيع كافة القطاعات على المساهمة في وضع وإنجاز مشاريع البحوث والدراسات العلمية الكفيلة بتحقيق نهضة متكاملة في محيطنا ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا.

وقد وجدت مبادرة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بأكادير بتنظيم هذه الندوة صدى طيبا لدى عمالة تزنيت ومجلسها البلدي وعدد من أعيان ورجال أعمال المنطقة وكذا بعض المؤسسات والجهات المهتمة، فتفضلوا مشكورين بالإسهام في إعداد هذا الملتقى العلمي الذي بدأ التحضير الفعلي له منذ ما يقرب من سنتين

فهيأت اللجنة التنظيمية ورقة عمل أولية ضمت المحاور المقترحة للبحث وأعلمت بها كافة المؤسسات والجهات المعنية وتم الإعلان عن العزم على تنظيم الندوة في مختلف وسائل الإعلام الوطنية.

فلقيت الدعوة ولله الحمد استجابة مشكورة من لدن عدد كبير من الباحثين شرفونا اليوم بحضورهم ومساهماتهم العلمية التي مكنتنا من وضع البرنامج العلمي النهائي للندوة ويضم خمس جلسات لعرض زهاء 30 دراسة، 12 منها في محور التاريخ والمجتمع و 8 منها في محور الإنسان والمجال و 14 منها في محور اللغة والتراث والثقافة.

ونامل أن تؤتي هذه العروض ثمارها بما ستأتي به من جديد وبما تهدف إليه من فتح أبواب جديدة للبحث تحفز أبناء المنطقة ومجموع الباحثين على الاهتمام بدراسة ما تزخز به المنطقة من موارد طبيعية وبشرية وثقافية ومن تاريخ مجيد وتراث علمي اصيل.

ويشمل برنامج الندوة اضافة الى العروض العلمية فقرات اخرى لا تقل اهمية، وتشمل تنظيم معارض المخطوطات والوثائق والبحوث المتعلقة بالمنطقة ورسوم الاطفال واللوحات التشكيلية وكذا تنظيم رحلة دراسية الى مدينة سيدي افني، وهذه الفقرات من البرنامج تفتح مجالات اخرى للاهتمام بالمنطقة وتحفز الجميع على العمل من اجل تظافر الجهود لانقاد التراث العلمي المكتوب الذي تزخر به الخزائن الخاصة بالمنطقة لا سيما ان ظروف هذه الخزائن لا تمكن من المحافظة والعناية بالمخطوطات فضلا عن تيسير الاطلاع عليها وجعلها بين ايدي الباحثين رغم ان هذا التراث أمانة في عنق الجميع ودين ستحاسبنا عليه الاجيال القادمة اذا لم نتمكن من إنقاذه، وتوفير الظروف للعناية به وتوظيفه في النهضة العلمية ببلادنا.

نامل إذن أن تسفر هذه الندوة عما نتوخاه منها من نتائج إيجابية حاضرا

ومستقبلا حتى نؤدي جزءا من واجبنا العلمي والتاريخي، ونجدد الشكر في الختام لكل من تكلف مشكورا عناء المساهمة في تنظيم هذه الندوة وكل من تحمل مشاق السفر في هذا الحوار العلمي المفتوح. والله المستعان.

والســـــلام

محور التاريخ

تاريخ منطقة سوس من خلال الأرشيف الدبلوماسي بنانط (NANTES) : نموذج «مونوغرافية أهل تيزنيت» للقبطان دولابواسيير (De La Boissière)

جامع بيضا
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرباط

مقدمــة عامــة :

إذا كانت «مدرسة التاريخ الوطني» قد أولت اهتماما خاصا للوثيقة المخزنية كمصدر أساسي، شبه مقدس، في كتابة التاريخ المغربي، فعذرها يمكن في كونها برزت في فترة زمنية صادفت انحسار الهيمنة الاستعمارية عن البلاد وضرورة تأكيد الذات في ظل الإستقلال السياسي الفتي [1]. لكن، بعد مضي عقدين على تاريخ الإستقلال وانطلاق الجامعة المغربية، انكبت جهود الباحثين على التاريخ الإجتماعي الذي تتأتى كتابته بوضع مونوغرافيات جهوية تتوخى الدقة في معلوماتها استنادا على مصادر متنوعة وعلى علوم مساعدة، وتتحاشى الإسراع في المحاولات التنظيرية.

إن درب البحث المونوغرافي مازال طويلا، إذ لم يغط بعد كل مناطق البلاد ولا اعتنى بكل الحقب التاريخية والمواضيع الجديدة بالاهتمام. ولعل منطقة سوس من بين المناطق التي ما زالت لم تنل حظها، باستثناء بعض المحاولات الجدية القليلة [2]، من الدراسات المونوغرافية الضرورية لكتابة تاريخها. ولما كان التأليف التاريخي المونوغرافي لا يتعامل بازدراء مع الوثائق الأجنبية، كما هو الحال لدى «مدرسة التاريخ الوطني»، فإننا ارتأينا أن نخصص هذا العرض

---

1. حول هذا الموضوع، انظر : «الكتابة التاريخية خلال ثلاثين سنة (1956 ـ 1976) : ملاحظات عامة». في البحث في تاريخ المغرب : حصيلة وتقويم : نشر كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1989، ص. 17 ـ 27.
2. على رأس هذه المحاولات :
عمر أفا ـ مسألة النقود في تاريخ المغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822 ـ 1906) نشر كلية الآداب والعلوم الانسانية، أكادير، 1988، 479 ص.

المتواضع للكشف عن بعض ما يزخر به مركز الأرشيف الدبلوماسي بنانط من ملفات لا مناص منها عند كتابة تاريخ سوس عامة، بما فيها منطقة تيزنيت. ثم نقف على نموذج من التقارير المرفوعة إلى الإقامة العامة من طرف ضباط «الشؤون الأهلية». ويتعلق الأمر هنا بمونوغرافية أهل تيزنيت التي ألفها صاحبها سنة 1940.

1. ملفات مختلفة متعلقة بمنطقة تيزنيت :

لقد وعى ضباط ما كان يسمى بالشؤون الأهلية مبكرا الأهمية القصوى التي كان يكتسيها جمع كل أصناف المعلومات المتعلقة بالمجال الجغرافي وبالجماعات السكانية التي لهم بها صلة ما. ولما كانت القبيلة إطارا متحكما في تصرف الأفراد والجماعات، فإن المسؤولين عن الإرادة الإستعمارية أعاروها اهتماما خاصا لفهم حركيتها والوقوف على مواطن ضعفها وشدتها. فجندوا لها ملاحظين قاموا بوضع «بطاقات القبائل» (Fiches de tribus) ومذكرات (Notes ou notices) تتضمن أحيانا الحابل والنابل، لكنه بفضل تراكم أعدادها وتجديد مستمر لمعلوماتها، شكلت بالأمس وسيلة فعالة سخرتها السلطات الفرنسية لتحقيق أغراضها، وتشكل اليوم مصدرا غنيا بين أيدي الباحثين لا في حقل التاريخ فحسب، ولكن أيضا في مجالات أخرى علمية وأدبية.

ففي الأرشيف الدبلوماسي بنانط، وقفنا على عدد غير يسير من هذه البطاقات والمذكرات والتقارير، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- تقرير عام عن الوضعية السياسية بالجنوب المغربي وعن أحداث منطقة سوس فيما بين يوليوز 1914 ومارس 1915. وهو من وضع الضابط Alibert.
- بطاقة قبائل أهل تيزنيت، من إعداد De Bellemare في نونبر 1929.
- مذكرة حول قبيلة أملن (1929).
- أهل جزولة، من إعداد Justinard في ماي 1933. وصاحب هذا التقرير سبق له أن نشر كتابا عن تاشلحيت منذ عام 1914، ثم كلف بمهمة في تيزنيت بين 1916 و 1921، وكان بمثابة المستشار الخاص لنائب المخزن بسوس الحاج الطيب الكونتافي.

وعرف جوستنار لدى عامة الناس بالقبطان الشلح.

- مذكرة حول الأطلس الصغير، لنفس الضابط، 1933.
- مملكة تازروالت : سيدي أحمد أوموسى وورثته بالجنوب المغربي، لصاحبه الضابط Biard (ماي 1937).
- بطاقة قبيلة أهل تيزنيت، من إعداد الضابط Charles Dominique في مارس 1953.
- مونوغرافية أهل تيزنيت، من تأليف دولابواسيير سنة 1940. وهذا العمل هو الذي ارتأينا أن نقدمه في مايلي كنموذج يبرز ما يمكن أن يستشف في الأرشيف الدبلوماسي بنانط من معلومات قيمة جديرة بالإستغلال - طبعا بالحذر المنهجي المناسب - في كتابة تاريخ هذه المنطقة.

2. مونوغرافية أهل تيزنيت :

انتهى دولابواسيير، وهو أحد ضباط الشؤون الأهلية، من وضع هذه المونوغرافية بتاريخ 10 مارس 1940. وهي تحتوي على 65 صفحة مرقونة، تتصدرها صورة باشا تيزنيت آنذاك : الفطمي بن أحمد بن البشير. ومعلوم أن هذا الأخير من مواليد الرحامنة سنة 1901، درس في ثانوية مولاي يوسف بالرباط، ثم اشتغل خليفة لأبيه باشا تيزنيت [3]، أحمد بن البشير، قبل أن يصبح بدوره صاحب هذا المنصب بموجب ظهير صادر في 24 يونيو 1934.

قسم المؤلف عمله إلى ثمانية أبواب، ذيلها بثمان ملاحق. سنتجاوز هذا التقسيم نحاول أن نوجز محتوى المونوغرافية في قسمين اثنين :

- المعطيات الطبيعية
- المعطيات البشرية

1.2. المعطيات الطبيعية :

اهتم دولابرواسيير بجيولوجية وجغرافية منطقة تيزنيت، فوصف تضاريسها ومناخها وغطاءها النباتي ومصادر مياهها من أمطار ووديان وعيون وآبار

— Cf. BROCHIER - Livre d'o. du Maroc. Dictionnaire des personnalités passées et 3 contemporaines du Maroc ; Casablanca, 1934, p. 62.

ونطفيات. ونظرا لما كانت تشكله المياه من حاجة حيوية بهذه الجهة شبه الصحراوية. فقد انتبه الكاتب إلى ما كان لشحة الماء من تأثير على العلاقات بين المجموعات السكانية. فأورد روايات شفوية في هذا الصدد تبين ما كان لتقسيم المياه من تعكير صفو العلاقات بين أهل تيزنيت وجيرانهم، خاصة أولاد جرار المتحكمين في عين الركادة.

في إطار اهتمامه بالماء كمحرك تاريخي فعال بالمنطقة، اعتنى الكاتب بوضع جداول دقيقة تبرز بالأرقام عدد آبار الدواوير ونطفياتها وعيونها. كما رسم جداول للتساقطات المطرية وأحوال الطقس للفترة الممتدة بين يوليوز 1938 ويونيو 1939.

ولما كان للمياه دورها الطبيعي على حالة الماشية والمحاصيل الفلاحية، فإن الكاتب ارتأى أن يضبط أعداد رؤوس الماشية وأنواعها (لسنوات 1937، 1938 و 1939) ويذكر أنواع المحاصيل الفلاحية وكمياتها، بل وأثمانها أحيانا.

وبالرغم من تواضع المصادر المائية بناحية تيزنيت، فإن المؤلف لاحظ أن لها مؤهلات لا بأس بها في إنتاج بعض البواكر والزيتون واللوز. بل يرى أنه من المكن إدخال مزروعات جديدة إلى المنطقة، كما دلت على ذلك تجربة القطن عام 1939. ويقول في هذا الصدد :

«En 1939, un essai de culture expérimentale de coton a permis de réaliser en sept irrigations seulement un rendement supérieur à 1500 kgs de coton brut à l'hectare. Le produit récolté donne de belles fibres de 30 mm, la proportion de grains étant de 67%»

طبعا، إن دولابواسيير، من موقع مسؤوليته كضابط في جهاز الشؤون الأهلية، كان يقتبس معلوماته الدقيقة هذه من مصالح كانت تتمتع بكل الوسائل الكفيلة بتوفيرها. وغني عن البيان أنها معطيات ذات أهمية قصوى قلما جادت بمثيلها مصادرنا المحلية.

2.2. المعطيــات البشريــة :

1.2.2. موجز تاريخي : الظاهر أن المؤلف لم يجد ما يسعفه للتوغل كثيرا في تاريخ أهل تيزنيت. فاكتفى بتسطير موجز للتحولات التي شهدتها البلاد ابتداء من حركة السلطان المولى الحسن سنة 1882 والتي على إثرها تم تجميع قرى أيت محمد واد زكري واد ضلحا واد أواكفا في إطار مركز واحد محاط بسور تم تشييده بين 1883 و 1885. وكان الهدف من ذلك، حسب رأيه، هو خلق مركز مخزني تناط به مهمة ضبط قبائل المنطقة، خاصة منها الموالية لتازروالت. ويمكن أن نضيف إلى ذلك كون المخزن كان يتوق أيضا إلى صد تطلعات بعض التجار الأوروبيين، خاصة الإنجليز، إلى سواحل الجنوب في أيت باعمران والصحراء.

بعد هذه المحطة، انتقل دولابواسيير إلى الدور الذي لعبته المدينة ابتداء من 1909 عندما احتضنت الشيخ ماء العينين وأتباعه القادمين من سمارة فرارا من الزحف الفرنسي. فقد تحولت تيزنيت إلى قاعدة للمقاومة ضد الاستعمار، وهو دور استمر حتى بعد وفاة ماء العينين سنة 1910 إذ منها انطلق ابنه أحمد الهيبة زاحفا نحو الشمال حتى انكسرت شوكته بسيدي بوعثمان في شتنبر 1912. إذ ذاك رجعت تيزنيت إلى سابق عهدها، أي إلى مركز مخزني حملت دلالات أخرى منذ متم مارس 1912.

2.2.2. النشاط التجاري والهجرة :

ركز دولابواسيير على الدور التجاري المنوط بالمدينة كملتقى يستقطب منتجات أزغار والأطلس الصغير. ولاحظ أن هذه الوظيفة استمرار للدور التقليدي الذي لعبته المنطقة كنقطة عبور للقوافل الرابطة بين الصحراء والصويرة شمالا. وهذا النشاط التجاري هو الذي يفسر كون تيزنيت تضم بين ظهرانيها مجموعة يهودية نشيطة قدر عددها في بداية 1940 ب 350 نسمة، يترأسها شيخها يعقوب كوهن.

لكن، لا التجارة ولا الفلاحة استطاعتا أن تضمنا العيش الرغيد للسكان الذين تتزايد أعدادهم سنة بعد سنة. لذا، فأبناء هذه الجهة شدوا مبكرا الرحال إلى ديار الهجرة سواء داخل المغرب أو خارجه. وقد أعطى الكاتب في هذا

الموضوع أرقاما مدققة عن حركة الهجرة إلى فرنسا والجزائر وتونس ؛ وهي تهم بالخصوص أيت محمد وإدزكري وإد ضلحا واد أوكفا ودوتوركا وأتبان وتادوارت والعوينة، كما أحصى المبالغ المالية التي بعث بها المهاجرون بواسطة الحوالات البريدية إلى ذويهم في الفترة ما بين 22 نونبر 1939 و 22 فبراير 1940. ومعلوم أن ظاهرة هجرة السوسيين عامة، وأهل ناحية تيزنيت خاصة، سبق وأن لفتت انتباه جوستينار الذي خصص لها دراسة منذ 1929.

3.2.2. التنظيم الإداري والقضائي :

فيما يتعلق بالقضاء، لاحظ المؤلف أن سكان تيزنيت، بالرغم من كون غالبيتهم أمازيغ، فهم يحتكمون إلى الشرع، على الأقل منذ تنصيب المدينة كمركز مخزني. إلا أن القاضي المكلف بإصدار الأحكام، وهو عادة من أبناء المنطقة، يأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات المحلية فتكون أحكامه توفيقا بين الشرع والعرف، الشيء الذي يستحسنه المحتكمون إليه كل الاستحسان. وعن عرف أهل البلد، يشير دولابواسيير إلى وجود نسخة منه بحوزة المدعو محمد بن بوجمعة، وهو يتشكل من حوالي عشرون صفحة محررة بالعربية. وقد كانت المصالح الفرنسية آنذاك معتكفة على ترجمتها حتى يضمها دولابواسيير إلى ملاحق مونوغرافيته، غير أننا لم نوفق في العثور عليها.

4.2.2. الحيـاة الدينيـة والثقافيـة :

أعار الكاتب اهتماما خاصا لنشاط الزوايا، فحصر تلك التي لها نفوذ لدى التزنيتيين في ثلاثة : الزاوية التجانية والزاوية الدرقاوية والزاوية الناصرية.

* **فيما يخص الزاوية التجانية**، ذكر المؤلف أن مقرها الموجود بإد زكري قد تم بناؤه حوالي 1320 هـ/1902 – 1903م من طرف سيدي الحاج الحسين الإفراني ؛ وكان عدد أتباعها حوالي مائتي شخص، من بينهم بعض الأعيان أمثال الباشا فطمي بن البشير والشيخ الحسين ندوقشوش. ونظرا لما كان للزاوية من إشعاع، فإن مقرها بتيزنيت يستقبل أحيانا شخصيات تجانية مرموقة قادمة أطراف أخرى من المغرب، بل ومن الجزائر.

* الزاويـة الدرقاويـة بإدضلحا :

تم تأسيسها عام 1325 هـ/1907 – 1908م من طرف الشيخ الحاج علي الدرقاوي. أما عدد «الفقراء» النشيطين في رحابها فيقدرون بحوالي الستين، أبرزهم قاضي المدينة محمد أوعمو. وجرت العادة أن تنظم في منتصف غشت من كل سنة زيارة إلى الزاوية الدرقاوية الأم بإيليغ حيث يقام «معروف».

* الزاويـة الناصريـة بأيـت محمـد :

تأسست سنة 1337 هـ/1918 – 1919 م من طرف سيدي عبد السلام الناصري الذي كان إبان تأليف هذه المونوغرافية شيخا لزاوية تامكروت بدرعة. أما عدد «فقرائها» المحليين فهم 200، غير أن العدد قد يصل إلى 800 أو 900 بمناسبة «المعروف» السنوي الذي يقام بضريح سيدي أحمد أوموسى بتازروالت في منتصف شهر شعبان والذي يستقطب أتباعا من أكلو والمعدر وأولاد جرار وإرسموكن وماسة.

في إطار النشاط الديني – الثقافي للسكان، لم يهمل ما كان للأضرحة من دور في الحياة اليومية. فقد أحصى منها دولابواسيير 15 تغطي تيزنيت والعوينة وأتبان. غير أن أهمها من حيث الإشعاع لدى أهل تيزنيت لا تربو على ثلاثة، وهي :

– ضريح سيدي عبد الرحمن : وهو أحد تلامذة سيدي أحمد أوموسى، لذا فالاحتفال السنوي به يتزامن مع موسم تازروالت.
– ضريح سيدي بوجبارة : صاحب المزار هو أيضا من تلامذة سيدي أحمد أوموسى، لذا تخلد ذكراه أيضا أيام موسم تازروالت.

– ضريح الشيخ ماء العينين : بعد أن وافت المنية الشيخ ماء العينين بتيزنيت في أواخر 1910، تحول قبره إلى ضريح فأقيم حوله موسم احتفالي عام 1912، غير أنه لم يسمح بتجديد تلك التظاهرة في ظل الاستعمار الفرنسي نظرا لموقف أحمد الهيبة المناهض للاحتلال.

خاتمة :

هذا جزء يسير اختزلناه من مونوغرافية دولابواسيير التي تعطي أحيانا معلومات جديدة وتقتصر أحيانا أخرى على طرح قضايا كفيلة بإثارة فضول الباحث. إن عرضها كنموذج لما يزخر به أرشيف نانط ما هو إلا وسيلة لتسليط الضوء على رصيد مهم لم يستغل بعد في كتابة تاريخ منطقة تيزنيت. أجل، إنه من وضع موظفين وضباط استعماريين لا تخلو نظرتهم من السلبية والتشويه المقصود لبعض الحقائق. لكن ذلك لا ينقص أبدا من قيمتها كمادة تاريخية خام قابلة للتحليل من طرف الباحث المتسلح بالحذر المنهجي المطلوب في مثل هذه الحالات.

إن ما يتعلق بماضينا في أرشيف نانط أو غيره من الأرشيفات الأجنبية هو جزء من تراثنا لا يجوز البتة أن نغض الطرف عنه. بل حبذا لو تظافرت جهود المسؤولين المحليين والجمعيات الثقافية الجهوية والمؤسسة الجامعية ذات الاختصاص للعمل بجد على استرداد هذا الرصيد الوثائقي، بواسطة التصوير، وجعله في متناول الباحثين الغيورين على كتابة التاريخ الجهوي كإسهام منهم في تأليف التاريخ الوطني.

جوانب من تاريخ تزنيت
أطوار تعمير المنطقة وأصول السكان

أحمد بومزكو
باحث-تزنيت

إذا تتبعنا الأحداث التي عرفتها منطقة سوس قبل 1882، كما استقيناها من المصادر، ندرك غياب أخبار تزنيت ومحيطها. لذا نسجل بكل امتعاض حالة شادة في السياق الزمني لتطور المنطقة.

★ ما قبل 1882، حيث تكونت التشكيلات القبلية المستقرة بالأزغار، وتوالت أحداث تاريخية كان لها كبير الأثر على مستقبل تزنيت. ورغم شح المصادر في تناول هذه الفترة، فالرجوع إلى الوثائق المحلية والروايات الشفوية تبرز شذرات مختلفة من المعلومات. غير أن تصنيفها وتحليلها يحتاج إلى إطار منهجي ملائم.

ما بعد 1882، حيث ترد إشارات مختصرة وإن كانت غير كاملة. ويبدو ان المكانة التي حظيت بها بلدة تزنيت بعد رحلة الحسن الأول إلى سوس قد غطى على الفترة السابقة :

فالنقص الحاصل في المصادر حال دون رسم إطار تسلسلي من حيث الزمن لهذه المرحلة الطويلة، التي تكونت فيها المجموعة التي تحمل اسم ايت تزنيت، وتحدد مسار البلدة. وهذه مساهمة بسيطة في سبيل استجلاء خصوصيات هذه الفترة الغامضة من تاريخ تزنيت عبر رصد حركية القبائل وأصولها وميكانزمات إستقرارها.

1. مراحل تعمير الأزغار : بعض الملاحظات الأولية :

كيف ومتى تم الاستقرار ببسيط (أزغار) تزنيت ؟ إن الاجابة عن هذين السؤالين بدقة ليس بالبساطة التي مكن ان نتصورها، سيما وأن ما هو متداول

من أخبار عن ماضي قبيلة أيت تزنيت لا يسمح بتحديد تاريخ إنشاء هذا التجمع. هكذا وجهلا بالتفاصيل والظروف، سنحاول استجلاء فكرة التعمير والتأسيس بتقديم مجموعة من الاجتهادات. ويمكننا تبعا لذلك إلقاء نظرة عامة تستعيد الأحداث التي رافقت هذا التأسيس :

– مما لا شك فيه ان استقصاء ميكانيزمات الحركة القبلية داخل المجال السوسي يحتم تجميع الاشارات والمعلومات المتضمنة في المصادر المكتوبة وعقود الأنساب والروايات الشفوية. إذ أن الروايات غالبا ما ترجح أصول عدد من القبائل السوسية إلى حادثة تدمير مدينة تامدولت واقا [1]، وهذا المعطى مهما كان جزئيا ومحدودا، فإنه يستوقفنا أمام ظاهرة انتساب مجموعة من القبائل إلى المدينة وانبثاق «الأحلاف» بالجنوب المغربي. إلا أننا نشك أن يكون الحضور القبلي مرتبطا. إذ أن التشكيلات القبلية تكونت في عصور غامضة، وتعقدت بنياتها التنظيمية عبر القرون.

– إن الحديث عن تزنيت يستدعي الرجوع إلى بدايات الاستقرار كمهد لنشأة القبيلة الذي يحمل نفس الاسم. للاشارة فقد شكل الأزغار إطارا لتنامي هجرات بشرية قديمة، إما بورود جماعات من المرتفعات للانتجاع أو بحثا عن مجالات للاستغلال تحت ضغط ظروف مختلفة. وذلك اعتبارا لسهولة التنقل داخله كممر طبيعي ثم لوفرة سبل العيش [الأراضي الزراعية، المراعي، العيون المائية ...] إلى جانب تواجده في موقع يشكل محور العلاقات التجارية بين منطقة وادي نون إلى الجنوب وبين مجالات أخرى شمال وادي والغاس، وعلى الرغم من توفر المعطيات التاريخية الدقيقة حول طبيعة التعمير، فإنه لا يخامر شك في أن المعطيات السابقة كانت حافزا أمام الرعاة الرحالة والمجموعات الأخرى، التي وجدت بالمنطقة مجالا حيويا تسعى لملئه، للبحث عن دوافع حقيقية تكون إطارا لاستقرارها ومن ثم حافزا أمام تقارب المصالح، كونت في نهاية المطاف نسيجا من التجمعات القبلية التي تستند في إطار علاقاتها إلى روابط تختلف من تجمع لآخر.

---

1. محمد المختار السوسي : الالغيات، 1963، ص : 166–169.

— Justinard (L) : Un Petit Royaume Berbère : le Tazeroualt. I.H.E.M. Paris 1954, PP. 180-186

— J.D. Meunié : le Maroc Saharien des origines à 1670.

Klincksieck, Paris 1982, T1 P :77

إن من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ محدد لبداية تجمع «أيت تزنيت»، فالاسم لم يرد في المصادر الوسيطية وكتب الرحالة، حتى الحسن الوزان لم يذكرها في وصفه لحواضر وقرى سوس [2]. ومهما يكن من أمر فإن سهل الأزغار لم يكن في وقت من الأوقات فارغا [3] وان هناك تجمعات سابقة لاستقرار «أيت تزنيت»، إلا أن أخبارها لم تصلنا بسبب الأحداث السريعة التي شهدتها منطقة سوس على عهد المرينيين [4].

- أصبحت المنطقة تعرف حركة قبلية غير عادية خلال الفترة المرينية بسبب التحرك الكثيف للقبائل المعقلية [5]. مما أفضى إلى تغيير جذري في البنية القبلية بسوس. حيث دخلت العناصر الجديدة في نزاعات ترابية مع كيانات قديمة الاستقرار، أعطت في نهاية المطاف الهيمنة للوحدات المعقلية، وأصبحت لها الريادة في المنطقة [6]. ومع تزايد الأعراب الوافدين اضطرت القبائل السهلية التي تغير مجال استقرارها والاحتماء بمرتفعات الأطلس تاركة فراغا مجاليا استأثرت به القبائل المعقلية خاصة : الشبانات، أولاد جرار، الزرارة ... كما أصبحت بعض الوحدات المتبقية مطالبة بالاندماج في الاطار الجديد، حيث أجبرت أمام قبائل أقوى منها على دفع الاثاوات [7]. ولم تكتف القبائل الاعرابية بترسيخ تواجدها بالمنطقة السهلية، وإنما تعاونت مع البرتغاليين المستقرين على طول الساحة الأطنتي، في شن الغارات على القرى والمداشر [8]، وحوصر السكان بشكل كبير في مجال جغرافي مرتفع مع

---

2. حسن الوزان : وصف افريقيا، تعريب محمد حجي ومحمد الأخضر، الرباط 1983.
بينما ترد إشارات إلى أهمية مرسى أكلوا في المعاملات التجارية مع الخارج خلال الفترة السابقة لرحلة م. الرسيد لسوس.

— Mouette : Histoire des conquétes de Mouley Archy. Paris, 1963, P : 110.

3. تشير الروايات إلى أن الجزء الغربي من البسيط كان موطن قبيلة إيدا وبعقيل، والغالب على الظن أنها قديمة العهد بالمنطقة.
4. ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر بيروت، 1971. ج 6 : 138.
5. المختار السوسي : خلال جزولة، تطوان، 1966 ج 2 : 168.
المرادي عبد الحميد : لمحات من تاريخ سوس (نسخة خاصة) : 32625.
6. المختار السوسي : المرجع السابق.
7. المختار السوسي : المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1963 ج 19 : 148.
8. المرادي : لمحات من تاريخ سوس، ص : 90.
علي صدقي : قراءة في كتاب مذكرات حول بناء وسقوط حصن سانتكروز لمجهول. ضمن أعمال ندوة أكادير الكبرى، 1990. ص : 114.

امكانيات محدودة [9].

ـ لما بدأت الدولة السعدية ترسخ تواجدها بالمنطقة، اعتمادا على القبائل الجزولية، بدأت مرحلة جديدة من العلاقات بين القبائل من جهة وبينها وبين الدولة الجديدة من جهة ثانية :

أ) تعتبر انتكاسة البرتغاليين بداية لافول القوة الاعرابية بالمنطقة، حيث تكسرت شوكتها، وتم إجلائها عن الأراضي التي استولت عليها من قبل، وانحسرت في مجالات محدودة [10].

ب) من جهة ثانية، كانت القبائل الجزولية سباقة إلى دعم الحركة السعدية، بعد أن استضعفت من طرف الضغط البرتغالي وحلفائهم من الأعراب، وهي مناسبة أمام السكان من جبال الأطلس الصغير وسفوح الأطلس الكبير للعودة إلى مستقراتهم القديمة (تجديد الاستقرار) بالسهل وخاصة الجزء الجنوبي منه [11]. «واعتبرت الدولة أن أرض سوس عنى حكم بيت المال وباعت بقاعا لمن يريد شرائها» [12]. وتتجلى الصورة الحقيقية لما بعد استتباب الأمن بالمنطقة فيما أورده السكتاني [13]، حيث تتراءى لنا ملامح تعمير سهل سوس، حيث انصرفت القبائل إلى استغلال أراضي الأزغار : (زراعة الحقول واحياء عيونها، حفر الآبار، الغراسة، التجارة ...) وهي معلومات تفيد أن المنطقة بدأت تعرف استقرارا متميزا، وبدا مستقريها أكثر ارتباطا بالأرض، ومن غير المستبعد أن يكون تجديد الاستقرار بالأزغار هو الذي أفضى إلى التركيبة القبلية كما وردت في «ديوان قبائل سوس» [14] أولى الاشارات إلى تزنيت وبقية المجموعات الأخرى في هذه الفترة بالذات.

---

9. لم تقتصر قبيلة أولاد جرار على مراقبة مجالها السهلي، وإنما وصل نفوذها حتى حدود تومنار، أفا أوزور، حيث حاصرت قبيلة إيدا وبعقيل، كما استأثرت بحوض ويجان مدة من الزمن.
ـ كناشة الحسين بن مسعود الوجاني (نسخة خاصة).
— Paul Pascon et autres : la maison d'Jligh et l'histoire sociale du Tazeroualt. Rabat, 1984, P : 24.
10. خلال جزولة 2 : 168.
11. المرادي : م.س. : 32.
12. نفســه.
13. أجوبة السكتاني (مخطوط).
14. الحساني ابراهيم بن علي : ديوان قبائل سوس في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي. تح. عمر أفا، مجلة دراسات (كلية الآداب والعلوم الانسانية أكادير) 1987.

غير أن الأمور سرعان ما تغيرت في نهاية الدولة السعدية، إذ أصبحت المنطقة مسرحا لاضطرابات سياسية، وانعدم الاستقرار، وتوزعت القبائل بين الولاء لأبي زكرياء الحاحي أو لأبي حسون السملالي [15]، ولما تيسرت الأمور لهذا الأخير في اخضاع الجنوب المغربي، كان الاستقرار بالأزغار مرهونا بمدى تبعية القبائل لأبي حسون، الذي عمل على تثبيت معطيات تكون لصالحه (إمتلاك الأراضي والعيون) ومما يتضح من خلال خريطة ممتلكات إيليغ من الأراضي العيون المائية في منطقة الأزغار [16]، أن تزنيت تستأثر بالنصيب الأكبر ب 32303 مثقال ما بين 1623 ـ 1659. ويمكن التساؤل عن أسباب هذه الظاهرة، هل ارتبط تكونها بالهبات التقليدية التي تقدم إلى تازروالت ؟ أم أن الأمير حصل عليها بالقوة أو عن طريق المعاملات التجارية ؟ إن ما يمكن استنتاجه من خلال استقرائنا للوثائق والعقود الشخصية، وما تتضمنه الروايات الشفوية، أن منطقة الأزغار شكلت حيزا مجاليا من اهتمامات أبي حسون. وترد إشارات حول حرصه على توطين مجموعات بشرية في مجالات مختارة داخل السهل (دوتركا [17]، إيغبولا، سيدي داوود ...) والزيادة في مساهماته من حيث الأراضي وحصص مياه السقي في سواقي (تزنيت، أكلو، العوينة، بونعمان ...) [18] إلى جانب مسعاه للتضييق على قبيلة أولاد جرار، وحصرها في المجالات التي تشغلها حاليا، عبر ارغامها على بيع ممتلكاتها بتومنار، ويجان، والمرتفعات المطلة على إيليغ.

2. حول معنى إسم تزنيت :

2.1. الرواية المتداولة حول تزنيت :

يكتنف أصل ومدلول كلمة تزنيت كثير من الغموض، وما نتوفر عليه لمقاربة الأصل وصلنا على شكل رواية [20]. وليس هناك أدنى شك من أن رواية

15. خلال جزولة 2 : 168.
16. — Paul Pascon : op-cit : 24
17. نتوفر على عقد بيع أراضي دوتركا لمرابطي تازروالت مؤرخ بتاريخ 1651/1062.
18. ديوان أبو حسون السملالي (نسخة مصورة من خزانة النجاري أبو دميعة).
19. — Paul Pascon : bid
20. أورد المرحوم المختار السوسي نص الرواية، وهي من نقل الفقير محمد واعزيز التزنيتي من ديوان قبائل سوس، وقد قدم في هذا الاطار مجموعة من الملاحظات تسير في اتجاه التأكيد على زيف الرواية وعدم صحتها من الوجهة التاريخية.

راجع : ديوان قبائل سوس (مخطوط خاص)

خلال جزولة 2 : 189

أخرى عرفت شهرة مثلما عرفته هذه الرواية، تتضح ملامح شيوع نفس الرواية في ورودها ضمن الكتابات الأجنبية التي تناولت تزنيت [21]. ضمن هذا المضمون العام للرواية التي تبحث عن التسمية الأصل، تطرح عدة ملاحظات منهجية تنصب كلها في إطار إبراز أهمية وفعالية القصص التاريخي في رصد وتحديد حقائق وأحداث تاريخية غابرة :

ـ للاشارة فقد أضفت الرواية على لحظة التأسيس لونا قصصيا مثيرا وعجيبا سجلتها مخيلة السكان، وهي على هذا الأساس لم تخرج عما هو مألوف في الروايات المشابهة لها، من حيث كونها تحاول إرجاع أصل التسمية إلى شخصية لانعرف إن كانت حقيقية أو أسطورية [22]. فقد اختلطت دائما محاولات الانسان السوسي لتسجيل ماضيه الغابر بالصياغات الأسطورية. بناءا على ذلك نسجل انطلاق التأسيس من مجرد حادث بسيط (اكتشاف العين) لكن تسجل معها أفعالا ليست من قبيل الفعل الانساني، وإنما من فعل بعض الحيوانات التي غالبا ما تعثر على أشكال نفيسة أو تقود أصحابها إلى أماكن معينة ذات امتياز وذلك عن طريق الصدفة [23]. تنطبق هذه اللحظات على عدة مناطق أخرى، حيث تتكرر نفس الروايات التي تحاول إرجاع أصول القبائل وبواعث استقرارها وكذا أسمائها إلى حوادث غريبة.

ـ يبدو أن ظهور هذه الرواية هي محاولة للاجابة عن السؤال المحير حول ظهور تأسيس تزنيت وأصل تسميتها، قد يزعم البعض أن محتويات هذه الرواية تتضمن أخبارا خرافية وأسطورية، ولا تستند إلى وقائع تاريخية موثوقة هذا

---

21. راجع على سبيل المثال :

— Bicard (P) : les guides bleus : le Maroc 7 ed 1950, PP : 218-219

— Bordeaux (H) : le visage du Maroc. éd. Golbert 1964, P : 161

— Dugard (H) : La Colonne du Sous 1917. Paris 1918, PP : 101, 112

— Guibert (4) : l'Histoire d'une ville : Tiznit. 1979, P : 70.

— «Le Sud Marocain» Renseignement coloniaux Mai et Juin 1917, P : 132.

22. ليس هناك أدنى دليل مادي يؤكد هذه الواقعة، إذ لا نجد سوى قبر ينسب إلى بطلة الرواية بمسجد إيداكفا كما يقال.

23. كما هو الشأن بالنسبة لعين أولاد جرار (عين حسون) وعين تيكاك.

ـ الاكراري : روضة الافنان في وفيات الأعيان. تح. حمدي أنوش، بحث لنيل د.د.ع. الرباط 1989. ص : 37.

— Paul Pascon : op. cit P : 29

حكم خاطئ، لأن أشباه هذه الروايات ولأسباب كثيرة، لم تحفظ بشكل جيد، وإن كانت في الأصل تحاول ترقيع النقص في ذاكرة الانسان المحدودة [24]. لذا يجب أن تميز في إطار الرواية بين ما يسمى بقاعدة أو محور الرواية (اكتشاف العين) بين ما يحيل على وقائع تاريخية (اسم تزنيت، النواة الأصلية للقرية)، وربما تكون الرواية أفيد تاريخيا لو تعرفنا على السياق التاريخي لتأليفها، لأنها لا توضع جزافا ولا تؤلف إلا على أساس دواعي مصرحة أو مضمورة لها صلة بما هو متداول شفويا حول الأصل المزعوم لتزنيت، وإذا كانت الرواية لا تقدم أي تفسير أو توضيح لهجرة شخصية الحكاية، والأسباب التي دفعتها لاختيار ذلك المكان دون غيره، فإنها تقدمها في صورة شخصية زانية، ذات جمال بارع وثروة كبيرة، بمعنى شخصية مغمورة داخل الجماعة.

ـ نتحفظ من أخذ هذه الرواية كأساس للحكم بأن بداية تزنيت، كان مجرد صدفة أو الهام أو عز إلى سيدة حديثة العهد بالاسلام، بالاستقرار في المنطقة، كما تتحدث عن تنبوءات «السيدة» من منظور ما تحقق بتزنيت (الانتعاش الديني، شيوع ظواهر لا أخلاقية عندما تحولت إلى بلدة مستقطبة لعناصر بشرية مختلفة من المناطق المجاورة). في هذا الاطار يبدو أن مؤلفها قد أخذ بعين الاعتبار، في سياق حديثه عن نواة تأسيس تزنيت، التحول الذي عرفته البلدة في عهده، أي أنه تعدى الموضوع الأصلي، ليستحضر مجموعة من الظواهر الدينية والاجتماعية المرتبطة بعصره، والحديث عن الماضي بواسطة ما حصل في الحاضر نوع من التجاوز التاريخي.

ـ إن قراءة الرواية، مهما اختلفت درجة ارتباطها بالواقع أو مفارقتها له، من شأنها أن تساعدنا على فهم أفضل للتصور الذي كان أعداء تزنيت ينظرون من خلاله إلى أصل ومدلول كلمة تزنيت فعادة ما يتم توظيف أو تكييف مثل هذه الروايات لأغراض أو لمصالح معينة في إطار الصراعات القبلية إذ توظف جميع أشكال المواجهة خاصة ما يتعلق بالتهاجي، عبر استهداف رمز الوحدة داخل القبيلة وهو الأصل. تتوخى الرواية إذن إقامة علاقة معينة بين إسم تزنيت وشخصية دنيئة، ويتم تقديمها انطلاقا من خلفيات مسبقة، لأن مضمونها تم

24. قاسم عبده قاسم : تطور مناهج البحث في الدراسات التاريخية. مجلة علم الفكر، المجلد 20، عدد 1. 1989. ص : 171.

استثماره اعتبارا لبواعث شخصية أو قبيلة غير واضحة، على ضوء ذلك قرأ أصل تزنيت قراءة سلبية.

فالرواية بهذه الصيغة لا يمكنها إلا أن تنال امتعاض التزنيتيين. ومهما يكن فهذه الاعتبارات كافية لتبرير تحفظنا من هذه الرواية. وإن كان ذلك لا يمنع من قراءتها قراءة ثانية لابراز مستويات الاستفادة من مضمونها. فهي تسمح بإدراك علاقة الاستقرار الأولي بعنصر الماء والموقع المتميز، فمن المعلوم أن سكان المنطقة غالبا ما يواجهون محيطا أكثر غدائية من محيطنا الحالي، وتطرح مشاكل : الماء، الأرض، المراعي ... لهذا لا يستبعد أن تكون الرواية ترديدا أو صدى لمثل هذه الانشغالات، فقيمتها لا تعوض عندما يتعلق الأمر بتحديد الاطار الجغرافي الذي تأسست فيه البلدة (قاعا صفصفا، أراضي بيضاء صحراء) نوع النباتات السائدة (انكرف، أزاض، أزكار ...) وهي معلومات توحي إلى بيئة ومناخ المناطق الجافة.

كانت هذه أهم الملاحظات التي تسمح الرواية المتداولة حول أصل تزنيت ببلورتها وتوضيحها، ولاشك أنها تثير أكثر من إشكال، وتغذي آفات البحث وقراءة الماضي قراءة جديدة، ومن خلالها ندرك مدى الغموض الذي يكتنف أصل الكلمة، غير أن تحقيق وتمحيص ما هو متداول من الروايات، يمكننا من استقراء خلفيات التصورات المحتملة لهذا التأسيس، وبالتالي الوصول إلى خلاصات أولية، وأخيرا ندرك أنه لابد من التوسع في البحث عن المدلول الحقيقي لكلمة تزنيت، وهذا العمل يستوجب تضافر مجهود متكامل من ذوي التخصصات المختلفة.

2.2. المدلول الطوبونيمي لكلمة تزنيت :

ظهرت في هذا الصدد محاولات واجتهادات كثيرة، ليس بينها أدنى اتفاق تستند إلى مدلول الكلمة في التداول المحلي منها :

- تيزنيت : وتعني حبة كذا أو نواة التمار.
- تيزنيت : المخرف أو السلة الصغيرة.
- تزنيت : التبكم.

ـ تاسنيت (24 م) : الحداد.
ـ تسنيت : الآلة التي تغزل فيها مادة الصوف.
ـ تسي نيط : صخرة منبع العين.
ـ طيزي نيط : عين يشبه محلبة البقرة.
ـ تسنيت (25) : وهي نوع من الحلي على شكل تاج تتزين به النساء، فهذا الافتراض ينبني على أساس شيوع هذا النوع من الحلي بالمنطقة، ويرتبط بمهارات سكان طارئين عليها من جبال إيداولتيت.

وإذا استعرضنا أسماء الأماكن المشابهة لكلمة تزنيت في المجال السوسي عثرنا على إسمين هما : تزنيت ومازر، ثلاث نتزنيت بأراضي قبيلة إيدا و بعقيل (26).

3. أصول قبائل أيت تزنيت :

يحيل اسم «أيت تزنيت» إلى مجموعة قبلية متميزة، تستوطن الجزء الجنوبي الغربي من سهل سوس غير بعيد عن المحيط 20 كلم)، تحده مرتفعات الأطلس الصغير في الجنوب والشرق، بينما تبقى جهاته الشمالية منفتحة على سهل هشتوكة. ويعتبر مجال استقرار القبيلة نقطة وصل بين سكان الجبال وسهل الازغار ويبدو أن مجاورة تزنيت لمرتفعات الأطلس الصغير من المميزات التي جعلت المنطقة تكسب مكانتها الاشعاعية، حيث أن هذه الجبال كانت دائما المصدر الأساسي من حيث السكان والموارد الاقتصادية.

إن تسمية «أيت تزنيت» لا تتعدى كونها تشير إلى انتظام المجموعات البشرية التي تستقر في شكل وحدات متجانسة معماريا حول بلدة تزنيت (انظر الخريطة)، وهذه المجموعات، رغم أصولها المتباينة، فإنها تحمل إسما مشتركا في شكل نسق يجسد علاقاتها المتداخلة.

---

24. مكرر ـ محمد شفيق : المعجم العربي الأمازيغي، طبعة 19، ج. 1 : 177، 178، 245، 253، 318.
25. وردت الكلمة بهذه الصيغة في عقد بيع دوتركا.
26. تتجلى خيوط الربط فيما تناقلته الروايات الشفاهية من أن سكان تزنيت ومازر، يتوفرون على أماكن خاصة ومعلومة بالازغار تسمى إكرار (العزيب أو الجموز) وهي عبارة عن أماكن تكون مجالا للاستغلال الجماعي في أوقات معينة من السنة خاصة للرعي وتربية النحل، وكانت منطقة تزنيت من نصيب تزنيت ومازر إلى أن تم اكتشاف العين، أنذاك بدأت أفول منهم تستقر بالتدريج، فتكونت النواة الأولى للبلدة، لهذا تسمى ذلك المكان باسم تزنيت الموطن الأصلي للعناصر الأولى المستقرة.

للاشارة تعتبر المنطقة مستقرا ومكانا مناسبا لجماعات أساسها العناصر الوافدة إليها من الجنوب والشرق، والذين ضاقت بهم سبل العيش تحت تأثير الصراعات المحلية، الأزمات الطبيعية ... لذا غذت جبال الأطلس الصغير، وخلال فترات زمنية طويلة، خزانا بشريا ومزودا رئيسيا للازغار. نحن هنا أمام أفواج بشرية نزلت من المرتفعات إلى السهل إما انتجاعا للمراعي وإما غزوا وامتلاكا وإما نزوحا قسريا، تظهر هذه العلاقة جليا في انتساب عدد من الأسر داخل القبيلة إلى قرى ومداشر جبال جزلة، أو إلى عائلات تحمل نفس الألقاب، أو إلى جد مشترك تتفرع عنه وحدات عائلية (فرع واسلام، فرع شرفاء تازروالت، فرع كوغرابو ...) أو أنها على الأقل تحمل مجموعة من التقاليد والعادات التي تتوافق مع مزاج أهل الجبل، أو تستعمل النطق اللساني المميز لسكان جبال إيداولتيت، إلى غير ذلك من القواسم المشتركة، وهي في معظمها توحي إلى روابط قديمة بين أجزاء منشطرة ويمكن تلمس مثل هذه العلاقات من خلال أسماء الأفخاذ التي تحتفظ بأسمائها الأصلية مثل (تاضوارت، إيداكفا، إيد ضلحة، اتبان، أيت بنوح ...) إن استمرار تداول هذه الأسماء يؤكد رغبة الجماعة التي تحملها، في الحفاظ بها وربط خيوط التواصل مع أماكن نزوحها، وهذه سمة مشتركة بين القبائل المغربية، من هنا تبرز الأهمية التاريخية لتكرار نفس الأسماء في مجالات جغرافية مختلفة، إذ بفضلها يمكننا في نهاية المطاف التعرف على أصولها (انظر الجدول).

إن تسمية «أيت تزنيت» كما يتضح من خلال الجدول عبارة عن نسيج متشابك يخفي تنوعا كبيرا، وتتقاطع عبره عدد كبير من الأصول ألحقت بفرع أصلي يستحيل تمميزه، فداخل القبيلة، تبرز أسماء محلية تجسد في معظمها طبيعة العلاقات التي تجمع بين مجموعات من الأشخاص، وهي أما قرابية أي التي تجمع السكان المنحدرين من أصل واحد وفق خطاطة معينة (انظر الملحق) أو علاقات تكافلية ـ تضامنية، أن تجمع مجموعة من الأشخاص في رقعة مجالية، يتآزرون حسب الحاجيات الاقتصادية أو الأمنية.

يظهر من خلال البحث في أصول الفروع المكونة «لآيت تزنيت» ان استقرارهم قديم، أي في الوقت الذي عرفت فيه منطقة الازغار تناثرا كبيرا من حيث سكانها وبعدها توسعت القبيلة لتستوعب جماعات قادمة، طارئة على المنطقة إلى هؤلاء ستنضاف أفواج من العناصر السوداء ويهود إيليغ وإيفران،

فأصبحت البلدة تأخذ طابعا معماريا متميزا في شكل قصبات أو دواوير محصنة منتصبة على وادي توخسين [27]، كيفما كان الحال، وكما قال «J. Berque» فإن القبيلة عندما تتخذ لها إسما لا يهمنا إن كان هذا الاسم لعلم أو مكان جغرافي، فإن ذلك يعني أنها تطالب بوطن للاستقرار وبحق التملك وبحقها من الموارد المائية» % [28].

27. تعطينا النوازل الفقهية تصورا، وإن كان ناقصا، عن التجمع السكاني وطبيعة العلاقات بين السكان. فمما يتبين من خلال سؤال ورد على الشيخ محمد بن محمد بن عبد الله السملالي (ت 1129) حول مساجد بلدة تزنيت وكيفية صرف أحباسها، أن عددها أنذاك أربعة، وأن في كل قصبة أكثر من 60 كانونا. مما يوحي إلى عمران في طريق التطور والتوسم.

أجوبة محمد بن محمد السملالي (نسخة أزاريف)

28. الحسين لقطيب : حول مفهوم القبيلة، ملحق الاتحاد الاشتراكي، عدد 179، 1987.

وحدات قبائل (أقبيل) أيت تزنيت

تاقبيلت	فروعها	الأصل	تاريخ الاستقرار	الموقع	بعض الأسر الرئيسية
	إيداومكنون	يقال إنهم من العناصر الأولى المستقرة بتزنيت وحسب عدة رزايات فإنهم من عرب أولاد بوسبع. وقد إن نجوا حاليا ضمن أيت محمد.	مجهول	– يستوطنون قصبة قديمة على وادي توخسين.	– إيد موزي
	إيداومكنون	منطقة أبينو بوادي نون. وهم شرفاء أدارسة ينسبون إلى سليمان بن الحسن حسب شجرة نسبهم (29).	نهاية القرن 10 هـ. ويعتبر زكرياء بن علي أول من استتمر منهم بالمنطقة، وهو معاصر للشيخ أحمد بن موسى (30).	تقع أراضيهم إلى الزاوية الجنوبية من البلدة.	– إيدوقشوش – إيدوشينان – إيدالخضير – إيدو الطيب
	إيد ضلحة	يكونون عنصرا مهما من فروع أيت تزنيت، ولا نعرف موطنهم الأصلي.	مجهول	– تشغل أراضيهم وسط البلدة والزاوية الجنوبية الشرقية.	– إيضحان – إيد الشويخ
	إيداكفا	يتكونون من عناصر قادمة من إيدا وكارسموكت وايدا وبعقيل	مجهول	– تنتهب أراضيهم في الزاوية الشمالية الشرقية للبلدة.	– إيدو عزيز – إيكرداس – إيد علي أو بيهي – إيد الطالب

29. كراس حول نسب إيدزكري (مخطوط كوغرابو – تزنيت).

30. وثيقة خاصة.

تاقبيلت	فروعها	الأصل	تاريخ الاستقرار	الموقع	بعض الأسر الرئيسية
	أيت محمد	منطقة إيسك بأيت باعمران.[31] ينتسبون إلى محمد بن يعقوب، وهو من ذرية أحمد بن إبراهيم بن ابراهيم الايسكي الشريف دفين تارودانت (32)	استقروا في بداية الأمر بالجنوب الشرقي من البلدة ويبدو أن تاريخ استقرارهم يرجع إلى نهاية ق 10 هـ وبداية القرن 11. ثم دخلوا في صراع مع القبائل المجاورة بعد أن استهوتهم خصوبة المنطقة ووفرة مياهها (33) وقد تمكنوا من الحصول على حق الاستقرار، ثم ما لبثوا يوسعون رقعة استقرارهم على حساب إيد زكري وإيد اكفا.	– تنفتح أراضيهم على ساقية تزنيت كما تتوزع في مجال مهم يمثل 2/3 مساحة بلدة تزنيت.	– إيدوا عدي – إيد بوجمعة – إيد علي أو علي – إيد بلخير – إيد صميد – إيد بسعيد – إيد بو خزرون

31. هناك من يدخلهم ضمن أولاد سليمان الباعمراني الشريف الادريسي إلى جانب «أيت عبلا أوبلا» بويجان «وأيت عمر» بهشتوكة، «وإيد ضلحة» بتزنيت. مع أن فرع إيد زكري هم المشهورون بهذه النسبة. راجع : المعسول 10 : 275، 276.

32. شجرة أنساب أبناء محمد بن يعقوب (نسخة خاصة).

33. — Justinard (1) : «Notes sur l'histoire du sous au XIX siécles» in Hésp, 1926 VI P : 264.

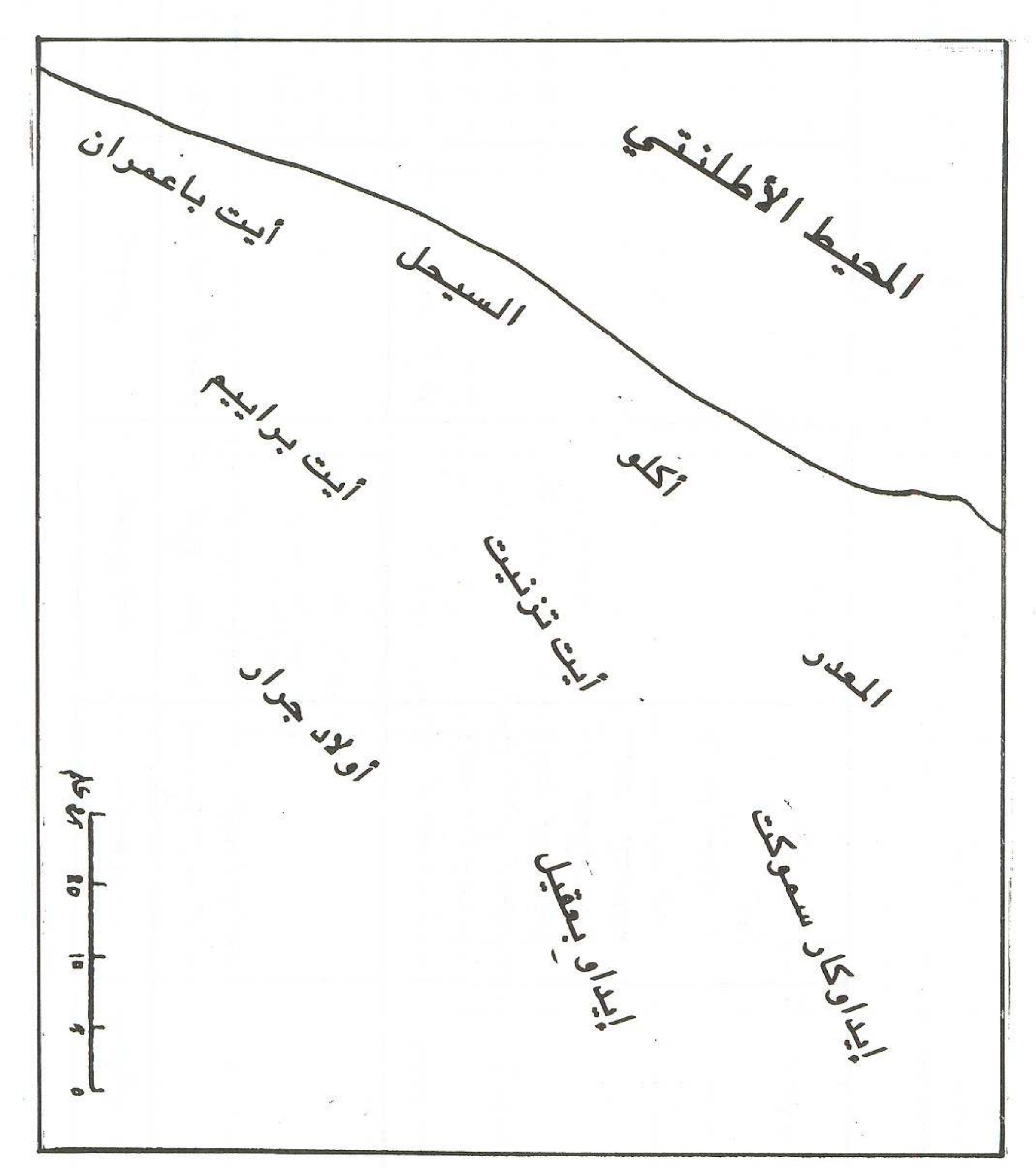
تاقبيلت	فروعهـا	الأصـل	تاريخ الاستقـرار	المـوقـع	بعض الأسر الرئيسية
	تضوارت	أصلهم من إيدا وكار سموكت وتاضوارت إيغشان من الأطلس الصغير تمكن شرفائهم أبناء محمد الحصول على اعتراف من لدن المخزن .	القرن 11 هـ	تتواجد في شمال الغربي من بلدة تزنيت قرب وادي تامدغوست وبمحاذاة أراضي أكلو.	- أيت موسى - أيت حدا - أيت وصواب - إيد سيدي المختار
دوتركا	أكادير تالعينت	نزح أغلبيتهم من مرتفعات الأطلس الصغير إيدا و كارسموكت إيدا وبعقيل وإيدا و سملال.	تدخل أراضيهم ضمن أملاك أهل بلدة تزنيت. وانطلاقا من عقد بيع المنطقة، فإن شرائها تم من طرف الشرفاء المرابطين بتاريخ 1651/1062 [35]. واستنادا إلى عدة روايات شفوية فإن الطرف البائع هم ورثة أمغار أشو أعمري.	- توجد أراضي درتركا ما وراء ساقية تزنيت.	- إيد حميتي - إيد همو القايد - إيد بكاس - إيد عبلا وجمع

34. نتوفر على ظهير توقير واحترام من السلطان م. الرشيد لعبد الله بن محمد الرسموكي، وهو من الشرفاء المستقرين بتاضورات.

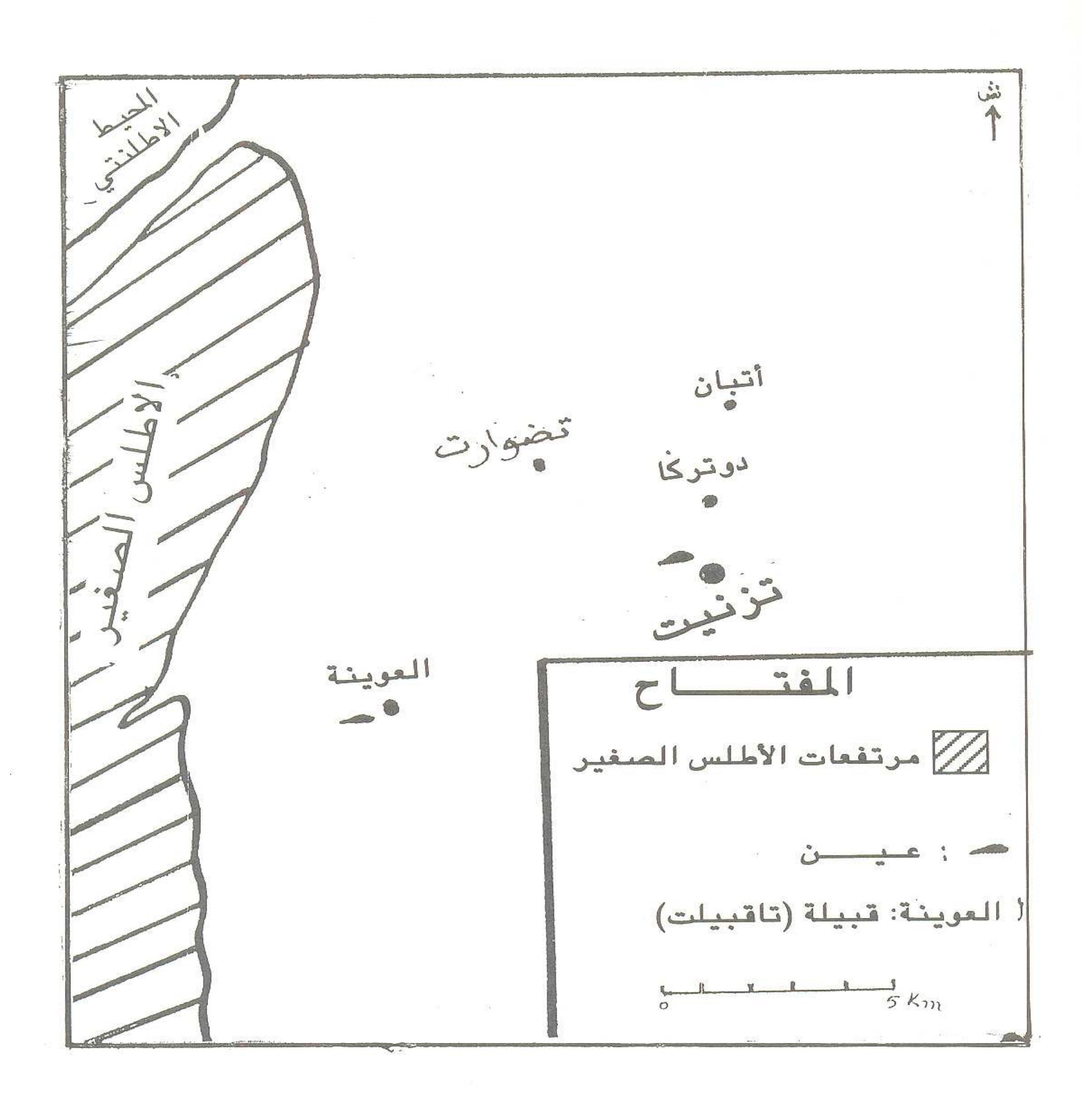
35. وثيقة خاصة.

تاقبيلت	فروعها	الأصل	تاريخ الاستقرار	الموقع	بعض الأسر الزئيسية
أبتان		من تير مسان، إيد بحمان قبيلة إيدا و بعقيل.	تم اقتناء الأراضي التي يستقرون عليها من أعيان بلدة تزنيت.	تتواجد في شمال دوتركا	ـ إيد بوورغ ـ إيد بالمدير ـ إيدو بلعيد ـ أيت المرح ـ أيت تغنجوت
العوينة	أيت تلمشت أيت بنوح أيت البيك أيد علي أو ابراهيم	ـ نزح جزء منهم من جبال إيدا ولتيت وأيت باعمران. ـ أصلهم من أنسيس، قبيلة أمانوز، وكانوا يستقرون بقرية تيكيوت قبل استقدامهم للتائر بوحلايس (36). ـ من تيواركان، قبيلة إيدا وبعقيل ـ من تمنارت.	مجهول	تقع إلى الجنوب الغربي بلدة تزنيت.	ـ إيد هموش ـ إيد بيهي ـ إيد بلقاسم ـ إيد الطيفور

36. خلال جزولة 4 : 29.


توزيع قبائل أزغار وأحوازه
المحيط الأطلنتي
أيت باعمران
السيحل
أيت برابيم
أكلو
أيت تزنيت
العدر
أولاد جرار
إيداوكار سموكت
إيداو بعقيل
كم

فصائل أيت تزنيت



تنمية سوس الاقتصادي بين المنظور المحلي والمركزي

علي المحمدي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
الرباط

كان توظيف الأموال يتم على مستويين :

1. المستوى الجهوي :

ما يلاحظه الباحث أن ضيق هذا المجال كان يستدعي اعتماد التكامل، كجواب على العوامل السلبية التي كانت تهدد المتحولات وتحد من المردود وتتسبب من حين إلى آخر في تراجع رأس المال بوجهيه العيني والنقدي. من مظاهر هذا التكامل على مستوى الانتاج الفلاحي، الانتجاع استجابة لحاجيات تربية الماشية عبر تراوح الماشية بين مجالين متفاوتي الارتفاع وما يتبعه من تفاوت أكثر الجفاف الذي كان وما يزال يشتغل العنصر المهيمن على الانتاج والتشريع والاستقرار بهذه الجهة. ومن مظاهره أيضا التكامل بين المنتوجات على نوع المزروعات ونوع النباتات المتوحشة والمدخية ونوعية الملكية.

كان المنتجون تحت ضغط الحاجة يضطرون إلى استبدال منتوج معين بمقدار نقدي. وتلك حاجة كان يستغلها كبار الملاكين لترجيح كفتهم على مستوى التبادل التجاري كما كان الشأن بالنسبة لمجال الانتاج الفلاحي، وذلك عبر قدرتهم على اقتناء كميات كبيرة في فترة كثرة العرض ثم اللجوء إلى التخزين إلى حين قلة العرض. لاستثمار هذه الفرص كان هؤلاء المتمولين يعتمدون على شبكة من الباعة المتنقلين والسماسرة كما كانوا يسخرون هؤلاء الخبراء في جلب مواد تجارية من السويرة مقابل تصريف مواد محلية.

2. المستوى العلمي :

كان استثمار المال في هذا المجال يقتصر على النشاط التجاري من جهة، وعلى أسرتين كبيرتين وعريقتين من جهة أخرى.

أ ـ أسرة عبيد الله أسالم :

تنتمي لأيت موسى أعلي إحدى قبائل تكنة الممتد ترابها جنوب واد نول. اشتهرت بأهمية دورها في التوسط بين السويرة وأسواق أفريقيا جنوب الصحراء. برزت منذ القرن الثامن عشر، أسرة عبيد الله أسالم قوة اقتصادية يمتد إشعاع نشاطها التجاري شمال واد نول. شاملا مختلف المراكز التجارية الواقعة بجنوب المغرب، وممتدا باتجاه الصحراء جنوبا إلى غاية افريقيا جنوب الصحراء. اكتست هذه الأسرة منذ بداية القرن التاسع عشر مظهر قوة اجتماعية اقتصادية، قاعدتها كلميم حيث يقوم بخدمتها 1500 كانون من العبيد. كان نفوذها مخترقا مجموعات رحلية تمتد مجالاتها الترابية على مسافة ثمانية عشر يوما جنوب واد نول باتجاه غنيا وغيرها من بلاد افريقيا جنوب الصحراء. تزايد تفوق الأسرة صعودا مع القرن 19 لاسيما عهد بيروك الذي اشتهرت باسمه.

ب ـ أسرة هاشم شيخ زاوية تازروالت :

كانت قاعدتها إليغ التي استعادت بعد نكبتها شيئا من نشاطها التجاري في القرن الثامن عشر، لتصبح في القرن 19 قاعدة لنشاطات هذه الأسرة التي جمعت بين الاقتصاد والسياسة، بينهما من تكامل. هذا إلى جانب وظائف الأسرة الدينية التي لعبت دورا كبيرا في شهرة وأهمية موسم زاوية تازروالت السنوي، الذي يعد مصدرا مهما لثروات الأسرة المذكورة.

تزايدت أهمية هذه الأسرة صعودا مع القرن 19، لكونها عرفت كيف تستفيد من حاجة المخزن إلى خدماتها في زيادة أرباحها. اتحد هدف كل من الأسرتين المذكورتين غير أن كلا منهما سلك مسلكا خاصا. فبينما كان بيروك يسعى إلى توقيع اتفاقية تجارية مع دولة من الدول الأوروبية التي كانت تتنافس على المغرب. هذه الاستراتيجية كانت تستهدف استغلال ضعف السلطة المركزية للتحرر من المراقبة التي كانت تفرضها على وظيفة التوسط الذي كان مصدرا أساسيا لقوة الأسرتين المذكورتين.

بدأ بيروك محاولا مع بريطانيا لينتقل فيما بعد إلى فرنسا سنة 1844 ساعيا لاستغلال عواقب ما يسمى «بمعركة اسلي».

لم يكن بوسع المخزن مع ما بلغه من ضعف سوى الاحتجاج على افتيات الدول الأوربية ومصالحة بيروك والاستعانة بنفوذ المرابط الحسين أهاشم في محاصرة بيروك وتتبع تحركاته على المستوى الجهوي وهو دور كان المرابط يستفيد منه عبر الامتيازات التي كانت تزيد من فوائد مبادلاته مع مؤسسات تجارية أوربية، لكن دون إضاعة أية فرصة تسمح له بالتبادل مع مؤسسات أوربية من خلال مراسي محلية، وذلك استجابة لرغبة ملحة في الحصول على مواد تجارية مربحة.

التطور الخطير تم على عهد السلطان مولاي الحسن، حيث وقع ماكينزي ممثل الشركة الأنجليزية المسماة «شركة شمال غرب افريقيا» مع الشيخ محمد بيروك في ابريل 1879 اتفاقية تخول للشركة المذكورة حق احتكار التبادل التجاري مع منطقة نفوذ محمد بيروك عبر طرفايا.

بعد توقيع هذه الاتفاقية، زاد اهتمام المؤسسات التجارية الأوربية بسوس الأقصى واشتد ضغط النواب الأوربيين على المخزن مطالبين بتمكينهم من امتيازات مماثلة.

أبدت السلطات الفرنسية قلقها من مشروع ماكينزي، لما كان له من خطورة على السياسة التي كانت تنهجها في سبيل احتلال المناطق الصحراوية. سارعت حكومة اسبانيا بدورها إلى التعبير عن قلقها بكيفية رسمية، اعتبارا منها لكون مشروع ماكينزي يعني منطقة لاسبانيا بها حقوق بموجب معاهدة 1860 التي كانت من جملة عواقب «حرب تطوان».

حفز نجاح ماكينزي شركة فرنسية على التفاوض مع المرابط الحسين أهاشم، بواسطة ممثليها بالسويرة مثل أدوارد جوليان ودافيد دوليوكوهن من أجل تحقيق مشروع مماثل. لقيت تلك المحاولة صدى لدى الحسين أهاشم وأشياخ من أيت باعمران بفعل زيادة التبرم من التعامل عبر السويرة. مصدر هذا التبرم اضطراب الأحوال، نتيجة استمرار ست سنوات عجاف ومبالغة أصحاب «النزالات» «في جباية رسوم مرور القوافل ومبيتها»، والخوف من تفوق أسرة

عبيد الله أسالم، وما يمكن أن ينتج عنه اضطراب في نسق التوازن المتحكم في علاقة تكنه بالقبائل التي تجاورها، وفي شكل تقاسم استفادة الأسرتين المذكورتين أعلاه من التبادل التجاري على هذا المستوى الكوني.

كل هذه العوامل بوسعها أن تساهم في تفسير موافقة الشيخ أهاشم، في يونيو 1881 باسم أشياخ من أيت باعمران، على إبرام اتفاقية تجارية مع شركة فرنسية على رأسها نيكو لاباكي. يتعهد الحسين أهاشم، بموجب هذه الاتفاقية، للشركة المذكورة بمنحها حق احتكار التبادل التجاري عبر مرسى تقع بساحل قبيلة أيت اخلف الباعمرانية.

كان هذا من أيت باعمران، يضمن للشركة المذكورة حق احتكار التبادل التجاري في مرفأ أركسيس والحصول على امتياز استثمار المعادن في المناطق المجاورة لسيدي إفني.

تكمن أهمية هذا المنحى في السعي لزيادة الأرباح المتأتية من التبادل عبر :

ـ تخفيض تكاليف النقل والتحرر من الرسوم بل والاستفادة من الرسوم على التصدير محليا.

ـ زيادة الأرباح بتحرير استيراد مواد تجارية محظورة مثل الأسلحة والدخيرة وتحرير تصدير مواد محظورة مثل البقر والغنم والصوف ...

إن هذا الحنين إلى التحرر على هذا المستوى، كان يتكرر ظهوره كلما ضعفت السلطة المركزية وكانت الدول الأوربية وتجارها على استعداد لاقامة تبادل عبر موانئ محلية عكس هذا المنحى سيدي علي بودميعة وعبيد الله اسالم ومعاصرة الشيخ هاشم التازروالتي. من خلال اختلاف المنظور المحلي والمركزي حول مراقبة هذا الصنف من التبادل، يمكن تفسير حركة السلطان مولاي اسماعيل والسلطان محمدبن عبد الله والسلطان سليمان. فميناء مرسى السويرة أتى كجواب من السلطة المركزية على فشل مرسى أكادير ـ إغير في القيام بدور مراقبة هذا التبادل مع أوربا لضمان نجاح هذا المشروع المركزي اتخذت إجراءات لتشجيع التجار على التبادل عبر مرسى السويرة مثل ضمان الثمن وتخفيض الرسوم الجمركية.

إن كبار الملاكين كانوا واعين بكون تنمية نفوذهم مبنية على مدى قدرتهم على ممارسة التجارة في مجال واسع متجاوزين بذلك العوامل الطبيعية المتحكمة في تنمية الانتاج الفلاحي من جهة، والسياسة المركزية في مجال التجارة الخارجية من جهة أخرى. فتصور كبار الأعيان كان يربط بين معالجة نقط ضعف الاقتصاد المحلي وبين استقلالهم في مجال اتخاذ الاجراءات التي يرونها ضرورية بما فيها تلك التي يعدها المخزن من اختصاصه والسلطة المركزية من جهتها كانت تتخذ دائما موقفا معارضا للمنحى المذكور باعتباره يمثل مساسا خطير بآليات ضبط تبعية قبائل سوس الأقصى.

هذا الرهان على مجالات خارجية لتجاوز ضعف المنطقة سيتبلور بشكل متزايد صعودا مع القرن 20 في دور الترانزيت التي كانت تقوم به سيدي افني في عهد الاحتلال الاسباني، كما انعكس في انتقال التجار نحو مراكز حضارية مثل تطوان وأكادير والسويرة والبيضاء وتمثل بالنسبة لمن له رأسمال في الاستجابة لحاجة أوربا لخدماتهم مقابل مردود شجع مثل الانخراط في الجيش الاسباني بدءا من الحرب الأهلية أو تقديم قوة عضلاتهم لمؤسسات صناعية وتجارية وهو المنحى الذي ما يزال يضخم أموال في المنطقة ويتحكم في الحياة بها بشكل ملحوظ عبر تجليات.

حركتا السلطان الحسن الأول
إلى سوس (1882 - 1886)

أحمد علمي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
مكناس

استأثرت الحركات المخزنية خاصة تلك التي كان يتقدمها السلطان باهتمام عدد من الدارسين الذين كتبوا عن تاريخ المغرب خلال القرن التاسع عشر سواء منهم المؤرخون المحترفون أو الاثنوغرافيون فتحرك السلطان على رأس أعداد هامة من الحُراك والجيوش النظامية وغير النظامية التي كانت تصل أحيانا إلى 60.000 رجل [1] أثار فضول الباحثين [2]. سوف لن ندخل في مختلف التفسيرات التي أعطيت لتلك الممارسة المخزنية، لكن ينبغي مع ذلك أن نؤكد أن الحركة لم تكن عملية عسكرية ليس الا كما قد يعتقد ويوحي بذلك معناها اللغوي، [3] فكثير من الحركات الحسنية لم تحدث خلالها أي مواجهة بين الحُراك والقبائل ومن بين الحركات : حركتا سوس الأولى سنة 1882 والثانية 1886. فما هي دوافع الحركتين ؟

لقد كانت لتلك الحركتين أسباب داخلية ارتبطت بواقع منطقة سوس ككل كما كانت لهما أسباب ارتبطت بعوامل خارجية.

الأسبــاب الداخليــة :

كانت سوس من المناطق التي لها خصوصية في علاقاتها بالمخزن المركزي، فالناصري يذكر في حديثه عن حركة سوس الأولى للسلطان الحسن الأول «أن البلاد لم تنكح بالمخزن مدة من السنين تنيف على عدد الستين» [4] وكلام الناصري في الحقيقة يثير الكثير من التساؤلات ذلك أن منطقة سوس كان

1. انظر مثلا : Norman D. Les expeditions de Moulay Hassan. Essai Statistique in Hespéries 1980 p.81
2. وصل عدد حراك حركة سوس الثانية للسلطان الحسن الأول 60.000 رجل تقريبا.
3. ابن منظور : لسان العرب، المجلد العاشر، بيروت، د.ت. ص. 410.
4. الناصري، الاستقصا الجزء 9 ص 176.

قد عين عليها القائد محمد بن حمو التامنارتي في 16 شعبان 1262 هـ ـ 1845 من طرف السلطان المولى عبد الرحمان، وقد ورد في ظهير تعيينه «خديما الأرض الشيخ محمد بن حمو القائد التامنارتي وفقك الله ... وبعد فقد وليناك على جبل سوس الأقصى من زدوتة إلى إشت ومن واد ولغاس إلى واد نول وما بين ذلك من القبائل الجبلية وأسندنا إليك أمورهم الخاصة والعامة، وبسطنا لك يد التصرف فيهم وجعلناك واسطة بينهم وبين خديمنا القائد حماد بن بومهدي الهواري للتولي جباياتهم وفصل دعاويهم وأخذ الحقوق منهم ولهم ... ومن حادي السبيل الأقوم فليرتقب سطوة الله وانتقامه ولا يلوم إلا نفسه، وعليك بتقوى الله وطاعته والقيام بخدمتنا الشريفة جهد الاستطاع» [5]. وقد استمرت المراسلات بين المخزن المركزي وهذا القائد الذي عين على كل منطقة سوس تقريبا إلى حدود 1268 هـ 1851. ثم انقطعت المراسلات بينه وبين المخزن المركزي بالرغم من أن هذا القائد امتد به العمر إلى 1886 أي إلى عهد السلطان الحسن الأول، ويذكر المختار السوسي أن هذه المراسلات إذا كانت قد انقطعت فهذا لا يعني أنها لم توجد فربما ضاعت ولم يعثر عليها، فقط، كما يمكن أن يكون هذا القائد قد خرج عن الطاعة لعدم امداده من طرف المخزن بالجيوش اللازمة لسد عضده ضد إخوانه كما يذكر المختار السوسي [6].

لقد كان القواد في منطقة سوس يعتمدون على قوتهم المتمثلة في الأعيان والأصحاب لضبط القبائل وذلك أمام عجز المخزن عن تزويدهم بحاميات عسكرية تعزز مركزهم وهكذا فإن أولئك القواد، عند شعورهم بضعف المخزن وقوتهم الخاصة غالبا ما كانوا ينسلون من الخدمة المخزنية فمثلا كان حماد بن بومهدي الذي ذكرناه سابقا قائدا مخزنيا على تارودانت في عهد السلطان المولى عبد الرحمان، ثم بسط نفوذه على كل القبائل السوسية من تارودانت إلى سكتانة إلى واد نول اعتمادا على قوته الخاصة [7].

وانطلاقا من هذه المعطيات المتمثلة في وجود قواد مخزنيين بسوس خلال عهد السلطان المولى عبد الرحمان وإلى حدود 1851 على الأقل وهي

5. المعسول الجزء 20 ص 251.
6. المعسول : الجزء 20 ص 254.
7. المختار السوسي، خلال جزولة الجزء 4 ص 143.

سنة انقطعت المراسلات بين المخزن المركزي والقائد محمد بن حمو التمنارتي، فإننا لا نتفق مع ما ذهب إليه الناصري من أن البلاد لم تنكح بالمخزن مدة 60 سنة كما سبق القول ولكن فقط 31 سنة أي من سنة 1851 إلى 1882 وهو تاريخ حركة السلطان الحسن الأول إلى تزنيت اللهم إلا إذا كان الناصري يقصد من «تنكح بالمخزن» قيام هذا الأخير بحملة تأديبية كبرى إلى المنطقة.

والواقع أن المرسلات لم تنقطع بين زعماء سوس وفقهائه والمخزن إلى تاريخ حركة تزنيت الأولى، ومؤلف المعسول المختار السوسي يزخر بنماذج من تلك المراسلات.

ولا شك أن نفوذ وصية الحسين بن هاشم في منطقة سوس كان من بين الأسباب التي دفعت السلطان الحسن الأول إلى القيام بحركة تزنيت 1882، وسوف لن ندخل في إعطاء تفاصيل حول هذه الشخصية التي داع صيتها، فربما ستقدم عروض خاصة بذلك في هذه الندوة وسنذكر فقط بعض الممارسات التي لم ترض السلطان الحسن الأول من دون شك. منها أن الحسين بن هاشم كان قد اعترض طريق مولاي الحسن سنة 1865 عندما قام بحركة إلى سوس في عهد أبيه السلطان محمد بن عبد الرحمان، ولا شك أن تلك الحادثة كانت بداية تحول في العلاقات بين الحسين بن هاشم والمخزن المركزي، يقول المختار السوسي عن تلك الحادثة «لا نعرف كيف وقع ذلك، وكل ما نعرفه أن المولى الحسن كتب إلى الحسين، فأمر هذا الفقيه محمد بن عبد الله السكاكي أن يجيبه بأنه ما بيننا إلا الحرب، فرد عليه المولى الحسن بأن والده لم يأمر بذلك، فكرر الحسين علي ذلك الفقيه أن يغلظ له في الجواب، فقال الفقيه : لا والله لا أفعل وأدى الأمر إلى قطع يدي، فإن ديني لا يحل لي ذلك [8]». وقد أورد صاحب البستان الجامع نصا يوضح تلك الحادثة كما يسلط الضوء على علاقة الحسين بن هاشم بالمخزن» صار _ أي المولى الحسن _ حتى جاوز الحد المعتقد بأنه لا يتعدى وهو واد ماسة ... ودهم تلك القبائل منه ما دهمتهم وغشهم من أمره ما غشيهم ... وكان إذ ذاك رئيسهم المسموع كلامه عند حلم المرابط السيد الحسين بن هاشم وكانت له سطوة

8. إليغ قديما وحديثا ص 258.

كبيرة ... على تلك القبائل مع كثرتها، وكان الملوك قبل أن يصل مولاي الحسن ... إنما يأخذون الأمور معه بالسياسة وهو كذلك فلا يخرج عن طاعتهم كل الخروج ولا يدخلها كل الدخول يهاديهم ولا يصلهم، وظل الأمر كذلك حتى أفجأهم هجوم خليفة السلطان ... فجاءوا يهرعون من كل فج، فدخل قلوب العمال والأعيان وكبار الجيش ما دخلها ... تناجوا فيما بينهم ... وتواطأوا على أن الأولى والأفضل لهم أن يقال فيهم خلصوا نجيا ...» (9) ويقول عن تراجع مولاي الحسن : «نعم ولم تزل قضية رجوعه بعد مجاوزته واد ماسة في باطنه مؤثرة ولكن لا يظهر ذلك ولا يشير له بمعرفة ولا نكرة حتى أفضي له الأمر بالاستقلال فاستوفى مرامه على كل حال» (10).

ولم تسلم تزنيت من أسرة آل هاشم، فقد وقفنا على أن هاشم أبا الحسين حاضر عدة مرات المدينة «... وقد أخذ منه الحنق عليها كل مأخذ وهي لم يستدر بها آنذاك إلا سياج قصير من الطوب كالذي يستدير بالبساتين عادة، فحاول بكل ما في إمكانه أن يتغلب عليها وقد حلف أن لا يحلق رأسه حتى يبله بماء عينها، ولكنه بعد أن بالغ في المطاولة والحصار ما بلغ لم يتمكن من نيل أربه وقد دافع التزنيتيون دفاعا مجيدا وقام كل واحد بالدفاع بما يناسبه إذ حتا رجال التصوف من أهلها قاموا بالقوة الأدبية ... وبعد أن أيس هاشم من نهب تزنيت جرت المخابرة في الصلح» (11).

هذه باختصار نظرة عن الظروف الداخلية التي عاشتها سوس بصفة عامة، والتي كانت من الأسباب التي دفعت السلطان الحسن الأول إلى القيام بحركة للمنطقة، لكن تبقى ما كانت تتعرض له سوس من تحرشات خارجية من الأسباب الأساسية لحركتي السلطان.

محاولات التوغل الأوربي في سوس خلال النصف الثاني من القرن 19 :

خلال تلك الفترة قام بعض التجار الأوربيين بمحاولات لربط علاقات تجارية مباشرة مع بعض قبائل المنطقة المتواجدة على طول الساحل الممتد من أكدير إلى طرفاية، وإقامة محطات تجارية هناك. وقد اتخذت تلك المحاولات

9. السباعي محمد بن ابراهيم : البستان الجامع، مخطوط بالخزانة العامة الرباط رقم 1346 د ص 38 ـ 39.

10. نفسه ص 39.

11. إليغ قديما وحديثا : ص 241.

اتجاها أخطر عندما بدأت بعض الحكومات الأوربية تشجع بصفة سرية أو علنية مشاريع أولئك التجار مستهدفة الحصول على مكاسب حقيقية بساحل سوس، وسوف نحاول رصد تلك المحاولات التي قامت بها كل من انجلترا وفرنسا واسبانيا وكذلك إيطاليا وألمانيا، وإن كانت محاولات هاتين الأخيرتين أقل خطورة من محاولات الدول الثلاث الأولى.

1. المحــاولات الأنجليزيــة :

خلال القرن التاسع عشر وصل عدد من المكتشفين الأنجليز إلى المغرب وفي سنة 1835 اتصل أحد أولئك المكتشفين بالسلطان المولى عبد الرحمان وطلب منه السماح له بالاتجاه إلى المناطق الصحراوية للقيام بعمليات استكشافية، وفعلا سمح له بذلك، إلا أن هذا الرحالة كان في الواقع يريد التعرف على طريق القوافل المتجهة إلى تومبكتو، ولما وصل إلى واد نول واتصل بالشيخ بيروك، حاول أن يربط علاقات تجارية مباشرة بين بيروك [12] وانجلترا، وإقامة مركز تجاري قرب مصب نهر واد نول [13]. إلا أن المشروع توقف، وقد قتل ذلك المكتشف من طرف السكان [14] ويستبعد المختار السوسي أن يكون بيروك قد تعاقد مع الأنجليز حيث «كان عميدا للحكومة ... رافعا لرايتها دائما ككل أفراد أسرته» [15].

وفي سنة 1872 وصل إلى الساحل السوسي المهندس الأنجليزي «رونالدماكيزي»، وكانت له مشاريع اقتصادية جد طموحة في المنطقة أوردها في كتابه نشره سنة 1877 بعنوان «عمر الصحراء» The flooding of the Sahara[16] واستطاع ماكينزي بمساعدة لجنة تقنية من ليفربول اختيار «رأس جوبي» «طرفاية» لاقامة محطة تجارية. تم تكونت شركة شمال غرب افريقيا وهي شركة انجليزية ضمت عدة مهندسين ورجال أعمال كان هدفها هو التوغل

---

12. انظر تفاصيل عن حياة الشيخ بيروك في «المعسول» : الجزء 19 ص 267.
13. روجرز (ب ج) : تاريخ العلاقات المغربية الأنجليزية حتى 1900 ترجمة لبيب يونان الدار البيضاء 1981. ص 194 ــ 1955.
14. نفسه ص 195.
15. المعسول : الجزء 9 ص 276 ــ 277.
16. Miège, le Maroc et l'Europe et T. III p.92
ــ انظر ابن زيدان الاتحاف ج.م. ــ ص. 380 وما بعدها، روجز: ص. 275.

داخل افريقيا انطلاقا من «رأس جوبي». وكانت الحكومة البريطانية تشجع مشروع الشركة، وتحت ممثلها لدى السلطان الحسن الأول على إرغام المخزن على قبول المشاريع الأنجليزية، مع العلم أن دريموند هاي (الممثل البريطاني لدى السلطان الحسن الأول) كان يتحفظ اتجاه «مشروع ماكينزي» [17] خاصة بعد المعارضة التي أبدتها كل من فرنسا وإسبانيا اتجاه المشروع حيث اعتبراه ضربة لمصالحهما الاقتصادية بالمنطقة. لكن مع ذلك استمر ماكينزي في مشروعه، وبدأت تصل السفن من انجلترا محملة بالبضائع تتاجر مع قبائل واد نول.

إلا أن ماكينزي لم يحقق تقدما تجاريا يذكر، فقد أرسلت الحكومة البريطانية سنة **1881** الضابط «بريدج» إلى رأس جوبي لانجاز تقرير عن المحطة التجارية، فعبر في تقريره عن فشل المشروع وأن رأس جوبي غير صالح للاقامة مركز تجاري [18]. وبالرغم من ذلك تكونت شركة بريطانية هي «شركة شمال افريقيا وسوس» سنة **1881** بهدف السيطرة على تجارة واد نول واستغلال المناجم بجوار مدينة إفني، ووصلت سفينة الشركة إلى جنوب مدينة أكادير واتصل بعض أعضائها بشيوخ المنطقة بهدف استيراد مواد فلاحية كان المخزن يمنع خروجها من البلاد خاصة القمح والماشية [19] إلا أن الحكومة البريطانية لم تتحمس للمشروع خوفا من ما يمكن أن يثيره مع القوى الاستعمارية الأخرى [20].

وقد وصل إلى سوس مغامر أنجليزي آخر هو كورتيس واتصل بالحسين بن هاشم محاولا احتكار تجارة منطقة أيت باعمران [21] وأقام هذا المغامر الأنجليزي محطة تجارية بآركسيس، وبدأ يتاجر مع القبائل إلا أن الحكومة البريطانية، وإرضاء للمخزن، اعتبرته خارجا عن إطار المشروعية [22].

---

17. روجرز ص 260.
18. روجرز : ص 258.
19. Miège : o.p. cite T. III p. 317.
20. روجز : ص 260.
21. GERENTON (E), les expéditions de Moulay Hassan dans le sous incomité de l'Afrique Française N° 9 septembre 1924, P. 268.
22. Nchlil, Lettres chérifiennes lettre n° LXXI

وقد عرفت شركة Curtis كيرتيس رواجا هاما في منطقة سوس حيث كان يجلب إليها السلع عبر مرسى أركسيس.

المحـاولات الفرنسيـة :

اتجهت، أنظار التجار الفرنسيين منذ منتصف القرن 19 إلى منطقة سوس لربط علاقات تجارية مع السكان، وقد تزعم تلك المحاولات تجار مرسيليون لهم علاقات تجارية قديمة مع الصويرة، وكان لهم وكلاء يهود، يتجارون لصالحهم، وفي الوقت نفسه لصالح الحسين بن هاشم، وتأسست شركة في مرسيليا بهدف المتاجرة مع منطقة سوس واتصلت بالحسين بن هاشم الذي لم يتردد في ربط علاقات تجارية معها، وقد تعهدت تلك الشركة بإقامة ميناء على ساحل سوس [23]. ولا شك أن المجاعة التي عاشها المغرب وبالخصوص المناطق الجنوبية بين 1878 و 1882 ساهمت في دفع القبائل إلى التعامل مع الأوربيين، خاصة إذا كان هؤلاء سيجلبون الأقوات.

المحـاولات الاسبانيـة :

بعد حرب تطوان، وعقد الهدنة مع المغرب، كان من بين ما اتفق عليه بين الجانبين، إعطاء مصيدة إلى إسبانيا على ساحل سوس وكانت إسبانيا تطالب بما سمي «بسانتاكروز دي ماربيكينيا». وقد اتبع السلطان محمد الرابع سياسة التماطل والتسويف في تسليم هذه النقطة إلى اسبانيا، وعندما لم يتفق المفاوضون الاسبان والمغاربة على نقطة سانتاكروز دي ماربيكينيا» طالبت إسبانيا بأكادير إلا أن المخزن رفض ذلك. وفي سنة 1866 قام قنصل إسبانيا بالصويرة بالاتصال بزعماء قبائل واد نول بهدف إقامة مركز تجاري إسباني هناك، إلا أن بعث المخزن تجردة عسكرية إلى تارودانت وكلميم وإليغ لمنع زعماء هذه القبائل من الدخول في علاقات تجارية مع الاسبان [24].

ولم يكن المخزن يريد التنازل سوى على مركز سانتاكروز وهي النقطة التي لم تعرف على الساحل، وحاول المغرب أن يستغل ذلك لصالحه. وقد زاد من تطلع إسبانيا إلى موطئ قدم بالساحل السوسي، الأطماع الأنجليزية والفرنسية

---

23. Miège le Maroc et l'Europe T. III p. 312.

24. Rezette (R) le sahara occidental et les frontière marocaines. Paris 1975. P.56.

بالمنطقة، وقد تكونت شركات إسبانية لاستغلال الساحل السوسي نذكر منها شركة الصيد الكناريا الأفريقية» [25].

المحاولات الايطالية والألمانية :

في سنة 1869 أرسل وزير خارجية إيطاليا «مينابير» MINABER بعثة إلى واد نول للتعرف على المنطقة وإقامة مستعمرة هناك، وكان وراء هذا المشروع أيضا ممثل إيطاليا بطنجة ستيفانو سكوفاسو، STEVANO SCOVASSO، وقد توجهت سفينة إيطالية إلى سوس. إلا أن العملية لم تصل إلى هدفها. ونظمت حملة إيطالية أخرى سنة 1876 تزعمتها شركة الجغرافية الايطالية، وكان الهدف منها هو إقامة مركز على ساحل سوس تم مد خط اتصال تجاري بين هذا المركز وتومبوكتو، لكن العملية فشلت في مهدها [26].

أما ألمانيا فقد كانت تريد الوصول إلى سوس عن طريق إسبانيا حيث اتصل ديبلوماسيون ألمان بديبلوماسيين إسبان بحثا عن استغلال مشترك للمناطق التي تطالب بها إسبانيا جنوب المغرب. ولما لم يحصل اتفاق بين الدولتين، بدأت ألمانيا تحاول الحصول على مكاسب خاصة بها على ساحل سوس، ففي سنة 1875 وصلت سفينة ألمانية إلى مدينة إفني محاولة ربط علاقات تجارية مع سكان المنطقة.

في تلك الظروف وأمام أطماع القوى الاستعمارية في منطقة سوس، سيقوم السلطان الحسن الأول بحركته الأولى إلى تزنيت لوضع حد لتلك الأطماع ولاظهار قوة المخزن للزعامات القبلية.

حركة تيزنيت الأولى 1882 :

استعد السلطان الحسن الأول لهذه الحركة استعدادا هائلا فعلى مستوى الجيوش التي ضمته نجد البواخر، والوداية والشراردة وشراكة وسوس، وكان عدد فرسانها 9000 رجل وفاق عدد العسكر الرسمي 700 بالاضافة إلى فرقة المدفعية التي كان يقودها الضابط الفرنسي إيركمان، «ERCKAMANN» وكانت

25. Miège Op. cite. T. III. P.329.

26. Miège op. cite T. III P.296 - 297.

تتوفر على ثلاثين مدفعا، هذا بالاضافة إلى فرق النوايب التي انضمت إلى الحركة بأعداد هائلة [27]. واتخذ المخزن كل الاستعدادات لتوفير المواد الغذائية والعلف اللازمين للحركة، فقد كلفت قبائل دكالة وتامسنة بنقل القمح والشعير والتبن إلى مرسى الجديدة ومرسى الدار البيضاء، واكترى السلطان سفينة انجليزية لنقل تلك المواد إلى سواحل سوس [28]. وصاحبت الحركة قافلة تتكون من 1500 جمل تحمل المونة أيضا. وهذه الاستعدادات الخاصة بالمونة لم نقف عليها في أي حركة من حركات الحسن الأول، إذ أن الحركة عادة ما تعتمد في مونتها على القبائل التي تتجه إليها أو تمر بها. لكن خلال هذه الحركة لم يعتمد على القبائل في تمويل الجيش المخزني، وهذا راجع إلى خصوصيات تلك الحركة بالاضافة إلى المسغبة التي كانت تعرفها البلاد أثناء تحرك المحلة السلطانية.

كان انطلاق الحركة من مراكش في رجب 1299 هـ ـ ماي 1882 ـ في اتجاه تزنيت عبر واد نفيس، شفشاوة، الشياظمة، حاحا، دار أنفلوس أكادير، تارودانت، أم الجريد، ماسة، واد ولغاس ثم تزنيت فأكلوا الذي كان آخر مرحلة حيث توقفت به الحركة عدة أيام ثم رجعت إلى مراكش [29] وكان الوصول إلى أكلو يوم 25 شعبان 1299 هـ فكانت أيام الحركة منذ انطلاقها إلى وصولها إلى أكلوا 44 يوما.

أعمال المخزن بسوس :

إن أول ما يمكن ملاحظته خلال هذه الحركة هو عدم حدوث أي اصطدام بين الجيش المخزني والقبائل، وهذا يدل على أن الحركة كان لها أهداف أخرى غير الأهداف التأديبية، وهي أهداف تمثلت أساسا في إبعاد الأخطار الأجنبية عن سوس والقيام بأعمال تنظيمية إدارية بالمنطقة ويتضح ذلك بوضوح من الرسالة التي بعثها السلطان الحسن الأول وهو في طريقه إلى سوس إلى قبائل تاركيست بتاريخ 5 شعبان 1299 هـ، فقد ورد فيها «خدامنا الأمثال

---

27. GERENTON, op.cite P. 69-70.

28. ARNAULD. L; au temps des Mhallas ou le Maroc de 1660 à 1912, Ed. Atlantique Casablanca 1952 p. 61.

29. كل مراحل هذه الحركة مضبوطة بكناش بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 12059.

الأمجاد أهل تاركيست كافة نخص العلماء والشرفاء ... وبعد فقد وجب تفقدكم والنظر في أموركم ومصالحكم ... والمقصود عندنا بهذه الوجهة المباركة والمباركة وعلى الله الكمال هو المدافعة عنكم وقطع الأطماع دونكم حتى لا يتشوف إليكم أحد ولا إلى تمليك بلادكم ورقابكم ما دمت حيا والأعمال بالنيات، وكذلك إقرار ذوي المراتب وأهل الزوايا والأشياخ والكبراء على مراتبهم وشد عضدهم عليها أكثر مما نجدهم عليه هناك، ونحن في الأثر بحول الله عازمون على التحرك بتلك النواحي ... ولكم منا الأمان التام، لا يغير حرزكم ولا يزوغ سربكم» (30) ويذكر المختار السوسي أن السلطان الحسن الأول كانت له «سياسة خاصة في سوس فيها بالواضح بالهويني، فكان يوم سافر إليها سنة 1299 هـ ـ 1882، جاء كأنه شيخ من شيوخ الزوايا، ملاينة للناس، فلاقاه سهل وجبل بكل إجلال، وقد قدم إليه كل ما يحتاج إليه جنده ومن معه فلم يرز الناس دانقا» (31).

قام السلطان الحسن الأول بتعيين زعماء القبائل قواد رسميين على قبائلهم ومن بينهم ابن الحسين بن هاشم، قسم إقليم سوس تقسيما إداريا انبنى على تعيين عدد من القواد. إذ كل فخدة أو فرقة صغيرة من قبيلة إلا وعين عليها قائدا أو خليفة، فعين مثل على هوارة وحدها 10 قواد. وعلى مستوى إبعاد الخطر الأجنبي عن المنطقة، فقد أمر السلطان الحسن الأول بإقامة قاعدة عسكرية بالقرب من تزنيت لمراقبة تحركات الأجانب بسواحل سوس، كما أمر القائد مسعود الراشدي ببناء سور حول مدينة تزنيت (32)»، وألزم العمال جوار المراسي الأربعة وهي مرسى سيدي محمد بن عبد الله ومرسى ورزك، ومرسى أساكا بآيت باعمران ومرسى أكلوا بجوار تزنيت بحفظها والعسة عليها ليلا ونهارا لا يدخل منها شيء ولا يخرج إلا بأمر مولوي ...» (33). وأثناء وجود الحركة بأكلو وصلت سفينة إسبانية تحمل ديبلوماسيين إسبان للتفاوض مع المخزن حول المصيدة التي تطالب بها إسبانيا.

30. المختار السوسي خلال الجزولة : الجزء 2، ص 149 ـ 150.
31. المعسول الجزء 14 ص 111.
32. إليغ قديما وحديثا ص 284.
33. ابن زيدان : الاتحاف، الجزء 2. ص 213.

أما بالنسبة لما كنزي فإن السلطان بعث إليه فرقة عسكرية يطلب منه أن يحضر بين يديه إلا أن ماكنزي رفض، ومع ذلك فلم يقم المخزن بأي عمل ضده، واتجه مولاي الأمين وهو من الأسرة المخزنية بأمر من السلطان إلى مصب واد نول للتعرف على المنطقة والبحث في إمكانية إقامة ميناء بها لتسهيل حركة التجارة البحرية بتلك الجهة.

كان الوصول إلى أكلوا هو آخر رحلة من مراحل الحركة كما ذكرنا بالرغم من أن السلطان الحسن الأول كان يهدف إلى الوصول إلى ما وراء كلميم، لقد توقفت المحلة بأكلو أيام تنتظر وصول المواد الغذائية فقد قلت أقوات المحلة، وبدأ يظهر شبح المجاعة بها وكثر فرار الحراك إلى أن وصلت الامدادات من أكادير وماسة عبر القوافل، وعلى كل فلم يكن إتمام الحركة ممكنا، وبدأ التفكير في الرجوع تفاديا لأي كارثة وأثناء رجوع الحركة إلى مراكش وصلت الحرارة إلى 49 درجة ومات بشدة الحر عدد كبير من الحراك والدواب كثر الفرار وأمر السلطان بالمشي ليلا تفاديا لشدة الحر، ووصلت المحلة إلى مراكش منهوكة القوى يوم الجمعة 30 يوليوز 1882 (34).

إن أهم ما أنجزته الحركة هو إظهار سيادة المخزن على منطقة سوس أمام الأوربيين، وقد كان GRENTON قصير النظر عندما اعتبر هذا الانجاز هزيلا بالمقارنة بما أصرف على الحركة (35). كما أن السلطان سلم ظهائر التعيين لقواد سوس، هذا مع العلم أنهم كانوا زعماء على قبائلهم قبل تسليم الظهائر، ويعتبر تسليمهم لظهائر التعيين خضوعهم لسلطة المخزن، وطبعا فإن كل هذه الانجازات تعتبر ذات أهمية قصوى بالنسبة للمخزن المركزي، لكن ينبغي التأكيد أيضا على أن ماكيزي لم يتزحزح من رأس جوبي، وظل كورتيس متمركزا بأركسيس، كما ظلت المشكلة مع اسبانيا مطروحة حول المصيدة التي كانت تطالب بها على ساحل سوس.

وبمجرد رجوع الحركة انتفضت قبائل سوس ضد قوادها (36)، وأظهر بعض أولئك القواد الجور والفساد مثل عبد الرحمان بن مبارك الروداني الذي

34. GERENTON. op.cit. p. 272.

35. GERENTON op.cit p. 275.

36. حول تلك انتفاضات انظر المختار السوسي خلال جزولة، الجزء 4 ص 160 وما بعدها.

وصل به الحال إلى تزوير السكة [37]، أما أسرة بن هاشم فقد أصبحت عين وأذن المخزن بسوس، تخبره بكل ما يحدث هناك [38] هذا بالرغم من أن الحسين بن هاشم قد ساهم في بعض الاضطرابات حيث ظل يستعرض قوته على باقي القواد المخزنيين [39].

والخلاصة أن الحركة لم تحقق أهدافها، والدليل على ذلك هو قيام السلطان الحسن الأول بحركة ثانية إلى المنطقة سنة 1886، يقول السباعي : «وفي يوم الخميس 12 جمادى الثانية 1303 هـ توجه ـ الحسن الأول ـ كما كان أيقظ له الرايات والأعلام وتوجيه المواكب ... كما كان رجع عنه من أمر سوس من غير تكميل المواد من التدبير [40].

وقد استمرت المحاولات الأوربية بحثا عن مواطئ أقدام بالساحل السوسي. كل ذلك دفع الحسن الأول إلى القيام بالحركة الثانية إلى سوس.

الحركــة الثانيــة إلى ســوس

الحركة الثانية إلى سوس 1303 هـ ـ 1886.

كانت أهداف الحركة الثانية أكثر طموحا من أهداف الحركة الأولى، فقد عزم السلطان الحسن الأول على الوصول إلى أبعد بكثير من تزنيت، فيذكر السباعي أن المولى الحسن اتجه من فاس إلى مراكش «ومخبوء تحت طي لسانه المسير لسوس الأقصى وما وراءه من الصحراء وما حول ذلك إلى الساقية الحمراء ...» [41] ولا شك أن مد الحركة في ذلك العمق الصحراوي له علاقة بوصول الاسبان إلى الساحل الممتد من رأس بوجدور إلى الرأس الأبيض «الكويرة» [42].

لقد وصل رجال تلك الحركة إلى 60.000 تقريبا حيث شاركت فيها كل فرق الجيش النظامي والكيش والنوايب [43]. ولاشك أن القبائل ساهمت في

37. نفسه ص 125.
38. GERENTON, p. 281.
39. إليغ قديما وحديثا ص 280.
40. البستان الجامع : الخزانة العامة الرباط ص 121.
41. البستان الجامع : الخزانة العامة الرباط ص 121.
42. Miège op.cit. I, III p. 332.
43. GERENTON, op.cit. p. 278.

مونة تلك الحركة بعدما اختفى شبح السنوات العجاف.

انطلقت الحركة من مراكش يوم 12 جمادى الثانية 1303 موافق 6 مارس 1886، واتجهت نحو آسفي ثم الصويرة فأكدير فإنزكان فسيدي بيبي فتزنيت فزاوية ابن النعمان فثلاثاء صبيوة فتليوين ثم كلميم التي كانت آخر محطة في تلك الحركة.

وفي تزنيت انقسمت الحركة إلى قسمين، قسم اتجه عبر الطريق الساحلي وقسم سار عبر الطريق الداخلي، وكانت نقطة الالتقاء هي أركسيس التي منها اتجهت فرقة من الجيش تحت قيادة علي المسويفي – وزير الحرب – لتحطيم المركز التجاري الذي أقامه كورتيس، وفعلا تم تحطيم المركز، وفر من كان به من التجار الأوربيين، ثم نزل جنود الحركة إلى واد نول ومنه إلى طرفاية حيث حطموا الدار التجارية التي أقامها ماكينزي [44].

وعلى المستوى الداخلي قام السلطان الحسن الأول بإعادة التقسيم الاداري لسوس، وعين عددا من القواد على مختلف القبائل وسلم ظهيرا إلى محمد بن حسين بن هاشم يعينه فيه واليا على قبائل تازروالت وسملالة ورسموكة والمعدر وآيت الرخا وتانكرت وإذاوشقرا [45]. وعين على أكلو القايد سيدي محمد ولد باركا، ويذكر «GERENTON» بتفصيل أسماء القواد والقبائل التي عينوا عليها [46]. وأقيمت بتزنيت حاميات عسكرية، وأصبحت هذه المدينة المركز الاداري والعسكري لسوس وعين عليها عامل بجانبه خليفة، وقد كان من بين مهامها مراقبة قواد القبائل.

هذا كل ما استطاعت الحركة القيام به، أو هذا ما زودتنا به الوثائق والمصادر التي وقفنا عليها، فما هي النتائج العامة لهذه الحركة ؟

النتـائـج :

خلال هذه الحركة يمكن القول أن المخزن استطاع تحقيق أهداف لم تتحقق خلال حركة 1882، فقد حطم المركز التجاري الذي أقامه كورتيس،

---

44. ARNAULD, au temps des Mhallas ... p. 65 - 66.
45. إليغ قديما وحديثا ص 285.
46. GERENTON op.cit. p. 280.

كما دمر الجنود، الدار التجارية التي أقامها مكنزي هذا بالاضافة إلى الأعمال التنظيمية التي قام بها المخزن بإقليم سوس.

لكن بالرغم من تلك الايجابيات فإنه يمكن طرح عدة تساؤلات حول نتائج الحركة بصفة عامة، فمثلا لماذا لم تصل إلى الساقية الحمراء كما كان مرسوما لها في البداية فالوثائق لا تجيب عن هذا التساؤل، ويمكن القول أن عمل الحركة على عدة واجهات جعلتها تتراجع عن بعض ما كانت تطمح إليه.

وبمجرد رجوع الحركة، برز فوران القبائل من جديد وبلغ ذروته مع وفاة السلطان الحسن الأول، وكتابات المختار السوسي تزخر بأوصاف هامة لحالة القبائل السوسية بعد وفاة الحسن الأول، ويرجع المختار السوسي تلك الحالة أساسا إلى فساد بعض القواد.

والواقع أن الحركة لم تكن عصا سحرية قادرة على تغيير نفسية القواد وسلوكهم اتجاه محكوميهم ومحو ضغائنهم الموروثة، وبالتالي لا نستغرب من استمرار من ممارساتهم بعد الحركة السلطانية، وانعكاسات ذلك على الأوضاع القبلية بالمنطقة إلا أن نواقص الحركة تتجلى بوضوح في عدم عملها على تغيير أو على الأقل تحسين الواقع الاقتصادي لمنطقة سوس التي كانت تعيش ظروفا جد صعبة نتيجة سنوات الجفاف وتراجع تجارة القوافل، فالحركة لم تشجع التجارة بفتح موانئ على الساحل السوسي، ولم تخلق فرصا للكسب بالنسبة لعامة الناس الذين ظل شغلهم قطع الطرقات، واستمرت التجارة في يد أسر محدودة تمارسها بطرق غير مشروعة مخزنيا.

لقد عمدت الحركة إلى الجانب العسكري لضبط القبائل السوسية حيث أكثرت من القواد والخلفاء وإقامة الحاميات العسكرية لكنها لم تلتفت إلى تحسين ظروف عيش الناس لضمان ركونهم إلى انضباط والسكينة، لذلك ظلت الحالة الداخلية لسوس مضطربة كما كانت عليه قبل الحركة الحسنية للمنطقة أو ربما أكثر.

الشيخ احماد أو موسى : قراءة في المصادر

خديجة الراجي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
- أكادير -

مدخل :

يعتبر الشيخ احماد أوموسى السملالي التازروالتي، المزداد ببومروان حوالي 853 هـ/1460م والمتوفى بتازروالت عام 971 هـ/1564 م، من أبرز أعلام التصوف بمنطقة سوس عامة وبتزنيت على وجه الخصوص. فعلى بعد 40 كلم جنوب شرق تزنيت يقع ضريح هذا الشيخ الجزولي الذي أخذ الطريقة عن شيخه في التصوف عبد العزيز التباع أبرز مريدي الشيخ محمد بن سليمان الجزولي. وكان لقاؤه بشيخه التباع محطة أولى ضمن سياحته التي استمرت أزيد من ثلاثين سنة والتي جاب خلالها أماكن قاصية امتدت به إلى مكة فبلاد السند والهند وقطع خلالها الصحاري والجبال ليعود بعد ذلك إلى بلدته بومروان تحدوه الرغبة في اكتشاف مجال جديد صالح للتعبد واستقبال الزوار. وقد ارتبط انتقاله من بلدته بومروان بظروف الأزمة العامة التي شهدها مغرب القرن 16م والمؤرخة بحوالي 1512م [1] ووجد الشيخ احماد أوموسى في تازروالت المكان المنشود والملائم لبناء زاويته وأثر عنه في هذا المجال قوله : «بومروان ايروان، تازروالت أيزدارن» [2] كما أثر عنه قول اخر مماثل وهو : «إذا كانت الجنة في السماء فإن وادي سملالة قبالتها وإذا كانت في الأرض فإن وادي سملالة قبالتها» [3]. وهذا دليل واضح على تفطن الشيخ احماد أوموسى إلى أهمية وادي

1. وقع اختلاف كبير في تحديد تاريخ هذه الأزمة العارمة، فالفاسي في مرآة المحاسن يرى أنها تعود إلى سنة 1520م.
الفاسي (العربي)، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن طبع على الحجر بفاس 1324 هـ/1906م ص. 137.
2. «بومروان أكثر ملاءمة لكن تازروالت أكثر قدرة» مقولة الرواية الشفوية.
3. Justinard, un petit Royaume berbère, le Tazeroualt et un saint berbère, imprimerie Durand France, 1954.

تازروالت مقر ضريحه الحالي. على أن الاستقرار بتازروالت لم يكن بالأمر الهين فقد جال الشيخ احماد أوموسى قبل ذلك في أماكن قريبة واستقر ببعضها مخلفا بها آثارا تدل على إقامته بها ومن هذه الأماكن مكان بتونمان يدعى «أضار نشيخ» [4]، ثم استقر بالماتن [5] قبل انتقاله إلى تازروالت وهناك من يشير إلى أن الشيخ سكن أولا في «بومروان بسملالة ثم إلى إيغالن نيت عباس ومن هناك إلى أضار نشيخ» [6] وتحدث السكيتي [7] عن قصر «تاسيلا» دون أن يحدد مكانه.

وتبقى الأخبار الواردة عن دخول الشيخ إلى تازروالت وطريقة استقراره بها رهينة بما تختزنه الروايات الشفوية من أحداث يتداخل فيها القديم بالحديث والواقعي بالاسطوري. ومجمل ما سجلته الرواية الشفوية بهذا الصدد هو أن «ابن موسى تطلب من الحربيليين أن يذعنوا لأحكام الشريعة كلها. وأن يدعوا أعرافا كانوا يتحاكمون إليها فتأففوا من ذلك، فسلط عليهم مجاط التي أجلبتهم عن كل تلك المنطقة» [8].

وبعد أن استحكم الشيخ في مجاله الجديد هذا وداع صيته في الآفاق بدأت الركبان ترد عليه من مختلف الجهات. وقد أحصينا على سبيل الاستئناس لا الحصر مريدين للشيخ قادمين من جهات مختلفة : كإدا وبعقيل واداوككمار وإداوسملال وادا وكرسموك وتومنار وتاغلولو وإغشان وترسواطت وأيت باعمران وتمنارت وحاحة وعبدة وشياظمة وتادلة ودرعة وأقا وولاته وتلمسان [9]. وغيرها من الأماكن القاصية والدانية.

وبناء على الشهرة التي نالها الشيخ احماد أوموسى تعددت وظائف زاويته لتشمل إلى جانب الاطعام والانفاق والحماية والتبرك وفض النزاعات الانفتاح على الواقع الاقتصادي والسياسي لمغرب القرن 16م [10]. وهو بهذا لا يحيد عن

4. أي رجل الشيخ ويقال إنها سميت كذلك لوجود آثار أقدام الشيخ بها.
5. أدفال، مناقب، نسخة الخزانة البونعمانية، ص 2.
6. السوسي (المختار)، المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء 1962 ج 12 ص 11.
7. السكيتي، تقييد، نسخة الخزانة المسعودية، ص 2.
8. السوسي، المعسول، ج 12 ص 10.
9. راجع لائحة المريدين، ببحثنا المعنون بـ «مساهمة في دراسة الزاوية السملالية في مرحلة التأسيس» اشراف ذ. مصطفى ناعمي، بحث لنيل د.د.ع. في التاريخ، الرباط 1993 ص. 88/85.
10. البحث السابق، ص. 96 – 166.

الرسم العام الذي اختطه الجزولي واتبعه في ذلك التباع والغزواني وعبد الله بن حساين وامحند أوبراهيم التمنارتي. ولا عجب في ذلك ما دام الشيخ احماد أوموسى قد استقى من النبع بأخذه الطريقة عن أستاذه في التصوف عبد العزيز التباع [11].

تبقى هذه تصورات عامة عن الشيخ احماد أوموسى كما طرحتها المصادر المهتمة. لكن مثل هذه التصورات لم تقدم دفعة واحدة وإنما اتخذت أشكالا باختلاف اهتمامات المصادر وبقربها أو بعدها عن زمن الشيخ. فقد شكل الشيخ احماد أوموسى موضوع العديد من الروايات الشفوية والمكتوبة على حد سواء. نذكر من المكتوبة منها : مناقب البعقيلي [12] وبشارة الزائرين في حكاية الصالحين لداود الكرامي [13] وتقييد السكيتي [14]، ودوحة الناشر لابن عسكر [15] ودرة الحجال لابن القاضي [16] ومرآة المحاسن للفاسي [17] والفوائد الجمة للتمنارتي [18] ونوازل السكتاني [19] ومجموع في أخبار الشيخ بن موسى ليبورك السملالي [20] وكتاب المعزي في مناقب الشيخ أبي يعزى للصومعي [21] وممتع الأسماع للمهدي الفاسي [22] وروضة التحقيق للدوماني [23] والمناقب

11. البحث السابق، ص. 52 ـ 57.
12. البعقيلي (محمد). مناقب البعقيلي، تحقيق محمد المختار السوسي سلسلة مصادر المعسول 1 ـ الطبعة الأولى 1987 م ص. 8 ـ 20.
13. داوود الكرامي، بشارة الزائرين، مكروفلم خزانة الوثائق بالرباط رقم 319 ص. 18.
14. السكيتي، تقييد، نسخة عبد الرحمان بن محمد العوقي، الخزانة المسعودية.
15. ابن عسكر (محمد الحسني)، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر تحقيق محمد حجي، الرباط، 1976، ص. 83 ـ 84.
16. ابن القاضي (أحمد بن محمد)، درة الحجال في غرة أسماء الرجال، نشر وتصحيح ي، س علوش، المطبعة الجديدة نهج المامونية الرباط 1934 ص 87 رقم 191.
17. الفاسي (العربي)، مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن، طبع على الحجر بفاس عام 1906، ص 138.
18. التمنارتي (أبو زيد عبد الرحمن)، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخطوط مصور بخزانة كلية الآداب بالرباط ص. 67 ـ 78.
19. السكتاني (أبو المهدي عيسى) النوازل، مخطوط خزانة محمد العثماني، انزكان ص. 366 ـ 367.
20. السملالي (يبورك) : «مجموع في أخبار الشيخ ابن موسى» نقلا عن المختار السوسي، المعسول، ج 12 ص 41.
21. الصومعي (أحمد بن بلقاسم)، المعزي في مناقب الشيخ أبي يعزى، دراسة تحقيق علي د.د.ع. الرباط 1989 ج.1 ص. 215.
22. الفاسي (أحمد المهدي)، ممتع الاسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الاتباع، تحقيق عبد الحي العمراوي عبد الكريم مراد، طبعة 1989، ص. 59 ـ 61.
23. الدوماني (علي بن محمد)، روضة التحقيق في فضائل آل الصديق، مخطوطة خاصة.

للحضيكي [24] ونزهة الحادي للافراني [25] والاعلام بمن حل مراكش و أغمات من الاعلام للمراكشي [26] والترجمان للزياتي [27] والاستقصا للناصري [28] والمعسول وسوس العالمة وخلال جزولة وإيليغ قديما وحديثا للمختار السوسي [29] وغيرها مما قصر عنه جهدنا ولم تطله يدنا.

ولكي لا يتفرق مجهودنا عبر هذه المصادر المتنوعة، سنحاول استقراء أهمها، ونعني بذلك مناقب ادفال الدرعي. ونبني اختيارنا هذا على أساسين هما :

- المعاصرة للشيخ.
- والتنوع في المضامين.

- الشيخ احماد أوموسى من خلال مناقب أدفال :

ادفال الدرعي السوساني المتوفى سنة 1023 هـ/1614م. تراجع ترجمته عند ابن القاضي في درة الحجال [30] والأفراني في صفوة من انتشر والحضيكي في المناقب [32] ولعل أبرز ما يمكن تسجيله بخصوص أدفال ما أورده الأستاذ محمد حجي في معلمة المغرب و ج 1 ص. 284 حيث قال : «هو أحمد بن محمد الحسين السوساني الدرعي، توفي والده وهو صغير فكفله الشيخ محمد بن علي التمكروتي ورباه في زاويته. ثم خرج أحمد في طلب العلم إلى زاوية ابن مهدي في أرباض مدينة زاكورة ومنها إلى فاس حيث أخذ عن

---

24. الحضيكي (أبو عبد الله)، المناقب، المطبعة العربية برحبة الزرع البيضاء، ص. 2 – 12.
25. الافرني (محمد الصغير)، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي تحقيق هوداس، 47 – 55.
26. المراكشي (العباس بن ابراهيم)، الاعلام، المطبعة الملكية الرباط 1974، 233 – 236.
27. الزياني (أبو القاسم)، الترجمان المغرب عن دول المشرق والمغرب، مخطوطة الوثائق بالرباط رقم 6580، ص. 343.
28. الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب الدار البيضاء 1955 ج 5 ص. 39 – 88.57.53.47 ج. 7ص. 38.
29. السوسي. المعسول.
30. ابن القاضي. درة الحجال.
31. الافراني. صفوة من انتشر.
32. الحضيكي. مناقب.

الشيخين عبد الوهاب الزقاق وعلي بن هارون وطبقتهما قبل أن يتوجه إلى سوس لسلوك طريق القوم على يد الشيخ أحمد بن موسى السملالي وقام أدفال بعد ذلك برحلة طويلة إلى الشرق حيث لقي عددا كبيرا من العلماء والصلحاء». ورغم أخذ أدفال عن هذا العدد الكبير من العلماء وعلى رأسهم الشيخ البكري، أبرز أعلام مصر، فإنه ظل يعترف بالمكانة المتميزة لشيخه احماد أوموسى إيمانا منه بأن : «السادات المتصوفة أفضل منزلة من الفقهاء أهل العلم لا يرتاب في ذلك إلا من تاه ووقع في بحر الحيرة» [33].

هذا عن أدفال أما مناقبه فمخصصة للحديث عن شيخه احماد أوموسى واستهلها بعد البسملة والدعاء بالحديث عن دواعي التأليف قائلا : فالغرض من هذا التنبيه على بعض فضائل ولي الله تعالى الفذ الغريب ذي المناقب الباهرة والعلوم الفاخرة اللدنية الربانية شيخنا وأستاذنا الأعظم الأحب الأعز سيدي احماد أو موسى» [34]. وإذا كنا لا نشك في العلاقة المتميزة التي ربطت أدفال بشيخه أحماد أو موسى والتي تجد صداها الكبير في توالي زيارات ادفال لشيخه لتصل إلى عشر زيارات متتالية امتدت من 961* هـ إلى 971* هـ، فإن هذا لا يمنع من القول إن اهتمام أدفال بشيخه يتجاوز الرغبة في التعريف بفضائله إلى محاولة الدفاع عنه والرد على المتشككين في ولايته. فبتتبعنا لمختلف الردود التي احتواها تقييد أدفال نلمس نوعا من التجند لضحض بعض الأقاويل في حق الشيخ ويظهر ذلك في العبارات التالية يقول أدفال «إن عجائب الشيخ سارت بها الركبان وتواترت بها الأخبار ولم ينكرها إلا عاند أو حاسد أو جاهل. إليهم يعود حسدهم وعنادهم وجهلهم» [35]. ويضيف : «إن غرائبه على ما سمعت كثيرة، وما علمت أنه كان في زمانه مثله، ولكن قد يظن الجاهل القاصر إذ لم يسمع منه بعض الدعاوي التي تصدر من بعض من ينتسب إلى المشيخة أنه غير شيخ وأنه ناقص» [36]. إلى أن يقول : «وقد مارست أحواله وخبرته رضي الله

---

33. أدفال، مناقب، ص 5.

34. المصدر السابق، ص. 7.

* الموافق لـ : 1553 – 1554.

* الموافق لـ : 1563 – 1564.

35. المصدر السابق، ص. 7.

36. المصدر السابق، ص. 8 – 9.

عنه فإن لم يكن هذا السيد شيخ وقته فمن ذا يكونه، لكن غلبة الجهل والعناد» (37).

ويستنتج من هذا كله أن الشيخ احماد أوموسى كان موضوع جدال بين مبجل له و متشكك في مشيخته.

منهجه : هذا عن دواعي تأليف أدفال المناقبه، أما منهجه فتقليدي بالأساس، وهو يعيد إلى الأذهان طرق التصنيف في الحديث، باعتماده السند في نقل الخبر فيقول : «من نقلت عنه وكان عندي ثقة وثقته بقولي ثقة، ومن وثقته فيما حدثني به خاصة قلت حدثني من أثق بحديثه، وإن كان ممن يوثقه غيري ومن لم يكن عندي بغيرها هاتين المنزلتين لم أذكره بالثقة أصلا، ومع هذا لا أزكي أحدا» (38)، ويقر أدفال أنه «قد تشوف بعض الناس أن نحدثهم بمثل هذا لا عن غيري فلم يجد إليه سبيلا» (39). وعذره في ذلك «أنه لا يعرف الرجال إلا الرجال» (40) وهو ليس منهم، ويعني بالرجال المتصوفة.

واستمر اهتمام أدفال بشيخه احماد أوموسى حتى بعد وفاة هذا الأخير لنجده ينهي مناقبه في أوائل شهر محرم 973 هـ/1565.7.29م مما يدل على الحضور المتزايد للشيخ احماد أوموسى في ذاكرة أدفال كما هو حاضر في ذاكرة أهل الجنوب المغربي عامة (41). لكن الاهتمام الكبير والمحبة الظاهرة التي أحاط بها أدفال شيخه احماد أوموسى في مناقبه لا تتناسب والأسلوب العام الذي كتبت به هذه المناقب. وقد تفطن أدفال إلى ذلك بنفسه وعبر عنه بقوله «كنت لا أستعمل في هذه الأوراق الفصاحة وإجادة الخط بل بحسب الامكان ألهاني عن ذلك ما يعلمه الله» (42) إلى أن يقول «وفي هذا القدر من ذكر مناقبه البركة كتبتها حسب إمكاني مع ضعفي جدا أطلق القلم واللسان يجريان بما شاء الله (...)» (43).

37. المصدر السابق، ص. 8.
38. المصدر السابق، ص. 8.
39. المصدر السابق. ص 8.
40. المصدر السابق. ص 8.
41. ناعمي (مصطفى)، مادة «احماد أوموسى» معلمة المغرب، ج. 1 ص. 161 – 162.
42. أدفال، المصدر السابق، ص. 5.
43. المصدر السابق، ص. 14.

مضمـــون المناقـــب :

أشرنا فيما سبق إلى أن مناقب أدفال شأنها في ذلك شأن المناقب عامة، تسعى إلى تثبيت اعتقاد الاتباع في شيخهم، وأدفال لا يخفي ذلك وإنما يصرح به قائلا : «قد كتبت هنا ما يزيد به المحب محبة في سيدنا وفي غيره» (44) .

ومضمون المناقب في عمومها لا يختلف في شيء عن مضامين كتب المناقب خاصة ما تعلق بجانب الكرامات فأدفال يشير إلى أن «ما في أولياء الله تعالى القدماء من مناقب ففي سيدي أحمد بن موسى أكثر من ذلك» (45). بل يزيد على هذا أنه «في الشهرة مثل ولي الله تعالى أبي العباس السبتي». (46). «وكل ما يذكر الناس في فضائل سيدي أبي العباس السبتي كان في سيدي احمد بن موسى» (47). إلى أن يقول جوابا عن سؤال بعض محدثيه «أو لم تطالع الكتاب الذي فيه مناقب سيدي أبي العباس، فقلت نعم، فقال سيدي أحمد مناقبه أكثر (48).»

على أن التشابه الكبير بين مناقب الشيخ احماد أوموسى ومناقب من سبقه من الأولياء لا يمنع من وجود شواهد حقيقية تختص بالشيخ احماد أوموسى وتخصه ففضلا عن حديثه عن هواجس الضمير الذي يعد من أبرز كرامات الشيخ (49) هناك جملة من الأحداث التي استرعت انتباهنا والتي تتتبع تجربة الشيخ احماد أوموسى ومنها حديث أدفال عن طفولة الشيخ ورعونته ثم ابتداء أمره وصلاحه ثم سياحته ومدتها ثم شيوخه في التصوف ثم ذيوع صيته وأخيرا طريقته في التربية والتدريس.

1. طفولـة الشيـخ احمـاد أوموسـى :

يستهل أدفال حديثه عن طفولة شيخه وانتقاله من حاله اللهو إلى حالة الصلاح بلفظه «قيل» وتتكرر هذه اللفظة التي تحيل على المجهول المطلق

44. المصدر السابق، ص. 8.
45. أدفال، مناقب، ص. 1.
46. مناقب، ص. 1.
47. مناقب، ص. 1.
48. مناقب، ص. 10.
49. أدفال، مناقب، ص. 6.

خمس مرات [50]، تتعلق كلها بنقل أخبار طفولته وسياحته ودخوله الخلوة.

وتتفق مناقب أدفال مع ما ورد في مصادر أخرى [51] على شعب الشيخ في صباه ويذهب أدفال إلى تأكيد أنه سمع عن مثل هذه الأوصاف ممن عاني من رعونه الشيخ في شبابه [52]. وإذا كان البعض يعتقد أن الفضل في انتقال الشيخ من حالة الصبا واللهو إلى حالة الولاية يعود إلى الشيخ ابراهيم بن علي دفين إيمولا بايغشان [53] فإن أدفال يرى أن الشيخ محمد الوجاني، دفين «وجان» هو ذلك الشيخ المسن الذي عجز عن حمل قفته «مكتفيا بالدعاء لحاملها»، [54] ومما أعطى للموقف نوعا من الهالة والرهبة هو انتقال احماد أوموسى مباشرة بعد هذه الحادثة، من طفولته المرحة إلى حالة جديدة. والصورة كما نقلتها مناقب أدفال تؤكد على أن هذا الانتقال لم يكن سهلا، كما قد يبدو، بل امتزج فيه عرق الطفل بعسل التين والحناء السائل على رقبته تأكيدا على إصراره المتزايد على التغيير [55].

2 . سياحته :

بعد كل حكايته مع صاحب الفقه «بدأت فيه الأحوال فذهب لسيدي عبد العزيز التباع في حال الذهول [56] وقد أثارت سياحة الشيخ احماد أوموسى تساؤلات أدفال خاصة ما تعلق منها بسياحته الدنيا كلها، كما يقال، وصعوده إلى «جبل قاف». فتساءل أولا حول إمكانية سياحة الدنيا كلها وكان جواب الشيخ محمد أوبراهيم التمنارتي «إن سلكها فقد مشاها» [57] أما بخصوص صعوده جبل قاف فقد سمع أدفال الشيخ الحسن بن عثمان [58] يردد في مجلس قرائه أن الشيخ طلع جبلا مسيرته ثلاثون شهرا بين الظهر والعصر [59].

50. مناقب، ص. 7.
51. الرسموكي، وفيات الرسموكي، تحقيق المختار السوسي، طبع رضي الله المختار السوسي، مصادر المعسول، 2 الطبعة الأولى 1988، ص. 12.
52. مناقب، ص. 6.
53. مناقب، ص. 6.
54. أدفال، مناقب، ص. 6.
55. مناقب، ص. 2.
56. انظر ترجمته في فهرس أحمد المنجور، تحقيق حجي (محمد)، الرباط 1976 ص. 51.
57. مناقب، ص. 1.
58. مناقب، ص. 5.
59. مناقب، ص. 5.

وتبقى الروايتان اللتان أثارتا شكوك أدفال هما «أنه لما طلع جبل قاف أصابته السماء في جبهته» [60] والثانية ما حكي عنه أنه «علق شكارته بالثريا» [61] لكن ما لبث الأمر أن سهل على أدفال حين رأى ما يماثل ذلك في كتاب روضة الرياحين في حكاية الأولياء والصاحلين [62].

أما مدة سياحة الشيخ احماد أوموسى، حسب المناقب أيضا، فناهزت الثلاثين سنة وكانت غير متصلة، إذ كان يقطعها لتفقد أحوال أهله ببومروان [63] وثلاثمائة ونصف مائة «كان أولهم سيدي محمد الوجاني ثم عبد العزيز التباع ـ

يتراوح عدد شيوخ أحمد أوموسى، حسب مناقب أدفال ما بين ثلاثمائة وثلاثمائة ونصف فأحمد بن يوسف الملياني وعبد العزيز القسنطيني»[64]. ويشكل الشيخ التباع أبرز شيوخ احماد آوموسى، وتبتدئ علاقته به بعد حادثة القفة. فبعدها مباشرة، رحل إلى مراكش في حالة من الذهول ولما وصلها ودخل سوقها أخرج إليه التباع من يأتيه به، وحين لقيه أمره بالانتظار خارج الدار، فظل احماد أوموسى في مكانه بمزبلة لا يبرحها، لمدة ثلاثة أيام، خوفا من تفقد الشيخ له فلا يجده وبعد انقضاء زمن الانتظار امتثل المريد لأوامر شيخه بانصرافه للنوم. وقد طالت مدة نومه إلا أنه «ظن أنه نام كما ينام الناس» [65] فلما قال له الشيخ «إنما نمت سبعة أيام» [66] استغرب ذلك في نفسه وقال في نفسه أيضا «الشيخ لا يكذب» [67] فوقع التصديق بكلام التباع قبل البحث عن قرائن مادية تثبت صحة ما قاله. وتراعي حكاية أدفال هذا التدرج لتسجل أنه نظر بعد ذلك «إلى جسده فوجده قد نحل وإلى الأرض التي نام عليها فإذا هي قد تندت فظهر له صدق الشيخ» [68].

وخلاصة علاقة احماد أوموسى بالتباع هي اختبار النفس وحثها على المجاهدة والتصديق المطلق للشيخ.

60. مناقب، ص. 5.
61. مناقب، ص. 2.
62. أدفال، مناقب، ص. 4.
63. مناقب، ص. 6.
64. مناقب، ص. 6.
65. مناقب، ص. 6.
66. مناقب، ص. 6.
67. مناقب، ص. 3.
68. مناقب، ص. 3.

4. ذيوع صيت الشيخ احماد أوموسى :

تحدث أدفال في مناقب متعددة عن ديوع صيت الشيخ احماد أوموسى وحدد ذلك بأماكن معروفة، كحديثه عن شهرة الشيخ في ماسة غربا [69] وسلا شمالا [70] وفكيك [71] ومكة [72] وبغداد [73] شرقا ودرعة [74] وبلاد السودان [75] جنوبا.

وتتمظهر شهرة الشيخ احماد أوموسى وذيوع صيته في أمرين أولهما : ادعان شيوخ وقته له فكان الشيخ أحمد بن عبد الرحمان التزركيتي [76] والشيخ محند أوبراهيم التمنارتي يعظمانه [77] كما كان الشيخ محمد بن يعقوب التاتلتي ومحمد بن وسعدن يثنيان عليه [78] واعترف بكراماته كل من سعيد بن عبد المنعم [79] وعبد الكريم الفلاح [80] وعبد الله الغزواني [81] وحدثوا بها [82].

أما الأمر الثاني فمرتبط بإزدياد مداخيل الزاوية فقد سجل أدفال التحول الذي عرفته زاوية الشيخ من فترة الفقر المذقع إلى المرحلة التي «فاضت عليه الأسباب» [83] وعلق على ذلك بأنه «حكم الله مع أهل الله في بدء أمرهم الفقر والذل ثم الوجد والعز لحكمة في ذلك» [84].

---

69. مناقب، ص. 3.
70. مناقب، ص. 3.
71. مناقب، ص. 3.
72. مناقب، ص. 3.
73. مناقب، ص. 3.
74. انظر ترجمته في : السوسي المختار، المعسول، مطبعة النجاح، الدار البيضاء ج. 13، ص. 266 – 278.
75. مناقب، ص. 2 – ص. 10.
76. مناقب، ص. 3.
77. مناقب، ص. 5.
78. مناقب، ص. 5.
79. مناقب، ص. 5.
80. مناقب، ص. 5.
81. مناقب، ص. 10.
82. مناقب، ص. 10.
83. أدفال مناقب، ص. 2.
84. مناقب، ص. 12.

5. طريقة الشيخ احماد أوموسى في التربية والتدريس :

تقوم التربية عند الشيخ احماد أوموسى على الاشادة والنصح المستمر ولا يقتصر الأمر على المريدين بل تشمل المشورة باقي الشيوخ الذين يفدون عليه [85] ولعل أبرز ما واظب الشيخ على حث المريدين عليه هو الاقتصاد وعدم الافراط، ومبدأه هذا لا يقتصر على الاقتصاد في الأمور الدنيوية بل يتعداها إلى أمور أخرى دينية فنراه يقول لأدفال «وأما كثرة الأوراد فلا تشق بها نفسك» [86].

هذا عن التربية أما التدريس فينبني على مقوم أساسي هو تشبع الشيخ احماد أوموسى بعلم الباطن أكثر من نهله من علم الظاهر، واقتصاره على العلم الأول جعله قطب سوس الأول في هذا المجال [87] فهذا التزركيني يقول لمن حدثه عن رغبته في الانتقال إلى فاس لطلب العلم : «العلم علم الظاهر والباطن إن كان مرادك الظاهر فأي شعبة شئت من جزولة أخذته منها، وإن كان مرادك الباطن فخليق له ذلك الرجل الذي كنت عنده [88] (ويعني به الشيخ احماد أوموسى).

ورغم شهرة الشيخ في مجال علم الباطن فإنه كان يرفض ما كان عليه صوفية مراكش ودرعة من التعدد والكثرة [89] كما كان يرفض أن يكون شيخ، أحد «وإنما يقول أصحابي وفي بعضها يقول لهم رسول الله ﷺ شيخ الكل» [90]. وإذا ما أراد شخص تشييخه يخلو به ويقول له «تقبلني» [91] أو يضمر ذلك في نفسه وينتظر ما يكون منه [92] وكان أدفال ممن اتبع الطريقة الثانية في التشييخ فقال «اللهم أشهدك وملائكتك وأنبياءك أني جعلت سيدي أحمد على نفسي خليفة لسيدي محمد بن علي» فكان رد الشيخ «أخوة لله» ثم صافحه [94].

---

85. مناقب، ص. 4.
86. مناقب، ص. 4.
87. مناقب، ص. 11.
88. مناقب، ص. 7.
89. مناقب، ص. 7.
90. مناقب، ص. 7.
91. مناقب، ص. 7.
92. مناقب، ص. 7.

خلاصة :

بعد هذه القراءة المتواضعة في مناقب أدفال، منهجا ومضمونا، نود تسجيل الملاحظات التالية :

تجسد مناقب أدفال جانبا مهما من الجوانب الحياتية للزاوية السملالية في مرحلة التأسيس وذلك بتسليطها الضوء على الممارسات الدينية والصوفية لشيخها احماد أوموسى. على أن هذه المناقب تبقى غير كافية لوحدها لإعادة كتابة تاريخ الزاوية. فهي تغفل جوانب أخرى من حياة الشيخ المؤسس ومن حياة الزاوية عموما. فأدفال مثلا لم يهتم بنسب الشيخ احماد أوموسى، كما أنه لا يثير المستجدات السياسية التي كان القرن 16م حقلا لها والتي شكلت الزوايا حلقة أساسية ضمنها اللهم إذا استثنينا حديثه عن حصار البريجة الذي قال فيه نقلا عن الشيخ أن جهاد الكفرة الكائنين بالبريجة لن يتم إلا بشرط وهي إشارة تتكرر مرتين في مناقب أدفال [95] وتحمل رغم اقتضابها دلالات بالغة.

---

94. أدفال، مناقب، ص. 4 ـ ص. 14.

كورتيس وشركة سوس وشمال إفريقيا

خالد بن الصغير
المدرسة العليا للأساتذة
الرباط

كان التاجر البريطاني، جيمس كورتيس J. Curtis، الذي ولد بأندونيسا في 1846، من بين أشهر التجار البريطانيين الذين أقاموا في المغرب، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لأغراض تجارية [1]. ورد ذكره للمرة الأولى في المراسلات المخزنية كتاجر مقيم بالصويرة خلال سنة 1863، يهتم بتجميع الزيت بكميات كبيرة من المناطق الجنوبية لتصديرها مباشرة إلى السوق اللندنية [2]. ويبدو أن مشاكله بدأت من المخزن منذ هذا التاريخ، وإلى حدود 1884 تاريخ مغادرته للمغرب وتوجهه إلى مصر حيث كانت وفاته هناك في السنة الموالية. في 1863، اشتكى المخزن من ترامية على العقار العمومي بوضع براميل على مقربة من المصلى [3]، كما اتخذ لنفسه عرصة بأحواز الصويرة وبنى بها مسكنا وصهريجا مائيا لسقي غلاتها [4]. وكان المخزن يبدي تخوفه الكبير من ذلك، لما له من علاقة بتجارة التهريب. حيث جاء في إحدى المراسلات المخزنية ما يلي : «وغير خاف (...) أن الروم الآن جعلوا أصحابهم من الصويرة إلى واد نون، فما وراء ذلك. وعراصيهم جعلوها حيلة وشبكة في محل مرور القفل [القوافل] الواردة بالسلع للصويرة، من زيت وسمن وعسل وقمح وقطنية وريش وشمع وعنبر وجلد وكركدان وغير ذلك من السلع الواردة لهم، بحيث إن أرادوا وسقها ليلا أو نزول شيء من المركب فلا مانع لهم (...)» [5]. وكان كرتيس يستفيد بطبيعة الحال من هذا الوضع، خاصة وأن

---

1. Miège, (J.L), **Le Maroc et l'Europe** (1830-1894), P.U.F. Paris, 1962, tome 2, p.251, tome 3, p.316-317.
2. دورية الوثائق، ج 4، ص 255 – 254، رسالة بركاش إلى د. هاي، 21 ذي الحجة 10/1279 ماي 1863.
3. نفسهـا.
4. رسالة بن عمرو إلى بنيس، 7 ربيع الثاني 30/1282 غشت 1865، محافظ الصويرة، مديرية الوثائق الملكية.
5. نفسهـا.

علاقاته التجارية بالمؤسسات اللندنية كانت قوية، سواء على مستوى التصدير أو الاستيراد من وإلى المغرب. وحاول في سنة 1867 أن يصبح كمزود للمخزن بالأسلحة، لكن تبين بأن أصناف البنادق التي حاول بيعها لتستعمل من طرق الجيش المغربي كانت من النوع الردئ، فردت إليه [6]. وما كان لتلك الصفقة الخاسرة إلا أن زادت من شكوك المخزن إزاء كورتيس، غير أنها لم تحل دون استمراره في مزاولة مهامه التجارية انطلاقا من مرسى الصويرة، مع جل المناطق السوسية والجنوبية بوجه عام، بل أصبح إلى جانب التاجر الانجليزي بيري D. Perry من أكبر تجار مدينة الصويرة على الإطلاق [7] وكانت وسيلته في ذلك، إلى جانب إمكاناته المالية الضخمة، الاعتماد على محميين مغاربة من المناطق المذكورة. فكان لديه سماسرة يشتغلون لحسابه منذ 1868 مثل داوود بن شماس بتارودانت، وميمون ليفي في مراكش [8]، اللذان كانا يشغلان معهما مغاربة آخرين ينتمون إلى المناطق المتاخمة لمراكش وتارودانت وأيضا إلى القبائل الممتدة إلى حدود وادي نون، لتصريف البضائع الأوروبية الصنع، كالمنسوجات القطنية والشاي والسكر والعقاقير، وشراء المنتجات المحلية وخاصة الزيت والفواكه الجافة كاللوز بالإضافة إلى التمور التي كان الطلب كبيرا عليها في السوق اللندنية بوجه خاص. ويبدو أن الظروف العامة للمغرب، وخاصة بالنسبة للسكان المقيمين في الأطراف الجنوبية لم يكن لديهم بعد الإستعداد الكامل للدخول في التيار التبادلي الرأسمالي الذي كان سائدا وقتئذ في البلدان الأوروبية، لضعف أحوال الرعايا المغاربة الذين استهدفتهم التجارة الدولية عن طريق نماذج من التجار الأوروبيين وخاصة البريطانيين من بينهم كما هو الحال بالنسبة لكورتيس وأمثاله. وأمام الإغراء الذي كانت تشكله المنتوجات الأوروبية، لم يكن أبناء القبائل يترددون في اقتناء السلع ولو عن طريق السلف والطلق. وغالبا ما أدى عجزهم عن الأداء إلى مشاكل لا حصر لها، بين التجار البريطانيين وممثلي المخزن والقضاة والعدول وقواد المناطق التي كانت يقيم بها

---

6. رسالة بن اليماني إلى كورتيس، 16 محرم 20/1284 ماي 1867. انظر كناشة بن اليماني، بالخزانة الحسنية تحت رقم 10933.

7. D. J. Schroeter, Merchants of Essaouira, Urban society and imperialism in soutuwestern Morocco, 1844-1886, p.134.

8. مييج، المرجع السابق، ج 3، ص. 317، أيضا شروتير، المرجع السابق، ص. 166.

العاجزون عن تسديد ديونهم. وضرب كورتيس رقما قياسيا في هذا الباب، حيث أغرق السوسيين في الديون التي عجزوا عن تسديدها [9].

سجلت سنة 1879 توقيع اتفاق بين التاجر البريطاني مكنزي D. Mackenzie وبين محمد بن بيروك، حصل بموجبه الطرف الأول دون علم المخزن، على مساحة أرضية بطرفاية، أسس بها محطة تجارية سماها بشركة شمال غرب إفريقيا Northwest African Company، وقرر فتح مرسى هناك أمام التجارة. إن هذه القضية لا تهمنا معرفة تفاصيلها في هذه المناسبة، بقدر ما تهمنا انطلاقا من كونها شكلت سابقة وحافزا لكورتيس الذي لم يتردد في تنفيذ فصول مغامرة مماثلة في سوس بعد مرور سنة فقط من الزمن. وفي الوقت الذي كان فيه المخزن يحاول جاهدا معالجة قضية مكنزي، فوجئ مجددا بوجود اتفاق بين مجموعة من التجار المقيمين بالصويرة وهم بالتتابع : يول Yule، بورم Broom، وكورتيس Curtis وكلهم بريطانيون، بالإضافة إلى براور Brauer الألماني الجنسية، وبين شيوخ آيت باعمران، في سنة 1880. وكان الهدف من ذلك هو حصولهم على إمكانية فتح مرسى أمام التجارة في أركسيس الواقعة بين واد نون وواد ماسة. وتمكننا من العثور، في الأرشيف البريطاني، على النص الإنجليزي لذلك الإتفاق المؤرخ ب 26 ربيع الثاني 1297 / 7 أبريل 1880 [10]، مما يوحي بأن النص الأصلي للإتفاق حرر بالعربية، وإن كنا لم نتمكن لحد الساعة من الحصول عليه في محلات الأرشيف المغربي.

يمكن تلخيص مضمون هذا الإتفاق-في نقطتين أساسيتين، تتعلق الأولى بأربعة شروط وضعها الأربعة الواردة أسماؤهم أعلاه، وهي كالتالي :

- حصول التجار من الشيوخ على مكان معين إما في سيدي محمد بن عبد الله، أو في إفني، أو في جهة أخرى داخل منطقة آيت باعمران. ويعنون

9. شروتير، المرجع السابق، ص 170، نموذج لديون كورتيس على عناصر من إد وباعقيل في 1866 انظر أيضا خالد بن الصغير، المغرب في الأرشيف البريطاني، ولادة، الدار البيضاء، 1991، الوثيقة رقم 190، رسالة من هاي إلى بركاش، 6 غشت 5/1867 ربيع الثاني 1284. ويتبين منها أن كورتيس كانت له ديون كثيرة لدى عناصر من قبيلة أحمر، وحاحة والشياظمة ومراكش وسوس أيضا.

10. F.O. 99/215, Translation of Treaty Between The Sheichs of Ait - Bou Amaran And Messrs. Yule, Brauer, Broom & Curtis.

بذلك مكانا يعتبرونه مناسبا وصالحا ليكون كمرسى تجارية يتم فتحها بتعاون مع سكان آيت باعمران.

ـ أن التجار الأربعة يطلبون الحصول من الشيوخ على قطعة أرضية على مقربة من المرسى للنزول والإقامة بها لتخزين السلع التي يمكن أن تأتي في اتجاه المرسى عبر البر أو البحر.

ـ أن التجار الأربعة يطلبون من الشيوخ عدم السماح لأية دولة أجنبية ولا لأي شخص كان بالمجيء إلى المرسى لأغراض تجارية طوال المدة التي قد يمكثون خلالها في المنطقة.

ـ أن التجار الأربعة يطلبون من الشيوخ الأمان على أنفسهم وسلعهم وعلى كل من يأتي معهم إلى المرسى، في كل بلاد آيت باعمران [11].

أما النقطة الثانية، فتتعلق بموافقة الباعمرانيين على الشروط أعلاه. ويبدو من خلال النص الإنجليزي للإتفاق، بأن شيوخ القبائل الباعمرانية اجتمعوا فيما بينهم وتشاوروا حول تلك المطالب، وأعلنوا موافقتهم على إدخالها حيز التنفيذ. ويتضمن الإتفاق إشارة يستفاد منها بأن الشريف الحسين أو هاشم بارك الإتفاق واعتبره ذا فائدة لصالح الباعمرانيين وجيرانهم، وتأتي بعد ذلك توقيعات وأسماء شيوخ القبائل ونشير بأن قراءتها غير واضحة لأنها لم تنقل فيما يبدو بطريقة سليمة من نصها العربي إلى الإنجليزية [12].

مباشرة بعد انتزاع وثيقة الإتفاق من شيوخ القبائل، حل كورتيس ببريطانيا للقيام بالإجراءات القانونية الضرورية للإعلان عن تأسيس شركته التجارية، ففتح لها مكتبا خاصا في لندن، وأعلن بتاريخ 25 شتنبر 1881، عن إنشاء الشركة التي حدد رأسمالها الإجمالي في 150.000 ، مقسمة إلى 30.000 من الأسهم بقيمة 5 لكل واحد منها. وعمل على طبع نشرة تمهيدية Prospectus وصف فيها الدوافع التي كانت من وراء إنجازه لذلك المشروع بكامل التفاصيل [13]. وتضمنت تلك النشرة التي كان الهدف من وراء إصدارها هو استقطاب أكبر عدد من المساهمين في رأسمال الشركة، معلومات مغلوطة،

---

11 . نفسهـا.

12 . نفهسـا.

13 . F.O. 99/215. Prospectus of the Sus and Noth African Trading Company, Limited.

لا علاقة لها حتى بالمضمون الوارد في نص الإتفاق الذي تم بين التجار الأربعة وبين شيوخ آيت باعمران، والتي يمكن القول باختصار بأنها كانت مجرد أكاذيب على الرأي العام البريطاني لجر عناصر من ذوي المال إلى الدخول في تلك المغامرة القائمة على أسس غير قانونية. ويمكن مناقشة مضمون تلك النشرة عبر النقط التالية :

1. الأهداف التي كانت تنوي الشركة تحقيقها :

الحصول على امتياز خاص يخول لها الانفراد بحق القيام بأعمال التجارة دون أداء أي رسوم جمركية في كل السواحل السوسية الممتدة ما بين واد ماسة وواد نون، كمجال حصلت عليه مجموعة من تجار الصويرة بموجب معاهدة تجارية أبرمت بينهم وبين شيوخ سوس.

الحصول على مجال يمكن **الاستقرار به في إفني**، يحمل إسم مرسى هيلسبورو Port Hillsborough، الواقع في الجزء الساحلي الأوسط الذي لا يبعد عن سوق واد نون الهام إلا بثلاثين ميلا. ذلك السوق الذي تصل إليه وتنطلق منه القوافل في اتجاه كل جهات إفريقيا الوسطى، وكذا في اتجاه المناطق الساحلية الممتدة بين واد نون وماسة. وتتمتع الشركة بكامل الحقوق التي تخول لها حق القيام ببناء المخازن والدور، بل وبناء مرسى بتجهيزاته الكاملة إذا كانت الحاجة ماسة إليها، لانزال السلع وتخزينها.

ـ الحصول على المعادن الموجودة بكثرة في المنطقة عن طريق الشراء، وخاصة بالمناطق المجاورة لإفني.

ـ العمل على الرفع من حجم تجارة التصدير والاستيراد القائمة بين المنطقة وكل الجهات الشمالية الغربية لافريقيا التي كانت تتم وقتئذ عبر الصويرة الواقعة ضمن الأراضي المغربية والتي تعاني من فرض رسوم جمركية مرتفعة.

2. الوضعية العامة في سوس :

ـ اعتبرت النشرة التمهيدية للمشروع بأن منطقة سوس تقع جنوب المغرب، وتبتدأ من واد سوس لتمتد في اتجاه الجنوب إلى حدود الصحراء مع وجود مجال ساحلي يمتد على المحيط الأطلسي. أما السكان، الذين قدرت

النشرة عددهم بثلاثة ملايين فهم عبارة عن قبائل مستقلة، تخضع كل واحدة منها إلى سلطة أشياخها الذين يعتبر السيد الحسين أو هاشم المنحدر من سلالة سلاطين سوس القدماء أكثرهم نفوذا.

ـ أن بلاد سوس غنية بخصوبتها وخيراتها الزراعية، وتتوفر على غلات ومنتوجات فلاحية كبيرة، كاللوز وزيت الزيتون والصمغ والعلك وريش النعام وجلود الماعز وغيرها. وأن تلك المواد لم يتوقف تصديرها منذ سنوات في اتجاه أوروبا بوجه الخصوص.

ـ أن بلاد سوس غنية بالمعادن من كل الأنواع، الحديد والنحاس والفضة والذهب بكميات هامة. بالإضافة إلى كميات لا حصر لها من مادة الحلفا والدوم وغيرها.

ـ أن استمرار مرور صادرات سوس عبر مرسى الصويرة يعرضها بالإضافة إلى الرسوم الجمركية العالية، إلى أداء مصاريف النقل، وقدمت النشرة نماذج إحصائية على النفقات التي يستلزمها تصدير منتوجات سوس عبر مرسى الصويرة، وعلى الأرباح التي يمكن تحقيقها في حالة توجيه نفس الصادرات من المرسى الجديدة التي كان يخطط التجار الأربعة لفتحها أمام التجارة [14].

يبدو من خلال المقارنة بين نص هذه النشرة وبين نص الاتفاق المبرم بين كورتيس ومجموعته، أن طموحات الشركة كبرت إلى الحد الذي جعل أصحاب المشروع ينسلخون عن الواقع ليصبحوا وكأنهم يعيشون فيما يشبه أحلام اليقظة. إن مجموعة كورتيس لم تكتف بالإقدام على عقد اتفاق غير قانوني مع أشخاص لم يكن لهم أي تفويض من المخزن كمسؤول شرعي عن سيادة المغرب، للدخول مع عناصر أجنبية في اتفاق من ذلك القبيل، بل أضافوا إلى ذلك اعتبارهم لمنطقة سوس كمجال غير خاضع لنفوذ المخزن، في الوقت الذي ترى فيه الحكومة البريطانية عكس ذلك، وإن كانت هي الأخرى تعتبر وادي درعة بمثابة الحد الأقصى للمغرب من ناحيته الجنوبية. باختصار شديد، فإن المعلومات الواردة ضمن النشرة التمهيدية للمشروع لم تكن تعبر عن الواقع الحقيقي لمنطقة سوس لا من الناحية الجغرافية والاقتصادية والسياسية ولا حتى

14. نفسه.

البشرية. وهذه الأمور كافية لوحدها، لتعرض المشروع بكامله إلى الاخفاق الذريع.

ماذا كان موقف المخزن والحكومة البريطانية من هذا المشروع ؟ إن بريطانيا قد تبنت، طوال القرن التاسع عشر وإلى حدود 1904، مبدأ الدفاع عن سيادة المخزن على حدوده الترابية، وشكلت عائقا أمام فرنسا وإسبانيا حال دون إقدامهما على تنفيذ أي خطة لانتهاك سيادة المخزن على البلاد. غير أن مشروع مكنزي في طرفاية ومجموعة كورتيس في سوس وبإفني على وجه التحديد جعل الحكومة البريطانية وممثلها في طنجة جون دراموند هاي John Drummond Hay أمام امتحان عسير لنياتها الحقيقية إزاء سيادة المغرب على حدوده الترابية. وإذا كانت بريطانيا قررت السكوت على مشروع مكنزي بدعوى أن حدود المغرب الجنوبية لا تتجاوز في اعتقادها وادي درعة، فإنها اتخذت موقفا حازما إزاء مجموعة كورتيس. وحينما بلغ خبر إذاعة النشرة التمهيدية لمشروع كورتيس إلى الخارجية البريطانية أمرت دراموند هاي بالمسارعة إلى طمأنة السلطان بتأكيد اعترافها بسيادته على سوس. وأعطى وزير الخارجية البريطاني كرانفيلEarl Granville تعليمات نصت على توجيه رسالة رسمية من وزارة الخارجية، لاخبار أعضاء شركة سوس بأن المجال الذي وردت الإشارة إليه في نشرتهم التمهيدية يدخل ضمن ممتلكات السلطان، وأنه لا يمكنهم تبعا لذلك توقع الحصول في ذلك المشروع على أي مساندة أو حماية من لدن حكومة جلالة الملكة، في حالة قيام سلطان المغرب بأي إجراء يكون من شأنه الوقوف في وجه الأعمال التجارية غير الشرعية بالجهات الساحلية، تطبيقا لتسوية تم إبرامها مع شيوخ محليين لم يكن لديهم أي تفويض للقيام بذلك. أما في المغرب، فقد وجه هاي تعليماته إلى نائبه القنصلي بايتون Payton بالصويرة، ليقوم بإطلاع كل التجار البريطانيين المقيمين في المنطقة التابعة لاختصاصاته القنصلية، على وجهة نظر المخزن إزاء أعمال تلك الشركة التي وصفها بكونها مخالفة للقوانين (15).

---

15. Confidential (4775), N°. 45. The Law officers of the Crown and D.r Deane-to Earl Granville, Temple, March 23, 1882.

أما المخزن فإنه لم يتوصل بخبر هذه الواقعة إلا بعد أن قامت مجموعة كورتيس بالإعلان عبر الصحف البريطانية، ومن بينها The Standard، على إنشاء الشركة وكشفها النقاب على النشرة التمهيدية للمشروع. واهتدى المخزن، لأول مرة في تاريخ المغرب المعاصر، إلى استعمال الصحافة الأجنبية كوسيلة دعائية للدفاع على حقوقه المشروعة وإحباط المشروع الذي كانت مجموعة كورتيس بصدد التهييئ لتنفيذه بسواحل سوس. حيث وجه النائب السلطاني بركاش إلى هاي نسخة من نص الإسترعاء الذي رغب المخزن في أن يتم إرساله إلى بريطانيا لكي ينشر على صفحات جريدة التايمز The Times اللندنية. واستجاب هاي إلى طلب بركاش، فأرسل نسخة من الإسترعاء إلى الخارجية البريطانية تاركا لها حرية اتخاذ قرار نشره أو عدم نشره. وأجابت الخارجية البريطانية بأنها لا يمكن أن تتولى القيام بمهمة تعتبرها خارجة عن اختصاصاتها. وفوجئ أعضاء شركة سوس بصدور الاسترعاء المخزني في جريدة التايمز [16]، وتبين فيما بعد بأن النائب القنصلي البريطاني بالصويرة بايتون هو الذي تولى إبلاغ محتوى الاسترعاء إلى الصحيفة المذكورة، دون أن يرخص له القيام بذلك لا من طرف د. هاي ولا من طرف وزارة الخارجية البريطانية. ويبدو أن وقع ذلك الاسترعاء كان كبيرا بالنسبة لمجموعة كورتيس التي أحست بالحرج الشديد، أمام ما تضمنه الاسترعاء المخزني من فضح للأكاذيب التي سبق لهم أن سطروها في النشرة التمهيدية لمشروع شركتهم. كما أحس المسؤولون في وزارة الخارجية بنوع من التقصير عندما رفضوا إرسال الاسترعاء إلى صحيفة التايمز فسارعوا إلى نشر الرسالة التي سبق لبركاش أن وجهها إلى هاي مرفقة بالاسترعاء المخزني على كورتيس بتاريخ 21 يناير 1882 [17]. ونقدم فيما يلي النص الكامل لهذا الاسترعاء الذي يوجد نصه المترجم إلى الانجليزية ضمن الأرشيف والصحافة البريطانية، بينما وجدنا نسخة من نصه العربي بالصدفة لدى أحد الكتبيين، وهو بدون تاريخ وعنوانه.

16. مييج، المرجع السابق، ج 3، ص 319، الهامش رقم 2. وفيه إشارة إلى أن بركاش استعمل صفحات التايمز لاحباط مشروع كورتيس في ثلاث مناسبات بتاريخ 1881.11.8 و 1882.2.15 و 1883.4.23.
17. الرسالة 45 السابقة الذكر، في الهامش 15.

تقييد ما يكتب في الكازيطة

الحمد لله وحده

هذا إعلام لجميع رعية كريت بريطن وغيرهم.

بأنه الواضع اسمه [محمد بركاش] وزير الأمور البرانية للجانب الشريف سلطان مراكش مولانا الحسن، على ما تخبرنا بأنه ظهر خبر في بعض الكوازيط، بأن كبانية يقولون من الأفركة دي شرش وسوس، ونزلوا عليه كثيرا الناس أسماءهم، ذكروا بأن وقع لهم التسليم بالخصوصية ليبيعوا ويشتروا بدون صاكة ولا عشور في جميع سواحل سوس الأقصى. وأن ذلك التسليم جعلوه بالشروط مع بعض الأشياخ من سوس، ومنهم ذكروا ولد السيد الحساين بن هاشم من ايت باعمران.

والواضع اسمه كيعلم بأن جميع سواحيل سوس الأقصا، هم داخلي إيالة مولانا الحسن سلطان مراكش، كما هو معروف ومقبول من دولة كريت بريطن وكل الدول. ولا فتح سيدنا مرسى من المراسي حتى الآن في تلك الناحية الباش (هكذا) من الصويرة.

وكيعلم بأن ولد السيد الحساين بن هاشم ولا الأشياخ ولا غيرهم، لم عندهم إذن من سيدنا أعزه الله بالدخول في شروطات، ولا في اتفاق مع أحد من الدول ولا من رعيتهم، ولا يقدرون يسلمون حاجة مما ذكروا في الكوازيط.

وعليها، الواضع اسمه مراده أن يعلم جميع رعية كريت بريطن وغيرهم من الدول، بأن كل واحد الذي يهبط بتلك السواحل المذكورة، أو يوسق أو ينزل سلعة من السلع، فكيخرق القوانين والشرعات لهذه الإيالة. وخدام السلطان ورعيته مأمورين يفعلوا معهم مثل ما يفعلوه مع مول الكنطربانض. ولا يقبل على أي وجه كان مطلوب على الضرر الذي يقدر يلحق لنفسهم ولأمتعتهم.

والواضع اسمه كيسترعى على الناس كلهم الذين وضعوا أسماءهم على هذا الخبر، من مرادهم يغشهم ليزعموا الناس على جعل خرق القوانين. والدرك عليهم على جميع الضرر والخسارات اللاحقة من ذلك لهذه إيالة السلطان. وأعلمنا بهذا الاسترعاء دولة كريت بريطن.

ويليه توقيع محمد بركاش

على الرغم من اتخاذ المخزن الإجراءات الدبلوماسية التي لا شك أنها أربكت مخططات كورتيس، فإن المولى الحسن ارتأى، أمام استمرار وجود مكنزي في طرفاية، ضرورة القيام بجولة لتفقد الأحوال في منطقة سوس، كمحاولة لإصلاح الخلل الموجود هناك، فكانت تلك هي حركة 1882 المعروفة. وحينما كان المولى الحسن بصدد التهييئ للقيام تلك الحركة اجتمع في لقاء ثنائي مع الوزير المفوض البريطاني جون درامونه هاي في مراكش، بتاريخ 16 أبريل 1882، وعبر له عن رغبته في الاستشارة معه حول الجولة التي كان ينوي القيام بها في سوس، فأشار إلى أنه كان ينوي تحقيق هدفين اثنين من وراء ذلك، أولهما محاولة فتح مرسى واحدة أو اثنتين بالسواحل الجنوبية الغربية كتنفيذ لاقتراح سبق لبريطانيا أن قدمته إليه. وثانيهما تعزيزه لسلطة المخزن في تلك الجهات الواقعة في أطراف البلاد [18]. وبالفعل، سبق لهاي أن اقترح على المولى الحسن، في أعقاب استقرار مكنزي بطرفاية، أثناء لقاء ثنائي جمع بينهما في فاس خلال شهر أبريل 1880، ضرورة العمل على فتح مرسى بالمناطق الجنوبية باعتبارها أفضل وسيلة لوضع حد نهائي لكل المحاولات التي قد تقوم بها عناصر أجنبية للدخول في معاملات تجارية غير قانونية مع سكان المناطق المذكورة يمكن أن تلحق الضرر بالمداخيل الجمركية للمغرب. ويبدو أن المخزن، على الرغم من انشغاله وقتئذ بأعمال مؤتمر مدريد التي كانت على وشك البداية، قد أرسل بعثة إلى سوس ومعها أوامر باختيار مكان ملائم يمكن اتخاذه كمرسى. كما كلفت عناصر البعثة بحث شيوخ القبائل على مد يد المساعدة إلى رجال المخزن لبلوغ ذلك الهدف [19]. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، ودخول شيوخ القبائل الموجودين في نفس المنطقة التي كان المخزن ينوي فتح مرسى بها في اتفاق مع كورتيس لتحقيق نفس الغاية.

على الرغم من الظروف القاسية التي كانت تعاني منها سوس نتيجة لتعاقب أربع سنوات من الجفاف، قرر السلطان القيام بحركته ليثبت للعالم بأن سلطته لم تكن اسمية فقط على سوس. وكان قد وجه قبل انطلاقته رسائل إلى

18. مجموعة (4775) السابقة الذكر، الرسالة رقم 80، من هاي إلى كرانفيل، سرية، مراكش، 16 أبريل 1882.
19. الرسالة 74 من مجموعة (4670) ومن هاي إلى كرانفيل، رافنهيل، 12 شتنبر 1880.

شيوخ القبائل السوسية يخبرهم فيها بأن قدومه في زيارة لأراضيهم لم تكن فقط بنية معاقبتهم من شأنها تسهيل المعاملات التجارية [20].

وتجدر الإشارة، إلى أنه قبيل انطلاق السلطان في حركته نحو سوس، وصل إلى مراكش شخص يدعى محمد بن الحسين، قادما من إفني كمبعوث من قبائل آيت باعمران يرغب في إخبار السلطان بأن لا يتوقع وجود أية معارضة من تلك القبائل، لكونهم على استعداد كامل للخضوع إلى سلطته والدخول في طاعته، إذا ما أكد لهم عن نواياه السلمية إزاءهم، ولم يحاول تغريمهم بضرائب ثقيلة. وطلب المبعوث المذكور بأن يتولى الوزير المفوض الإسباني ديوسدادو Diosdado والبريطاني د. هاي ضمانة سلامته حتى لا يتعرض إلى الأذى من طرف المخزن في حالة إبلاغه رسالة الباعمرانيين إلى السلطان، فتمت الاستجابة إلى طلبه. وبعد ذلك، اجتمع د. هاي بنفس المبعوث، فأخبر بوجود عدة محاولات فرنسية وبريطانية للاستقرار في إفني لاقامة تبادل تجاري هناك. وأن سكان المنطقة لا يمكنهم إخفاء استعدادهم لتشجيع الأجانب على المجيء إلى إفني، نظرا لعم وجود أي منفذ بحري يمكنهم من تصريف منتجاتهم. ونتيجة لذلك كانت هناك مراسلات واتصالات عديدة بين بعض التجار الإنجليز المقيمين بالصويرة وبين شيوخ آيت باعمران التي توجت بإبرام اتفاق مع شركة سوس وشمال إفريقيا. وأن شيوخ القبائل تولوا مهمة جمع عينات من المعادن الموجودة في المناطق المجاورة لإفني وأرسلوها إلى كورتيس ومجموعته كدليل لإبراز مدى أهمية العلاقات الإقتصادية التي يمكنهم ربطها مع المنطقة. وأضاف المبعوث محمد بن الحسين مخبرا بأن سكان القبائل، نتيجة لاستمرار الجفاف في بلادهم لمدة أربع سنوات في آيت باعمران، ومنذ أن بلغ إلى علمهم عزم السلطان على فتح مرسى بمنطقتهم، ندموا على ما فعله شيوخهم مع مجموعة كورتيس، واعتبروا أن الجفاف ليس إلا عقابا إلاهيا لحق بهم من جراء خروجهم عن طاعة السلطان. ونتيجة لهذا الاعتقاد ضغط سكان القبائل على شيوخهم لحثهم على ضرورة طلب العفو من السلطان وإعلان خضوعهم إلى سلطته، وكان ذلك هو الغرض الذي أتى مبعوثهم إلى مراكش من

---

20. الرسالة 90 من نفس المجموعة، من هاي إلى كرانفيل، مراكش، 26 أبريل 1882.

أجله (21). ويتضح بأن هذه الاعترافات التي قدمها هذا المبعوث، تساعد على تسليط الأضواء الكاشفة على الأسباب التي جعلت القبائل الباعمرانية تقدم على ما أقدمت عليه من إبرامها لاتفاق مع رعايا ينتمون إلى دولة أجنبية، كما تمكننا من فهم الأسباب التي كانت وراء تغييرها لموقفها السابق أياما قليلة فقط قبيل انطلاق السلطان في حركته إلى سوس.

وحسب الرسالة السلطانية التي تمت قراءتها في الجامع الكبير بطنجة يوم الجمعة 10 غشت 1882 بحضور النائب السلطاني محمد بركاش، فإن النتائج التي تحققت من وراء حركة المولى الحسن إلى سوس كانت جد إيجابية. حيث رحب سكان القبائل وشيوخهم بمقدم السلطان الذي عين هناك العديد من القضاة للنظر في القضايا الشرعية للسكان، وجدد ظهائر التوقير والاحترام لفائدة الشرفاء، وأعلن بأن الهدف من زيارته هو تطمين قبائل المنطقة بفتح مرسى في واد نون وبالضبط في أساكا لتسهيل أعمالهم التجارية. واجتمعت القبائل للالتقاء بالسلطان مباشرة بعد عبوره لواد ولغاس، فكان اللقاء على مقربة من أكلو الواقع في مجال آيت باعمران الذي يبعد بمسيرة حوالي ثلاث عشر ساعات على الأقدام عن موضع المرسى المرتقبة. ويبدو أن كل الزعامات القبلية ذات النفوذ، بما فيهم الموقعين على الاتفاق مع مجموعة كورتيس، قد أعلنوا خضوعهم للسلطان، الذي عين عليهم عدة قواد جدد، كما عين عاملا على قصبة تزنيت لتسهيل أعمال التجارة بسوس (22). ومباشرة بعد عودة السلطان من حركته إلى سوس، حرص على تزويد المنطقة بكميات من القمح لسد الحاجيات الضرورية للسكان. كما تتبع باهتمام الأعمال التي كانت جارية لإيجاد المكان الملائم لفتح مرسى بأساكا أمام التجارة.

اعتقد المخزن، بعد تلك الجهود التي قام بها أنه تمكن من قطع أمام المحاولة التي قامت بها مجموعة كورتيس، بعد استعادته لولاء قبائل آيت باعمران. غير أن كورتيس، أصر على التمسك بمشروعه، فعاد إلى المنطقة المجاورة لافني رغم التحديرات الشديدة التي وجهتها إليه الخارجية البريطانية. وتبين بأنه اتخذ لنفسه في أركسيس زريبة هناك وأحاطها بسور. وفي مارس

21. الرسالة 97 من نفس المجموعة، هاي إلى كرانفيل، مراكش، 8 ماي 1882.
22. الرسالة 130 من نفس المجموعة، هاي إلى كرانفيل، طنجة، 11 غشت 1882.

1883 حل مركب بأركسيس تابع لشركة سوس وشمال إفريقيا، وفرغ حمولة من الأرز والشعير في صبوية جعلها رهن إشارة السكان في آيت باعمران. ويبدو أنه قد تم تحميل قافلة مكونة من 160 من الإبل بتلك السلع التي تم توجيهها لتباع في سوق تازروالت. عندئذ أقدم المخزن على تنفيذ إجرائين اثنين، أولهما الأمر بالمناداة بواسطة البراح في سوق تازروالت باسم السلطان والشيخ الحسين أو هاشم في الناس بعدم مناصرة العناصر المؤيدة لأعمال كورتيس الوافد على منطقتهم لممارسة التجارة بطريقة غير قانونية. ثانيهما، إرسال حوالي ألف رجل إلى عين المكان، ثمانمائة من العسكر ومائتان من الخيالة، لمعاقبة العناصر التي تجرأت على التعامل مجددا مع كورتيس، وإلقاء القبض على هذا الأخير. وبالفعل تم القبض عليه وعلى المتعاونين معه، ووضع بذلك حد لمشروع كان يحمل في طياته بوادر فشله منذ البداية.

باسكون وإيليغ : محدودية المنهج الموظف وأثر ذلك على النتائج

عباس الشرقاوي
باحث - مندوبية وزارة التربية الوطنية
طان طان

بالنظر إلى المعطيات الاحصائية حول عدد الدراسات المختصة بالتاريخ الاجتماعي المغربي خلال الأربعين سنة الأخيرة لا مندوحة لنا من الاعتراف بأن بول باسكون يأتي على رأس قائمة الباحثين الذين ألفوا في التاريخ الاجتماعي المغربي (قرابة 102 نصا من أصل 150 التي كتبها [1])، أن هذا الثراء الكمي في المنتوج الباسكوني في هذا المجال جعلني أطرح سؤالا عريضا : بماذا يمكن تفسير هذا الثراء في الكتابة الاجتماعية التاريخية ؟ أنفسر ذلك بالوقوف عند مستوى الأهداف المعلنة صراحة [2] والمضمرة في بعض الأحايين ؟ [3] أم نفسر ذلك بالاختيارات المنهجية والقناعات الاستمولوجية ؟ [4] أم نفسر ذلك بنضالية باسكون المستمرة من أجل إيجاد طريق ثالث بين الباحث العصامي المحايد وذلك الموجه بقناعاته السياسية ؟ [5]

ولكن مهما تعددت المستويات التي يمكن انطلاقا منها أن نعلل هذا الثراء في الانتاج التاريخي الاجتماعي لرجل واحد فإننا نعتقد أن وجود مثل هذا الثراء والتنوع لا يمكنه أن يصبح ذريعة كافية أو عذرا مقنعا لكي لا نطرح عليه نوعا جديدا من الأسئلة من شأنها إن لم تضف شيئا جديدا إلى ما قدمه لنا

---

1. «ثلاثون سنة من البحث الاجتماعي بالمغرب» عدد خاص بباسكون ضمن مجلة الدراسات الاجتماعية الاقتصادية بالمغرب عدد 155 ـ 156 يناير 1986.
2. انظر مقاله : «إعادة صياغة المجال النظري لدراسة الظاهرة الاستعمارية» نشر ضمن المجلة القانونية السياسية الاقتصادية المغربية منشورات كلية الحقوق بالرباط عدد 5 أبريل 1979.
3. «علم الاجتماع القروي لماذا ؟» مجلة الدراسات القانونية الاجتماعية بالمغرب عدد 155 ـ 156 يناير 1986.
4. «حوز مراكش» صفحات 12ـ13ـ14 المنشورات المغربية والدولية طنجة 1983.
5. انظر «السياسة والمعرفة بالمغرب» لعبد الله سأعف الشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط 1991.

فعلى الأقل ستتيح لنا فرصة إلقاء مزيد من الأضواء الكاشفة على ما حاول الرجل أن يوصله لنا من حقائق. ومن بين تلك الأسئلة سؤال بريء في مظهره الخارجي. ولكنه ينطوي على قدر لابأس به من الدهاء والعناد الفكري نصوغه كالآتي : ما الذي جعل باسكون يهتم بتازروالت بالذات ؟ ثم ان سؤالا كهذا تلك مواصفاته أدى بنا منطقيا إلى طرح أسئلة أخرى لا تقل عنه أهمية من قبيل : ما هي الوسائل المنهجية التي توسل بها باسكون في دراسة التاريخ الاجتماعي لتزروالت ؟ وأيضا وهذا هو الأهم في نظرنا : ما هي مجمل النتائج التي توصل إليها باسكون من دراسته تلك ؟ يتضح من الصيغة التي طرحت بها تلك الأسئلة أنها تتوخى كما سبق وإن قلنا إلقاء بعض الأضواء الكاشفة على ما كتبه باسكون عن التاريخ الاجتماعي لتازروالت. وإذا كانت الأمانة العلمية تفرض علينا أن نسائل الرجل انطلاقا مما دونه في كتابه عن دار إليغ فقط [6] فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن محاولة كهاته لن تفي بالمطلوب وبالتالي ستظل قاصرة عن الاجابة الشاملة على ما طرحناه أعلاه من أسئلة لهذا كان من اللازم أن نلتجأ إلى نصوص أخرى خارج هذا النص لكي نعثر على بعض الاحالات التي من شأنها أن تساعدنا في الاجابة على تلك الأسئلة إجابات نطمئن إليها.

نطالع في الكلمات القليلة ولكن المركزة والغنية بالدلالات والتي وطأ بها باسكون لكتابه المشار إليه سابقا مايلي : «عندئذ لم أكن أعرف عن تازروالت إلا ما كتبه جوستينار. وفي هذا الوقت (أي سنة 1965) كانت أعمال المختار السوسي ما زالت تحت الطبع ولم يطَّلع عليها إلا فئة قليلة من مقربيه، لم أكن واحدا منهم على كل» [7].

إن هذا النص على قصره وتركيزه غني في نظرنا بما يسمح أن يستنتج منه :

1. ان باسكون لم يعرف تازروالت مباشرة ولكن بواسطة، وأية واسطة : الهستغرافية الغربية نفسها والتي حاول باسكون جاهدا أن يدافع عن تناولها للتاريخ الاجتماعي المغربي [8] على الأقل من حيث جدة المواضيع التي تناولتها.

---

6. بول باسكون : «دار إليغ والتاريخ الاجتماعي لتازروالت» الشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط 1964.
7. المصدر السابق ص 5.
8. «إعادة صياغة المجال النظري لدراسة الظاهرة الاستعمارية» ص. 16.

فهو من هذه الزاوية، يعتبر نفسه استمرار شرعيا لتلك المحاولات الرائدة.

2. كونه اضطر إلى الاعتراف بأنه لم يطلع على ما ألفه المختار السوسي لا أرى فيه مجرد دفاع عن النفس حتى لا يتهم بأنه سرق أو على الأقل استلهم اهتمام الحاج المختار، بل إني أرى في هذا الاقرار رغبة صريحة في إبراز الاختلاف الجذري بين محاولة الحاج المختار ومحاولته هو بدليل ما سيقوله في الصفحة الموالية : «لقد اعتذرت له بعجزي وذكرته بأن المختار السوسي كانت له أهداف أخرى ويتوفر على إمكانيات أخرى» [9] وهذه نقطة سنعود إليها بتفصيل أكبر عند حديثنا عن المنهج.

3. بعد هاذين الاستنتاجين يمكن أن نضيف ما سطره في نهاية الصفحة 5 : «وقلت عندئذ في نفسي إن ما تتمتع به إيليغ من خصوصية إلى درجة اعتبارها حالة نموذجية، يجعلها تستحق أن ندرسها، وأنها حالة من شأنها أن تفسر لنا جزءا كبيرا من أقصى المغرب» [10].

وكخلاصة جد مركزة لكل ما سبق نستطيع أن نقول أن ثمة أسبابا ثلاثة على الأقل جعلت باسكون يهتم بدراسة تازروالت : اهتمام سابق لجوسينار بها جعله يكتشف تازروالت عن طريقه لا عن طريق الحاج المختار وبالتالي يكتشف أنها تملك بعض الخصوصيات من شأنها أن تفسر لنا جزءا كبيرا من الجنوب المغربي. هذا على مستوى الدوافع الذاتية الخاصة به كباحث، أما إذا أضفنا إلى ذلك رغبة أهل إيليغ أنفسهم في الالحاح عليه والجري ورائه من أجل أن يُعرف بدارهم بلغة أخرى غير اللغة العربية التي عرفها بها الحاج المختار نصبح إذن أمام حقل متكامل من التصريح بالنوايا تتقاطع مكوناته فيما بينها لتعطينا في النهاية النتيجة التي يريدنا باسكون أن نقتنع بها وبالتالي أن نقف عندها وهي أن اختياره لتازروالت كموضوع للبحث التاريخي الاجتماعي اختيار مؤسس ومبني.

كل هذا على مستوى النوايا المصرح بها. أما إذا أردنا تجاوز هذا المستوى إلى آخر أعمق وأعني به مستوى المسكوت عنه فإننا نقول : ان

9. بول باسكون : دار إليغ والتاريخ الاجتماعي لتازروالت ص. 6.
10. المصدر السابق : ص. 5.

الأسباب المشار إليها أعلاه مجتمعة إن كانت تعتبر إلى حد ما تبريرات منطقية من شأنها أن تفسر لنا اختيار باسكون لتازروالت كموضوع للتاريخ الاجتماعي فإنها ليست كافية لأن تخلق فينا قناعة تغنينا عن أي فضول آخر. وعليه فلابد من الاعتراف بأن اهتمام باسكون بتازروالت ليس اهتماما مرادا لذات تازروالت نظرا لما تتمتع به من خصوصيات بل إني أميل إلى القول صراحة أن الاهتمام ما هو يحاول خاصة من خلالها باسكون الاجابة على إشكالية أكبر وأوسع يمكن صياغتها على النحو التالي : إن استقراء التاريخ المغربي يظهر بجلاء الحقيقة الآتية : ان افتقار المغاربة إلى مشروع تاريخي هو السبب الرئيسي المتحكم في جل الأحداث التاريخية التي عرفها بدءا من نشوء الدولة المغربية إلى خضوعه للاستعمار من مطلع القرن العشرين. (11) وبمعنى آخر يمكن صياغة هذه الاشكالية على هذا الشكل : «هلا يجوز اعتبار افتقار الدولة المغربية لمشروع تاريخي هو السبب المباشر في تلك السيطرة الناذرة ولكن العنيفة للبادية على المدينة في التاريخ المغربي ؟ (12).

إذن داخل هذه الصياغة الثانية للاشكالية العامة يأتي اهتمام باسكون بتازروالت كحالة نموذجية لسيطرة البادية على المدينة (تازروالت وتارودانت هنا) ويكفي للتدليل على ذلك أن نقدم الحجج الآتية :

1. بالرغم من تأكيد باسكون على أن : «دراسة الملكية الأرضية والمائية التي استطاعت دار إيليغ تجميعها خلال الثلث الأول من القرن 17 هي التي تكون الباب الأول من هذا الكتاب (13) فإن القناعة التي تتكون لدينا بعد الانتهاء من قراءة هذا الباب هي أن باسكون كان يحاول الاجابة ومن خلال حالة تازروالت على سؤال أساسي يصوغه نفسه كالآتي : «إن وجود زراعة الواحات تطرح إشكالات من حيث نشوئها وتطورها (14) ... كيف تنشأ الواحات ؟ كيف يتم تمويل وإنجاز الأشغال الأولى ؟ ما هي مردودية تلك الواحات ؟ ما هو تاريخ الواحة ؟ كيف تموت ؟ منذ متى شرع المغاربة في تعبئة وتصريف المياه ؟» (15).

11. الاحالة رقم 2 (إعادة صياغة المجال النظري للظاهرة الاستعمارية ص. 133).
12. عبد الله ساعف : «السياسة والمعرفة بالمغرب» ص. 6.
13. بول باسكون : «دار إيليغ والتاريخ الاجتماعي لتازروالت» ص. 11.
14. الاحالة السابقة. ص. 9.
15. الاحالة السابقة ص. 10.

أو بعبارة شاملة نستطيع أن نقول على لسان باسكون : بماذا نفسر إصرار بعض المغاربة على إحياء الأرض الموات مع ما يتطلبه ذلك من نفقات ضخمة (وصلت في حالة تازروالت إلى 66، 6 مرة ثمن الأرض ذاتها ؟ [16] هذا مع العلم أن مردودية تلك الأرض المستصلحة لن تفي حتى بجزء يسير من نفقات استصلاحها.

لست في حاجة إلى الاشارة إلى كون باسكون وقد تفضل بطرح كل هذا السيل من الأسئلة المهمة لم يكلف نفسه عناء الاجابة ولو على واحد منها وذلك لسبب واحد في نظري وهو أن الاشكالية التي تؤثث اهتمام باسكون تتجاوز حدود حالة تازروالت، لهذا لا يعقل أن يكلف نفسه عناء الاجابة عليها مادامت تبدو بعيدة شيئا ما عن مسألة التاريخ الاجتماعي لتازروالت والتي تبدو هي موضوع كتابه واهتمامه هنا.

2. في الوقت الذي شرع فيه باسكون بالاهتمام بإيليغ كان حينذاك يشتغل في أطروحته حول الحوز [17] حيث صادف هناك زاوية أخرى (هي تمصلوحت) اتخذت هي الأخرى من موضوع إحياء الأرض الموات بالسقاية والمغارسة ديدنها وشغلها.

3. وضعية الرجل ذاته كباحث أولا ثم كتقني متخصص في أمور الزراعة القروية ثانيا إلى درجة أصبح معها مكلفا من طرف المنظمة العالمية للأغذية والزراعة بإنجاز دراسات تنموية لفائدة بعض بلدان العالم الثالث [18] ان هذه الأسباب مجتمعة وغيرها [19]. هي التي جعلتنا نميل إلى القول بأن اهتمام باسكون بتازروالت لم يكن لخصوصية تتميز بها عن غيرها، بل هو اهتمام يدخل ضمن مشروع أعم وأشمل من مجرد كتابة التاريخ الاجتماعي لتازروالت، هذا المشروع يتمثل في محاولة الاثبات والبرهنة على صحة فرضية من فرضياته الأساسية والمتمثلة في افتقار المغاربة لمشروع تاريخي محدد المعالم.

---

16. الاحالة السابقة ص. 25.

17. بول باسكون : «حوز مراكش» ص. 263.

18. بول باسكون : فلاحون بدون أرض : الحالة المغربية سنة 1985

ـ مشروع الحاسي : السقي بواسطة الجر الحيواني : محاولة في نقل تكنولوجية مناسبة لموريطانيا سنة 1984.

19. سنتعرض لبعضها عند حديثنا عن نوعية النتائج التي توصل إليها باسكون في الجزء الثالث من هذه المداخلة.

الآن وقد تمكننا من إظهار السبب الحقيقي الذي جعل باسكون يهتم بتازروالت، يمكننا أن ننتقل إلى الحديث عن الآليات والطرائق المنهجية التي توسل بها باسكون في دراسته الاجتماعية التاريخية هاته فنقول :

بالنظر إلى ذلك الكم الهائل من الانتاج الفكري لباسكون [20] وبالنظر خاصة إلى المجالات المتنوعة التي غطاها ذلك الانتاج نستطيع أن نخرج بقناعة أولية مفادها أن الرجل يظهر وكأنه متمكن من عدة تخصصات ولكن باسكون ذاته يحذرنا من الاطمئنان إلى هذا النوع من القناعات عندما يقول : «بحكم أنه لا يمكنني أن أكون متخصصا في كل شيء فإنه ليس بوسعي إلا أن أجمع وأصنف وفوق ذلك ألتمس لي العذر من غيري» [21]. وعليه فقد يكون هذا الشعور بالعجز وقصر اليد هو الذي فرض عليه أن يكون فريقا متكاملا من المختصين لمساعدته على أجزاء دراسته هاته حول تازروالت. ولكن مهما كانت البواعث الحقيقية التي فرضت عليه ذلك يمكننا إلا أن نعترف بأن اتجاها كهذا يتوخى المنظور التكاملي بدل المحاولة الفردية يعتبر بحق فتحا جديدا في مجال الدراسة التاريخية الاجتماعية المغربية لا يمكنه مهما كانت دوافع محاوليه إلا أن يساهم بجد وموضوعية في الكتابة التاريخية الاجتماعية.

إذن قاعدة منهجية أولى يمكن استخلاصها من المقاربة الباسكونية لتازروالت يمكن صياغتها كالآتي : في مستوى الدراسة التاريخية الاجتماعية لبنية ما لا يمكن للمجهود الفردي مهما كانت فرادته وجديته أن يحيط بها من جميع الجوانب وبالتالي فلابد من تكوين فريق للعمل يتكون من عدة متخصصين يتوقف عدد أفراده على عدد التمظهرات التي تتبدى بها تلك البنية.

أما القاعدة المنهجية الثانية فيمكن استخلاصها من كيفية الممارسة ذاتها : فإلى الآن هناك طريقتان لا غير لدراسة التاريخ : الأولى سهلة ويسيرة وهي أن ندرسه من خلال ما ألفه المؤرخون السابقون والثانية شاقة وعسيرة وهي أن ندرس الأحداث والمؤسسات مباشرة أي من خلال نتائجها ومخلفاتها. والدراسة المباشرة في التاريخ تحمل اسم البحث الميداني. وباسكون عندما يقول مخاطبا الحسن بن علي : «ان خطابا تاريخيا حول إيليغ لا يمكنه أن يكون

---

20. الاحالة رقم 1 ص. من ص. 1 إلى ص. 15.
21. بول باسكون «حوز مراكش» ص. 13.

هدفي» (22) إنما يعبر عن قطيعة مع نوع معين من الدراسة التاريخية لا تهتم من التاريخ إلا بأحداثه السطحية متجاهلة كل تلك الأعمدة الأساسية التي يقوم عليها كل هذا البنيان، ويضيف باسكون : «أريد الانطلاق فقط من الوثائق، من مصادر جديدة لم يسبق أن تم استثمارها ولا يجادل أحد في صحتها» (23).

فنحن إذن هنا أمام اتجاه جديد في الدراسة التاريخية الاجتماعية لم تألفه ساحة البحث المغربي. ولكن الأمانة التاريخية تفرض علينا الاعتراف سبق باسكون في اختيار هذا الأسلوب الجديد من المقارنة منذ نهاية الخمسينات (24). ومع ذلك فهو اتجاه جديد في شيئين على الأقل : في اشتراطه على نفسه توخي المقاربة الشمولية التكاملية أولا وفي اعتماده المباشرة ونفي الوسائط ثانيا. كل هذا من أجل أن نضمن للدراسة التاريخية الاجتماعية قدرا محترما من الموضوعية. ومع ذلك فلابد من الاشارة إلى أن خصوصية الظاهرة الاجتماعية التاريخية فرضت على باسكون بعض التنازلات المنهجية البسيطة من قبيل ضرورة توظيف العلاقات الانسانية في التغلب على مواقف الرفض والممناعة التي يبديها في غالب الأحيان من يملكون بعض المفاتيح الضرورية لمزاولة البحث الاجتماعي التاريخي يقول باسكون : «لقد تعمدت هنا أن أعترف بكل هذا لكي أقول أن البحث في التاريخ الاجتماعي هو قبل كل شيء مسألة علاقات انسانية» (25).

ثمة قاعدة منهجية ثالثة يمكننا استخلاصها من المقاربة الباسكونية لتازروالت وصياغتها كالآتي : إن محدد المجال الطبيعي لظاهرة انسانية ما لا يؤدي دورا حتميا في نشوء وتطور ولما لا انقراض تلك الظاهرة إلا إذا كان محملا بنية انسانية، بهدف اخر لا يبدو للوهلة الأولى ولكنه يلائم إلى حد بعيد المعطيات الطوبوغرافية لذلك المجال. ففي حالة تازروالت كمجال طبيعي لا يمكن الحديث عن قابلية ما لهذا المجال في أن يحتضن زاوية سيدي أحمد بن موسى. ولكن إذا استطعنا أن نثبت أن هدف التأسيس لم يكن في الأصل لا

22. بول باسكون : دار إيليغ ص. 6.
23. نفس الاحالة السابقة ص. 6.
24. انظر بحثه المشترك مع كريكوري لازاريف عن القرى المعدنية للمكتب الشريف للفوسفاط.
4 أجزاء مرقونة توجد بمكتبة المكتب الشريف للفوسفاط سنة 1959.
25. بول باسكون : «دار إيليغ» ص. 7.

تأسيس إمارة ولا جذب تجارة أمكننا عندئذ أن نفهم نية المؤسسين الأصلية بل الأهم في نظر باسكون أمكننا التدليل على أن المؤسسين الأصليين لم يكونوا أصحاب مشروع تاريخي محدد.

الآن وقد تمكننا من اثبات أن اهتمام باسكون بتازروالت لم يكن بسبب خاصية ذاتية تتمتع بها، وبعدما أجملنا المنهجية التي اتبعها باسكون في دراسته لتازروالت يمكننا أن نعرض باجمال للنتائج التي توصل إليها بخصوص دراسته الاجتماعية التاريخية عن تازروالت :

1. في مجال زراعة الواحات (الفصل الأول من الكتاب) يقول باسكون : ان عدم مراعاة أصحاب ايليغ للمحددات الجغرافية المناخية أدى بهم إلى بذل مجهود جبار وانفاق أموال طائلة في اشغال الاستطلاح وجر المياه، كل هذا أدى إلى خلق بنية انتاجية بالاضافة إلى كونها مكلفة جدا، فإنها أيضا بنية هشة لا تملك مقومات ذاتية تمكنها م الاستمرار ما دامت الأهداف التي أصبحت مطالبة بأدائها هي غير أهدافها الحقيقية التي أنشئت من أجلها في الأصل [26].

2. في مجال التبادل التجاري (الفصل الثاني من الكتابة) يقول باسكون : ان الهدف الوحيد الذي استطاعت البنية التجارية المؤسسة من طرف ايليغ تحقيقها هي : تحويل اتجاه الحركة التجارية عن المحور الداخلي للمغرب كما كان الأمر عليه منذ قرون خلت، وبهذا أصبح المجال التجاري المغربي مجرد مرحلة لعبور البضائع نحو مجال تجاري اخر أكثر جذبا هو المجال الأوروبي. وان وضعا كهذا نتج عنه بالضرورة ضعف شديد للنظام التجاري لايليغ من جهة كما أنه سيعمل على تقوية أطماع القوى الأجنبية في السيطرة على تجارة الجنوب عن طريق القضاء على الوسيط المغربي» [27].

3. في مجال العلاقات بين الأفراد (الفصل الثالث من الكتاب) : ان التنافس وتصفية الحسابات بين ورثة الشيخ سيدي أحمد بن موسى كفيل بأن يفسر لنا جل الأحداث التي عرفتها إيليغ وبالتالي فإن عدم توفر هذه الزاوية على مشروع تاريخي قار أدى بها إلى ما أدى إليه ضعف وتمزق» [28]. ليس هذا

---

26. نفس الاحالة السابقة ص. 41.
27. بول باسكون : «دار إيليغ» ص. 89.
28. نفس الاحالة السابقة ص. 105.

فحسب بل ان ما نراه من اختلافات في الرواية الشفوية المتعلقة بالأحداث التاريخية بايليغ مرده بالأساس كما يعبر عن ذلك باسكون نفسه : «إن الروايات والحكايا تصبح هي السلاح عندما تسكت الأسلحة الواقعية، وبهذا تتدخل الرواية بدورها في محاولات السيطرة أو استرجاع السيطرة على الرسمال المادي والمعنوي» [29].

4. في مجال المقدس (الفصل الرابع من الكتاب) يقول باسكون : ان الموسم الذي أسس في الأصل كمناسبة زمانية محددة لاستلهم بركة الشيخ سيدي أحمد بن موسى سيتحول تدريجيا إلى سوق تجارية كبرى تمارس فيها مختلف العمليات التبادلية وعلى رأسها عملية اقتناء البركة والتوفيق في الحياة العملية، ان كل زائر يوظف نقدا ما مقداره 1,76 درهما، ولكن كل شريف يتوصل بما مقداره 95,61 درهما أي حوالي 54 مرة القيمة المودعة. ان رفاهية الشرفاء وهذا شيء معروف تعتبر هنا شرطا أساسيا لاستقرار المجتمع، إذا كلما ازدهرت تعاضدية التأمين كلما ارتفعت فرص الحماية». [30].

ماذا يمكن للباحث في التاريخ المغربي أن يستخلصه من هذه النتائج التي انتهى إليه باسكون في دراسته التاريخية الاجتماعية لتازروالت ؟ بكل صراحة ولكن أيضا بمنتهى التواضع يمكننا أن نقول أن هذه النتائج غنية بما يمكن أن تتيحه من خلاصات ولكن احتراما منا لمحدودية هذا اللقاء فإننا نكتفي بالاشارة إلى مايلي :

2. كونه يقول صراحة : «بكل تأكيد قد تلزمني عشر سنين أخرى حتى أتمكن من الوصول إلى نهاية المطاف. إن ما سيطالع هنا في هذا الكتاب ليس سوى شذرات، وأتمنى صادقا أنه بعدما أتمكن من أن أستخرج منه كل ما يمكنني استخراجه سأظل قادرا على أن أكون عنه نظرة تركيبية. سنرى» [32] إن حرصه على أن ينص على ذلك دليل آخر على أن ما توصل إليه من نتائج ليس إلا خلاصات مؤقتة وبالتالي لا يشكل موقفا نهائيا.

---

29. نفس الاحالة السابقة ص. 106.
30. نفس الاحالة السابقة ص. 221.
31. نفس الاحالة السابقة ص. 221.
32. بول باسكون : إيليغ والتاريخ الاجتماعي لتازروالت ص. 7.

3. إن عدم نهائية موقفه هذا هي التي تبرر كون كل النتائج التي توصل إليها جاءت تحت صيغة سلبية. وكدليل على ذلك يكفي أن نسوق ما يقوله في خلاصة الفصل الأول من الكتاب : «في بداية هذا المقال وضعنا السؤال التالي : لماذا يتم توظيف أموال كثيرة وبذل مجهودات جبارة في إحياء أرض شبه صحراوية وذات مناخ جاف بالرغم من هزالة المردود ؟ لم نتمكن من الاجابة على هذا السؤال انطلاقا من المصادر الوثائقية التي يقدمها ديوان بودميعة» (33).

4. بالنظر إلى سلبية النتائج التي توصل إليها باسكون في نهاية دراسته هاته يجوز لنا أن نسائله عن حقيقة السبب التي أدى إلى ذلك ؟ أيكمن في محدودية الوثائق التي استغلها باسكون في دراسته كما يوحي بذلك كلامه ؟

ـ أم تراه يعود إلى قصور في الأداء المنهجية التي توسل بها في دراسته تلك ؟

فيما يخصنا نرى أن الوثائق التي اعتمد عليها باسكون وثائق تملك كافة شروط الظاهرة التاريخية بما فيها عدم القصدية، كما نرى أن أسلوب جماعية البحث التي اعتمدها باسكون تعتبر أنسب أداة منهجية لدراسة التاريخ الاجتماعي لتازروالت وبالتالي فليست مسؤولة عما توصل إليه من نتائج سلبية ولكن نعتقد أن اهتمامه بتازروالت من أجل إثبات قناعة مسبقة كونها عن منطقة أخرى هي الحوز دفع به إلى أن يتعامى عن مجموعة من القضايا الأساسية الأخرى :

انتماء زاوية سيدي أحمد بن موسى إلى الطريقة الشاذلية الجزولية بإمكانه أن يجيب عن السؤال المركزي في هذا الكتاب والمتمثل في كل هذا الاصرار من طرف أصحاب الزاوية على إحياء الأرض الموات بالرغم من ضآلة المردود.

تأثر باسكون بما قاله جلنر عن نظرية الشريف أدى به إلى استلهامه وتطبيقه بكيفية آلية على نشوء وتطور زاوية سيدي أحمد بن موسى في حين أنه لو قام بربط الزاوية بأصولها الجزولية الشاذلية لحكم على الزاوية بأنها كانت صاحبة مشروع سياسي اقتصادي متكامل.

إن نظرية التبدل والانتقال والتي تشكل المرجعية الابستمولوجية في دراسته للحوز [33] حيث لاحظ المفارقة بين تقدم في العلاقات الاجتماعية يقابله تأخر في المشروع التقني لصرف المياه، لا تصلح بتاتا لتفسير حالة تازروالت حيث نلاحظ توازيا مضطردا بين تحسن في العمران والعلاقات الاجتماعية وبين تقدم ملموس في المشروع التقني لصرف المياه واستصلاح الأرض.

33. بول باسكون : حوز مراكش ص. 8.

جانب من تاريخ آيت باعمران
معركة إيكالفن سنة 1917

جهادي
الحسين الباعمراني
باحث . البيضاء انفا

إن مقاومة آيت باعمران وتاريخهم يعد جزءا من صميم مقاومة وتاريخ الشعب المغربي، وقل أن نجد معركة وطنية ضد أجنبي إلا ونجد أيت باعمران في مقدمتها، لما جبلوا عليه من شجاعة وغيرة وطنية، وليست الاشادة بهذه الخصلة الحميدة من قبيل المحاباة أو إلقاء الكلام على عواهنه، بل من صميم الواقع، وبما أن الدفاع عن الوطن واجب مقدس، إذن لسنا بحاجة إلى إعادة ما هو معلوم في مقاومة أيت باعمران، لدى الخاص والعام، لذلك ستكون هذه المساهمة المتواضعة، محاولة إلقاء ضوء على جانب من مقاومة أيت باعمران، وبالتالي إبراز معركة خطيرة وقعت في بداية هذا القرن.

معركة بين جيش نظامي كامل العدة والعدد، وبين مقاومة شعبية ذات إمكانيات محدودة، ومع ذلك حققت انتصارا ساحقا، لا يقل عن انتصار ابن عبد الكريم الخطابي في شمال المغرب، سواء بسواء تلك معركة أنوال في سنة 1921 وبتعاون قبائل الريف، وهذه معركة إيكالفن بجنوب المغرب سنة 1917 بتعاون معظم قبائل جزولة الجبلية، إلا أن تلك كانت ضد الاسبان، وهذه ضد فرنسا، والوطن واحد، وهذه بقيادة الهيبة [1].

إلا أن معركة أنوال وجدت نسبيا من ينفث عنها الغبار، بقدر ما تكاثف الضباب على معركة إيكالفن الباعمرانية باستثناء بحث لنيل الاجازة سنة 1991، هذا ما دفعني انطلاقا من البحث الميداني إلى إبراز هذه المعركة لاستدراك النقص الذي يعترينا في الوثائق [2].

---

1. لم يتم الاتفاق بين الهيبة والزياني والخطابي لاختلاف لنظرة حركة تحرير الأطلس ص 101.
2. قمت بالبحث الميداني لهذا الموضوع منذ سنة 1981.

وبعد هذه المقدمة أرى من اللازم أن أعرف قدر الامكان بمكان هذه المعركة، وإيكالفن هو مكان شديد الانحدار، نالت منه التعرية حتى أصبح كالشارع ويسمى هذا الواد أسيف ن تكينيت [3] ويحتوي على دوار إيكالفن، ودوار أيت واوسّار، ثم أكادير زوكاغن، ويقع هذا الوادي في قبيلة أيت برابيم عند مدخل أيت باعمران الشمالي وطول الوادي الذي وقعت فيه المعركة عشر كلمترات كلها عبارة عن شارع طبيعي من منحدرات الصخور، ولعل اختيار أيت باعمران لهذا المكان لهذه المعركة الفاصلة دليل على مدى فهمهم للحروب [4].

ملتقـى الجمعـان :

في هذا الوادي التقى أيت باعمران بمؤازرة بعض القبائل الآتية منشرقهم، [5] دفاعا عن اقليمهم ضد الجملة الكبيرة التي جهزتها فرنسا تحت القيادة العامة للباشا حيدا، قصد غزو أيت باعمران، قبل أن تنزل فيهم المانيا [6] فالتقى بهم هناك (وقد ملكوا عليه المخرم) فأبى الله والسعد إلا أن يلقى موته. [7].

وطبيعة الموضوع تقتضي منا تقسيمه إلى النقط الآتية :

1. الظروف التاريخية لمعركة إيكالفن.
2. التعريف بقيادة هذه الحملة وإمكانياتها العسكرية.
3. إبراز المقومات الأساسية للمقاومة الباعمرانية.
4. غنائم معركة إيكالفن.
5. النتائج العامة :

الظـروف التاريخيـة :

بقطع النظر عن تتبع تسلسل الضعف المغربي منذ وقعة إيسلي 1844 وحرب تطوان 1860، فإن معاهدة فاس للحماية سنة 1912، جعلت الشعب

---

3. خريطة تيزنيت الطبوغرافية.
4. معظم المعارك في (عهد السيبة) ضد هجوم الصحراويين كانت تتم في مثل هذه الخوانق.
5. تخص بالذكر الأخصاص ومجاط.
6. وقع لقاء في شاطئ أيت اخلف مع ضابط الماني منذ 1912
7. من رسالة طالب باعمراني إلى شيخه الصوابي.

المغربي يعلن عن مقاومته التلقائية للاستعمار [8]، إلا أن تلك المقاومة كانت تتسم بالاقليمية، شأنها الأمير الجديد، أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين، المعلن كقائد للجهاد بمدينة تزنيت [9] منذ سماع عقد الحماية الفرنسية على المغرب، وقد جر هذا التيار أيت باعمران ضد قبائل سوس بكاملها، وإن كان أيت باعمران أبدوا بعض التحفظ في البداية تجاه نصرة هذا الأمير [10].

انطلق الهيبة في مدينة تزنيت حتى احتل مراكش، تحيط به الزغاريد وتستقبله الهتافات وترحيب الجماهير، لكنه سرعان ما انهزم في أول لقاء مع حملة الجنرال مانجان الفرنسية في معركة سيدي بوعثمان شمال مراكش بـ 36 كلمترا، وكانت خسائر السوسيين في هذه المعركة حوالي 2000 شهيد، ثم تتابعت الهزائم على الأمير الجديد رغم استمرار المعارك، وكان أيت باعمران ممن اصطلى بتلك المعارك سواء في سيدي بوعثمان، وحول تارودانت، وفي أشتوكن وماسة، وأزاغار عموما.

وبمرور الوقت تخضع القبائل السهلية، بقدر ما تنحصر المقاومة في مرتفعات الأطلس الصغير، لكنها آخذة في التلاشي، حتى إن كل قبيلة تكاد تحرس حدودها الأمامية فقط، حتى إن أحمد الهيبة ظل معتصما بقمم الأطلس الصغير، وهنا تبرز مقاومة أيت باعمران كسد منيع أمام الزحف الفرنسي الذي يقوده جيدا.

من هو حيدا بن مّايس، أنه شخصية غامضة، في أصل صحراوي، تربى في عائلة كانت تشتغل بقطع الطرقات، إبان ما يعرف بفترة السيبة، وفي تلك الأحداث برزت شخصيته كرجل شجاع حنكته التجارب، والمصائب محك الرجال كما يقال.

ثم «كان قائد للقبائل التي أنزلها الملوك العلويون حول تارودانت، في أولاد بْرّحيل ...، [11] ثم ارتقى إلى القائد المخزني ثم برزت شخصيته في

---

8. بعقد الحماية انفصم عقد البيعة في نظر الفقهاء.
9. هدّد الاعراب إمام الجمعة بتزنيت ليعلن نصر الأمير الهيبة.
10. هناك وثائق وآراء لبعض الفقهاء تؤكد ذلك.
11. الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية ملحق 1 ص 93.

أزاغار [12]» يوم زحف مع القائد انفلوس سنة 1318 هـ [13] إلى الجنوب، وبعد ذلك بـ 12 سنة كان آخر من وفد من القادة الكبار على أحمد الهيبة بتزنيت 1330 هـ/1912 «فجلس له الأمير في العشية مجلسا احتفل له ...» [14].

وَهكذا كان القائد حيدا آخر من اتصل بتيار الهيبة ممن يعتد بمكانتهم من رؤساء سوس، ولا عجب في ذلك، ما دام الهدف الأسمى من وراء أحمد الهيبة هو الجهاد والدفاع عن الوطن، فقد روى المؤرخ سيدي محمد المختار السوسي للتاريخ، عن ابن يعيش الحاجب ما معناه، «ان السلطان مولاي عبد الحفيظ وصّل إذنه إلى أحمد الهيبة برسول خاص ينهي إليه أنه مغلوب على أمره في فاس، فليفعل هو وأهله ما يقدرون عليه ...» [15].

فإذا كان هذا هو الموقف الرسمي للسلطان، فكيف يكون موقف القادة المخزنيين ومن دونهم، ومع ذلك يلفت انتباهنا تصلب القائد جيدا الذي كان آخر من التحق بالركب، ومهما كانت الأحوال فإن الشعراء قاموا بتسجيل انضمام حيدا، ولعل الشاعر هو السيد الحبيب السكرادي الجراري الذي يخاطب الهيبة في تزنيت.

- ليهنئك يا مولاي نصر مؤزر، وفوز بكل القائدين معزر.
- تواردت القواد حتى أتاك من، إذا لم يحيئ فالملك أجذم أبتر.
- أتى الضرضري مع كبّا لكن حيدا، به وحده النصر العظيم المؤزر.
- فحيدة رأس الكل والغير أرجل، وحيدة قاموس وغيره أنهر [16].

اما ما يتعلق بمكانة حيدا العسكرية فتتجلى في إسناد أحمد الهيبة أمره كله لهذا القائد مخاطبا إياه عند الدخول عليه بتزنيت «مرحبا بك يا فلان، فإنه منذ الآن والدي وأمري كله بيدك [17]»، وقد برهنت الأيام على أن هذا القائد كان سياسيا في المستوى المطلوب، بقدر ما كان الأمير أحمد الهيبة «رجل العلم والذكر والهدوء، لا رجل الحروب والشدائد والمحن [18]»، على حد تعبير

---

12. السهل الواقع غرب الأطلس الصغير وخاصة حول تزنيت.
13. المعسول الجزء الرابع ص 122.
14. نفس المرجع ونفس الصفحة.
15. المعسول ج 4 ص 121.
16. المسعول 4 ص 222 + 123.
17. نفس المرجع ص 124.
18. المعسول ج 20 ص 103.

القائد الناجم وقد تفطن حيدا منذ البداية لدسائس قواد الحوز، فأوضح لأحمد الهيبة أن مهمة السوسيين قد انتهت بإيصالهم له إلى مراكش، «وأنهم أمام أهل الحوز كالدجاج في السلة ...» فإذا أردت تمام أمرك فعليك الآن بهؤلاء الذين رأيتهم، فتغد بهم، قبل أن يتعشوا بك ... [19]، لكن الهيبة رد على قائده بقراءة الحديث «لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة أو ما في معناه» كما زعم الهيبة أنه بتسابيحه سيفتح القاهرة ودمشق [20]، ولو سئل المسكين عن موقع المدينتين جغرافيا لعجز عن إثباته.

وأمام هذه السذاجة نرى القائد حيدا ينقض أمر الهيبة، ثم التحق بمقر قيادته بوادي سوس ينتظر المفاجئات، فإذا بفرنسا تغفر له ما تقدم في ذنبه، وتعلنه قائدا عسكريا ليتولى تصفية أمر صاحبه الهيبة، ثم سرعان ما ارتقى إلى مرتبة الباشا، وأصبح يطبق أوامر فرنسا التي أمدته بمال وعتاد ورجال، مع أن فرنسا غارقة في الحرب العالمية الأولى.

ومما سهل على حيدا إنجاز هذه المهمة، هو ما تعرف عليه سابقا من مواطن الضعف والقوة لدى أحمد الهيبة والأطر المحيطة به، وهكذا أخرجه من تارودانت وفي اشتوكن، ثم في أزاغار بعد معارك كان فيها لأيت باعمران والصحراويين اليد الطولى بقيادة القائد الناجم الاخصاصي.

كلما زحف حيدا نحو الجنوب، «ألا ورحل الناس مجفلين أمامه وقد كان الجنوب كله مهتزا بزحفه» [21] وقد استطاع حيدا فعلا أن يوطد أمن أزاغار كله، وأن يضم مقر المخزن تزنيت حيث يوجد الضابط الفرنسي جوستينار، المعروف بقبطان الشلح، ولم يبق لحيدا إلا الجبال الوعرة، ومنها أيت باعمران.

وقد خاض معركة ضد القائد المدني الاخصاصي الذي فر أمام حيدا كالنعامة، مما أعطى الفرصة لحيدا ليتقدم إلى مشارف آيت باعمران لكن حيدا عرج إلى جهة القبلة حيث الاخصاص ومجاط، مما أدى بهم أمام انهزام القائد المدني إلى تقديم الهدي والطاعة، ثم رجع حيدا إلى تزنيت زاعما أن كل شيء قد انتهى، ما دام القائد المدني قد انهزم ولم يبق له إلا أيت باعمران، الذين قال

19. المعسول ج 4 ص 134.
20. هكذا أجاب في حوار مع الشيخ شعيب الدكالي.
21. المعسول ج 20 ص 125.

عنهم حيدا : «ديغ سّنسيغْنْ تَامُورْغِي، أزْكّا رَادْ دُّوغْ أستّيد أمزغ» ذهبت حتى بيت الجراد، وسأذهب غدا للقبض عليه.

إمكانات حملة حيدا لغزو ايت باعمران :

استعد حيدا كل الاستعداد، وأمدته فرنسا بكل ما يحتاج إليه من أسلحة مختلفة ومؤن، فجر معه القادة الكبار، كل واحد على شجعانه، فخرجت هذه العساكر «الجرارة»، من تزنيت، قاصدة أيت باعمران عن طريق أربعاء الساحل حتى نزل بموضع يسمى تيغانيمين وهي بداية أرض أيت باعمران قبل الحماية، فأنزل هناك محلته الممتدة من مدرسة تيغانيمين حتى مدخل قبيلة ئفرْدا.

فبدت محلته للعيون كمدينة كبيرة في الخيام، منقسمة إلى قيادات هكذا :

1. القائد مبارك بن الباكور على أيت تزنيت،
2. القائد لحسن على قبيلة أكلو،
3. القائد عياد على قبيلة أيت جرار،
4. الشيخ المحفوظ على قبيلة أيت ويحان الموالين،
5. القائد لحسن بن الحاج الراضي على قبيلته بأشتوكن،
6. القائد همو من آل سعيد العزاوي على قبيلته بأشتوكن،
7. القائد بوهوش ن بو الفرا على قبيلته بأشتوكن،
8. القائد مسعود ن الْخرْبا على قبيلته بإداومنو،
9. القائد سعيد بن لحسن الأمزالي على فرسانه،
10. الشيخ أحمد بن علي الشتوكي على قبيلة بلفاع،
11. القائد عبد الله بن بلقاسم على ماست،
12. القائد بوشعيب الهواري على قبيلة هوارة،
13. القائد الضرضوري على أهل تارودانت،
14. القائد التيوتي على قبيلته تيبيوت،
15. القائد عياد الرحماني على فرسان قبيلته،
16. القائد المتوكي على فرسان قبيلته،
17. القائد التهامي الكلاوي على فرسان قبيلته،

18. القائد العام الباشا حيدا بن مّايس إلى غير ذلك من كبار القوم [22].

ولعل في ذكر هذه السلسلة في القادة الكبار، ومن شارك في هذه الحملة من القبائل لغزو أيت باعمران ما يغني عن التذكير ولفت الأنظار، إلى ثقل هذه الحملة من جهة، وإلى طبيعتها العدوانية من جهة أخرى، وقد عبر الشاعر الباعمراني مبارك أو موسى عن ذلك بقوله :

من تازا أرتيزنيت إيكاد كولو سرنغ يان
إيرا إيميل أوورومي أداس ناكّاس تفريات
أولا تيكلاي د وُدي وُلا تيفولّوسين
وُلاه وُرناكّا ئبابـاس أمـر تاقامّوت

وبما أننا أشرفنا على حدود أيت باعمران، فلا بأس في استعمال مثل هذه الوثائق التي هي من صميم الشعب إذ لولاها لضاع منا الكثير، ومعظم هذه الوثائق بالشعر الأمازيغي الذي شاهد الأحداث وصورها في إبانها أحسن تصوير فحفظها الناس على حد الشياع، ووصلت إلينا على حد التواتر، تنقلها جماعة مستفيضة عن جماعة أخرى يستحيل تواطؤهم على الكذب [24].

ولا ينقصها أحيانا إلا اسم قائلها الأول، وذلك لكثرة تردادها بين الناس، حتى أصبحت كمثل يستغنى بحكمته عن قائله، ومما قاله نفس الشاعر في وصف هذه المعركة [26].

ئدّا حيدا ياويد رّواس تغانيمين
أسين أس كولو تيزار فلن أس انطّار
ئويد ئزيز س تركا ياويد ئكنطار
ئميل ئرز أس وُكّوك وُرتائليكم ألاّ ل

ولنحاول الآن إبراز ما أمكن من المقومات الأساسية لأيت باعمران، فقد سردنا سابقا عددا مسما من القادة الكبار في حملة حيدا فماذا عسى يمكن أن

---

22. أخذت هذه الأسماء كلها في عدة استجوابات مع المقارنة والعهدة على الراوي.
23. تجب المحافظة على فصل الكلمات والأبيات الشعرية وإلا ضاع العنى.
24. هذه عبارة أصولية تصح في هذا المقام.
25. توفي هذا الشاعر سنة 1936.
26. وصف دقيق ونترك الترجمة للبلغاء.

نورده في جانب أيت باعمران لاشك أن أيت باعمران، لم يكونوا على الدوام متماسكين، شأنهم في ذلك شأن باقي المغاربة في فترات ضعف الحكم المركزي، ومع ذلك فإن أيت باعمران في غاية من التماسك والتعاضد وقت الشدة والمحنة.

وذلك يرجع إلى أنهم ما زالوا يعتقدون بأنهم إخوة أشقاء ينحدرون من جَدٍّ واحد يسمى يحيى [27]، ولا أدرى هل الكلمة معربة عن يدر أم كانت في الأصل هكذا، بالاضافة إلى وحدة الاقليم، إذن هناك عامل سلالي مزعوم، وعامل أرضي، زيادة إلى انتمائهم إلى نحلة تاكيزولت التي لا يبغون بها بديلا [28]، وإذا أضفنا إلى ذلك ما تنص عليه أعرافهم من التي تربطهم بالقبائل الأخرى عند الشدة، أصف إلى ذلك تقلدهم السلاح على الدوام، ومنذ نعومة أظفارهم ولا يمكن أن نغفل عوامل أخرى لا تقل أهمية لتحقيق الانتصار في معركة إيكالفن ونجملها في النقط الآتية :

1. طبيعة مكان المعركة الذي وصفناه بشارع طبيعي لا مهرب منه ولا ملجأ، ويطلق عليه سكان المنطقة ـ مرز ئغويال ـ أي مكسر الحمير، لشدة الانحدار وسقوط الماشية فيه،
2. تشابه الأسلحة بين الطرفين باستثناء المدافع الموجودة لدى حملة حيدا، والتي لم يترك لها أيت باعمران مجالا للاستعمال.
3. مهارة أيت باعمران في الرماية بالرصاص.
4. المشاركة الكثيفة لآيت باعمران في معظم المعاركة مما أكسبهم طبيعة الحروب وكيف تدار المعارك.
5. مساعدة فرسان القبائل المجاورة كالاخصاص ومجاط وأيت الرخاء، ومعظم أيت السيحل، ماعدا أكلو.
6. عامل الخطر الذي يهددهم في حالة انتصار حيدا عليهم.
7. وأخيرا دور القيادة الباعمرانية، ونقصد بها هنا الأمر شورى بينهم فهناك ئنفلاس ـ وإمغارن والقائد، والأمور كلها تناقش علانيا، في أجموع يحضره الخاص والعام، وعندما يتم اتفاق على رأي واحد يعلنه القائد على الجمع العام، فيصبح ملزما للجميع، وويل لمن تبرم أو عارض.

---

27. ذلك منصوص عليه في أعراف أيت باعمران القديمة.
28. نحلة قديمة تعنى الأحرار مقابل تاحكات التي تعني المدلولين.

لاشك أن مجتمعا مثل هذا لابد، وأن ينجح في أعماله، وأن ينتصر في معاركه، لكن عندما تكون حالة الطوارئ تسند الأمور إلى إنفلاس وكبار القوم للبث في الأمور بسرعة، بشرط إخبار الجمع العام بالرأي الأخير.

وهذا ما وقع فعلا في أجموع بموضوع إسْكّ وعلى رأسه القائد محند ابن القاضي [29] سيدي علي بن الشيخ همو الخلفي وليس القائد محمد الواجداري بإفاوض كما يزعم البعض.

كسب هذا القائد الخلفي تجارب في عائلته الحاكمة منذ قرون، جعلته في مستوى المسؤولية إلى أن استشهد في سبيل الدفاع عن الوطن، وهو الذي اقسم ألا يلتقي مع النصارى إلا على سروح الخيل والبنادق مصوبة إلى الصدور [30].

ولكي يبني هذا القائد خطته الحربية بشكل يضمن له النجاح كان لابد أن يكون على بصيرة بمعلومات كافية مما عليه جانب العدو ولذلك استعمل ثلاث شخصيات باعمرانية لتتصل بحملة حيدا، وتستقصي عنها كل ما أمكن من المعلومات، مع إخبار القائد محند الخلفي بجميع التفاصيل، هذا وقد أقمحت فيما بعد شخصيات أخرى، لكن كل ذلك، من باب إسناد الخبر إلى غير أهله، أما الشخصيات التي ساهمت في الموضوع فهي :

1. الفقير حمادن بيهي البوبكري الملقب بأديوان أو الحكيم، وكان لسانه هو سلاحه،
2. حماد ن بو كايّو البو بكري،
3. الحاج محمد مَسْتْهو البوبكري التاجر المشهور وهو حفيد القائد، وقد لعب هؤلاء الثلاثة دورا كبيرا في الايقاع بحملة حيدا وتضليلها، إلا أن دور الأول هو المشهور لدى العامة، وقد كان صديقا للطرفين معنا، وتفيد الروايات الشفوية بأن الشخص الأول هو الذي سلك به فخ إيكالفن باتفاق مع القائد

29. هذا القائد هو الذي تولى إعطاء الأوامر في هذه المعركة رغم حضور القائد المدني لأن المعركة في أرض أيت بوبكر والعرف تقضي ذلك كما أنه هو قائد الحملة ضد الجنرال دولاموط حتى استشهد، هو الذي جعل منه وديع الاسفي يطل قصته.

30. تولى القائد محند القيادة بعد موت عمه القائد أحمد الخلفي سنة 1314.

محند الخلفي ومساعديه وكان ذلك الأسبوع كافيا لجمع القبائل الباعمرانية وتقسيم المهام وأماكن الحرب، والاستعانة بالصحراويين.

وقد أقنع هذا الداهيةُ حيدا بأن مناسبة العيد، كافية لدخول بلاد أيت باعمران، وذلك لاشتغالهم بالعيد والأعراس وتفرقهم في المناسبات كعادتهم.

وإلا فقد كانت حملة حيدا مستعجلة بظروف الحرب العالمية، ولكون فرنسا ممزقة الأوصال في عقر دارها، إذ لم تبق لها إلا المستعمرات لرد الاعتبار، فإذا بغواصة ألمانية تظهر في شاطئ أيت باعمران، وخرج منها ضابط ألماني وأتراك ومن هناك التحقوا بكاردوس في الأطلس الصغير، قصد ربط العلاقة باحمد الهيبة.

وهذا ما كانت فرنسا تخشاه أشد خشية، لذلك أرسلت هذه الحملة لتحتل أيت باعمران، قبل أن يحدث ما لم يكن في الحسبان، وتقول الرواية الشفوية إن حماد ـ ن ـ بيهي قد اقترح على حيدا أن يدخل أيت باعمران بأقصى سرعة ولا يتأتى له ذلك إلا إذا اقتحم أسيف ـ ن ـ تكينيت فرغ صعوبته وضيقه فإن طوله لا يتجاوز رغم كلمترات وقد حكي حماد ـ ن ـ بيهي نفسه، ان القادة الكبار منعوا الرجال الثلاثة الباعمرانيين من الاتصال بحيدة، إلى ان انفرد حماد ـ ن ـ بيهي هذا بالتهامي الكلاوي، وأكد له أن فتح أيت باعمران يفضل أن يكون على يده، وتكون للكلاوي الميزة الكبرى، إذا قام بإيصاله إلى حيدا، وإلا فسوف يتصل به عن طريق قادة الغرب [31].

وفعلا نجحت الخطة، ولما مثل حماد أمام الباشا حيدا قال أحد الحاضرين يخاطب حيدا، (ان ايت باعمران لا يملكون إلا وجها واحدا، وهو وجه حماد ـ ن ـ بيهي هذا» وما كاد حيدا يبدي ارتياحه لطريق إيكالفن حتى طير حماد ـ ن ـ بيهي الخبر إلى القائد محند، مع أن

31. هذا ما حكى لحفيده العربي بن ابراهيم المسيدري، ونقلنا نفس الشيء عن المسن سيدي محند بن عبد بن أفقير من إفاردا ولد 1314 هـ.

المعلومات السابقة تقول بأن حملة حيدا ستدخل ايت باعمران في أحد الطريقين :

1. طريق المسَيْدرة وهي سهلة مفتوحة بالنسبة لكثرة الجيوش وثقلها، وبها دار حماد ـ ن ـ بيهي، كما كان القائد محند يخشى سلوك هذا الطريق.
2. الطريق الثاني يمر عبر تامكرت ن تلّو غبر قبيلة إفاردا وكانت هذه القبيلة مسالمة لحيدا، إلا أن أيت باعمران نجحوا في إثارتها ضد حيدا وضمها إليهم، وذلك بأن قام صالح أيت فارس من إفاردا بأسر أحد جنود حيدا، وساقه مع عدد من شباب القبيلة وقدموه إلى أجموع لآيت باعمران المنعقد في موضع هرواش، والذي كان يتداول في مسؤولية قبيلة إفاردا التي تسالم حملة حيدا، وتبيع وتشتري معها لمدة أسبوع.

إلى أن قدم جنديين من حملة حيدا إلى ديار إفردا لكن ثار عليهم الشباب وقتلوا احدهما وأسر والآخر فأثارت هذه الحادثة غضب حيدا، فأمر بغزو قبيلة إفاردا، وذلك يوم قبل عيد المولد لسنة 1335 هـ ففرت القبيلة كلها معتصمة بقمم الجبال وبذلك سد طريق تلّو أمام حملة حيدا [32] لذلك اقتحم حيدا وادي إيكالفن وكان اجموع يوم العيد في مكان موسم إسك حاليا، فإذا بحماد ـ ن ـ بيهي يلتحق بأجموع ويخطب فيه قائلا : «طرقت سمعي إشاعات تروج بأن حماد ـ ن ـ بيهي قد قبض الرشوة من الباشا حيدا، وهاأنذا من أعلن براءتي في ذلك، ولكي تعرفوا صدق مودتي لبلادي فهاأنذا قد أتيت لكم بحملة حيدا كاملة في أفرد و (الهون) أي سلكت به وادي أيكالفن، وإيّامكم أن يفلت منكم ...» [33].

إعلان الحرب يعد المداولة قام البرّاح كما العادة في التبليغ يعلن في أجموع ما يملي عليه القائد محند، وبجانبه القائد المدني الاخصاصي وكبار القوم، فقال يعد تعريبه «اسمعوا يا من جمع الله في هذا المكان، وأراد أن يموت في سبيل الله وفي سبيل وطنه، على كل رجل أن يصاحب من عرفه، وعلى كل جماعة أن تختار مكانا حصينا للدفاع، وعلى كل مشارك في الحرب ألا يطلق الرصاص إلا إذا بدأ بإطلاقه الفرسان الأماميون.

---

32. عن الطالب سيدي محند بن عبد.

33. عن با الشيخ الحسين بن عبد الله الخلفي من أعيان أيت اخلف.

واعلموا ان العدو يملك المدافع، لكنها لا تصيب إلا من كان بعيدا عنها، واعلموا أن كل من غنم شيئا في هذه المعركة فهو له، لا إله إلا الله على ما ذكر» [34].

وقال حاكي هذه الخطبة بالشلحة وهو محمد بن عبيد من موضع إضرضار الخلفي قال ولا تسأل عن شعور الناس، فهناك من يود لو بدأت المعركة في نفس اللحظة، وخاصة الشباب، وهناك من يفكر في عواقب الأمور، فإذا ببوهالي يجر سمكة كبيرة أمام اجموع وهو يقول : [35].

هلك حيدا، هلك حيدا ــ ثم عمد أمام الجميع إلى قطع رأس تلك السمكة بخنجره، فاستبشر الناس بذلك خيرا، فبدأ الناس في تاستّايت أي اجتماع كل قبيلة على حدة لاختيار أمهر رجالها .في الحرب كما جرت العادة في الحروب الخطيرة، ثم بات الناس تلك الليلة على أحر من الجمر [36].

وما كادت صلاة الفجر تصل حتى تسلق الناس جبل ئوريغ وتامكّرت ن ــ تلّو، كما سد الرماة بشكل كثيف باب فج إيكالفن الذي ستخرج منه محلة حيدا.

وقال محمد بن حارثة الخلفي لم يكن معنا القائد الناجم هذا اليوم وأنا ملازمه دائما، قال كنا في أشبار واحد فإذا بتيما تارين تطلق من الغرب إلى الشرق، فعلمنا حسب الطلقات أن حيدا سلك وادي ايكالفن، ثم أضاف وقد طبق الناس الأوامر بحدافرها فأخذ الرماة أماكنهم وراء الصخور، ولا تكاد ترى انسانا، فإذا بحملة حيدا تتوغل في ذلك الوادي وهي على شكل قافلة (أكابار على حد تعبيره) لضيق الممر، وصعوبة المسلك، والحملة مثقلة بالعتاد الحربي والزاد وكل ذلك محمول على ظهر الجمال والبغال والخيل، وتتقدم المدافع، وعلى رأس القافلة القائد العام الباشا حيدا، تحيط به حوالي عشرون قائدا في كبار محلته، كالتهامي الكلاوي والجراري والمتوكي وغيرهم.

وما كادت مؤخرة الحملة تتوغل في الوادي حتى أشرفت مقدمها على باب واد إيكالفن، وكلها أمام بنادقنا وتحت بصرنا، ثم أمر حيدا بتركيب المدافع

34. عن ابا الشيخ الحسين توفي منذ حوالي 1985 والشك مني.

35. أكد تلك الخطبة محمد بن عبيد الخلفي توفي حوالي 1975.

36. أكد ذلك محمد بن حارثة الخلفي صاحب وملازم للقائد الناجم.

على مرتفع بسيط هناك يطل على السهل تجاه أيت باعمران فإذا بكتيبة من الفرسان الباعمرانيين أعرف منهم الشيخ سعيد الخمسي وحمايدوش البوبكري تنقض فجأة على مقدمة حملة حيدا حيث القيادة العامة.

فأطلقت عليها النار، ثم بدأ الرصاص يطلق على حملة حيدا في جميع الجهات، ـ زونذ ؤكان أنزار ـ يعني مثل المطر، فأجفلت في الحملة وانقض عليهم أيت باعمران بالسلاح الأبيض، وما كان إلا نصف ساعة حتى انتهت المعركة.

فقتل من قتل وفر من فر بروحه فقط، فإذا بفرسان الاخصاص ومجاط وأيت الرخا يهاجمون في جهة الشرق فاشتغل الناس بجمع الغنائم، وكان ذلك الفرصة الوحيدة لمن أراد أن ينجو بنفسه، وإلا لما نجا أحد وكان الوقت وقت الضحى العالي [37].

اما سيدي محمد بن أحمد الكريمي البوبكري المعروف بشايلاه قال : «ففي يوم الجمعة الذي هو ثلاثة أيام من شهر الله ربيع النبوي عام 1331 هـ دخل حيدا مدينة تيزنيت بالجيوش الكثيرة، ومكث فيها ثلاثة أيام فدخل الشهر لبلدة الساحل، ومكث فيها أيضا في موضع يقال له تيغانيمين إلي يوم عيد المولد ثم خرج يوم الأحد للصوكة قاصدا بلدة أيت برابيم حركة آل يعمرانة وغيرهم في القبائل مجاطة والرخاوة، وخصاصة الذين ألف الله بين قلوبهم فتضاربوا معه فيه.

ـ راح الناس كلهم إلى ديارهم ماعدا الباشا حيدا
ـ هو المبيت مع الضبع في وادي إيكالفن
ـ نعم يا أخي معه أيضا همو نايت سعيد
ـ ومع الضبع أيضا عبد السلاح بن الحاج الرامي الشتوكي
ـ وكذلك ابن البهباز الذي صاح في المعركة أماه [39]
ـ ما الذي جاء بي إلى موضع اد واوسّار حيث موتي [40]

---

37. نفس المخبر أعلاه توفي رحمه الله.
38. لهذا الرجل مخطوطتان تحت عنوان تواريخ وفاة بعض السادة الأعلاه، الذين هم مصابيح الانام.
39. نقلت تلك القصيدة الأمازيغية عن سيدي محمد بن التّاكّي.
40. المعسول ج. 20 ص. 134

ولولا هذا النظم لما عرفنا هؤلاء القادة الذين هلكوا في هذه المعركة لتكتم الدوائر المسؤولة عن خسائر هذه المعركة.

أما الشاعر مبارك أو موسى فكان يتهكّم على الباشا الحاج حماد بن حيدا الذي تولى مكان أبيه في تيزنيت، قال بعد ترجمته :

- تعال يا ابن حيدا خذ اخوانك في إيكالفن
- فهم لم يموتوا أو جرحوا كرجال الحرب وانما هم فارون
- أما رأس أبيك فما زال معلقا بحبل أمام الناس
- ما زال في ركاب فارس ذهب به إلى أحمد الهيبة بكاردوس.

ومعلوم ان الباشا حيدا وجد صدفة بين القتلى، وشاع بين الناس أن مولاي محمد بن بيهي بن العسري البوجرفاوي هو الذي قطع رأسه بشاقور، فعلقت رأسه في مسجد أكادير زوكاغن، أي الحصن الأحمر حيث الجمع العام.

وكان حيدا شيخا كبيرا، إذ لم يبق في فمه الا سن واحدة وله لحية طويلة، عبث بها الأطفال بعد موته، وفي أجموع نقلت رأسه إلى أحمد الهيبة بكاردوس.

وبقدر ما كان عدد القتلى كثيرا في جانب محلة حيدا، بقدر ما كان نادرا في جانب أيت باعمران، وقد يستغرب السامع هذه الظاهرة لضخامة عدد المشاركين في المعركة، ومع ذلك لم يقتل فيها حسب بحث طويل إلا ثلاثة رجال في جانب أيت باعمران وهم :

1. محمد بن محمد بن عبلا البّايهي البوبكري
2. مبارك بن الحاج علي الواحلاوتي البوبكري
3. سيدي أحمد بن مبارك السّكال التادرارتي البوبكري [41].

وكان أهل هؤلاء القتلى يفتخرون، لأنهم قدموا شهداء في سبيل الدفاع عن الوطن، إلا أن الجرحى والخسارة في الخيل كانت مرتفعة جدا، حتى في جانب أيت باعمران، والغريب في الأمر أن أحدا لم يقم بدفن القتلى من جانب حيدا، بل قام الشبان يعبثون بجثت القتلى يمثلون بها، وأخيرا تركت هناك فريسة

41. المعسول ج. 4 ص. 204

للوحوش والطيور والكلاب والذباب، وقد صور لنا شاعر باعمراني في الراجح أنه مبارك أو موسى :

– واموناذّ كولّو أئضان ؤلا سول ئزان

– غ مرز ئغويّال أكِّيس تافيم لكيميت،

تاريخ أنظمة السقي التقليدي
وتقنية تقسيم المياه في أحواز تيزنيت

عمر أفا

كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط

إذا كان البحث التاريخي يعطي أهمية كبرى لمسألة المياه والأرض في علاقتهما بالإنسان، فلأنها تعتبر أكبر مسألة يواجهها عالم اليوم على مختلف المستويات، ولأن أهمية المياه في مجال التنافس الدولي تأتي في موقع سابق عن موقع البترول أو أية مادة أخرى[1].

وعبر كل العهود، فإن الماء يحتل دائماً المكانة الأولى وخاصة في قيام العمران البشري ونشأة المدن واتساعها وتكاثرها، ونظرا لحرص الناس ومحافظتهم على الماء وتقنين توزيعه، فإن وثائقنا التاريخية تخصص موقعاً هاماً لتقسيم المياه وأنظمتها في المدن المغربية مثل فاس ومراكش والرباط وتارودانت وغيرها من دون استثناء، وفي هذا الإطار، فإن نشأة مدينة تزنيت ترتبط - كما تحكي الأسطورة [2] - بعين ماء لازمتها إحدى النساء التائبات إلى الله، وماتزال هذه العين قائمة.

ويبدو أن أهل المدن وإن كانوا حريصين على تقنين توزيع الماء، فإن أهل البادية أشدّ حرصاً لارتباطه بسقي مزروعاتهم كمورد أساسي للعيش. وفي هذه

---

1) من حكمة الله تعالى أن جعل الماء أساسا لكل حي كما ورد في القرآن الكريم (سورة الأنبياء : 30) ونجد في عالم اليوم أن كل النقط الساخنة التي يدور فيها الصراع سواء على المستوى السياسي أو العسكري أو الاقتصادي تحتل فيها مسألة المياه الموقع الرئيسي.

2) من الناحية التاريخية ترتبط نشأة المدن دائما ببعض الأساطير، مثل نشأة بغداد والقيروان ونشأة فاس وغيرها، وبخصوص مدينة تزنيت ، انظر الأسطورة المشار إليها في مساهمة الأستاذ أحمد بومزكو ضمن أعمال ندوة تزنيت وباديتها بعنوان "جوانب من تاريخ قبيلة أيت تزنيت"، منشورات كلية الآداب بأكادير. وانظر كذلك نفس الأسطورة في :

مجلة هسبريس تمودا، عدد 33 سنة 1996، منشورات كلية الآداب بالرباط.

المساهمة، نسوق الحديث إلى تاريخ أنظمة السقي التقليدي واهتمام سكان البادية بتقسيم الماء على أساس تقنيات دقيقة، وعلى الرغم من أن هذه التقنيات معروفة في كثير من نواحي سوس، فقد اخترنا نموذجين في ضواحي تيزنيت، الأول في منطقة أكلو، والثاني في منطقة ويجّان.

ومن حيث المراجع المعتمدة في كتابة هذا البحث فقد اعتمدنا على نوع من الوثائق تدعى "عقود التجريات" أي اللوائح الموضوعة بأسماء المستفيدين من المياه وتوزيع أنصبتهم بدقة متناهية في نوبات محددة كتبت بين 1342 و 1237 هـ (1822 - 1924 م) . هذا عن منطقة أكلو[3] ، (انظر الوثقتين: 1 و 2.) أما فيما يخص ويجَان فلم نعثر على هذا الصنف من الوثائق، ولكننا عثرنا على معلومات عن التوزيع ضمن وثائق و مستندات لبعض الأسر[4] بعين المكان، (انظر االوثيقة، 3) واعتمدنا بالدرجة الأولى على مشاهدات ميدانية وعلى مجموعة وافرة من الروايات الشفوية[5].

أولا:
نموذج أنظمة السقي في أكلو

توجد جماعة أكلو على مبعدة 12 كلم غرب مدينة تزنيت، على ساحل المحيط الأطلسي، ويسكن بهذه المنطقة 13.000 نسمة سنة 1980 [6] . وتوجد بها عين ماء واحدة قديمة تجري في أراض خصبة، وعليها يعتمد السكان في حياتهم اليومية حيث يستغلون مياهها بواسطة ساقية أكلو التي تخترق أراضي أهل أمراغ وأراضي أهل الزاوية، وتعتبر هذه العين المورد الأساسي الذي يعتمد عليه السكان في معيشتهم وتربية مواشيهم.

---

3) زودني بهذه الوثائق الحاج عمر بن أحمد وكاگ الجلوي أحد أمناء الساقية سلفا، سنة 1980، كما زودني ببعضها الأستاذ عبد الله وكريم سنة 1993.

4) زودني بهذه المستندات الأستاذ محمد بن يحيا الوجاني سنة 1995.

5) تضمنت لائحة الروايات الشفوية من أكلو : السادة : الأمين إبراهيم بن الحسين العبدلاوي، الحاج عمر بن أحمد وكاگ، الأستاذ واكريم عبد الله، الأمين أمارير محمد بن الحسن، إبراهيم بن الباز، محمد إذ أومجوض . ومن ويجّان السادة : الحاج العربي أو الطاهر، الحسن بن الحسين ابن يحيى الوجاني (رحمه الله)، الأستاذ الحسين بن إحيا.

6) انظر استطلاعا عن إقليم تزنيت «جماعة أكلو» ، جريدة المحرر بتاريخ 22 مارس 1980.

الحمد لله والصلاة [illegible] ونصه تجرية ماء نوبة

نسخة تمس قسم تجرية نوبة وزلغ

وزلغ من الحبالة بعد ابراز كل واحد من أرباب النوبة

ما بيده من الرسوم وتصحيح ما صح منها وابطال ما بطل

عشرة كالاته ماء ع اثنتان منه

صح لورثة احمد بن بكر ثم احدى

اخذ تهما العقيرة عائشة بنت علي بن عبد الله بالارث والطلاق

ثم صح لورثة العقير احمد بن علي هل به لقب خمس حبات

غير تسعة فرارط ثم لورثة زهر بنت بلقاسم بن ابراهيم

ثلاث حبات وعشرة فرارط ثم لورثة الورثة البلالي حبة

ونصف اخرى ثم لورثة ابراهيم البلالي حبة ونصف اخرى

ثم لورثة بلقاسم بن محمد ثلاث حبات وربع اخرى ثم لورثة

سيدي محمد بن احمد السمالي حبة غير خمسة فرارط ثم لورثة مبارك

بن محمد التجاني نصف حبة ثم لورثة سيدي بلقاسم بن محمد التونسي

نصف حبة ثم لمسجد سيدي عبد الرحمان الاكرا نصف حبة ثم

لورثة علي بن مبارك من بني تسالي ثلاث حبات ثم لورثة مبارك

بن ابراهيم فيسوع نصف حبة ثم لورثة بن عمر السعيدي اربعة

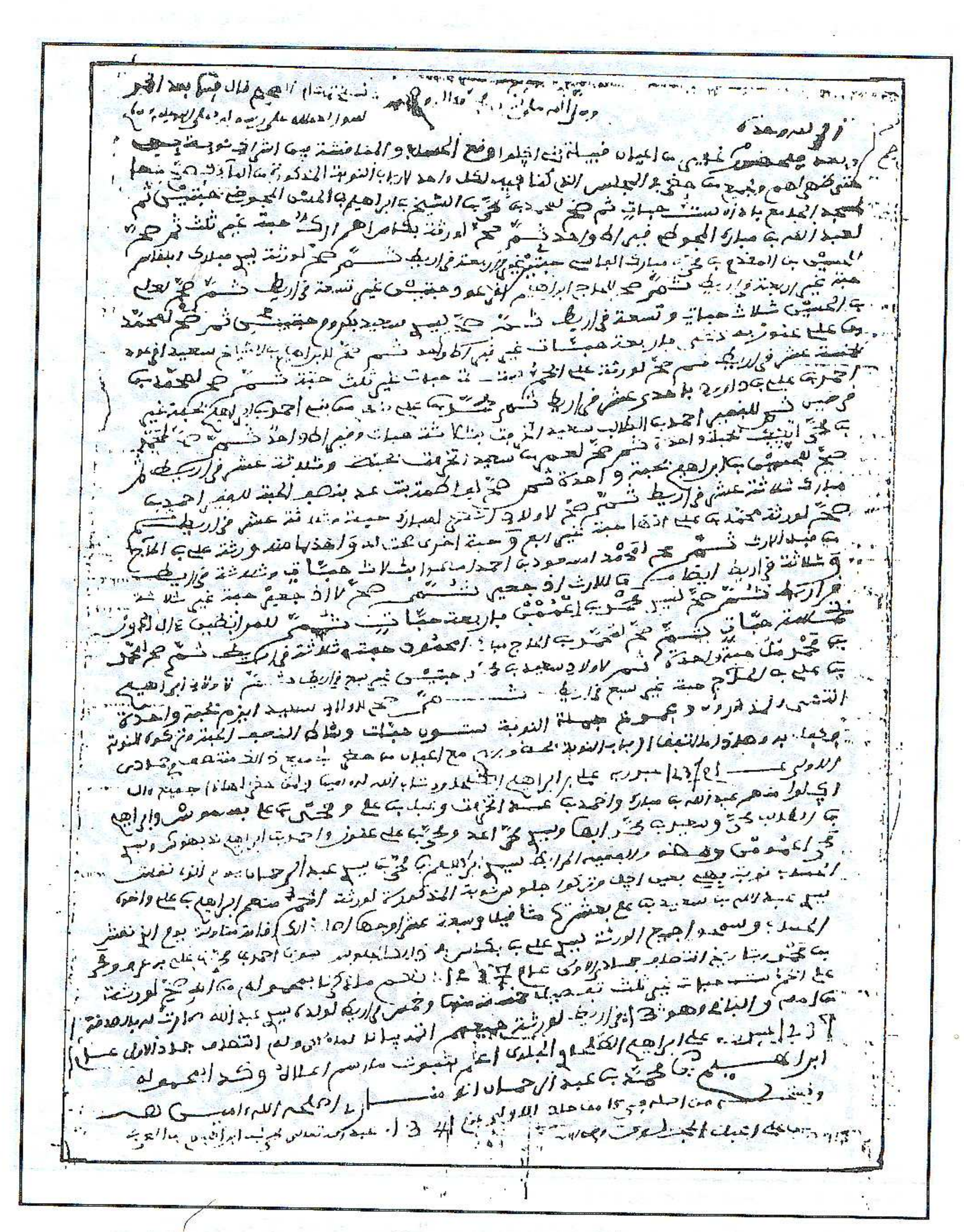
عشر قيراطا ثم لورثة علي بن سعيد الشعيدي اربع حبات

واحدى عشر قيراطا ثم لورثة العقير محمد بن ابراهيم

الشعيدي ثلاث حبات وخمسة عشر قيراطا ثم لورثة

اعقيل اربعة فرارط ثم لورثة الزهر بنت ع[illegible]

الوثيقة 1 : مطلع عقد تجرية «نوبة وازلغا» باكلو سنة 1890/1307

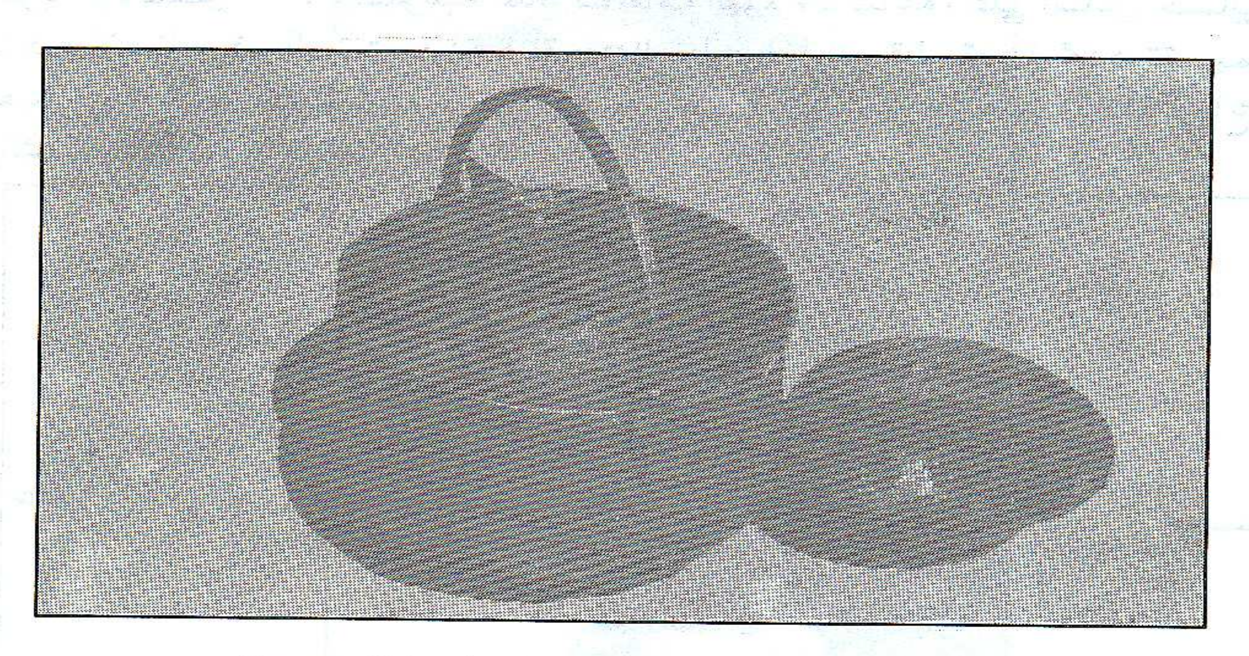


الوثيقة 2: عقد تجرية «نوبة بيهي» سنة 1822/1237

وتخضع كمية الماء في العين للظروف المناخية المتذبذبة، فتزداد مياهها وتقل حسب مقدار التساقطات، علماً بأن متوسط التساقطات لم يتجاوز أكثر من 163 ملم سنوياً عوض 400 ملم اللازمة كحد أدنى لإقامة زراعة بورية ملائمة(7). ورعياً لهذه الظروف، عمد السكان إلى وضع تنظيم دقيق لتوزيع الكمية الموجودة واستغلالها فلاحيا إلى أبعد الحدود.

1- المقياس المستعمل في توزيع "نوبات الماء" بأكلو :

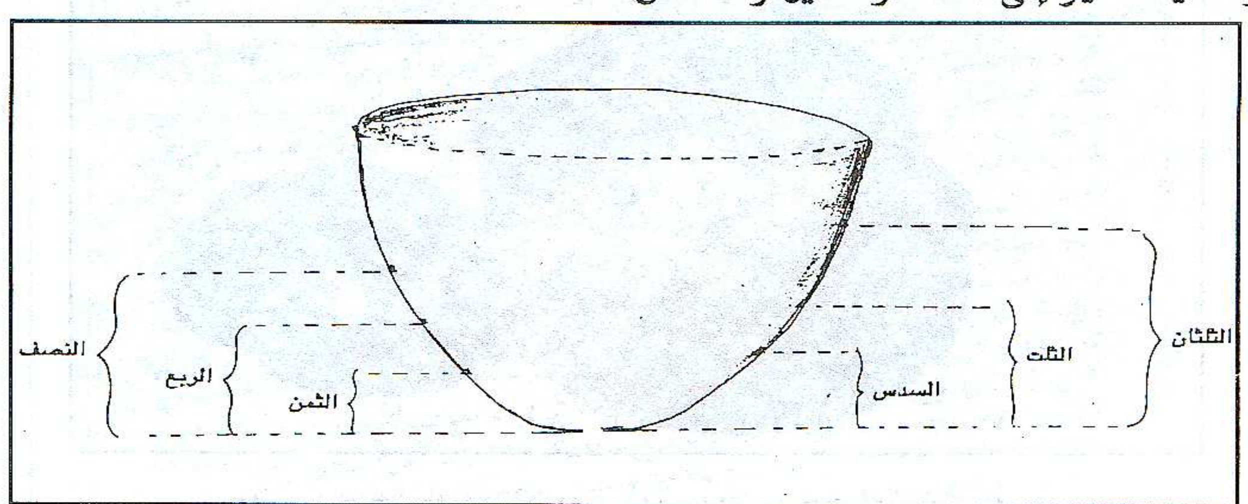
قبل أن نتناول الأساس الحسابي المتشعب الذي وقع اعتماده في ضبط هذا التوزيع، نقدم وصفا للآلة المستعملة في تحديد أنصبة المستفيدين من الماء.



الصورة 1: «تاناست» الى جانب المرجل قبل الاستعمال

7) انظر تفاصيل أخرى عن مقدار التساقطات ووضعية المياه في هذه المنطقة، ضمن مساهمة الأستاذ يحيى أبو الفرح، بعنوان "الحياة الريفية بسهل تزنيت" ضمن أعمال ندوة **تزنيت وباديتها**، منشورات كلية الآداب بأكادير.

آلة : تاناست : تدعى هذه الآلة : تاناست" باللسان الأمازيغي، بمعنى النحاسية، كما تدعى أحيانا "الطاسة" فهي إناء بسيط مصنوع من النحاس على شكل نصف كرة غير هندسية، يوجد ثقب دقيق في قعره، وهذا الثقب مزود بقطعة نحاسية سميكة يخترقها نفس الثقب بهدف عدم توسيع ذلك الثقب بفعل الماء أو أي تدخل خارجي فيظل ثقبا ثابت الفتحة، ويعتبر مقدار فتحة هذا الثقب وحجم تاناست هو الميزان الذي تقاس به المدة الزمنية اللازمة لضبط كمية الماء أثناء التقسيم(8) ، ولذلك تعمد الجماعة إلى مراقبة الطاسة وتحقيقها على أصل محفوظ عند الأمين سنويا، في شهر يونيو الفلاحي، كما يعهدون إلى حدّاد خاص(9)، بضبط سعة الثقب ، فتظل «تاناست» مضبوطة من حيث المدة الزمنية، تساوي **4 دقائق،** لاتزيد ولاتنقص(10) ، مستوعبة عدد ساعات اليوم 24 ساعة، على أساس حسابي نذكره لاحقاً. وقد ألصقت بهذه الآلة من السطح الداخلي قطع قضية تحدد تقسيماً معيناً في ناحيتين متقابلتين إحداهما تشير إلى الربع والثمن والنصف وثلاثة أرباع، والثانية تشير إلى الثلث والثلثين والسدس.



الرسم 1: «تاناست»: التقسيمات الجزئية المحددة على السطح الداخلي.

---

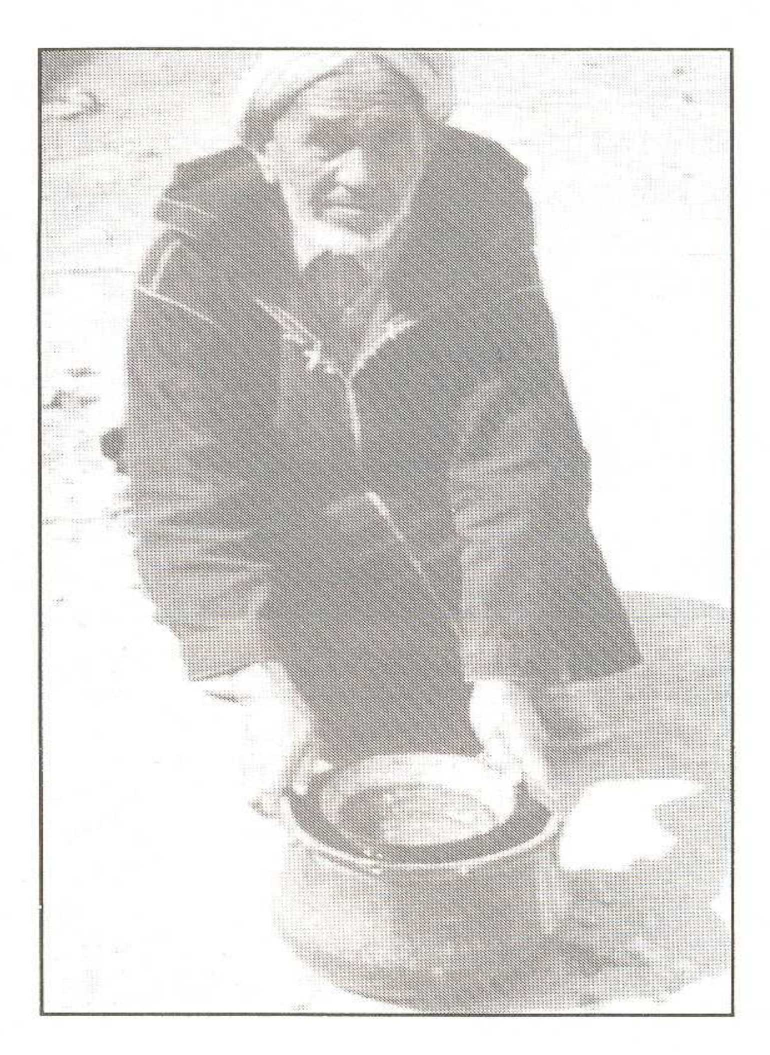
8) توجد تفصيلات أخرى عن وصف "تاناست" في كتاب :

السوسي محمد المختار. –**المعسول** –. مطبعة النجاح، الدار البيضاء، 1961، ج 20 ص 152.

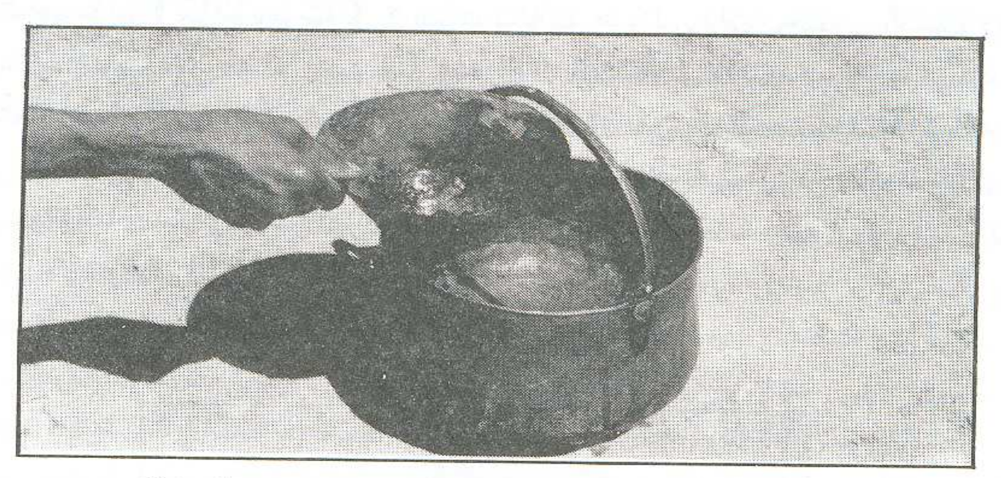
9) الحدّاد المكلّف مؤخرا بضبط هذه الآلة، هو المعلم إبراهيم البرايّمي. بأكلوسنة 1994.

10) المدة الزمنية التي تضبط عليها هذه الآلة تختلف حسب الجهات، فهي في إفران بالأطلس الصغير تساوي 12 دقيقة، وفي أكادير الهناء بمدينة طاطا تساوي 45 دقيقة، بينما تساوي 4 دقائق في أكلو. ويتعلق الأمر بحجم ثقب «تاناست» وسعتها، وصبيب مياه العين.

إستعمال (تاناست) : هناك تنظيم هيكلي للاشخاص المسؤولين على توزيع الماء -نذكره لاحقا- ويهمنا منه الآن الشخص الذي يستعمل هذه الآلة، ويدعى "التَرْجْمَانْ" أو "التَرْشْمَانْ" من الرَّجْم أو من الرَّشْم، أي وضع العلامات الدالة على عدد «تاناسين = الطاسات» المخصصة لكل مستفيد، ويعتبر «التَرْجْمَانْ» رئيسا مسؤولا عن مراقبة هذه الآلة لمدة نضف يوم، نهاراً ، ويخلفه «تَرْجْمَان» آخر خلال الليل بالتناوب.



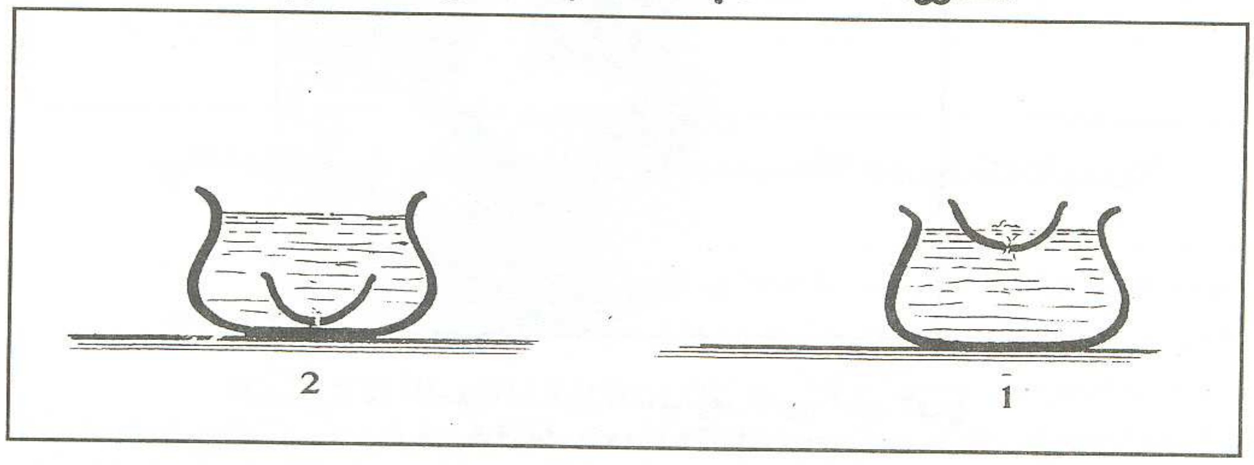
الصورة 2: الأمين السابق السيد إبراهيم العبدلاوي يعرض كيفية استعمال «تاناست».



الصورة 3 : تاناست في بداية وضعها على سطح الماء



الصورة 4 : تاناست بعد امتلائها تستقر داخل المرجل



الرسم 2 : وضعيتا آلة تاناست أثناء قياس وحدة الزمن : (4دقائق)

ويتم استعمال «الطاسة» أي «تاناست»، حيث يجلس الناس في مكان معلوم، فيضع الترجمان أمامه مرجلاً نحاسياً مملوءاً بالماء ويضع بداخله على سطح الماء «الطاسة»، وهي طافية فيتسرب إليها الماء من الثقب الذي في مركزها، وحينما تمتلئ تسقط داخل المرجل، فيستخرجها من المرجل، فارغة ويضعها على سطح الماء ثانية، فيعلن ذلك بصوت خاص يسمعه صاحب النوبة كل مرة، وهو يسقي حقله، حتى يستوفي نصيبه من الماء، فيفتح المجرى إلى حقل جاره، ويكرر «التَرْجمَان» هذه العملية طوال النهار أو الليل.

وخلال ذلك، يستعين بسجل يضم اسماء الأشخاص المستفيدين وأنصبتهم من الماء بعدد الطاسات، وحتى لايقع في سهو بالنسبة لعددها يستعين بمجموعة من الحصى أو العصي معروفة العدد، تدعى "الرَّشم" ينقلها من يمينه إلى يساره أو العكس بحساب «الطاسات» اللازمة لضبط نصيب كل مستفيد، وعند انتهاء حظ أحد المستفيدين من السقي، يعلن ذلك بصيحة خاصة، فيَرد الماء إلى بستان المستفيد الذي يليه، وهكذا ينتهي دوره بنهاية النهار أو الليل[11]، فيحضر «التَرْجمَان» الذي يليه في النوبة ويتسلم مسؤولية التسيير.

وعن أصل هذه الآلة يقول المختار السوسي : «هذه الساعة المائية رومانية الأصل، وهي من بقايا الآثار الرومانية عند السوسيين»[12] ولكننا لانعرف المصدر الذي استند إليه بخصوص هذه النسبة، ولم نقف على شيء في هذا الموضوع مما له صلة بتاريخ السقي عند الرومان، سواء من خلال الكتابات التي رجعنا إليها، أو من قبل بعض الباحثين المغاربة من ذوي الاختصاص ممن استشرنا هم. وأغلب الظن أنها آلة مغربية، لكن مع غياب الأدلة يعسر علينا أن نطمئن إلى أي ترجيح.

2- الأساس الحسابي لتوزيع نوبات الماء في أكلو :

لم نقف على تاريخ مضبوط لبداية استغلال مياه عين أكلو، ويبدو أن استغلاله يعتبر قديما، والوثائق التي نملكها في الوقت الراهن لاتتجاوز بداية القرن التاسع عشر، وهي عقود يدعى كل منها "عقد تَجْريَّة" ولعل كلمة "تجرية" في صيغتها العربية على غير قياس لغوي[13] كما تستعمل عبارة "النوْبة" لنفس المعنى

11) ينتهي النهار عند أذان صلاة المغرب، وينتهي الليل بطلوع الشمس.

12) السوسي محمد المختار – المعسول. (م. س)، ج 20، ص 152.

13) **التجريّة** اسم للوثيقة التي ضبطت عدد «الطاسات» وأسماء المستفيدين من الماء في كل نوبة، وتكتب كلمة "تجرية" أحياناً في بداية العقد وقد رأينا أن نلتمس معناها من فعل أجرى الماء "جرية"، فصاغوا الإسم على وزن "تجرية" على غير قياس. كما رأينا أيضا أن هذا اللفظ يمكن أن ينحرف بالاستعمال عن كلمة "تجردة" وهي كلمة تستعمل لدى العامة لتقييد الأسماء في "جريدة"، وفي نطق كلمة "تجريَّة" باللغة الأمازيغية مايشعر بوجود حرف الدال حيث تنطق «تاجريت» أو "تجريدت" جمعها «تاجريدين» مما يزكي الرأي الثاني.

في الجـانب التطبيقي[14] وتقابلها محليا كلمة " تِيرمْتْ"[15] فهي ثلاث أسماء يراد بها نفس الشيء مع تحديدات مميزة.

أما مضمون العقد، فيشمل - بعد اتفاف الجماعة - لائحة كاملة بأسماء المستفيدين من مياه العين، مع ضبط نصيب كل فلاح من عدد طاسات الماء، اعتمادا على أساس مايملكه من المساحات الزراعية أو نتيجة الشراء أوالارث وتقدر كميات الماء في العقد - إصطلاحا- بعدد الحبات، ويخصص كل عقد بـ «نوبة » واحدة.

الأساس الحسابي : فقد اصطلحت الجماعة على أن تنحصر "النوبة" الواحدة في كمية الماء الذي يخرج من العين خلال نصف يوم، أي لمدة إثنتي عشرة ساعة، كما اصطلحوا على تقسيم كل نوبة من الماء إلى ستين "حبة" أي جزءاً، وتسمى الحبة "الطاسة" وهذه الطاسة من "الطاسات الرابحة"[16] ، وتقسم إلى أجزاء كسرية منها : النصف والربع والثمن والثلث والسدس، وتقدر هذه الأجزاء بعدد القراريط[17] ، اعتبارا من كون "الحبة" أو "الطاسة" تساوي 24 قيراطا، قياساً على عدد قراريط الدينار الذهبي الشرعي، وبذلك يكون نصف الطاسة 12 قيراطا وثلثها 8 قراريط وثمنها 3 قراريط، وهكذا.

فالمبدأ الحسابي كما هو ملاحظ مبني على أساس الحساب الستيني، فقد اصطلح أهل سوس على تقسيم مياه العيون على ستين "حبة" أي جزءاً واستعملوا نفس التقسيم في حساب التركات، وقد وضع العلامة عمر بن عبد العزيز الكَرسيفي رسالة خاصة في هذا الموضوع[18].

ويعتبر هذا التقسيم من الأصول المشتركة في مختلف الحضارات القديمة، فرقم "ستين" يتكون من عشرة أضعاف لرقم "ستة" ورقم ستة هو الأساس الحسابي الكوني الذي يرجع فيه الفقهاء إلى قوله تعالى : (الله الذي خلق السموات والأرض

---

14) **النوبة** : جمعه نوبات. مصطلح تقصد به المدة الزمنية التي يقضيها "الترجمان" في صرف المياه إلى أصحابها خلال نصف اليوم، أي خلال النهار أو خلال الليل.

15) **تيرمْتْ** : جمعه "تيرام" وهو مصطلح أمازيغي مرادف للنوبة، وتَحَدَّدَ مقدار "الوجبة" أو الحصة من الماء خلال النهار أو الليل، بحسب نوبتين كل يوم.

16) هناك نوعان من الطاسات : "رابحة" و "ساقطة" كما سيذكر في المتن لاحقاً.

17) **القيراط** : جزء من 24 جزءا من الدينار الشرعي، وللمزيد من التفصيل، انظر المرجع التالي :

أفا عمر. - **النقود المغربية في القرن الثامن عشر (م.س)** ص. 27.

18) أفا عمر. - **النقود المغربية في القرن الثامن عشر (م. س)** ص 175 هامش 228.

وما بينهما في ستة أيام)[19] فأغلب الوحدات الزمنية إنما هي تضعيف لهذا الرقم[20] ، فضعف رقم ستة عشر مرات يساوي ستين وهو عدد الحبات التي وقع الاصطلاح عليها في تقسيم مياه العيون.

وهكذا، فعلى أساس "ستين حبة" وقع تقسيم أسهم الفلاحين من مياه عين أكلو خلال النوبة الواحدة، وفي اليوم نوبتان : إحداهما في النهار والأخرى في الليل، فيكون عدد "الحبات" أو "الطاسات" خلال اليوم الواحد مائة وعشرين "طاسة رابحة"[21] وقد أسست الجماعة عددا من "النوبات" الخاصة بتوزيع الماء، وأفردت كلا منها بعقد خاص، هو «عقد تجربة».

3- عدد نوبات عين أكلو وأسباب تأسيسها :

إن الوثائق لاتذكر بالضبط متى بدأت تأسيس نوبات الماء في عين أكلو، وقد تكون "النوبات" الأولى تم تأسيسها منذ بداية استغلال العين حرصاً من الجماعة على تنظيم عملية التوزيع ، غير أن "النوبات" اللاحقة إنما تأسست نتيجة نوازل معينة أو مشاريع يقع فيها احتياج مادي لدى الجماعة، فيساهم بعض أفرادها في تمويل تلك المشاريع مقابل إحداث "نوبة" جديدة تُحدَّد فيها لصالحهم أسهمٌ من مياه العين تعويضا لهم عن ذلك، كما وقع في "نوبة الخيل الأخيرة"[22] عندما كانت الجماعة في حاجة إلى شراء الخيل للإسهام به في معركة طارئة، ولذلك اشتهرت كل نوبة باسم خاص أغلبها أسماء الأشخاص، وبعضها يستشف منه أحيانا نوع النازلة التي تأسست بسببها تلك النوبة، وقد تزايد عدد النوبات حتى بلغت خمسا وأربعين نوبة جمعنا لائحتها من خلال عقود "التجريات"[23] ونقدمها فيما يلي :

---

19) سورة **السجدة**، آية 32 ، وقد ورد ذكر الستة أيام في القرآن سبع مرات.

20) تضعيف رقم ستة مرتين يساوي 12 (عدد شهور السنة) وأربع مرات يساوي 24 (عدد ساعات النهار) وعشر مرات 60 (عدد الدقائق في الساعة) وستين مرة يساوي 360 (عدد درجات الدائرة).

21) "الطاسة الرابحة" أو "الطاسة الكبيرة"، هي "طاسة" نظريّه وتساوي عند التطبيق ثلاثًا من "الطاسات الساقطة" أوالصغيرة كما سيأتي توضيحه في المتن.

22) نوبة الخيل الأخيرة هو تعريب لإسم النوبة بالأمازيغية وهو "تيرمت إيسان كَرَانِينْ".

23) عقود النوبات تجمع عادة عند أمين الساقية كما يسمى، ولكننا وجدنا نسخا منها عند غير الأمناء مما يفيد أن بعض هذه العقود يحتفظ بها أيضا لدى الأسر التي يعنيها أمر بعض النوبات فتستنسخها، خاصة ممن تولى منصب «التَرْجُمَان». (انظر نماذج هذه العقود في الوثيقتين 1 و 2 ، ضمن هذا البحث)

1- نوبة محمد أو الحسين ندعبلّ
2- نوبة محمد أوعمر
3- نوبة عثمان
4- نوبة ويل مُو
5- نوبة عيسى أومالك
6- نوبة يحيا أوصالح
7- نوبة عيسى ويصَل
8- نوبة عَمرو أومحمد
9- نوبة يدير أوعلي
10- نوبة وازلغا
11- نوبة موسى أوحمُو
12- نوبة أوضلوص
13- نوبة إيِيشَّاتن كرانين
14- نوبة حمُو كَ اللكمة
15 ـ نوبة ايمشأتن ندبامو
16 ـ نوبة موسى أو عمرو
17 ـ نوبة إيسو باهني
18 ـ نوبة ايبوشعيبن
19 ـ نوبة عبلَ كَعموم
20 ـ نوبة أكَاتَو
21 ـ نوبة واعزيز
22 ـ نوبة إيسّي ويعزَا
23 ـ نوبة تومارت
24 ـ نوبة بيهي
25 ـ نوبة علي ويسيمور إدبوسموس
26 ـ نوبة إيخُومَي
27 ـ نوبة عبد المومن ندباحمان
28 ـ نوبة أضرضور
29 ـ نوبة إيسَو إبراهيم إزوارن
30 ـ نوبة لجماعت إيزوارن
31 ـ نوبة لجماعت إيكَران
32 ـ نوبة إيسَو ابراهيم إكران
33 ـ نوبة عمر أعبلّي
34 ـ نوبة إيلم أوهمُو
35 ـ نوبة عبد المومن ندهمُو
36 ـ نوبة إيعزَا أوعبلّي أوبوبكر
37 ـ نوبة بوكَ ن تيزوا
38 ـ نوبة مَي إيدامَن
39 ـ نوبة تيزَا زوارين
40 ـ نوبة تيزا كَرانين
41 ـ نوبة إيسان زوارنين
42 ـ نوبة علي كَ اللكَمة
43 ـ نوبة أيت واعدي
44 ـ نوبة أو عبدي
45 ـ نوبة إيسان كَرانين

فهذه خمس وأربعون نوبة كل نوبة بستين حبة، وبذلك بلغ مجموع عدد "الحبات" أو "الطاسات" التي انقسمت إليها مياه العين 2700 طاسة "رابحة" وفي هذا العدد ينحصر الحد الأقصى لعملية التوزيع، وهو الذي يحدد دورة السقي التي تدوم مدة ثلاثة أسابيع على الأقل، ولذلك قررت الجماعة عدم زيادة نوبات أخرى عن هذا العدد، وليس لدينا مصدر مؤكد لمعرفة تاريخ وقوع هذا القرار[24].

24) لعل آخر النوبتين المزادتين ا بعين أكلو نوبتا الخيل الأولى والثانية وكان تاريخ رسم "التجرية" الأخيرة في شوال 1332 الموافق 20 شتنبر 1914 فيكون هذا القرار متأخرا إلى بداية القرن العشرين (أصل الرسم محفوظ لدى السيد عمر بن أحمد وكاكـ)

4-الطاسة الرابحة والطاسة الساقطة :

الملاحظة الأساسية بخصوص هذه العناصر الحسابية، هي : ضرورة التأكيد على أن هناك نوعين من الحبات أو الطاسات :

أ) الطاسة الخاصة بالتقسيم الأصلي، وتدعى لدى الفلاحين "الطاسة الرابحة" لأنها تباع وتشتري وتُذكر في الرسوم العقارية وعقود "التجر ية".

ب) الطاسة الخاصة بالقياس، وهي الآلة النحاسية التي تستعمل في توزيع الماء، ويسميها الفلاحون "الطاسة الساقطة"، لأنها تسقط داخل المرِجل بعد امتلائها بالماء أثناء التوزيع.

والعلاقة بينهما أن الطاسة الرابحة تساوي ثلاثا من الساقطة، ويُعبّر عنها في اللغة المحلية بعبارة : «تاناست إيربحن س كرات إيطّارن»، كما أن القيراط من «الرابحة» يساوي ثلاثة قراريط من «الساقطة».

والنتيجة الأولى لهذه العلاقة، أن كل من يملك -مثلا- حبة واحدة وقيراطا واحدا في عقد "التجر ية" فإنه أثناء السقي، يستفيد من الماء لمدة زمنية تمتلئ فيها الطاسة "الساقطة" ثلاث مرات وثُمُناً : أي ثلاث طاسات وثلاثة قراريط، وقياسا علي ذلك، فإن ستين حبة الرابحة التي حُدّدت في النوبة الواحدة خلال نصف النهار، أي 12 ساعة، تساوي 180 طاسة ساقطة وإن عدد هذه الطاسات في اليوم، أي 24 ساعة يساوي 360 طاسة ساقطة.

والنتيجة الثانية لهذه العلاقة، أن كل طاسة ساقطة وقع ضبط زمنها بحيث تساوي أربع دقائق لاتزيد ولاتنقص. والأساس الذي تم الاستناد إليه في ضبط هذا الزمن، هو الحساب الستيني في تطابق تام مع حركة الكرة الأرضية ودورانها أمام الشمس، بحيث يستغرق امتلاء الطاسة الواحدة، نفس المدة الزمنية التي تستغرقها أشعة الشمس لقطع مسافة درجة واحدة على سطح الأرض، وهي أربع دقائق [25].

---

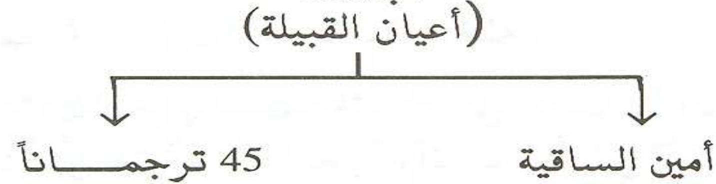
25) تفسير ذلك : أن دائرة سطح الأرض مقسمة إلى 360 درجة تمر بها خطوط الطول وتقسمها إلى 24 نطاقا، مسافة كل نطاق 15 درجة، تستغرق أشعة الشمس في النطاق الواحد ساعة كاملة والمجموع 24 ساعة التي في اليوم، فإذا قسمنا ساعة واحدة، أي 60 دقيقة على 15 درجة، يكون الناتج 4 دقائق، وهي المدة التي تستغرقها أشعة الشمس لقطع مسافة درجة واحدة، وبالتالي فهي المدة الزمنية التي وقع ضبط "الطاسة" عليها، فعدد الطاسات خلال اليوم تساوي 360 ، وبذلك يكرن هذا الأساس الحسابي أساسا فلكيا. (من رسالة للسيد عبد الله وكريم بتاريخ 15-11-1993).

5- مدة الدورة السقوية التي تدعى (أوْتَا) :

في سنة 1980 بلغ عدد المستفيدين من نوبات السقي حوالي 480 فلاحًا[26] وبما أنه توجد 45 نوبة، فإن الدورة الكاملة تتم خلال (45 : 2 تساوي 22,5)، أي 22 يوما أو 23 يوما بالتناوب، حيث تكون النوبة مرة فردية ومرة زوجية، ومعنى ذلك، أن كل حقل ينتظر مدة ثلاثة أسابيع – على الأقل– ليسقي في المرة القادمة، وخلال سنة كاملة تتم الدورة السقوية 15 أو 16 مرة بالتناوب فكل حقل يستفيد من السقي هذا العدد من المرات سنويا، والملاحظ أن مدة الدورة السقوية هذه تعتبر طويلة نتيجة عدد النوبات، غير أن معظم الفلاحين يحرص على أن يتم سقي أراضيهم بعد أسبوع أو عشرة أيام، ولذلك يسعون للحصول على حصص أخرى من المياه بالشراء[27] أو بالكراء، وأحيانا بالسلف خلال نفس الدورة، والقليل منهم ممن ينتظر دورة كاملة. والملاحظ كذلك أن أسهم الفلاحين من الماء مشتتة أحيانا في "تجريات" كثيرة بسبب البيع والشراء والرهن والكراء، ولذا يضطرون إلى التلفيق، فيضم كل منهم ماله من ماء في «تجرية» إلى ماله في "تجريات" أخرى، وبذلك يتمكن من الاستفادة من مائه طفرة واحدة.

6 - الجهاز التنظيمي لتوزيع الماء :

يتألف الهيكل البشري المكلف بتنظيم التوزيع كما يلي :



أ- **الجماعة :** فالجماعة تتألف من أعيان القبيلة وهي التي تقرر في أمر العين، حيث يجتمع أعضاؤها للبحث في القضايا المهمة، مثل تحديد «النوبات» ورعاية الساقية وتوسيع مجراها ومد الأقنية، وهي التي تعيّن أمينا يسمى :

---

26) كان هذا الإحصاء لسنة 1980 حسب لائحة الأمين ابراهيم بن الحسين العبدلاوي وبلغ عددهم 450 حسب ما أدلى به السيد ابن الباز إبراهيم من لجنة السقي صيف سنة 1993.

27) عن أثمان شراء الطاسة من الماء وكرائها، انظر هامش 32 من هذا البحث.

ب) **أمين الساقية**[28] : ويختار عادة ممن له خبرة بأعراف الساقية، وله حرص على شؤونها، وهو الذي يتولى الاحتفاظ بالطاسة الأصلية الكبيرة "الرابحة" والطاسة الصغيرة "الساقطة"، ويشرف على الفصل في قضايا السقي، وعنده سجل خاص بجميع النوبات وأسماء المستفيدين منها ونصيب كل منهم من الماء، أما التوزيع الفعلي للماء أثناء السقي، فهو من مهام مسؤولين آخرين.

ج) **الترْجْمان**: تقوم الجماعة بتعيين خمسة وأربعين "ترجماناً" يمارسون مهامهم بالتناوب، وتعتبر مهمة "الترجمان" محدودة في مراقبة توزيع الماء لمدة نصف يوم - كما أسلفنا عند الحديث عن استعمال "الطاسة" - ويخلفه ترجمان آخر، ولايعود الأول إلى مزاولة هذه المهمة إلا بعد اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين يوما[29] . و"للترْجْمانات" معرفة بشؤون نوبته، من حيث عدد الأشخاص وتتابعهم ونصيب كل منهم من الماء، كما له دراية باستعمال الطاسة النحاسية، غير أن الكثير من هؤلاء "الترجمانا" أصبحوا لا يستعملون الآن هذه الآلة، بل يستعملون الساعة بدلا عنها لتحديد زمن السقي وتحديد الأنصبة، ولم يعد يستعمل الطاسة سوى من لم يتعود منهم على استعمال الساعة. واعتمادا على أن الطاسة "الساقطة" تساوي أربع دقائق، أمكن "للترجمان" أن يحسب اثنتي عشرة دقيقة لكل طاسة رابحة، ويحسب أجزاءها بالدقائق كذلك، دونما حاجة للآلة النحاسية.

هذا الإطار البشري البسيط هو الذي يقوم بتنظيم عمليات توزيع الماء في هذا المجال السقوي، وبالرغم من أن البنيات العقارية التي تمتاز بسيادة الملكية الخاصة ذات المساحات الصغيرة والمشتتة، لم تعرف تحولات تذكر، خصوصا بعد فترة الحماية، فإن هناك - مؤخرا- محاولات لإدخال إصلاحات تتجلى في إعادة تنظيم الإطار البشري حيث وقع اختيار لجنة من عشرين عضوا للنهوض بهذا القطاع الذي يعاني عدة صعوبات معروفة في القطاع السقوي التقليدي [30] .

---

28) تعاقب على أمانة الساقية منذ عهد الحماية أي منذ بداية القرن العشرين الأمناء الآتية أسماؤهم بالتتابع : (1)-سي العربي أوجامع (2) سي الحسن ندا وجامع. (3) سي إبراهيم بن الحسين العبدلاوي.(4) محمد بن الحسن امارير، وهو الأمين حاليا (1995) . (الرواية الشفوية من الأمين العبدلاوي سنة 1980).

29) يعمل "الترجمان" في نوبته بعد انقضاء الدورة ويصادف عمله مرة نوبة الليل ومرة نوبة النهار.

30) انظر هذا الجانب ضمن مقال للاستاذ :

يحيى أبو الفرح. - الحياة الريفية بسهل تيزنيت، ضمن أعمال **ندوة تزنيت وباديتها**، منشورات كلية الآداب بأكادير.

7- الأعراف المنظّمة للسقي في أكلو :

تردد عن طريق الرواية الشفوية، أنه يوجد عرف خاص بساقية أكلو يتضمن قوانين مكتوبة، على غرار عرف العوينة وتزنيت[31]، ولقد بذلنا غاية الجهد للحصول عليه منذ سنة 1979. فتبين أن هذا العرف تعرض للضياع، بعد أن كان معمولا به فعلا.

ولحسن الحظ، فإن تلك الأعراف تظل محفوظة في أذهان الناس ممن يزاولون أمور الساقية، لذلك فإن الغلط في توزيع المياه منعدم بالمرة، نتيجة تطبيق تلك الاعراف وقد حاولنا جمع نماذج من النوازل والأعراف وتقديمها فيما يلي :

أ) إن ملكية أصول "النوبات" تثبت بالإرث أو بالكراء أو بالرهن أو بالشراء. وبخصوص أثمان الشراء فقد وقفنا في عقد "التجرية الأخيرة" بتاريخ 29 شوال 1332 هـ(موافق 20 شتنبر 1914م) على أن ثمن الحبة أي الطاسة "الرابحة" يساوي 28 ريالا من سكة زابيل، وهو الريال الفضي الإسباني، الذي كان يصرف بالمغرب بـ 120 أوقية للريال سنة 1906، وللمقارنة، حصلنا على ثمن بيع الحبة وكرائها في السنة الحالية 1993 [32]، وأن البيع يكون دائما على أساس مافي رسم "التجرية".

ب) من فاتته حصته من الماء في موعدها، فإنه يستدركها في غضون مابقي من الأيام، في نفس الدورة السقوية من اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين يوما.

ج) كل من لم يستغل حصته من الماء في وقتها خلال الدورة السقوية فإن هذه الحصة تسقط ولايستدركها في دورة أخري.

د) يمكن أن تَفوّت حصة أحد الفلاحين إلى غيره علي سبيل السلف بحيث يمكن استرجاع هذا السلف في وقت آخر.

---

31) العثماني محمد. - **ألواح جزولة والتشريع الإسلامي**. رسالة دبلوم الدراسات العليا بدار الحديث الحسنية، سنة 1970، محفوظة بالخزانة العامة بالرباط، ميكرو فيلم رقم 1340، ص. 124، تعليق رقم 4.

32) يساوي ثمن شراء الطاسة الرابحة (من 12 دقيقة) حاليا - 1993- مابين أربعة آلاف وستة آلاف درهم. ويتغير الثمن حسب الزمن. أما كراء الطاسة الرابحة كذلك ا فيبلغ بين 200 و 250 درهما سنويا، عند جودة العين، وعندما يقل مياه العين في حالة الجفاف، فيبلغ ما بين 100 و 125 و 150 درهما. وفي أثناء وجود الماء في فصل الشتاء فيتراوح ما بين 25 و 20 و 5 دراهم.

هـ) يعتبر مقدار الماء المستنزف في "أكطوم" – وهو القناة الفرعية التي تصل حقل صاحب الحصة بالمجرى الأصلي للساقية – من ضمن حصة الفلاح صاحب الحقل الذي تبدأ حصته منذ خروج الماء من المجرى الأصلي للساقية.

و) تضاف حبة ونصف لكل «نوبة»، وهي أجرة «الترْجْمان» ويصرف منها ربع الحبة لورثة سيدي إبراهيم أو محمد دفين أكرار، وهو من الفقهاء الصالحين.

ز) اتخذت الجماعة نوبة خاصة تدعى "نوبة الجماعة" ينفق ريعها على مصالح الجماعة وضيوفها وخصوصا أثناء الموسمين : موسم زاوية سيدي وكاگ وموسم سيدي موسى، كما وُقفَتْ طاسات من قِبَل بعض المحسنين على المساجد القريبة من مصرف الماء برسم وضوء المصلين.

ح) تحضر الجماعة في أول شهر يوليوز الفلاحي من كل سنة لمراقبة آلة توزيع الماء (تاناست) وتصحيح ماقد يصيبها من خطإ ويعهد بها لحداد خاص بذلك.

نكتفي بهذه المعلومات عن النموذج الأول وننتقل إلى النموذج الثاني للسقي.

ثانيا :

نموذج أنظمة السقي في ويجّان

تقع بلدة ويجان[33] على بعد أربعة وعشرين كلومترا شرق مدينة تزنيت، على الطريق الممتدة إلى تافراوت، وتعتبر ضمن قبائل بعقلية، وتنحصر أراضيها بين جبال أنزي شمالا ورسموكة غربا وأيت جرار جنوبا وتازروالت شرقا، وتتكون هذه البلدة من ثلاث وحدات قروية، وهي : أيت ثُلْثْ وأيت غمرو وإيزيلالن، ويبلغ مجموع قراها تسعاً وعشرين قرية.

وبخصوص الجانب السقوي فإنها تتوفر على مساحة تبلغ 295 كلومترا تتخللها عيون متفجرة بالمياه، يبلغ عددها أكثر من عشرين عينا[34] مما جعل القطاع الفلاحي قطاعا يعرف نشاطا متميزا منذ القديم، وللتقنيات المستعملة في توزيع مياه العيون تاريخ تتداخل الروايات في تحديد أصولها، ومن بينها رواية ترى أن هذا النظام يعود إلى أصول إسبانية أو برتغالية، تأسّس في العهد الموحدي. حينما كان الموحدون يستفيدون من خبرة الأسرى المجلوبين من

---

33) أغلب المعلومات الواردة هنا تعتبر جديدة، وقد اعتمدنا فيها على بعض الوثائق العائلية، وعلى الزيارات الميدانية، وعلى الروايات الشفوية لبعض المسنين والشباب ممن سنذكرهم في الهوامش اللاحقة، وقد جمعناها خلال الفترة الممتدة مابين سنة 1980 و 1995 .

34) بن إحيا الحسين – مقال بعنوان" **ويجان رمز البطولة والمقاومة**". جريدة ادرار، عدد 7 ، مارس 1989 .

الأندلس وشبه جزيرة إبيريا عموما[35]، غير أنه لايمكن تحديد تاريخ انتظام توزيع مياه بعض العيون القديمة إلا بناء على الظن، لأنها تعتبر قديمة الاستغلال، ولاشك في أنها تعرضت لتطورات كثيرة من حيث تقسيم مياهها. كما أن ملكية المياه وقع تداولها في أيدي مختلف السلالات التي كانت تعمّر هذه المنطقة.

وقد أنجز إحصاء متأخر (1993) كشف عن وجود تسع عشرة عينا جارية[36] ولكنها متفاوتة القدم، بينما غارت بعض العيون بسبب الجفاف.

وندرج اسماء العيون التسع عشرة التي تعتبر ذات أهمية سقوية فيما يلي:

- عين تونلي.
- عين اغبالو أو عين أكادير أوفلا.
- عين تانوت.
- عين موزايت.
- عين الجديد.
- عين علي بلقاس
- عين بلقاس
- عين الحوس أو الحوس.
- عين تابو: (عين همو ن دّاموح)
- عين تاكنيت.
- عين تامالوت.
- عين تاسوايروت أو عين ن الشرفاء.
- عين ايمزوغارن .
- عين تاشرابوت.
- عين سي ادريس.
- عين جامع ن بلخير.
- عين توريرت.
- عين أساكا.
- عين تيكزيرت [37].

بعد هذا التقديم، ننطلق من الفكرة السائدة لذى السكان عن أصل نظام تقسيم المياه بسوس لنتناول المقاييس المستعملة في التوزيع وكذا الأساس الحسابي المعتمد في صَنع تلك المقاييس.

---

35) رواية شفوية من الشيخ الحسين بن الحسن الوجاني (توفي رحمه الله سنة 1994).

36) بن إحيا الحسين الوجاني: تقرير في عين المكان.

37) سجلت أسماء بعض هذه العيون نقلا عن السيد الفاضل الحاج العربي أو الطاهر بتاريخ 31 يناير 1980، واستكملت اللائحة من مراسلة للسيد الحسين بن إحيا سنة 1993، ثم من وثائق عائلية أطلعنا عليها -مشكورا- الأستاذ محمد بن يحيى سنة 1995.

الوثيقة 3: عقد شراء مياه بعض "النوبات" في ويجّان. 1914/1332

1- تقنية تقسيم المياه :

حسب ماذهبت إليه الرواية الشفوية، فإن النظام المتبع في تقسيم المياه يعتبر نظاما برتغاليا[38] وهذا الزعم مرده إلي فكرة انطلقت لدي العامة منذ القرن السادس عشر، حينما استعمر البرتغال أغلب الشواطئ المغربية، وقد نسب السكان كثيرا من الظاهرات الحديثة إلى البرتغال، مثل آثار حفر المعادن واستغلال مختلف المناجم، وإحداث كهوف ومغارات، ونقش بعض الرسوم أو التماثيل في الصخور في بعض الجهات الجنوبية، وكذا أنظمة تقسيم المياه، وقد وقع في الروايات -أحيانا- خلط بين البرتغال والرومان، ويقصد بالرومان - غالبا - الأجانب المسيحيون، وهذه الظاهرات ماتزال في حاجة إلى دراسات تاريخية واركيو لوجية، غير أنه بخصوص أنظمة تقسيم المياه، لايستبعد أن تكون من الناحية التطبيقية تلاقحا بين نظام مستورد، من الرومان أو غيره، وممارسات محلية عميقة الجذور.

ولايمكن الفصل في أصول هذه الأنظمة إلا بإجراء دراسات متمعّنة على مستوى الأنظمة في البلدان المذكورة والكشف عن أنظمة السقي في الحضارتين الرومانية والإبيرية وغيرها من بلدان البحر المتوسط، ثم الرجوع إلى التقنيات المتاحة في شمال إفريقيا، وبالخصوص عند قدماء الأمازيغ بالمغرب، وهذا خارج عن نطاق هذه المساهمة[39].

ونكتفي بعرض تاريخي وصفي للتقنيات المستعملة في توزيع الماء في منطقة ويجّان علي حالتها كما بلغت إلينا الآن.

2- المقاييس المستعملة في تقسيم المياه بويجّان

تختلف الآلات المستعملة في ويجّان عن التي تستعمل في أكلو كما يختلف الأساس الحسابي المستعمل في كلا النظامين بالرغم من أن الهدف في كل منهما واحد، وهو الحرص الشديد علي ضبط أنصبة المياه التي يستحقها كل مستفيد من الجماعة، ولهذه الغاية فلابد من مقياس ثابت يَستند إليه، وكان الأساس المعتمد في هذا المقياس سواء في ويجّان أو أكلو أو غيرهما من المناطق يرتكز على الدورة الفلكية، وبالخصوص منها على ساعات النهار والليل من أربع وعشرين ساعة.

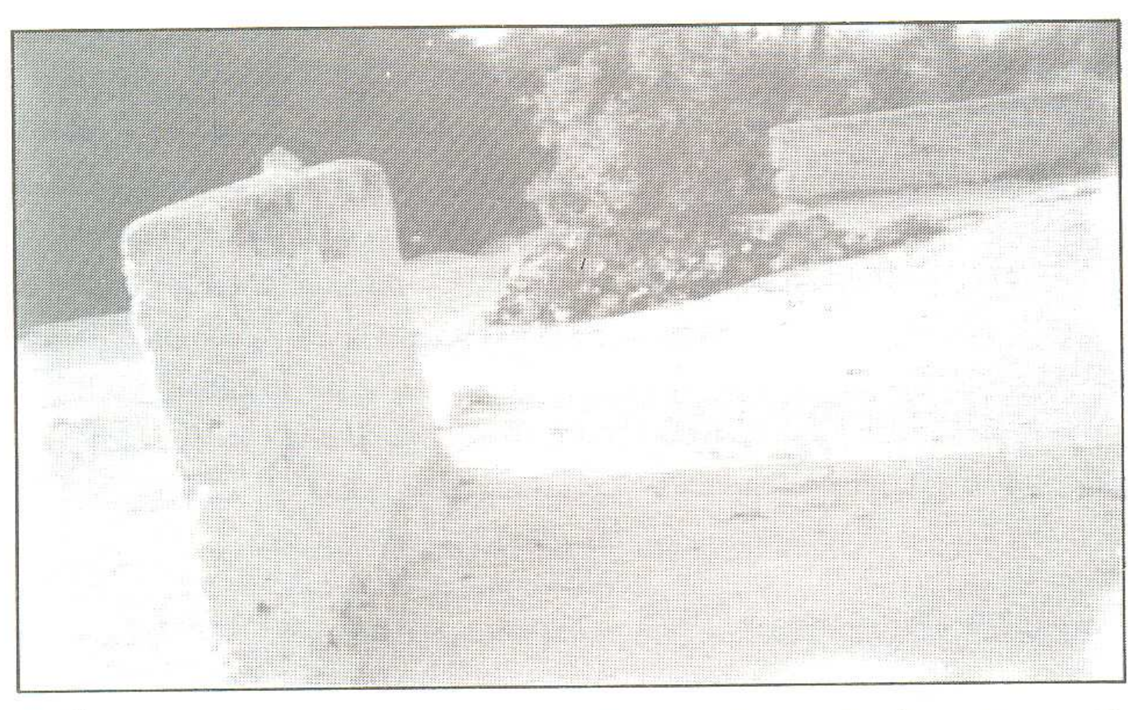
---

38) هذه الرواية متواترة وقد نقلتها عن مخبري السيد الحسن بن الحسين بن الحسن الوجاني، رحمه الله وهو من أبناء المؤرخ الحسين ابن يحيى الوجاني مؤلف كتاب عن تاريخ سوس.

39) يعتبر موضوع تقنيات تقسيم المياه وأنظمتها من المواضيع الجديدة بالتناول من قبل الباحثين على مستوى شمال إفريقيا وحوض البحر المتوسط على غرار الدراسات المنجزة في آسيا الوسطى.

وكان تقسيم المياه في ويجان يواجه مشكلين أساسيين، فالمشكل الأول، هو : كيف يمكن الملاءمة بين مقدار المياه وعدد أنصبة المستفيدين بما بينهم من الاختلاف في كميات المياه من جهة وتعدد الأنصبة في "نوبات" متفرقة من جهة أخرى ؟ والمشكل الثاني، هو كيف يمكن الملائمة بين "نوبات النهار" و "نوبات الليل" فقد كان قسم من المستفيدين قديما يشتغلون في سقي أراضيهم في النهار وقسم يشتغلون في الليل، ولما كان المشتغلون ليلا يتعرضون لعسر في مزاولة عمليات السقي، فقد أنشئت صهاريج لايعرف تاريخ بداية نشأتها، وقد أقيم البعض منها في عهد الحماية الفرنسية والبعض في عهد الاستقلال،ورممت مرات عديدة (انظر رسم: 4 و صورة : 6) وهي أحواض ذات سعة كبيرة، تستوعب مياه العين أثناء الليل، فتحتفظ بها لأصحاب نوبات الليل، فيتم توزيعها نهارا. وبذلك أصبح العمل نهارا فقط بدل العمل ليلا ونهارا.

وعلي أساس هذين المشكلين وقع الاعتماد في ويجّان على آلتين : إحداهما لتقسيم المياهالمتدفقة من العين مباشرة والثانية لتقسيم المياه المتجمعة في الصهريج ليلا، فالآلة الأولى تدعى «لْعْلام» وتعتمد على الزمن لتحديد مقادير الأنصبة، بينما تدعى الآلة الثانية «أسقول» وتعتمد على مستويات كميات الماء في الصهريج لتحديد حصة كل مستفيد.



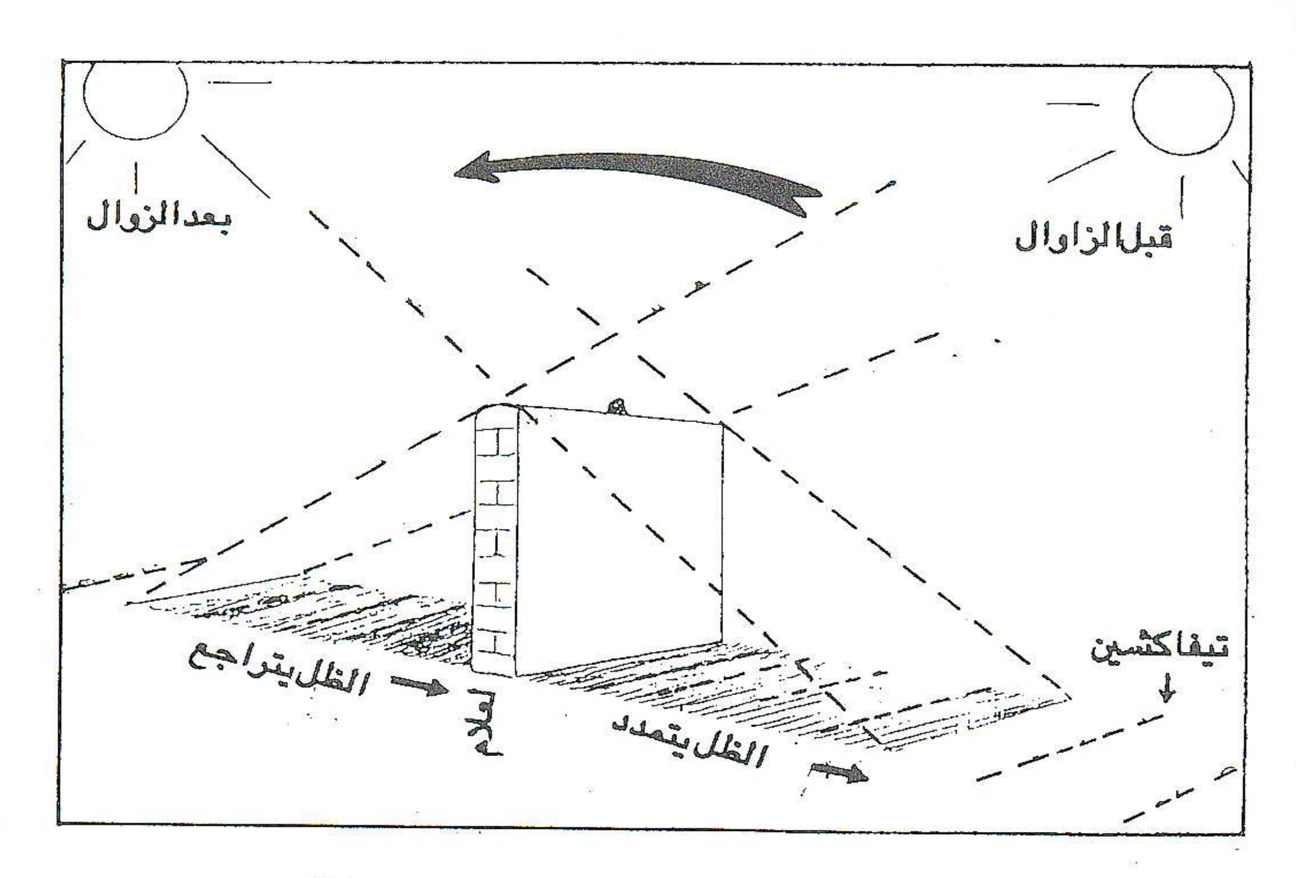
الصورة 5 : جدار «لعلام» المستعمل لتوزيع المياه بواسطة الظل، في عين تونلّي

أ- آلة "لعلام" : وهي آلة تقسيم المياه في النهار بواسطة الظل، تتخذ شكل جدار يبنى عادة بطريقة "تابية" أي بواسطة التراب المدكوك، وليس له حجم موحد في جميع العيون، والجدار الذي عاينناه[40] يبلغ طوله ثلاثة أمتار وارتفاعه مترين وسمكه ستين سنتمترا، وهذه المقاييس ليست ثابتة دائما، إذ يمكن تصغيره إلى حجم أقل، لأن المقصود هو استعمال ظل هذا الجدار مهما كان حجمه. وفي منتصف السطح الأعلى للجدار يثبت حجر بارز بمقدار "شبر"، أي بحوالي عشرين سنتيمترا حيث يشكل أعلى قمة مميزة للظل، لمتابعة خط الظل بواسطته، ويعزز سطح الجدار الأعلى بواسطة الإسمنت، وقاية له من عوامل التعرية، حتى يظل مقياسا ثابتا لايتغير ارتفاعه، كما يعزز بأحجار وقائية في جانبيه حتي لاتسقطه الحيوانات نتيجة الاحتكاك به، ويزود هذا الجدار بعلامات للقياس ترسم على سطح الارض في المساحتين المتجهتين نحو الشرق ونحو الغرب، وعلي تلك المساحتين يتحرك الظل، قبل الزوال وبعده ويَتّبع في ذلك تدرّج خاص، تتقارب فيه هذه العلامات كلما وقع الاقتراب من الجدار، وتتباعد أثناء الابتعاد عنه، وذلك تبعا لزاوية ميل الظل واستطالته، فكلما اقتربت الشمس من خط الزوال يقصر الظل بالتدريج، وكلما تحولت عن هذا الخط يبدأ الظل في الاستطالة، وترسم العلامات المذكورة بواسطة صف متراص من الحجارة ذات سمك رقيق منغرزة علي سطح الأرض تكوّن خطوطا متوازية لطول الجدار، يتناقل إليها أو عنها الظل في واجهتي هذا الجدار بالتعاقب، خلال ساعات النهار، وتدعى هذه العلامات (تيفاكشين)، أي عوارض، وهي علامات ثابتة، وتضاف إليها - عند اللزوم- علامات متغيرة، ترسم موازية لها بشكل غائر على وجه التربة، للاستعانة بها في تحديد الأجزاء المستحقة من قبل المستفيدين من الماء، إذ يقوم كل مستفيد من الفلاحين أثناء حصته بأخذ ما يستحقه من الماء بنفسه [41]، خلال ساعات النهار اعتماداً على حركة الظل قبل وبعد الزوال، حيث تمثل حركة انتقال الظل في المسافات الفاصلة بين تلك العلامات مقادير الزمن اللازمة لمرور كميات الماء المستحقة إلي حقول المستفيدين بالتتابع حتي تنتهي "النوبة"، وذلك اعتمادا على أساس حسابي نتعرض له لاحقا.

---

40) قمت بزيارة "لعلام" الخاص بعين تونلي وعين توريرت بويجان بتاريخ غشت 1993. (انظر الصورة : 5 المرفقة بهذا البحث).

41) ففي ويجان لا يوجد مسؤول عن توزيع الماء، خلافا لما في أكلو حيث يقوم «الترجمان» بتلك المهمة، ولذلك فكل فلاح في ويجان يعتبر مسؤولا عن التوزيع اثناء حصته، لأن نظام التوزيع وصل الى درجة من الضبط في الممارسة الجماعية بحيث تستغنى عن الرئاسة الفردية، وإن لم يحضر أحد أثناء حصته يسقط حقه بتاتا من هذه الدورة.

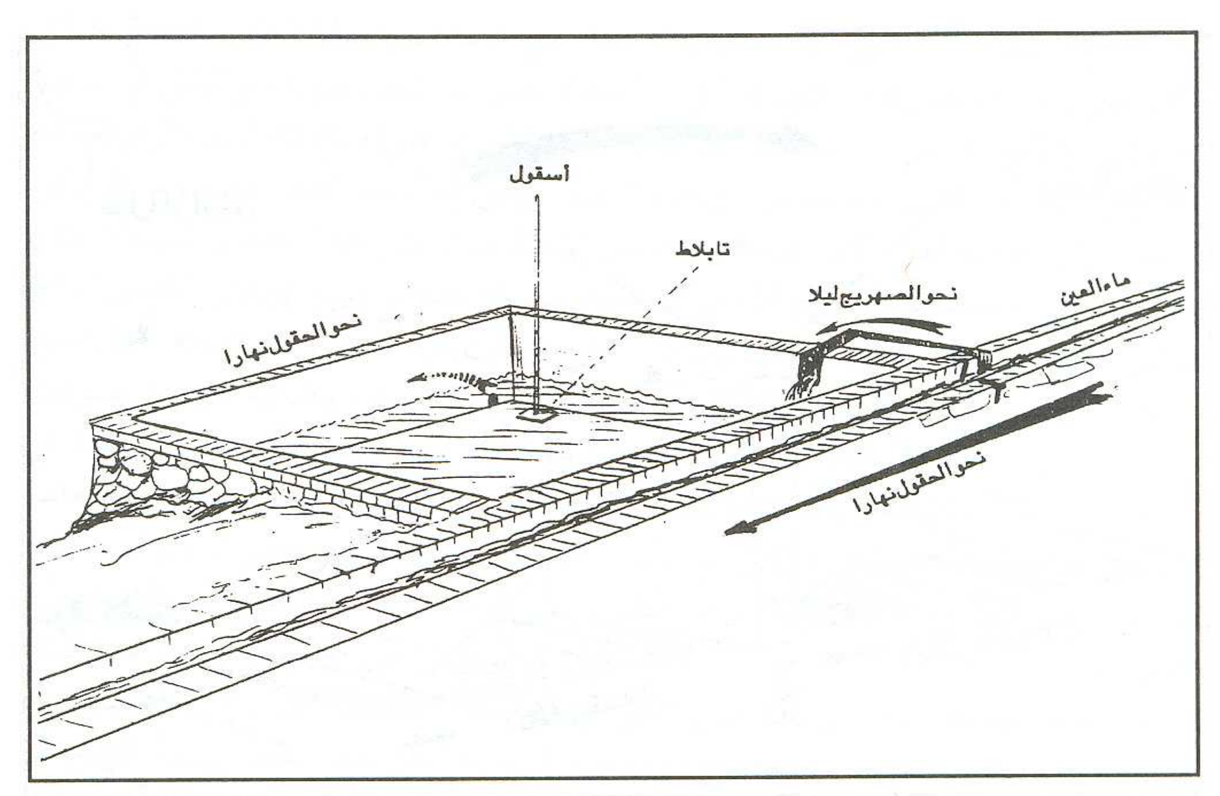


الرسم 3: طريقة استعمال ظل «لعلام» في توزيع الماء

ب) آلة "اسقول" : وهي آلة تستعمل لتقسيم المياه المتجمعة في الصهريج خلال الليل، من بداية غروب نصف قرص الشمس إلى شروق نصف قرص الشمس صباحا، بعد مراقبتها من أعلى مكان، يقوم بذلك الفلاح الذي ستبدأ حصته من ماء الصهريج في ذلك اليوم، وحتى يتمكن من أخذ نصيبه هو وكل مستفيد من ماء الصهريج، فانهم يعتمدون على آله: «أسقُّول»[42] و«إيفر»[43].

42) أسقول : كلمة أمازيغية بمعنى القياس وهي مصدر لفعل «إيسغل» بالغين بمعنى قاس.

43) إيفر : بمعنى الورقة.



الرسم 4: الصهريج وطريقة تنظيم السقي بين الليل والنهار

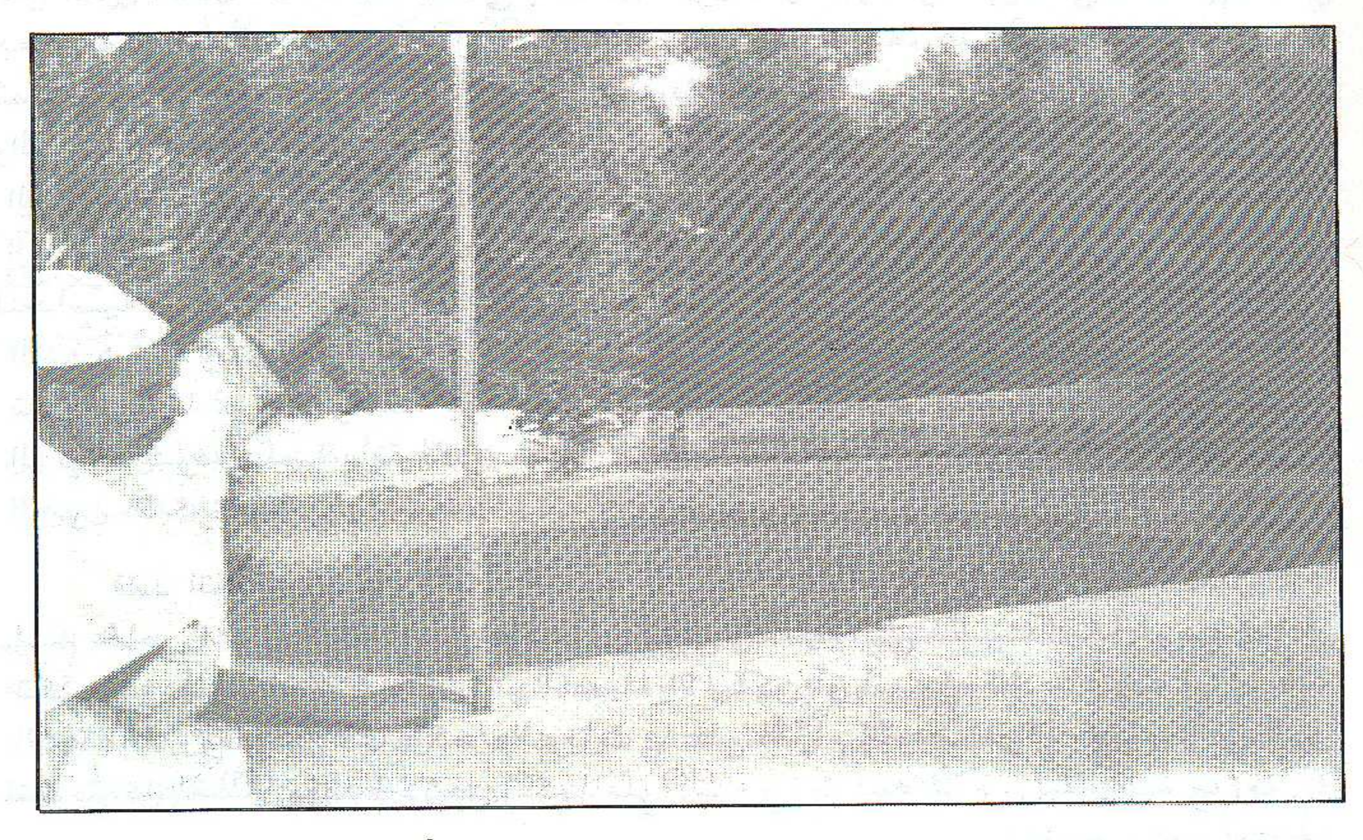
• (أسقُّول) : عبارة عن مقياس يصنع عادة من غصن النخله[44] على شكل مسطرة مستقيمة طولها يفوق عمق الماء في الصهريج، ويقع تدريج جزء من تلك المسطرة مساوٍ لعمق المياه، وذلك تبعا للنظام الحسابي المتبع في عملية التقسيم، وتشبه علامات هذا التدريج المحدثة في «أسقُّول» العلامات التي تدعى «تيفاكشين» في المقياس السابق، أي «لعلام» كما تقوم بنفس الدور.

• «إيفرْ» : ورقة من غصن النخيل، يستعان بها لإحداث تجزئات صغرى على مقياس «أسقول» يوميًا، ليأخذ كل شخص نصيبه من الماء حسب أنصبة تلك «النوبة».

طريقة استعمال «أسقُّول» و «إيفر» : ففي بداية النهار يتم قياس الماء بواسطة «أسقول»، وذلك بوضعه في ماء الصهريج بشكل عمودي في مكان معلوم حيث ينغرز في الماء ليرتكز بطرفه المستوي على صخرة مثبتة في قعر الصهريج

44) تستعمل أغصان النخلة وأوراقها في هذا القياس، نظرا لطواعيتها ومرونتها في الاستعمال.

تدعى "تابلاط"، وهي : الصخرة المستوية الملساء، أي أن أسقول لايصل إلى عمق الصهريج وإنما يستقر على سطح الصخرة، بحيث يترك حوالي ثلاثين سنتيمترا أو أكثر من الماء حسب ميل عمق الصهريج، ولذلك فهناك كمية من الماء أسفل الصهريج، لاتقاس ولاتوزع، فعندما يوزع الماء المتجمع فيه حتى يصل إلى مستوى "تابلاط"، فإن ذلك المقدار من الماء يحتفظ به، نظرا لما يحتويه من أتربة مترسبة من جهة، وحتى يظل الصهريج محتفظا بمقدار من الماء والرطوبة، حتى لايتشقق بتعرضه للجفاف من جهة أخرى. وهكذا يقيس «أسقول» كمية الماء في الصهريج عموما.



الصورة 6 : الصهريج واستعمال «أسقُّول»

أما «إيفر» فإن دوره مُتمِّم لدور «أسقول» إذ ترسم عليه وحدات صغيرة بواسطتها تقسم الأجزاء الصغرى من الأنصبة، شأنها في ذلك شأن العلامات الخطية التي يحدثها الموزع في الأرض موازية لـ «تيفاكشين» في المقياس السابق، ويقسم «إيفر» بناء على النظام الحسابي للنوبات كما سنوضح ذلك.

3- النظام الحسابي لتوزيع نوبات الماء في ويجان :

يعتمد الأساس الحسابي في ويجّان على نفس الرقم المعتمد في أكلو وهو رقم ستة ومضعفاته وأجزائه، فنوبة الماء الواحدة في ويجّان تشمل المياه المتدفقه من العين خلال 24 ساعة، يسقى بالقسم الاول منها مباشرة، ويسقى بالقسم الثاني بعد جمعه في الصهريج، وكل قسم يتألف من 48 طاسة، على أساس مضاعف ستة ثماني مرات أي (6 x 8 = 48) وهكذا فللنوبة أجزاء منها : النصف (= 24 طاسة) والربع (= 12 طاسة) والثُّمن (= 6 طاسات) والثلث (= 16 طاسة) واعتبروا أن الطاسة تساوي السدس، بناء على هذا الأساس الحسابي، وتبعا لاستعمال الطاسة النحاسية آلة للقياس في الماضي، غير أنه وقع التخلي الآن عن استعمال الطاسة النحاسية والاعتماد على آلة «لعلام» وآلة «أسقول» و«إيفر»، في أغلب العيون المذكورة، ونظرا لأنه توجد في ويجّان - كما أسلفنا- مجموعة من العيون، فإننا نختار منها نموذجا واحدا فقط، وهو عين "تونلّي" وعليه ينطبق الأساس الحسابي الذي نذكره، علما بأنه لاتوجد إلا فوارق محدودة بين أنظمة السقي في بقية العيون الأخري.

فقد اتفقت الجماعة على تحديد "نوبات" عين تونلي في 24 نوبة، لكل نوبة إسم خاص اشتهرت به تبعا للأصول الأولى القديمة التي نسبت اليها، وهي إما ان تكون من أسماء الأشخاص أو أسماء الأماكن أو أسماء الجماعات أو أسماء الأحداث، وقد وزعت هذه «النوبات» على الأيام الأربعة والعشرين في دورة سقوية كاملة [45] ونقدم لائحتها كما يلي[46] :

---

45) يبلغ عدد النوبات ثلاثا وعشرين نوبة فقط، وتعتبر نوبة اليوم الاول من الدورة اللاحقه متممة لاربع وعشرين نوبة.

46) توصلت بنسخة كاملة لأسماء هذه "النوبات" لعين تونلي من السيد الحسين بن إحيا بتاريخ /1993/10 22، وأفادني بعد ذلك، الأستاذ عبد القادر محاين بكلية الآداب بأكادير بنسخة مماثلة. ولكل عين من العيون الأخرى نوبات خاصة يمكن الحصول على أسمائها لدى الفلاحين.

1- تاليلت؛
2- سُنفلاين؛
3- أيت وُوزيزل؛
4- أيت لحاج زْوارنين؛
5- أيت لحاج كرانين؛
6- بوتُونارت؛
7- تلا أيت ماس؛
8- واكّاس ؛
9- داود؛
10- فْرْجْ؛
11- إينُوتْ؛
12- أيت وِيلْنْ زوارْنين؛
13- أيت وِيلْن كرانين؛
14- أيت بوييفض زوارنين؛
15- أيت بُوييفضْ وِيّاض؛
16- أيت موسى؛
17- إينُوتْ مّي زَاكْن؛
18- مّي زاكْن؛
19- أقييّارْ؛
20- أيت ميسّون؛
21- تيكيجّيمت.
22- تيكيجّيمت تايَاض؛
23- وَاليل؛
24- تاليلت. (النوبة الأولى).

يتضح من هذه اللائحة أن عدد "النوبات" تساوي ثلاثا وعشرين نوبة، لكنها من الوجهة العملية تساوي أربعا وعشرين نوبة، فالدورة السقوية الكاملة تأتي بعد أربع وعشرين نوبة، إذ تعتبر النوبة اللاحقة هي المتممة لأربع وعشرين يوما.

وهكذا، فإن كل نوبة من هذه النوبات يستمر السقي فيها أربعا وعشرين ساعة يشمل الليل والنهار، ولذلك، فالنوبة الإسمية تنقسم إلى قسمين: قسم في الليل وقسم في النهار، وكلا القسمين يحمل إسمًا واحدًا.

غير أن الجانب العملي يقتضي اشتغال الفلاحين نهارا فقط، لأن مياه الليل تجتمع في صهريج خاص، وتوزع نهارا، ونتيجة لهذا الإجراء لاحظنا ازدواجية آلة القياس المستعملة، فاستعمل «لْغلام» في توزيع مياه النهار، واستَعمل «أسقول» في توزيع مياه الليل، وكلاهما توزع نهارا، لكن الأساس الحسابي المطبق في كلتا الحالتين يعتبر موحدا.

فقد وقع الاصطلاح لدى عامة الفلاحين على تقسيم مياه النوبة الواحدة إلى : 48 قسما في النهار و 48 قسما في الليل، وهذا التقسيم مبني على أساس رقم 6 ومضاعفاته وأجزائه كما هو الشأن في أكلو كما أسلفنا، فقد تمكن الفلاحون من التوسل بهذا الرقم (6 x 8 = 48) إلى أخذ كل مستفيد نصيبه من الماء مهما كان

الكسر الحسابي الذي يملكه. ومن هنا يمكن استخراج المقياس المستعمل في التوزيع كالتالي :

النوبة خلال 24 ساعة تساوي 96 سدسا.

قياس «لعلام» خلال 12 ساعة يساوي 48 سدسيا لقياس مياه النهار.

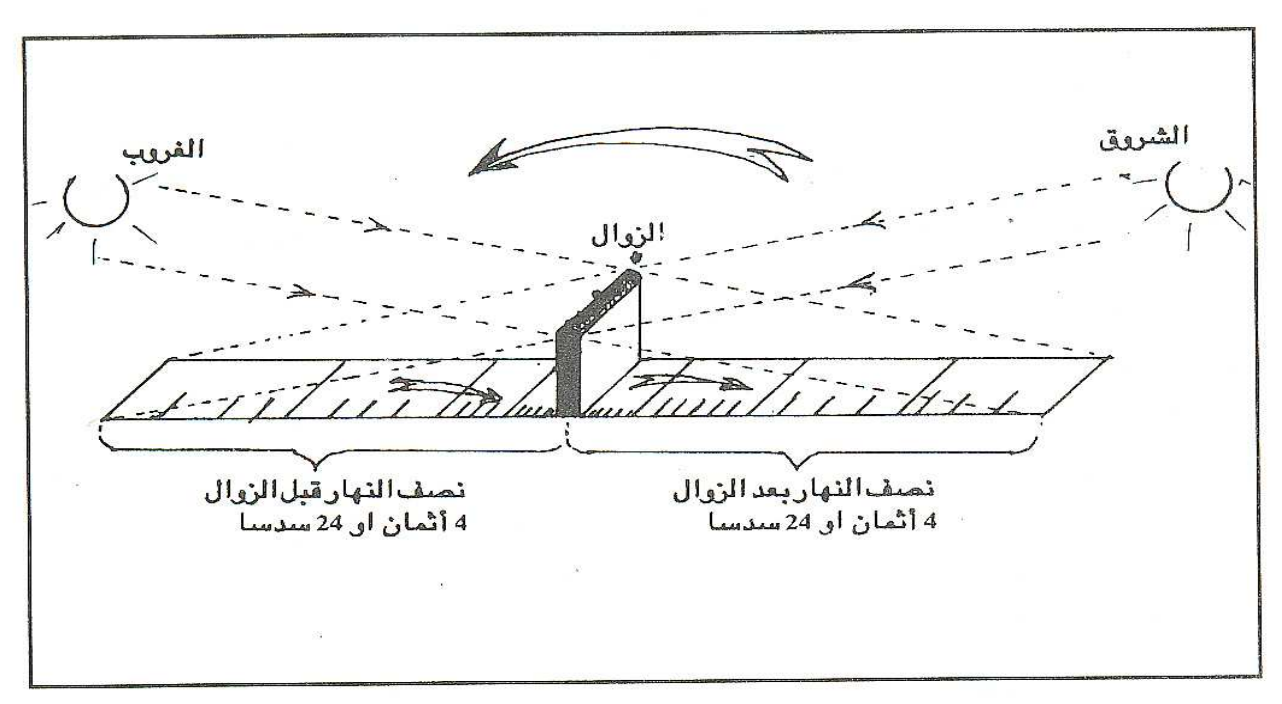
قياس «أسقول» خلال 12 ساعة يساوي 48 سدسا لقياس مياه الليل.

ذلك ان القياس يقسم الى ثمانية أثمان، وكل ثمن يقسّم الى ستة أسداس.

4- إعداد آلتي «لعلام» و «أسقول» :

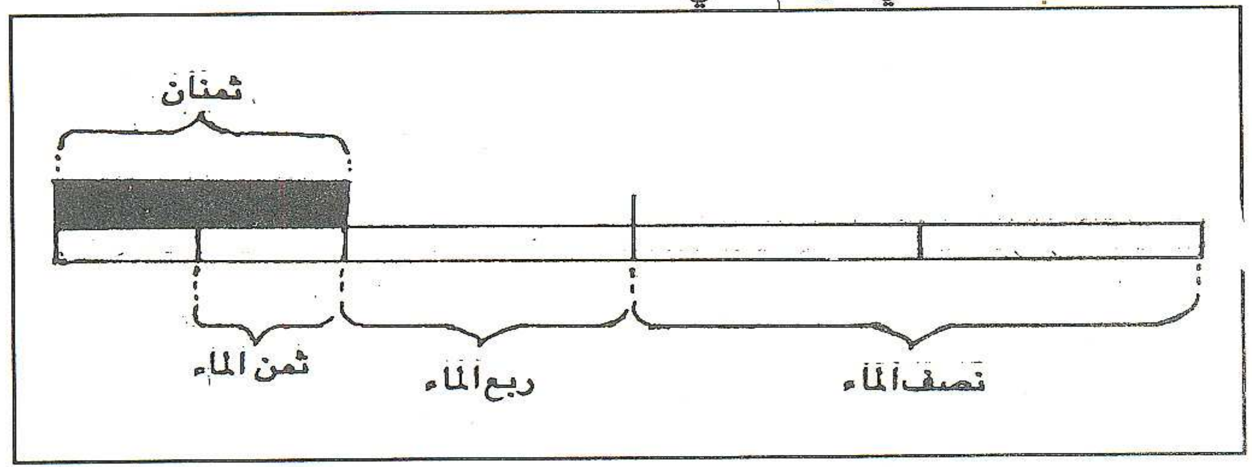
على أساس هذا القياس يتم إعداد تدريجات «لعلام» و «أسقول»

أ- بخصوص "لعلام" تحدد التدريجات بناء على تنقل الظل من شروق الشمس إلى غروبها، فيتراجع الظل من شروق الشمس إلى الزوال، ويتمدد من الزوال إلى الغروب. وبذلك يقاس نصف النهار لما قبل الزوال بالظل المتراجع من جهة الغرب لجدار "لْعَلام". ويقاس النصف الثاني للنهار بالظل المتمدد جهة الشرق لجدار «لعلام»وكل جهة يقاس بهاربع النوبة، ويُساوي 24 سدسا أو 4 أثمان، ومجموعها ثمانية أثمان أو 48 سدسا، وتظهر على الأرض علامات "تيفاكشين" التي تحدد الأسداس، وكل ستة أسداس يعتبر ثمنا. ويضع الفلاحون علامات أخرى مؤقتة يوميا بواسطة خطوط مرسومة على الأرض، لتحديدالاجزاء الصغرى مثل : نصف سدس وثلثه وربعه، ولا بد من ملاحضة أن أماكن هذه العلامات تتغير حسب اختلاف فصول السنة كما أن قياس مقدار بداية النهار ونهايته وكدا مقدار الزوال، انما يعرف بالتجربة والمعاينة. ويتضح تقسيم "لعلام" كما في الرسم الآتي :



رسم 5: طريقة تدريج لعلام والاتجاه المرئي لحركتي الشمس والظل

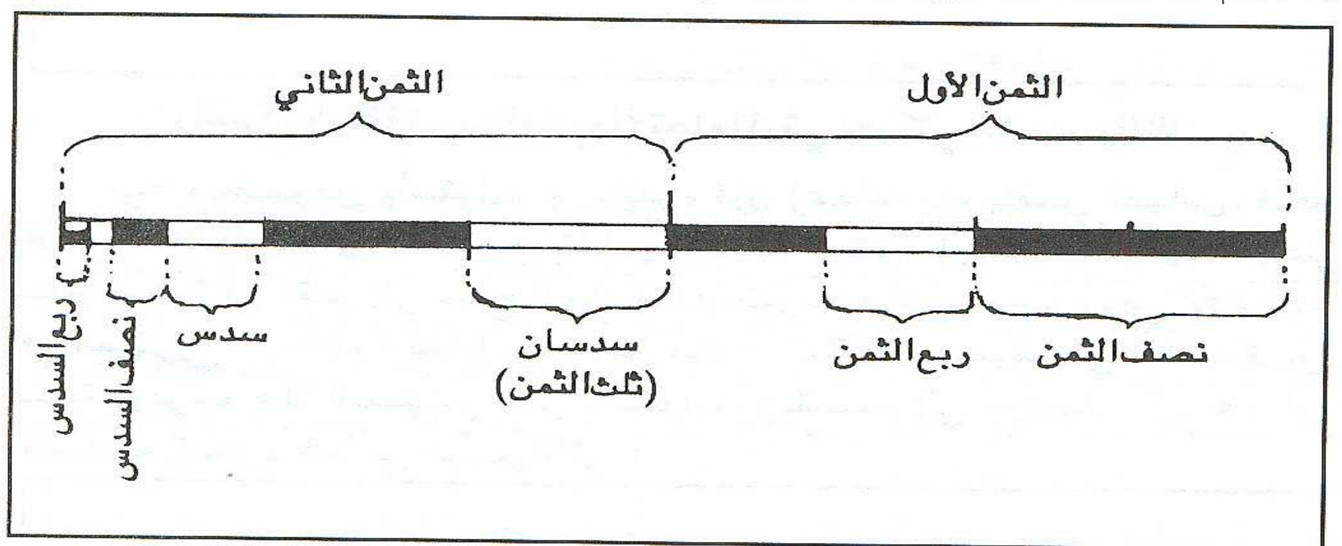
ب- وبخصوص «أسقول» و «إيفر» فإن إعداده يتم بنفس القياس، فحين تجتمع كتلة الماء في الصهريج، تقاس بواسطة أسقول فيمثل ارتفاعها من على سطح صخرة في القعر إلى سطح الماء مقدار «تيرمت» أي «الوجبة» وهي كتلة الماء في الصهريج، ويخضع ارتفاع وانخفاض مقدار كتلة الماء عموما الى تعاقب فصول السنة. ويرسم هذا المقدار على «أسقول»، ويقسم إلى «اربعة أرباع» أو «ثمانية أثمان» كما في الرسم الآتي :



رسم 6: طريقة تدريج «أسقول»

ولإيجاد وحدات قياس أصغر من هذه لقياس حصص الفلاحين من الماء، مثل نصف الثمن وربع الثمن، والسدس ونصف السدس وربع السدس وهو أصغر الأجزاء، فإن ذلك، يحدد على «إيفر»، حيث يختار طول «إيفرْ» الذي يساوي ثمنين ،وهو الجزء المظلل من تقسيم «أسقول» أعلاه، وقد وقع تكبيره في الرسم 7، للوضوح.

أما عملية تقسيم «إيفر»[47] فتتم كما يلي : فطول «إيفر» يساوي ثمنين، يطوى في النصف، فكل قسم يساوي الثمن، ويطوى الثمن الأول فيعطي نصف الثمن، ويطوى النصف فيعطي ربع الثمن. أما الثمن الثاني فيطوى إلى ثلاثة أقسام، فكل قسم منها يساوي سدسين، يطوى السدسان ويعطي سدسا، ويطوى السدس ويعطي نصفه، ويطوى النصف ويعطي ربع السدس، وهو أصغر الأجزاء في هذا التقسيم، ويمكن أن نوضح عملية تقسيم «إيفر» حسب الرسم الآتي :



الرسم 7: طريقة تدريج «إيفر»

47- يتقن أغلب الفلاحين تقنيات توزيع الماء، وخاصة طريقة تدريج (إيفر) أي تقسيمه ليصبح مقياسا للتوزيع، وقد تعلمت شخصياً هذه الطريقة على يد الحاج العربي أو الطاهر بتاريخ 1980/1/31.

وبواسطة هذه التقسيمات يمكن توزيع حصص الفلاحين من الماء بدون خطإ بالمرة :

فالذي يملك ستة أسداس، يعطي الثمن.

والذي يملك الثمن وثلاثة أسداس، يعطي الثمن ونصف الثمن.

والذي يملك ثلث الثمن، يعطي سدسان، وهكذا.

إن الدورة السقوية في هذا النظام تستغرق أربعة وعشرين يوما، حسب عدد النوبات، وهي تساوي نفس مدة الدورة السقوية في أكلو، غير أن معظم الناس يسقون أراضيهم بعد أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر، انطلاقا من تعدد ملكيتهم لحصص أخرى من الماء أو كرائها خلال نفس الدورة، وقليل من الناس ممن ينتظر دورة كاملة من 24 يوما ليسقي حقله، أما كميات الماء التي يملكها الأشخاص من النوبة اليومية، فإن بعض الأعيان يملكون نوبات كاملة، فيستمر السقي في حقله لمدة يوم كامل أو نصفه، بينما يشترك في نوبة واحدة - أحيانا - أكثر من ثمانية أشخاص، وذلك حسب ملكية أقساط النوبة المحددة في نصوص العقود.

استخلاص:

ونستخلص من تقديم هذين النموذجين لمنطقتي أكلو وويجان كيف كان حرص سكان هذه المنطقة الجنوبية على الاستفادة من مياه العيون والمبالغة في تقسيمها على أساس نظام دقيق توسلت له بآلات لانعرف لحد الآن من قام بإبداعها ومتى تم ذلك ؟

وقد كان الحافز على التزام هذا التدقيق ماعُرفت به منطقة سوس والجنوب المغربي على العموم من شح الأمطار وقلة المياه السطحية والجوفية، نتيجة محدودية عطاءاته المناخية، فكان حرص الناس على استثمار مايوجد من المياه بتقنيات مضبوطة في مجال السقي في هذه المناطق الجنوبية، أكثر من المناطق الشمالية من المغرب.

والملاحظ أن ما تَخَلّفه هذه الخصوصية المناخية من بصمات تنطبع على الأرض والإنسان والإنتاج والأحداث، تهم فئات كثيرة من الباحثين والمثقفين في مجالات التاريخ وعلم الاجتماع والجغرافية والاقتصاد والقانون والأنثروبولوجيا، ذلك أن مسألة المياه والأرض في علاقتهما بالإنسان تعتبر أكبر مسألة يواجهها عالم اليوم.

***الوثائق والصور والرسوم التوضيحية المستعملة :**

الوثيقة : 1. للسيد عمر بن أحمد وكاك.

الوثيقة : 2. للاستاذ عبد الله وكريم.

الوثيقة : 3. للاستاذ محمد بن يحيى.

الصور : 2، 5، 6 . من تصوير صاحب البحث.

الصور : 1، 3، 4 . من تصوير الاستاذ احمد صابر.

الرسم التوضيحية : 1، 2، 3، 4 . للرسام ابراهيم عامري

الرسوم التوضيحية : 5، 6، 7 . لصاحب البحث.

محور الجغرافية

الحيـاة الريفيـة بسهـل تزنيـت

أبو الفراح يحيى
معهد الدراسات الإفريقية
الربـاط

سنحاول دراسة الحياة الريفية من خلال مجموعة من العناصر العامة حيث سنتطرق في البداية إلى المعوقات التي تعيق الحياة تم بعد ذلك سنتطرق إلى الاستراتيجيات العامة لتجاوز تلك المعوقات.

معوقات الحيـاة الريفيـة :

قسـاوة الظـروف الطبيعيـة :

تموقع سهل تزنيت في الجهة الجنوبية لسوس وخاصة موقعه في جنوب المغرب على خط عرض 30 درجة شمالا أي نفس الخط الذي توجد عليه أكبر الصحاري، جعل القحولة هي الطابع العام المهيمن على الحياة. وهكذا فان تطبيق بعض المؤشرات المناخية وخاصة منها مؤشر Kopper يؤكد هذه الحقيقة.

فمناخ المنطقة إذن يتميز بتساقطات ضعيفة وبحرارة مرتفعة الشيء الذي يفسر ضعف الشبكة الهدروغرافية، موسمية الجريان وأخيرا ضعف الغطاء النباتي وفقر التربة.

فالتساقطات لا تتجاوز في المتوسط 163،8 ملم (الفترة الممتدة بين 1922 ـ 1983) وهكذا إذا اعتبرنا ان خط 400 ملم كحد أدنى لاقامة زراعة بورية فإن الكمية المتساقطة بالسهل بعيدة عن تلبية حاجيات الزراعة من الماء مما يؤثر على اختيارات الفلاح للزراعات الأقل طلبا للماء كالشعير بالنسبة للحبوب والزياتين بالنسبة للمغروسات.

فبالاضافة إلى ضعف التساقطات فإنها تمتاز بعدم الانتظام سواء داخل السنة أو من سنة لأخرى كما أن الأيام المطيرة جد محدودة ولا تتعدى في

المتوسط 26 يوم في السنة (متوسط الأيام المطيرة في المغرب تتراوح ما بين 60 و 70 يوم / سنويا.

فهذه الحرارة المرتفعة تقوي من مفعول التبخر الذي يبلغ متوسطه السنوي 1489 ملم لهذا فالحصيلة المائية بسهل تزنيت هي حصيلة سلبية.

فبالاضافة إلى ضعف التساقطات يشكو النشاط الفلاحي من فقر التربة، فالحرارة المرتفعة وقلة التساقطات وفقر الغطاء النباتي هي عوامل لا تساعد على تطور التربة.

2. الاكتظاظ السكاني :

يبلغ عدد سكان السهل 43011 نسمة سنة 1982 بينما كان عددهم سنة 1971 هو 36139 نسمة أي بنسبة نمو سنوية تقدر بـ 1,5%. وهي نسبة تبدو ضعيفة إذا ما قورنت بمثيلاتها على مستوى باقي مناطق سوس (2,3% في سوس) أو باقي مناطق المغرب (3%). هذه النسبة تفسر ضعف الدينامية الاقتصادية لسهل تيزنيت.

وهذه الأرقام تأخذ أبعادا إذا أخذنا بعين الاعتبار توزيع الكثافات السكانية أن متوسط الكثافة يقدر بـ 36,9 ن/ كلم ² غير أنها تعرف اختلافات كبرى من جماعة قروية لأخرى ويمكن القول بأن الجماعات الموجودة جنوب السهل تتميز بوجود كثافات مرتفعة كما هو الحال في كل من بونعمان (82ن/كلم ²) والركادة (43 ن/كلم ²).

فهذه الكثافات المتوسطة تبدو عادية إذا ما قورنت بالكثافات الموجودة في شمال السهل (فكثافة سهل ماسة تبلغ 71 ن/كلم ² وسوس الأسفل 64ن/كلم إلا أن كثافات سهل تزنيت تعتبر في الحقيقة مرتفعة إذا أخذنا بعين الاعتبار ضعف الامكانيات الطبيعية وتعرض السهل بصفة موالية للجفاف كما أن الأراضي المزروعة لا تشكل سوى (17%) من المساحة العامة للمنطقة. لهذا فمتوسط الكثافات الزراعية مرتفعة لأنها تصل إلى 220 ن/كلم ² المزروع مع اختلافات كبرى من جماعة قروية لأخرى وهكذا فإن الجماعات القروية التي تضم قطاعات مسقية ترتفع فيها الكثافات الزراعية حيث تبلغ 310ن/كلم بجماعة الركادة و 270ن/كلم ² في جماعة بونعمان كما أن الكثافات ترتفع

بشكل مفاجئ إذا أخذنا بعين الاعتبار فقط المجالات المسقية، ذلك أن متوسط الكثافة بالهكتار المسقي يبلغ 70,8 ن/الهكتار (708 ن/كلم² المسقي).

3. العائق الاجتماعي وهو مرتبط بالبنيات العقارية السائدة.

وهكذا فالمنطقة تمتاز بسيادة الملكية الخاصة كما أن البنيات العقارية لم تعرف تحولات كبرى في الفترات التاريخية الأخيرة كما حدث في مناطق أخرى من المغرب سيما في الفترة الاستعمارية.

فالبنية العقارية تمتاز بسيادة الملكيات الصغيرة سيما في القطاعات المسقية. فبصفة عامة يبلغ متوسط الملكية 3,4 هكتار. وهذه المساحة كما نعرف غير كافية لسد حاجيات الأساسية لأسرة متوسطة. كما أن أغلب الفلاحين لايملكون سوى ملكيات صغيرة ذلك أن 66,6% من الفلاحين تقل ملكيتهم عن 3 هكتار ومع ذلك لا يستغلون سوى 33,2% من الأراضي الزراعية. ووضعية هذه الفئة لا تختلف كثيرا عن وضعية الفلاحين بدون أرض لأنهم يحصلون على النسبة الكبرى من مداخيلهم خارج القطاع الفلاحي، اما الفئة الثانية من الفلاحين تتراوح ملكيتهم من 3 و 6 هكتار وتهم 23,1% من الملاكين و 28,29% من الأراضي الزراعية.

اما الفئة الثالثة فتتراوح ملكيتها بين 6 و 9 هكتار يمكن اعتبارها ملكية متوسطة تهم 5,5% من الملاكين و(12،3% من الأراضي الزراعية.

أما الملكية الكبرى التي تفوق مساحتها 9 هكتار فهي تمثل 26,12% من الأراضي الزراعية في ملكية 4,77% من الملاكين. في هذه الفئة يبلغ متوسط الملكية 29,2 هكتار فهذا التركز راجع لوجود ملكيات تفوق مساحتها 100 هكتار كما هو الحال بدوار إغبولا.

فهذا التوزيع للملكية العقارية يأخذ أبعادا أخرى في القطاعات المسقية إذ يلاحظ بأن هذه المجالات لا توجد بها ملكيات كبرى كما أن أغلب الفلاحين يشغل أقل من هكتار. وهكذا فـ 96,04% من الفلاحين لا تملك سوى 79,4% من الأراضي المسقية.

بالاضافة إلى صغر الملكية فهذه الأخيرة تمتاز بتشتتها وتوزيعها إلى عدة قطع متباعدة فيما بينها، الشيء الذي يفسر صغر القطع الأرضية المسقية التي لا تتعدى مساحتها في بعض الحالات عشرات الأمتار المربعة.

فصغر حجم الملكية وتشتتها سيما في القطاع المسقي يحول دون تطوير التقنيات الزراعية وتقنيات السقي كما يعيق استعمال الوسائل العصرية في العمليات الفلاحية.

II ـ الاستراتيجيات المتبعة :

أمام هذه المعوقات الكبرى يحاول الفلاح إيجاد استراتيجيات لتجاوزها وسنحاول هنا إبراز أهم الاستراتيجيات التي نوجزها في ثلاثة محاور :

- استغلال دقيق للامكانيات المائية المتوفرة
- الهجرة بمختلف أنواعها.
- التوجه نحو الأنشطة غير الفلاحية.

1. الاستغلال المكثف للإمكانيات المائية المتوفرة :

أ ـ مياه الفيض :

فبعدما يعرف السهل ولاسيما الجبال المجاورة تساقطات مهمة تنزل المياه إلى السهل على شكل مجاري مائية يتم استغلالها لسقي الأراضي المجاورة للأودية وهذه الأراضي تسمى بأراضي الفيض غير أن مساهمة هذه الأخيرة تختلف باختلاف أهمية الأودية، أهمية صبيبها والتقنيات المستعملة في تحويل المياه وأخيرا حسب مستوى تنظيم الجماعات البشرية المستغلة لهذه المجالات.

فكل جماعة تقوم ببناء سد تقليدي على الواد بشكل يمكن من تحويل المياه إلى الأراضي الزراعية. وهذا السد يقام عادة بعيدا عن المجالات المراد سقيها وفي الجهات حيث عرض الواد ضعيف لاستغلال تركز الماء كما أن بناء السد يراعى فيها عامل اجتماعي يتعلق بملكية الأراضي التي يبنى فيها السد والتي تخترقها القناة الرئيسية الشيء الذي يعتبر مصدرا حقيقيا لنزاعات قوية بين دواوير مجاورة. كما يراعى في اختيار السد أحقية الدواوير الموجودة في الضفة الأخرى للواد أو في سافلته في استغلال مياه الفيض.

إلا أن تقسيم مياه الفيض لا يخضع لقانون محكم لأن كل مستغل يقوم بتحويل الكميات المائية التي تكفيه لسد حاجيات ملكيته من الماء الشيء الذي يعطي امتيازات كبرى للأراضي الموجودة في عالية الواد.

ب ـ استغلال الفرشة الباطنية :

فأمام ضعف التساقطات يلجأ الفلاحون إلى استغلال الفرشة المائية الباطنية وذلك بحفر الآبار التي تزايد عددها بشكل متسارع غير أن صبيب تلك الآبار ضعيف لا يتعدى 2 إلى 3 لتر / الثانية وهذه الآبار تتوزع في جميع أجزاء المنطقة غير أن كثافة توزيعها تختلف من جهة لأخرى وهكذا نلاحظ بأن أغلب الآبار توجد في الجهة الجنوبية للسهل لتوفرها على فرشة مائية غنية أما الجهة الشمالية للسهل فملوحة المياه وصعوبة عمليات الحفر يفسر ضعف انتشار الآبار بها واستغلال هذه الآبار يتم باستعمال تقنيات تقليدية اعتمادا على الدواب وهذه التقنية تسمى اغرور حيث يتم إفراغ المياه في حوض صغير بالقرب من البئر ومنه تنطلق ساقية لسقي مساحات لا تتعدى في أحسن الحالات ربع هكتار:

هذه التقنية التقليدية بسبب ضعف مردوديتها دفع الفلاحين الميسورين إلى إدخال تقنيات عصرية تتمثل في محركات لضخ الماء الشيء التي تمكن من سقي مساحات أهم وإدخال زراعات أكثر مردودية كالنعناع والفصة والأشجار المثمرة. فخلال السنوات الأخيرة عرفت هذه التقنيات انتشارا كبيرا ارتباطا مع تطور موارد الهجرة.

ج ـ السقي انطلاقا من العيون :

عدد العيون الموجودة في السهل هو 11 عينا توجد النسبة الكبرى منها في الجهة الجنوبية للسهل كما أن أهميتها تختلف باختلاف صبيبها وهكذا فإن 6 عيون صبيبها ضعيف لأنه يقل عن 10 لتر / ثانية بينما يتراوح صبيب ثلاثة عيون بين 10 و 30 فيما العيون التي يفوق صبيبها 30 لا تتعدى اثنين.

انطلاقا من هذه العيون تنطلق شبكة قنوات منظمة لسقي قطاعات تختلف مساحتها باختلاف أهمية العين إلا أن تنظيم السقي وتوزيع المياه يخضع لقوانين منظمة ومحكمة.

وهكذا يتم توزيع الماء في دوات تمتد على فترات تختلف من ساقية لأخرى 23 يوم في ساقية اكلو و21 يوم في ساقية تالعينت. بما أن اليوم يقسم إلى فترتين تسمى كل واحدة منها «نوبة» التي تدوم 12 ساعة وكل نوبة تقسم إلى حصص مائية موزعة على المالكين وعدد الحصص التي يمتلكها كل شخص غير مرتبطة بمساحة الأرض المسقية التي يملكها الشيء الذي يفسر عدم التوازن الموجود في جميع السواقي بين ملكية الماء وملكية الأرض. غير أن تقنيات توزيع وقياس الماء تختلف من مسقية لأخرى.

القيـاس بالزمـن :

فهذه التقنية تسمح للمستفيد من الماء باستغلال صبيب العين طيلة الفترة التي تدومها حصته المائية ويتم القياس بواسطة ما يسمى بالطاسة التي تدوم 12 دقيقة. غير أن تقنية الطاسة بدأت تفقد مكانتها بعد الاستغلال المتزايد للساعة.

وهكذا نلاحظ أنه بالرغم من ان كل طاسة تساوي 12 دقيقة فإن قيمتها والمساحة التي تسقيها تختلف باختلاف صبيب العيون. فالطاسة الواحدة في ساقية تالعينت 70 والركادة 60 تسقي مساحة أهم من تلك التي تسقيها طاسة ساقية العوينة 7.

قياس الماء بواسطة استعمال أحواض تستعمل لجمع مياه العين طيلة الليل في أغلب الأحيان ليتم توزيعها بين المستفيدين فيما بعد. على أن «نوبة» الماء هنا تقسم عادة إلى ثمانية أقسام فهذه التقنية يحدها بالخصوص في السواقي حيث صبيب العيون ضعيف كما هو الحال في مجموعة عيون وجان في شرق السهل.

استعمال تقنية الحائط كوسيلة لتتبع تنقل الضل فوق سطح الأرض الذي يتم تقسيمه إلى أجزاء تمثل عدد القسمات التي تعرفها نوبة الماء.

- التوزيع العادل لملكية الماء

لقياس هذه الظاهرة نأخذ كمثال لذلك ساقية اكلو ذلك أن 2761,37 طاسة التي تعرفها الساقية موزعة على 390 مالك أي بمعدل

7,08 طاسة لكل مالك (حوالي ساعة و 25 دقيقة سقي، مع اختلافات كبرى من شخص لآخر كما يوضحه توزيع ملكية الماء إلى فئات ثلاث :

1. حيث ملكية الماء أقل من 20 طاسة تمثل 94,6% من المالكين و77,7% من حصص الماء.
2. تتراوح بين 21 و 40 طاسة 4,3% 15,8%.
3. التي تفوق 40 طاسة 1,02% 6,4%.

فبالاضافة إلى هذا التوزيع غير العادل لملكية الماء تمتاز هذه الأخيرة بتشتتها وهذا العامل يشكل عائقا أمام استعمال معقول للكمية المائية المتوفرة.

2. الهجرة بمختلف أنواعها :

فنظرا لانعدام التوازن بين حجم السكان وتطورهم وبين الامكانيات الطبيعية المتوفرة التجأ السكان إلى البحث عن حلول أخرى خارج الاقليم وذلك بالهجرة نحو جهات متعددة من المغرب إلى الخارج وهكذا فإن هجرة التزنيتيين اكتست طابعا متنوعا ارتباطا مع مدة الهجرة والاتجاهات المقصودة.

أ ـ الهجـرة الموسميـة :

هجرة اليد العاملة للعمل موسميا في الأقاليم الغنية : وهكذا فبالرغم من كون هذا النوع من الهجرة الموسمية عرف تراجعا كبيرا خلال العقدين الأخيرين فإن أشخاصا ما زالوا يتحركون موسميا للعمل بصفة خاصة في الجهات الشمالية من سوس.

هجرة من نوع آخر تتم بشكل خاص في بعض جهات سهل تزنيت وجبال الأطلس الصغير فهذا النوع من الهجرة له طابع ديني لأنها مرتبطة بجمع الزكاة ذلك أن أشخاصا معروفين يغادرون المنطقة في فترات معينة من السنة للقيام بجولة عبر مختلف المدن المغربية قصد جمع الزكاة. غير أن فترة الغياب وطول المسافة المقطوعة وأهمية الحصة المالية التي يتم جمعها مرتبطة بمجموعة من العوامل : هناك السن، السمعة داخل الدوار ـ علاقة القرابة مع تجار المدن المنتمين للمنطقة والقدرة على زيارة أكبر عدد من المدن غير أن مداخيل هذا النوع من الهجرة لا يتعدى في كثير من الحالات 6000 درهم.

فهذه الهجرة الموسمية بشقيها تمتاز مداخلها بعدم الانتظام وانعكاساتها الاقتصادية على السهل ضعيفة لأن مداخيلها لا تساهم سوى في تغطية جزء من الاستهلاك العائلي وعائداتها في تراجع مستمر نظرا لادخال تقنيات عصرية في العمليات الفلاحية داخل المناطق حيث الطلب على اليد العاملة مرتفع بالنسبة للصنف الأول من الهجرة ونظرا لتلاشي العلاقات التي تربط المهاجرين المقيمين بالمدن بمناطقهم الأصلية بالنسبة للصنف الثاني من الهجرة.

ب ـ الهجرة نحو المدن الداخلية :

فهذه الهجرة قديمة نسبيا لأنها تعود إلى أواخر القرن الماضي إلا أن تيار الهجرة كان في البداية ضعيفا لأن الفترة التي سبقت استقلال المغرب لم تعرف هجرة سوى 4/1 المهاجرين لكن ابتداء من سنة 1956 عرف عدد المهاجرين إشعاعا متزايدا حتى حدود أواخر الثمانينات بعد ذلك عرف تيار الهجرة نحو المدن الداخلية تراجعا ملحوظا ارتباطا مع مشاكل الاستقرار بالمدن وصعوبة إيجاد الشغل والسكن بها.

فهؤلاء المهاجرون يتوجهون بصفة خاصة نحو مدينة الدار البيضاء وذلك بنسبة 39,5% بينما مدينة أكادير تحتل المرتبة الثانية وذلك بضمها أكثر لربع المهاجرين الذين استفادوا من ميزتين أساسيتين فهناك من جهة القرب من المنطقة ومن جهة ثانية الاستفادة من فرص وإمكانيات الاستقرار التي وفرها إعادة بناء مدينة أكادير بعد الزلزال وتطور الأنشطة السياحية بها. بينما كل من مدينة مراكش والقنيطرة، كل واحدة منها حوالي 3% من المهاجرين، أما باقي المهاجرين فيتوزعون على باقي المدن المغربية.

ولمعرفة أهمية هذا النوع من الهجرة سنعتمد على مؤشر عدد المهاجرين لكل 100 من السكان فالنسبة لسهل تزنيت يخص تيار الهجرة حوالي 3,2 مهاجرا لكل 100 فرد. فهذه النسبة ضعيفة بالمقارنة مع الأرقام المسجلة في بعض جهات الأطلس الصغير كما هو الحال في دائرة تافراوت حيث بلغ عدد المهاجرين عشرون مهاجر لكل 100 من السكان كما أن أهمية الهجرة تبدو من خلال إحصاء عدد العائلات التي تستفيد منها وهكذا نلاحظ بأن 36,6% من العائلات لها على الأقل أحد أفرادها بإحدى المدن المغربية.

فبالرغم من هذه الأهمية العددية فإن انعكاسات هذه الهجرة على المنطقة جد محدودة لأن مواردها لا تساهم إلا في تغطية جزء من الاستهلاك العائلي. فأهمية الحصص المالية المرسلة إلى الاقليم تختلف باختلاف القطاعات التي يشتغل بها المهاجرون وهكذا فإن التجار يعتبرون الفئة التي ترسل أكبر حصة من الأموال إلى المنطقة. فموارد هذه الهجرة في تراجع مستمر ارتباطا مع تطور هذه الهجرة من هجرة مؤقتة إلى هجرة نهائية لأن عدد كبير من المهاجرين قد اصطحبوا معهم عائلاتهم.

يستفاد من هذا التحليل بأن موارد الهجرة الداخلية تتطور في اتجاه الاستهلاك الكلي في مدن الاستقبال تاركة المجال للهجرة الدولية التي تعتبر فعلا أحد أهم العوامل التي أحدثت تحولات كبرى سواء على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي.

ج ـ الهجـرة الدوليـة :

سهل تزنيت يتميز بهيمنة الهجرة الدولية على باقي أنواع الهجرة لأنها تهم 54% من الأشخاص الذين غادروا المنطقة كما أنها تهم 3,7 مهاجر لكل 100 من السكان كما تهم 10,8% من الأشخاص القادرين على العمل و 52,5% من العائلات. غير أنها بعكس الهجرة الداخلية عرفت نوعا من الفتور خلال الفترة ما قبل حصول المغرب على الاستقلال إلا أن الفترة الممتدة ما بين 1956 و 1975 عرفت هجرة أكبر عدد من التزنيتيين إلى الخارج.

بعد هذه الفترة انخفظ تيار الهجرة بشكل مفاجئ ارتباطا مع الأزمة الاقتصادية التي عرفتها الدول المستقبلة وتطبيقا لسياسات في وجه تيارات الهجرة. الشيء الذي دفع بهؤلاء للهجرة نحو البلدان البترولية. سيما ليبيا التي تضم حاليا 4% من مهاجري المنطقة.

فالتزنيتيون يتوجهون بصفة خاصة نحو فرنسا باستثناء نسبة ضعيفة منهم كما هو الحال بالنسبة لبلجيكا التي تضم 2,8% وهولندا بـ 0,8% بينما باقي المهاجرين (أي 1%) يتوزعون بين مختلف البلدان الأوربية.

فإذا كانت فرنسا تركز أكبر عدد منهم فالعاصمة باريس تعتبر قبلة للتزنيتيين لأنها تركز حوالي 91% بينما باقي المدن الفرنسية لا تمارس سوى جاذبية ضعيفة على مهاجري المنطقة.

في البداية كان التزنيتيون يشتغلون بصفة خاصة بالصناعة المعادن والبناء غير أن تضخم الهجرة جعل الكثير منهم يغير القطاع الذي يشتغل به بينما البعض الآخر عمل على جمع رأس مال مكنه من التوجه إلى الميدان التجاري.

اما بخصوص الانعكاسات الاقتصادية للهجرة الدولية فهي مهمة بل انها تعتبر من أهم العوامل التي أحدثت تحولات كبرى في المنطقة. فالمهاجرون يقومون بتحويلات مادية شهرية إلى عائلاتهم تقدر في المتوسط ب 730 درهم لكل مهاجر غير أن هذه الحصة تختلف باختلاف المهنة الممارسة في المهجر.

بالاضافة إلى ذلك يلجأ المهاجر إلى ادخار النسبة الكبرى من راتبه الشهري. وهكذا نلاحظ بأن الادخار السنوي للمهاجر يقدر بحوالي 20 000 فرنك فرنسي أي ما يفوق 32 000 درهم وهي حصة مالية كبرى إذا ما قورنت بالمداخيل المستخلصة من النشاط الفلاحي فهذه الأموال المدخرة يتم تحويلها كلية إلى المغرب واستثمارها في مجالات متعددة يمكن توزيعها كالتالي وهكذا فقطاع البناء بالوسط الريفي يستقطب 36,7 من استثمارات المهاجرين اما البناء في الوسط الحضري فهو يستقطب 16,1% من هذه الاستثمارات.

بعد ذلك تأتي الفلاحة في الدرجة الثانية باستقطابها لـ 33,8% من استثمارات المهاجرين وذلك بشراء الأراضي الفلاحية لاسيما في القطاعات المسقية أو بشراء الماء وحفر الآبار وتجهيزها. بينما التجارة فهي لا تجدب سوى 7,3% من استثمارات المهاجرين ممثلة بالخصوص في تجارة المواد الغذائية بالتقسيط التي يتم إقامتها سواء في الدواوير أو الأسواق الأسبوعية.

فمن خلال هذا التحليل يبدو أن الوسط الريفي يركز النسبة الكبرى من استثمارات المهاجرين (73,4%) وجاذبية هذا الوسط سيتقوى مستقبلا نظرا لما أصبح يتطلبه الاستثمار بالمدن من إمكانيات كبرى الشيء الذي يتولد عنه تقوية دور الفلاحة في جذبها لاسثمارات المهاجرين.

لهذا فالانعكاسات الاقتصادية منها والاجتماعية للهجرة الدولية مهمة جدا تمثلت في عدة مظاهر :

ـ على المستوى الاجتماعي نلاحظ :

- تغيرات على مستوى العلاقات الاجتماعية التي تربط المهاجر بالعائلة.
- اختفاء أغلب مظاهر التعاون بين الفلاحين حيث أصبحت كل الخدمات يؤدى عنها.
- اختفاء بعض مشاكل العمل كالخماس وانتشار ظاهرة العمال المياومين الذين تحسنت رواتبهم اليومية.
- انسحاب المرأة التدريجي من الأعمال الفلاحية لاسيما النساء اللواتي يتوفرن على أحد أفراد عائلاتهم في المهجر.

أما على المستوى الاقتصادي :

- تطوير الفلاحة والادخال المتزايد للتقنيات العصرية في بعض الأعمال الفلاحية.
- تطوير السكن سواء من حيث شكله أو من حيث مواد البناء المستعملة ليكون شبيها بالسكن الحضري. وهكذا السكن عادة ما يستقر بعيدا عن النواة الأصلية للدوار أو على طول الطرق كما يتجمع أحيانا مشكلا بذلك أحياء جديدة على هوامش الدواوير.
- تطور الاستهلاك العائلي وادخال تقاليد استهلاكية جديدة
- انعاش الحركة الاقتصادية والتجارية بالخصوص في فترة عودة المهاجرين الشيء الذي أدى الى تضاعف عدد المحلات التجارية بالبادية.
- ظهور فئة من المتقاعدين الذين اشتغلوا بأوروبا لهم مداخيل مرتفعة ويتميزون بأساليبهم الاستهلاكية الخاصة. الانعكاسات السلبية : تتمثل في ارتباط عدد كبير من العائلات بموارد الهجرة وهذا يشكل في حد ذاته خطرا كبيرا على مستقبلها في حالة توقف أو انخفاض مفاجىء لهذه الموارد.

3. التوجه نحو الأنشطة الغير الفلاحية

فالبرغم من أن الأرض ما زالت تشغل النسبة الكبرى من السكان النشيطين (51,6 %) فإن توجه السكان للاشتغال بالمهن غير الفلاحية عرف تطورا كبيرا نظرا للنمو الديمغرافي المستمر ومحدودية الامكانيات الطبيعية

للمنطقة وهذه المهن تجذب إليها بالخصوص الفلاحين غير المالكين للأرض أو الذين لا تكفي ملكيتهم لسد حاجياتهم الأساسية، فالنشيطون خارج الفلاحة يتوزعون بين مجموعة متعددة من المهن : الحرف والبناء تجذب أكبر عدد منهم (حوالي 35,2%) من النشيطين غير الفلاحين) هذه الحرف عادة ما يطغى عليها الطابع التقليدي كما أن توسع البناء العصري بأرياف سهل تزنيت فتح مجالات واسعة للسكان للاشتغال فيه طيلة السنة أو فقط كنشاط مكمل للفلاحة.

بعد ذلك تأتي التجارة والخدمات في المرتبة الثانية من حيث عدد الأشخاص المشتغلين بها (حوالي 20,6%) فهذه النسبة يفسرها تطور الأنشطة التجارية والخدماتية بأرياف المنطقة وتضاعف عدد المتاجر في الفترة الممتدة بين الاحصاءين الأخيرين.

وأخيرا يعمل التزنيتيون في مجموعة من المهن كموظفين بالقطاع العمومي (التعليم ـ الصحة ـ البريد ـ السلطة المحلية) كما نجدهم بقطاع النقل بالاضافة إلى الأشخاص الذين يشتغلون بالمدن ويسكنون بالبوادي ويتعلق الأمر هنا بصفة خاصة بسكان الدواوير القريبة من مدينة تزنيت.

إشكالية موضع وموقع مدينة تزنيت، وآليات توسعها

الحسين نافع
باحث-تزنيت

يقصد بالموضع القاعدة الطبغرافية التي يقعد عليها المركز الحضري. فمدينة تزنيت تأسست فوق سهل يحمل إسمها (أزغار تزنيت) والذي يمتد جنوب وادي ماسة إلى حواف الأطلس الصغير الغربي وكتلة جبال إيفني. وهذا السهل يتميز بانبساطه وقلة ارتفاعه (120 م – 300 م) مع ميل عام من الجنوب الشرقي نحو الشمال الغربي. وبنيويا هو عبارة عن سطح كلسي (كلس جيري) يغلب عليه اللون الوردي : وينتهي ناحية المحيط الأطلسي بكثبان رملية (600م) ويغلب على هذا السطح تبعا لبنيته الكلسية من جهة وتبعا لسيادة الجفاف من جهة أخرى تصريف جاف تكونه أساسا أودية جافة وجد موسمية. وجدير بالذكر ان سهل تزنيت يقعد فوق فرشات مائية باطنية مهمة، وأن مدينة تزنيت تأسست فوق نقطة ماء (العين الزرقاء) على ضفاف وادي جد موسمي هو وادي توخسين. إن نشوء المدينة ارتبط بعنصر الماء في هذا الوسط الجاف. إن كل الدلائل تشير إلى أن تزنيت حملت لمدة طويلة ملامح واحة.

تعتبر مدينة تزنيت مركزا مهما في سهل سوس. وتنتمي إلى فصيلة المدن الصغرى التي ازداد عددها في العقود الأخيرة بالمغرب. فعلى المستوى المحلي تتموقع تزنيت في سهل تزنيت في ملتقى الطرق النازلة من الأطلس الصغير الغربي وكتلة افني. وعلى المستوى الوطني فهي تتواجد في وسط المغرب بعد استرجاع أقاليمنا الصحراوية، في موقع هام بين شمال المغرب وجنوبه، على الطريق الرئيسية 30 التي تربط بين المغرب الشمالي والجنوبي. وهذا الموقع يخول لها منذ البداية دور مدينة – منقلة Ville - Etape ووظيفة طرقية حقيقية.

ونخلص إلى أن المركز الحضري لتزنيت يحظى بعدد من المؤهلات الواضحة تكمن في موضع وقاعدة طبغرافية لا تعوق التوسع الحضري وموقع

متميز يحدده تموقع المدينة في نقطة هامة من المغرب بالنظر إلى الشريان الرئيسي الذي تمثله الطريق الرئيسية 30 في النسيج الطرقي المغربي.

لقد تم توسع المدينة بصفة ملفتة للنظر منذ أواسط السبعينات وقد تم التوسع الحضري أساسا نحو الغرب والجنوب. لكن لماذا تم التوسع في هذا الاتجاه ؟

في فترة الحماية وفي إطار سياسة المعمرين الهادفة إلى عزل سكن الأوربيين عن سكن المغاربة شيد الفرنسيون مساكنهم خارج الأسوار في الجنوب على شكل فيلات. ومن تم تشكل منذ البداية الاتجاه الذي سوف تتوسع فيه المدينة.

وأيضا فإن شمال المدينة يضم المجال المسقي (تاركا) والذي يضم المشارات المسقية والمملوكة من طرق التزنيتيين، والذي كذلك يمثل مجالا أخضرا تجب المحافظة عليه.

وبما أن البنية العقارية للأراضي الحضرية تكون عاملا حاسما في آليات التوسع الحضري، فإن التوسعات الحضرية الأولى تمت فوق أراضي الدولة Terres Domaniales، وبالضبط في موقع مطار عسكري قديم وتمت فيه تجزئات سكنية كودادية الموظفين وتجزئات السكن الاجتماعي Programme Social.

إن تعيين مدينة تزنيت كمزكز رئيسي لاقليم جديد في يونيو 1975 قد خلق دينامية جديدة سكانية وسكنية، حيث عزز كثيرا من الوظيفة الادارية للمدينة والأنشطة الثلاثية المرتبطة بهما. فقد فرضت الظرفية الجديدة إيجاد مرافق إدارية جديدة ومناطق سكنية للاعداد المتزايدة من الموظفين والأطر المتوافدين على المدينة. كما نشطت الهجرة القروية وعدد المهاجرين إلى تزنيت نتيجة للارتباط المتزايد مع مجالها واستقطابها لعدد مهم من العمال في ميدان البناء خاصة. وتمخض عن ذلك ازدياد حدة المضاربة العقارية نتيجة الطلب المتزايد على الأرض الصالحة للتعمير ونشطت هذه المضاربة فئة التجار التي تشير كل المؤشرات إلى أنها استفادت من عائدات المغاربة المقيمين بالخارج. وجدير بالذكر ان منطقة تزنيت تعتبر من المناطق المغربية الطاردة لسكانها. فالاحصائيات تشير في نهاية السبعينات إلى أن 20% من السكان

النشيطين في المنطقة قد غادروا الاقليم. وقد قدر أن عائدات مواطنينا بالخارج المودعة في الأبناك وصلت مؤخرا إلى أزيد من 900 مليون درهم. وهكذا فجزء من هذه الرساميل يحقن في الاقتصاد المحلي عن طريق النشاط التجاري والمضاربة العقارية.

وخلاصة القول ان تعزيز الوظيفة الادارية للمدينة وتنشيط الأنشطة الثلاثية المرتبطة بها خاصة التجارة بالاضافة إلى ارتباط أكبر للمدينة بمجالها المباشر قد حددت توسع المدينة.

الهجرة الداخلية في الأطلس الصغير الغربي
نموذج آملـــن

رقية آيت واعزيز
كلية الآداب والعلوم الانسانية
أكادير

مقدمة.

الأطلس الصغير الغربي من أقدم المناطق التي عرفت الهجرة في المغرب سواء الداخلية أو الخارجية. وقد آهتم بدراستها كثير من الباحثين منذ الثلاثينات، ونتيجة لبحث قام به السيد نوان[1] في سنة 1966 وجد أنها تمثل 93000 رجلا منهم 45،9% من سوس، ويتجه تيار هذه الهجرة في معظمه نحو المدن التي تعرف نشاطا اقتصاديا عصريا كالدار البيضاء أو القنيطرة، أو المحمدية أو الرباط.... فتركز محاور الهجرة نحو هذه المدن يعكس الطابع الانتقائي للنمو الاقتصادي الذي يعرفه المغرب وعجز الاستثمارات الرأسمالية عن تجاوز هذا المحور أنذاك.

يشير السيد نوان أن معظم المهاجرين السوسين يعملون بالقطاع الثالث، خاصة بالتجارة، ويلاحظ تخصص هؤلاء حسب أصولهم الجغرافية في نشاط معين كالبقالة للمهاجرين من أيت باها وواد أملن والصناعة التقليدية من منطقة إغرم وإدا أو كنضيف وأعمال المقاهي والفنادق لأهل أولوز.

وكنموذج لهذه الظاهرة سنتناول في دراستنا حوض أملن **الذي** يعتبر مهد الهجرة الداخلية في المنطقة والتي تعد اليوم العمود الفقري الذي تحوم حوله الحياة البشرية داخل الحوض.

1 . الهجرة في حوض آملن.

تقع منطقة آملن في الأطلس الصغير العربي، وهي عبارة عن مجموعة من الدواوير متركزة داخل حوض محصور في دائرة جبلية مكونة من أدرار لكست

في الشمال الغربي يبلغ ارتفاعه 2374م وأدرار مقورن في الجنوب الشرقي يزيد علوه عن 2000م وتنتشر هذه الدواوير في الحوض على جانبي أسيف أوملن على شكل متناثر في أعلى وأسفل الوادي.

يسود المنطقة مناخ شبه جاف فالتساقطات تتراوح بين 60 و 150 ملم ، والحرارة ترتفع إلى 40 درجة وأحيانا 50 في أواسط شهر غشت ويمتد الصيف إلى أكثر من أربعة أشهر. ولهذه الظروف المناخية أثر على الحياة البشرية لأنها تشكل عائقا أمام النشاط الفلاحي والرعوي فقلة الأمطار تؤدي إلى اندثار الغطاء النباتي الطبيعي وتراجع الفرشة المائية الباطنية مما يكون له بالغ الأثر على تناقص مياه بعض الآبار بل يبسها واضمحلال بعض العيون وجفافها، وبالإضافة إلى هذه الظروف الطبيعية الصعبة، مشكل الزيادة السكانية الذي كانت تتخبط فيه المنطقة الذي أدى إلى قلة نصيب الفرد من الأرض والإنتاج وأصبح من المستحيل الاستمرار في وضعية مزرية كهذه، وكانت الهجرة المبادرة الوحيدة لدرىء خطر التوازن بين السكان والموارد الطبيعية، وبطبيعة الحال ليس من السهل أن يقبل سكان املن التعيير أو مغادرة مسقط الرأس لم لا إذا كانت هناك دوافع ملحة لذلك وتتلخص جميعها في كلمة واحدة قد تؤدي إلى المعنى وهو عجزه عن تلبية متطلبات حياته اليومية.

1. الهجرة، هجرة داخلية بالدرجة الأولى.

دراسة نوان تؤكد ذلك رغم الفترة الزمنية التي تفصلنا عنها، بحيث أن ثلاثة مهاجرين مي أربع يهاجرون إلى المدن المغربية، فالهجرة إلى الخارج نادرة داخل الحوض. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على قدم الهجرة في المنطقة، ففي الثمانينات بلغ عدد المهاجرين في دائرة تافروت ـــ التي تحتضن حوض أملن ـــ 22482 أي 25،7% من مجموع سكان الدائرة البالغ عددهم 87421 نسمة سنة 1982 وتضم الدائرة ستة جماعات قروية منها جماعة تافراوت، تهالة، تسريرت ترسواطا أيت وفقا، أفلا [illegible] (خريطة رقم [1]).

جدول 1 عدد المهاجرين في دائرة تافراوت
وعدد السكان سنة 1982[1]

الجماعة	عدد السكان 1982	عدد المهاجرين	نسبة المهاجرين بالنسبة للسكان	نسبة المهاجرين في كل جماعة
تافـراوت	16175	6032	37,9	26,9
تهالـة	17026	3725	21,8	16,6
تسريـرت	7613	5971	78,3	26,6
ترمـواط	30500	4210	0,1	18,7
أيت وفقـا	9370	1120	11,9	4,9
أفلا أغير	6737	1424	21,1	6,3
المجموع	87421	22482	25،7	100

ويتوزع هؤلاء في جل المدن المغربية تحتضن مدن الشمال 73،6% منهم القنيطرة 2% الجديدة 2،3% والباقي 9،4% موزع في المدن الساحلية الأخرى كما توضح الخريطة رقم (2).

هذه النسب تتشابه شيئا ما بالأرقام التي وجدتها في الاستمارة المنجزة داخل الحوض والتي مست 95 أسرة مستجوبة الجدول التالي يبين عدد المهاجرين في كل أسرة نلاحظ أن داخل 95 أسرة مستجوبة وجدنا 186 مهاجر

جدول 2 عدد المهاجرين حسب الأسر

عدد الافراد المهاجرين في كل أسرة	عدد الاسر المستجوبة	%	مجموع المهاجرين	%
1 الفـرد	42	44،2	42	22،6
2 أفـراد	26	27،4	52	27،9
3 أفـراد	17	17،9	51	27،5
4 أفـراد	9	9،5	36	19،3
5 أفـراد	1	1	5	2،7
المجمـوع	95	100	186	100

أي 1،9 % لكل أسرة، ينتمون إلى الدواوير التالية، أيت أومكاس، دوملالن تاملوكت، أسكين، تدلي تكضشت، إكورضان، أنامر، تازولت، أكشتيم. ف 44،2% تملك مهاجر واحد خارج الدوار و 27،4% تملك مهاجرين و 17،9% لها ثلاثة مهاجرين ثم 10،5 % تملك أربعة فأكثر. مجموع هؤلاء موزعين على المدن الشمالية خاصة الساحلية فالهجرة إلى الخارج قليلة جدا لم تمس إلا 3% من الاسر فالمهاجرين إلى الخارج يمثلون 2،7% من مجموع المهاجرين من الحوض، يقيمون بفرنسا، بلجيكا وهولندا.

2ـــ سن الهجرة.

كما هو معروف في جل مناطق سوس، المهاجر يغادر الدوار في سن مبكرة ففي حوض أملن الهجرة لا تنحصر في فئة الشباب بل حتى الأطفال الذين تزيد أعمارهم عن 10 سنوات أكثر من 60% من المستجوبين كان عمرهم عند الهجرة يتراوح بين 7 و 8 سنوات.

جدول 3 سنوات الهجرة ومدة الاقامة
في الوسط الحضري

سنوات الهجرة	مدة الاقامة في المدينة	عدد المهاجرين	%
38 ـ 48	40 إلى 50 سنة	11	6
49 ـ 58	30 إلى 49 سنة	17	9،4
59 ـ 68	20 إلى 29 سنة	64	35،4
69 ـ 78	10 إلى 19 سنة	50	27،7
79 ـ 88	0 إلى 9 سنة	39	21،5

عرفت الهجرة أوجها بعد الاستغلال أكثر من ثلث المهاجرين (35،4%) غادروا الدوار في بداية الستينات و 27،7% في بداية التسعينات ثم 21،5 % هاجروا في بداية التمانينات وقد عرفت هذه الفترة الأخيرة هجرة الاطفال الذين يشكلون 11،6% من مجموع المهاجرين الدين لا تزيد أعمارهم عن 15 سنة.

إذا أخذنا الفئة التي يزيد عمرها عن 56 سنة نلاحظ أنها عرفت الهجرة ما بين سنوات 1938 و 1948 أغلبيتها قضت أكثر من 40 سنة في الوسط الحضري فسن الهجرة كان يتراوح بين 8،18 سنة، فسبب الهجرة راجع لأزمات الجفاف والمجاعة والأمراض التي تعرضت لها المنطقة خلال الأربعينيات أغلبيتهم استقرت بالدار البيضاء والرباط، وكانت هجرتهم برفقة العائلة وتشكل هذه الفئة 6% مجموع المهاجرين.

جـــدول 4 ســن وفتــرات الهجرة.

المهاجرين	سنة الازدياد	مكان الازدياد	سنة الهجرة	سن الهجرة	مدة الاقامة في الوسط الحضري	أول مدينة هاجر إليها
1	1930	إكرضــان	1938	8	50	الـدار البيضـاء
1	1931	إكرضــان	1939	8	49	الـدار البيضـاء
1	1922	تمالوكـت	1940	18	48	الربــاط
1	1932	أنامـر	1942	10	46	وهـران
1	1927	تازولـت	1943	16	45	فــاس
1	1928	تمالوكـت	1944	16	44	الدار البيضاء
1	1929	تاملوكـت	1945	16	43	القنيطـرة
1	1930	أسكيـن	1945	15	43	الدار البيضاء
1	1923	أكشتيـم	1947	18	41	مراكـش
1	1931	تمالوكـت	1948	17	40	الربـاط
1	1932	تكضشـت	1948	16	40	الدار البيضاء

3ـــ الحالة العائلية :

داخل 181 مهاجر 51،9% متزوجون والباقي أي 48،1% عزاب من بينهم 49،5% تتراوح أعمارهم بين 20،10 سنة ثم 50،5% تزيد أعمارهم عن 21 سنة فالزواج المبكر لم يعد ظاهرة شائعة كما كان من قبل، حيث كان الأب يزوج آبنه في سن مبكرة بين 25،19 سنة ويمنع زوجته أن ترافقه وذلك

لكي تبقى علاقته وطيدة بالدوار والعائلة ولكي يستفيد بالدرجة الأولى من عائدة الهجرة، إلا أن شباب اليوم ليست له نفس العقلية التي سادت من قبل فهاجسه الوحيد عند الهجرة هو العمل لتكوين رأس مال لكي يستقل بمحله بعد المدة الطويلة التي يقضيها كمتدرب عند أحد أفراد عائلته : ثم يوفر مسكن في المدينة وبعدها يتزوج في الوسط الحضري. ف 8،8% من المهاجرين تزوجوا في الوسط الحضري ينتمون إلى الفئة التي تتراوح أعمارهم بين 35،30 سنة، أما باقي المتزوجين أغلبية زوجاتهم ينتمين إلى حوض أملن.

المدن المستقطبة لمهاجرين الحوض.

نجد في الرتبة الأولى المدن الساحلية حيث استقطبت حسب الاستمارة 70% من مهاجري الحوض 34،8% مقيمة بالدار البيضاء، 17،1% مستقرة بالرباط، 5،6% موجودة في سلا و 2،8% مركزة في المحمدية وطنجة.

ولكل من هذه المدن إشعار خاص لاستقطاب المهاجرين فالدار البيضاء استقطبت مهاجرين من كل الدواوير، الرباط وطنجة والقنيطرة لها قوة جذب كبيرة على مجموعة من دواوير فخدة أيت سمايون كتمالوكت، إسكن، تكضشت، إكرضان، تدلي.....

1ـــ مراحل الهجرة.

تختلف مراحل الهجرة من مهاجر إلى آخر 65% من المهاجرين المستجوبين مروا بعدة مدن كبرى متوسطة وصغرى قبل آستقرارهم بالمدينة الحالية، فالدار البيضاء آستقبلت أكثر من ثلث هؤلاء (32،2%) جاءوا إليها من كل المدن 9% من المدن الساحلية كطنجة الرباط سلا والقنيطرة والباقي آستقر بها بعد مرحلة آنتقالية في المدن الداخلية كمراكش، فاس، مكناس، هذه المدن التي كانت تعتبر المحول الأول للهجرة السوسية قبل أن تغير تيارها نحو المحول الساحلي، وقد تركز بها 15،5% من مجموع المهاجرين مدة لا تزيد عن 10 سنوات قبل آنتقالهم إلى المدن الساحلية أو الداخلية الأخرى. فهدف آستقرارهم من البداية في هذه المدن راجع للدور الذي لعبته خلال

القرون الماضية في التجارة والصناعة التقليدية، خاصة الصناعة الجلدية التي ظلت تجلب العديد من الأيدي العاملة من منطقة إذ أكنديف وإنادفن.....

أما مدينة وجدة فقد كانت بمثابة محطة يقيم بها المهاجر إلى أن تحين له الفرصة لعبور الحدود الجزائرية المغربية للاتجاه نحو فرنسا، بعد العمل بضعة أشهر في ضيعات المعمرين الفرنسيين تلمسان ووهران، فالمهاجرين المستجوبين الذين جاءوا من الجزائر في السبعينات صرحوا أنهم قضوا ما بين سنة وثلاث سنوات في وجدة قبل آلتحاقهم بالجزائر، بعد طردهم آستقروا بالدار البيضاء، فآختيارهم لهذه المدينة مرتبط بوجود أحد أفراد عائلتهم بها ويمثلون 2،7 % من المهاجرين المستجوبين.

أما المدن السوسية خاصة مدن أكادير الكبرى لم تعرف هجرة سكان الحوض إليها إلا في نهاية الستينات، حيث ظلت تجلب سكان الحواشي الشمالية للأطلس الصغير الغربي والحواشي الجنوبية للأطلس الكبير الغربي وسكان بعض السهول كشياظمة، عبدة، دكالة منذ عدة سنين يتوجهون إليها للعمل في القطاع الفلاحي والصناعي (معامل التلفيف والتعليب) أما مهاجروا الحوض فقد أقاموا بها نتيجة الظروف الفلاحية والنشاط السياحي للذان لعبا دورا هاما في آزدهار آقتصاد المنطقة في السنين الأخيرة.
فقد جاءوا إليها في كل من الدار البيضاء الرباط وطنجة، فآستثمروا أموالهم في التجارة والفلاحة.

يمكن أن نستنتج من مراحل الهجرة أن كل مهاجر استقر بمدينة معينة يكون بمثابة جسر للعديد من المهاجرين من دواره أو من الدواوير المجاورة. فبني ملال مثلا عرفت هجرة سكان أملن في الستينات حيث استقر بها تاجر من دوار تدلي كان فيما قبل في مدينة طنجة، فنقل أسرته من الدوار إلى المدينة برفقة طفل واستطاع الطفل بعد مضى 12 سنة الاستقلال بمحله وأتى بدوره بطفل آخر وهكذا دواليك كل من استقل بمحله يأتي بشخص من الدوارلتدريبه، وقد صرح التاجر أنه منذ 1968 درب 11 طفلا منهم ثلاثة يعملون كمشتركين معه في محلاته التجارية في سبت أولاد نمة، الزدانية، وبني ملال.

جدول (5) المدن الانتقالية ومدن الإقامة الحالية :

المدن الانتقالية: \ مدن الإقامة الحالية	طنجة	سوق الأربعاء	الخميسات	القنيطرة	الرباط سلا	الدار البيضاء	المحمدية	برشيد	سطات	الجديدة	الصويرة	أكادير	أيت ملول	إنزكان	تارودانت	تزنيت	صفرو	وهران	وجدة	تازة	فاس	مكناس	خريبكة	بني ملال	مراكش	باريس	أمستردام	لوكسمبورج
طنجة	2			2	2	2		1	1			1		1		1								2			1	
سوق الأربعاء		1			3	1	1																					
الخميسات			1		1	1																						
القنيطرة	1			3	4	2		1	1																			1
الرباط سلا					17	4			1			1	1															
الدار البيضاء				1	2	24	1	2	3	1		1	1	1							1		1			1		
المحمدية	1			1		1	1	1								1											1	
برشيد						2		1																				
سطات						1			1																			
الجديدة						2				1																		
الصويرة					1	1					1																	
أكادير																												
أيت ملول																												
إنزكان																												
تارودانت															2													
تزنيت																												
صفرو																	2											
وهران					2	3																						
وجدة				1	3	4													1									
تازة				1		2	1		1							1												
فاس						3													1		2							
مكناس				1	1	1					1	1	1					1				1						
خريبكة						2																	1					
بني ملال					1	1	1					1												2				
مراكش	1			1	4	4			1					1										1	1			
باريس																										1		
أمستردام																												
لوكسمبورج																												

جدول 6 مدن الإقامة الحالية في المغرب

المدن	عدد المهاجرين	النسبة %
طنجة	5	2،8
سوق الأربعاء	1	0،5
الخميسات	1	0،5
القنيطرة	11	6،6
سلا	10	5،6
الرباط	31	17،1
الدار البيضاء	63	34،8
المحمدية	5	2،8
برشيد	7	3،9
سطات	9	4،9
الجديدة	2	1،2
الصويرة	1	0،5
أكادير	5	2،8
أيت ملول	3	1،6
إنزكان	4	2،2
تارودانت	2	1،2
تزنيت	3	1،6
صفرو	2	1،2
وجدة	3	1،6
تازة	1	0،5
فاس	2	1،2
مكناس	2	1،2
خريبكة	1	0،5
بني ملال	6	3،3
مراكش	1	0،5
المجموع	181	100

جدول 7 مختلف أنواع التجارة

نوع التجارة	نوع ملك	الملكية مشترك	العدد	النسبة %	المستخدمين
بائع مواد غذائية بالجملة	12	1	13	10,3	31
بائع مواد منزلية بالجملة	5	1	6	,7	11
بائع مواد بلاستيكية بالجملة	2	0	2	1,6	7
بائع مواد الاتواب بالجملة	4	0	4	3,2	11
بائع مواد الفلاحية بالجملة	1	0	1	0,8	3
بائع الاجخزة الاكترونيكية بالجملة	3	0	3	2,4	4
بائع الخشب بالجملة	1	0	1	0,8	11
بائع الدراجات بالجملة	3	0	3	2,4	3
بائع قطاع الغيار بالجملة	1	2	3	2,4	5
بائع البقالة بالجملة	18	7	25	19,8	17
بائع المواد الغذائية بالجملة	19	2	21	16,6	23
بائع العقاقير بالجملة	1	1	2	1,6	5
بائع المجوهرات بالجملة	11	0	11	8,7	10
بائع الدخان بالجملة	11	2	13	10,3	19
بائع الاحدية بالجملة	2	1	3	2,4	3
بائع الملابس بالجملة	2	0	2	1,6	2
بائع العطور بالجملة	1	0	1	0,8	1
بائع صاحب فندق بالجملة	1	0	1	0,8	13
بائع مقهى ومطعم بالجملة	2	0	2	1,6	9
بائع مخبزة بالجملة	1	0	1	0,8	6
بائع مطحنة بالجملة	1	0	1	0,8	7
بائع مصبنة بالجملة	1	0	1	0,8	3
بائع معمل الخياطة بالجملة	1	0	1	0,8	63
بائع معمل الزيت بالجملة	1	0	1	0,8	46
بائع مقاول بالجملة	1	0	1	0,8	27
بائع مضارب في العقار بالجملة	2	0	2	1,6	6
بائع كتب بالجملة	1	0	1	0,8	3
المجمـوع	**190**	**17**	**126**	**100**	**349**

2 طرق الهجرة

تكون الهجرة إما موسمية أي أن المهاجر يستقر في الدوار ستة أشهر وفي المدينة ستة أشهر، وهي حالة سائدة عند المهاجرين الذين لم ينقلوا أبناءهم إلى المدينة أي 11% من المتزوجين وذلك لعدم توفر هؤلاء على مسكن يليق بالعائلة وجلهم مقيمين بالدار البيضاء يمارسون مختلف أنواع التجارة وفي هذه الحالة يكون هناك نوع من التناوب إما مع أخ أو مشترك ينتمي في الغالب إلى نفس الدوار أو أحد أفراد العائلة وقد كانت هذه الظاهرة سائدة عند جل التجار بحيث أن كل التجار المستجوبين مروا بهذه المرحلة التي بدأت تتناقص في السنين الأخيرة. فعرضت بهجرة دائمة أي عندما ينتقل المهاجر عائلته ويقيمون بالمدينة ولا يزور الدوار إلا مرة في السنة أو مرتين في المناسبات الدينية كالأعياد أو فترة المواسم التي تقام في المنطقة. وأحيانا يأتي المهاجر مرات عديدة خاصة الذين يقيمون في المدن السوسية كا أكادير، تزنيت... فالمنزل يغلق إلى أن يأتي المهاجر حيث لاحظنا في جل دواوير الحوض مجموعة من المنازل ماتة تحتوي على 1 إلى 3 طوابق مشيدة على النمط المعماري الحديث. إلى أن منازل محروسة من طرف أشخاص يأتون من مناطق بعيدة، حسب الاستمارة 39 أسرة تسكن الحوض تنتمي إلى كل من أولوز إغرم طاطا، ورزازات، أقا، تازناغت، تالوين.. يخصص لها جزء من المنزل خاصة في الطابق الأرضي مقابل حراسة المنزل والمحافظة عليه ثم حرث الأراضي الزراعية والعناية بالماشية التي يملك المهاجر ويستفيد من 1/3 أو 1/2 المنتوج. يمكن القول أن الحوض يعتبر منطقة طرف بالنسبة لسكان الاصلين ومنطقة استقطاب بالنسبة لسكان المناطق التي تعرف نزوحا كبيرا كالاطلس الصغير الاوسط والشرقـــــي.

II الوظائف التي يمارس المهاجرون

إذا كان سكان أملن كما كتب عنهم في العديد من المقالات يعتبرون من أشهر تجار البقالة في المدن المغربية، فإنهم اليوم من أكبر تجار الجملة وأكبر المضاربين في العقار بل يظهرون في ميادين هامة كالميدان السياحي والصناعي بمشاريع كبرى ورؤوس أموال ضخمة.

فالمهاجرين المستجوبون يمارسون أنواع مختلفة من التجارة، وتحتل تجارة البقالة والمواد الغذائية بالجملة والتقسيط الرتبة الأولى تصل نسبتها إلى 48،3% تقريبا نصف التجار، وبعدها بائعوا الدخان 10،6% ثم بائعوا المجوهرات 9% والباقي يتوزعون على أنواع مختلفة من التجارة كتجارة العقاقير والعطور والملابس بالاضافة إلى الأجهزة الالكترونية والدراجات وأصحاب المعامل وغيرهم، ويستخدم هؤلاء التجار عدد كبير من اليد العاملة المستجلبة من الحوض أو المناطق المجاورة كإداأكنديف أو إذا أسملال وإذا أو بعقيل وأيت باعمران... وكذلك من منطقة الدار البيضاء بالاضافة إلى أبنائهم الذين يشكلون 37% من المجموع. فاحترافهم لمختلف أنواع التجارة راجع لاختيار الرواد الأوائل الذين نجحوا في هذا الميدان حيث أصبحوا أكبر منافسي التجار التقليديين الفاسين خاصة في مدينة الدار البيضاء. فمن وجدة إلى طنجة ومن طنجة إلى العيون يعتبر تجار أملن أمهر بائعي المواد الغذائية بدون منازع.

1 ــ من متدرب إلى مشترك

تعتبر البقالة أهم نشاط تجاري يمارسه المهاجر أول ما يحط أقدامه في المدينة قد احترفها أكثر من ثلثي التجار المستجوبين. فالتاجر يأتي إلى المدينة في سن يتراوح بين 8 و15 سنة يقيم بمحل صغير وفي الغالب يكون في الأحياء الشعبية مدة تصل ما بين 4 و 7 سنوات حسب ذكائه ففي هذه الفترة يمر بثلاث إلى أربع محلات حتى يتعلم اللغة والحساب وطريقة التعامل مع الزبناء مع جميع الفئات، من الأطفال إلى الكبار، وبعد هذه المرحلة يتجه إلى محلات أكبر، إما محلات تجارة الجملة أو نصف الجملة أو محلات المواد الغذائية في الأحياء الراقية، وهنا يقضي ما بين 3 وخمس سنوات حتى يجمع رأس مال يسمح له بممارسة هذا النشاط وحده وفي الغالب يشترك مع آخر يكون قد مر بنفس المراحل تقريبا. وهنا يرجع هذا الأخير إلى مكان بدايته أي الاحياء الشعبية حيث تكون المحلات أرخص والطبقات الشعبية التي لا تتطلب إلى المواد الغذائية التي تحتاجها في حياتها اليومية.

أحيانا نجد أن التاجر أقام بالمحل الذي ابتدأ فيه كمتدرب لأن صاحبه قد غادره إلى حي آخر، فتجار املن معروفين بتغير المحلات التجارية حيث لا

تجد دائما نفس الأشخاص كل سنتين أو ثلاث تظهر في المحل وجوه جديدة ولكن تمارس نفس التجارة.

فالتاجر لا يبقى دائما في وضعية مشترك بل يغير حالته هذه إلى تاجر مستقل من بين التجار المستجوبين في الحوض 13،6% يعملون كمشتركين في مرحلة انتقالية تدوم من فترة زمنية قصيرة إلا في حالة نادرة عندما يكون مشتركا مع أخ له.

وتستمر هذه الوضعية مدة طويلة حيث يشتركون في كل مشاريعهم سواء في الدوار أو في المدينة اذن فآستقلال التاجر بمحله يجبره أن يأتي بشخص لمساعدته وهنا يتجه إلى الحوض لجلب طفل سيمر بنفس المراحل التي مر بها، فجلب الأطفال من منطقة الأصل ظاهرة منتشرة عند جل السوسين منذ عدة قرون وهي سلسلة لا نهاية لها تربط جيلا بجيل. ففي كل محل تجاري نجد طفل أو طفلين حسب مساحة المحل إما أبناء التاجر أو أبناء أحد أفراد عائلته أو دواره فمن بين 21% من الأطفال المهاجرين في الحوض 59% يعملون في البقالة. فالبقالة هي قوة وأصالة النظام التجاري السوسي وهجرة الأطفال تضمن استمرارية هذا النشاط جيلا بعد جيل فنجاح بعض التجار في الحوض أو الدوار يؤدي إلى توسيع هجرة الأطفال التي أصبحت عادة أكثر منها خاصة ضورورية.

2 ـــ من بقال إلى تاجر الجملة

إن الانتقال من بقال إلى تاجر الجملة مرحلة صعبة تتطلب تجربة ورأس مال ضخم إلا أن التاجر لا يهمه الرأس المال بقدر ما تهمه التجربة لان المال يُمكن أن يقترضها لا من الأبناك بل عند مجموعة من التجار المنتمين إلى الحوض، فالمساعدات المادية هي التي لعبت دورا كبيرا في آنتشار النشاط التجاري عند هذه الفئة من السوسين. فكلما تدرب شخص وأصبح ذو خبرة عالية في النشاط التجاري لا يجد أي مشكل في فتح محل إذا لم يتوفر على رأس مال كاف بل يجد المشكل في إيجاده لأنه إذا آقترض عند أصدقائه أو أقرباءه المال فعليه أن يستثمرها في محل ذو حركية دائمة ونشاط مستمر لكي يتمكن من رد ديونه، رغم أن أولائك الذين أعطوه المال لا يطلبون الفائدة ولا

وقت محدد كالأبناك ولكن يريدون الثقة فقط 53،9% من التجار المستجوبين اقترض اجزاء من المال لانشاء محلاتهم منهم، 45،6% اقترضوا من عند أفراد العائلة، 36،7% من أفراد الدوار و 11،7% من الأبناك هذه النسب توضح مدى التضامن الكبير الموجود عند تجار الحوض فإعطاء مساعدات مادية ومساعدة المهاجر الجديد في إيجاد العمل والسكن ظاهرة معروفة عند تجار آملن فلا نجد أشخاص بدون عمل أو بطالة في الاوساط المتعملة فأغلبية التجار يوجهون أبناءهم إلى نفس النشاط الذي يمارسونه فالسوسي يفضل ربح درهم في التجارة أحسن من ربح 10 دراهم في الادارة رغم أنه يجري دائما إلى الربح لأنه يحاول تغير وضعيته المادية إلى ظروف أحسن فمن متدرب إلى مشترك ومن مشترك إلى بقال تم إلى تاجر بالجملة. فالبقالة لا تتطلب مبلغا ماليا كبيرا لأنه لا يزيد عن 3 الف درهم حسب السلعة بالاضافة إلى أن المحل في الغالب يكون في الاحياء الشعبية بينما تجارة الجملة تتطلب رأس مال كبير يزيد عن 1000 ألف درهم، فتجار الجملة يمثلون 198% من مجموع التجار المستجوبين نصفهم يمارس تجارة المواد الغذائية يتركزون بالدار البيضاء خاصة في مديونة.

III نعكاسات الهجرة على الحوض

للهجرة انعكاسات متعددة أو واضحة في المنطقة، في الميدان الديمغرافي، والاجتماعي والاقتصادي فالنتائج الديمغرافية تبدو في ارتفاع نسبة النساء والفتيات والشيوخ والأطفال الذين يقل عمرهم عن 10 سنوات في جو دواوير الحوض، وترتب عن هذا انخفاض في معدل الخصوبة، وتناقص في عدد السكان بحيث أن معدل النمو لا يزيد عن أقل من المعدل الوطني الذي يصل إلى 4،8 أما من الناحية الاقتصادية فهجرة الشبان أدت إلى نقص في اليد العاملة الفلاحية مما كان له بالغ الاثر في تراجع الأراضي المزروعة رغم أن بعض الأسر جلبت من مناطق بعيدة لتعويض الأسر المهاجرة والعناية بممتلكاتها.

ولقد عرفت المنطقة تغييرا جذريا وتوسعا كبيرا في البناء وتطورا ملموسا في العمران ففي كل دوار نجد منازل حديثة ذات طوابق متعددة وأشكال مختلفة في الهندسة المعمارية. وهذا التوسع في العمران على حساب الأراضي

الزراعية أدى إلى ظهور مغاربة عقارية حيث أصبح المتر المربع يفوق 250 درهم في بعض الدواوير كما أن النواة الأولى للدوار المتركزة عند السفوح الوعرة هجرت فأصبح بعضها خرابا وبعضها الآخر استعمل كخرين أو اسطبل فالمنازل مجهزة بالأجهزة الضرورية كالمجارير والماء الصالح للشرب الذي يمر عبر أنابيب على مسافات طويلة من العين والانارة بواسطة الطاقة الشمسية التي ساعدت على جهاز التلفاز الفيديو مما جعل المنطقة تتفتح على الخارج وتسربت اللغة العربية عن طريق التمدرس الذي أصبح مجال مفتوحا للفتيات أكثر من المناطق المجاورة للحوض كل هذه العوامل أدت إلى تغيير عقلية السكان الذين تخلوا عن بعض التقاليد والعادات التي كانوا متشبتين بها من قبل فاحتكاكهم الشديد بالمهاجرين جعلهم يعيشون حياة شبه حضارية حيث ارتفع مستوى العيش ف 70 % من الأسر تستهلك اللحم أكثر من أربع مرات في الأسبوع وفي فصل الصيف تعرف الأسواق حركة تجارية مهمة بفضل ارتفاع القوة الثرائية بفضل عائدات الهجرة الداخلية فالمهاجر يتحمل مصاريف أسرته في المدينة والأسرة المقيمة بالدوار 79،3 % من التجار المستجوبين مسؤولون عن 236 أسرة 60 % منها مستقرة بالحوض. بالاضافة إلى المساهمات المادية التي تجمع عند كل التجار والمهاجرين للقيام بمشاريع اجتماعية في الدوار كبناء المساجد وحفر الآبار وترصيص السواقي وتزفيت الطرق وغيرها من الأعمال الأخرى.

عائدات الهجرة الدولية والانشطة الاقتصادية بمدينة تزنيت.

أحمد بلقاضي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير -

من أهم ما يميز مدينة تزنيت هو استفادتنا المهمة من عائدات المهاجرين، وذلك نتيجة الأعداد الهائلة من أبناء الاقليم الذين غادروه قصد العمل بالخارج. ويعد القطاع الثالث ثاني ملجأ بعد البناء لاستثمار الكميات المالية الوافدة على المدينة من بلدان المهجر. وضمن القطاع الثالث اتجهت اهتمامات المهاجرين مجموعة من فروع التجارة والخدمات خاصة. مما تولدت عنه عدة تغييرات همت طبيعة المواد وطرق عرضها ونوع الخدمات التي أصبحت تقدم للسكان.

لكن يظهر بأن هذا القطاع أصبح يسجل، بالمقارنة مع مدن أخرى من نفس الحجم، أخفض نسبة لعدد السكان لكل منشأة (15,6 ساكن لكل منشأة). ويتوقع أن تستمر استثمارات المهاجرين مما سيؤدي دون شك إلى استفحال تضخم هذا القطاع بالمدينة.

Résumé :

Du fait de son site dans une région dont les habitants ont beaucoup émigré vers l'étranger, Tiznit est devenue l'une des plus importantes villes marocaines qui bénificient largement des transfert de l'épargne des émigrés marocains.

Parmis les secteurs qui «profitent» de ces transferts, le tertiaire en général, et en particulier le commerce et les services.

En effet l'effectif des boutiques appartenant aux émigrés ne cesse de s'accroîte, de même l'introduction de nouveaux produits et services, en plus des nouvelles méthodes de vente «self service» dans des boutiques spatieuses et attirantes, modifiant ainsi la structure générale de tertiaire dans la ville.

Cependant, il paraît que le nombre d'habitants par boutique, qui est de 15,6 est en dessous de la moyenne nationale des villes de la même taille (32,5). Aussi, peut-on parler de l'hypertophie de ce secteur ?

The impact of transfer of international immigration funds on the tertiary secter in Tiznit

Summary :

Given that the city is stuated in an area where a large portion of the population has immigrated overseas Tiznit has now become one of the main cities which has drawn a considerable benefit from the transfer of Moroccan immigration funds.

Among the sector which benefit from this transfer are the tertiary sector and, more particularly, commerce and public service. In fact, the mumber of shops belonging to Moroccan immirants is coustanly in creasing in parallel to the introduction of new products and services, in addition to new sale methods «self-service» in large attractive shops; theaby, modifyiny the structure of the tertiary sector in the city. It does seen, however, that the number of inhabitants per shop 15,6 is still below the national average of cities with the same size : 32,5. Perhaps one may even point out to the hypertrophy of this sector.

Références bibiographiques

Daide. H : La migration internationale de travail et son rôle dans l'urbanisation de deux petites villes au Sud-Ouest marocain : Tiznit et Ouled Teima. Thèse de 3ème cycle en géographie. Poitiers 1989.

Troin. J.F. : Retour sur les petites villes du Nord Marocain R.G.M. vol 10 n° 1-2, 1986 pp. 249-258.

Imouriguen. M, Badreddine S. : Activités économiques et émigration internationnale à Tiznit (en arabe) Mémoire de licence en géographie. Faculté des lettres, Agadir 1992, 114p.

— D'abord, parcequ'un nombre trés importants de boutiques fonctionnelles sont de création récente 52% de ces boutiques appartenant aux émigrés ont été ouvertes à partir de 1986, et 70,6% ont vu le jour durant les dix dernières années (1981 - 1991).

— Le deuxième indicateurs réside dans l'augmentation accrue des émigrés de retour qui gèrent eux-mêmes leurs affaires (56,5%). Par ailleurs, le taux des émigrés atteignant l'âge de retraîte est en progression forte chez les premières générations. Les émigrés de retour trouvent dans le tertiare-après le bâtiment, comme nous l'avons vu- «un secteur-refuge» pour investir leurs épargnes. Ils y témoignent également une préférence marquée pour occuper leur temps libre.

— Par ailleurs, l'investissement dans les secteurs productifs représentent une aventure à grands risques. De nos jours, et malgré les atouts dont dispose la ville de Tiznit (une zone industrielle de 25 ha, de nombreuses matières premières, main d'œuvre bon marché ect ...) nos émigrés manifestent une certaine réticence. Quant à : l'investissement dans le secteur de l'industrie. Notons que la ville ne dispose aujourd'hui que de 3 unités industrielles. Pour ce qui est des potentialités touristiques, la ville de Tiznit et sa région dispose d'une richesse naturelle et d'un patrimoine culturel, historique et humain d'une valeur inestimable qui reste encore à exploiter et à mettre en valeur.

La responsabilité est partagée entre les émigrés, les collectivités locales et les banques afin d'orienter les investissements vers d'autres secteurs autre que le tertiaire qui commence d'ailleurs à présenter une hypertrophie certaine. En effet, le rapport nombre d'habitants par implantation enregisté à Tiznit montre que celle-ci est bien en dessous de la moyenne nationale qui est de 32,5 habitants/implantation pour les villes du même taille que Tiznit (I.F. Troin 1986). A Tiznit le taux enregistré est le plus bas avec 15,6 habitants/implantation [5].

5.Cette moyenne ne tient pas compte des commerces, produits d'artisanat et services que l'on trouve dans le souq bi-hébdomadaire de Tiznit. Nous devons noter ici que ce souq est fréquenté aussi bien par les habitants de Tiznit que par ceux des campagnes.

entre le Maroc et divers pays européens. Chacune de ces agences dispose en moyenne de six autocars et de plusieurs agences dans les plus grandes villes marocaines et européennes.

Face à un investissement de ce genre (transport, hôtels classés ...) les émigrés s'associent dans des «petites sociétés». Nous devons signaler en fin, que les deux secteurs (commence et transport), se complétent d'une façon harmonieuse. Le premier bénificie des marchandise procurées à bas-prix à l'étranger et les agences de voyage en assurent le transport moyennant un prix fixé à l'avance.

d - l'artisanant intéresse peu les émigrés :

Contrairement au deux branches précédentes (commerce et service), l'artisanat ne «bénificie» que trés peu des retombées de l'émigration. Parmi les 461 implantations artisanales dans la ville, les émigrés ne détiènnent que 25, soit 5,4%.

Tableau 5 : Les investissements des émigrés dans l'artisanat (août 1991)

Nombre d'implantations			Nature de l'artisanat détenu par les émigrés
ensemble de la ville	part des émigrés		
	Nbre	%	
259	19	7,3	Artisanat de production : boulangerie, coûture, menuiserie, cordonnerie ...
202	6	3	Artisanat de service et d'entretien : Réparation diverse, ecrivain public ...
461	25	5,4	Total de l'artisanat

Cet investissement trés limité du capital des émigrés dans l'artisanat s'explique-comme nous l'avons déjà vu-par deux raisons principales ; d'une part, la qualification professionnelle exigée par les différentes branches de l'artisanat. D'autre part, les difficultés d'écoulement que connaissent certains produits et services artisanaux. En effet, les émigrés n'ont investi que dans les branches qui ont pu survire. Ainsi, parmi les 15 boulangeries et «fours publics» existant dans la ville, huit sont possédés par les émigrés soit 53,3%. Ils investissent également, mais d'une façon moins importante dans la coûture, la menuiserie et la cordonnerie ... la préférence des émigrés à ces métiers détient l'explication dans l'originalité de ceux-ci dans la ville ; mais aussi à la demande accrue de leurs produits. En effet, les sandales, les babouches et l'habillement traditionnel font l'objet d'une utilisation très fréquente chez les habitants de la région de Tiznit et des contrées environnantes et représentant un attrait d'une valeur inestimable pour les touristes qui en achetent souvenir de leur passage dans le grand Sud marocain.

CONCLUSION :

Au terme de cette brève analyse, il apparait que les transferts monétaires de l'émigration ont bien eu des répercussions d'une grande considération sur le secteur tertaire à la ville de Tiznit : cette tendance s'accentura sans nul doute dans les années à venir et ce en raison des indicateurs suivants :

— D'une part, au niveau de l'effectif des locaux de commerce, 236 nouvelles boutiques sont rajoutées par les émigrés à l'effectif déjà existant.

— Et d'autre part, au niveau du type du marchandise et la façon, nouvelle, dont elles sont étalées. En effet, les marchandises sont en provenance de l'étranger et exposées à «l'européenne» dans des locaux spacieux ayant le caractère de «superettes» permettant à la clientèle «le libre service».

c - Les services : le choix des émigrés porte essentiellement sur l'hôtellerie, la restauration, les cafés et le transport international.

Trois raisons fondamentales sont à l'origine du choix des émigrés dans ce domaine.

En premier lieu, la situation de Tiznit par rapport au circuit touristique organisé dans le Sud à partir d'Agadir. L'importance de Tiznit comme «étape touristique» a fait doter cette medina (ville ancienne) de quelques hôtels et restaurants d'une catégorie moyenne (3 étoiles).

En deuxième lieu, l'importance de Tiznit comme «capitale régionale» d'une zone connue par l'ancienneté de l'émigration internationale (Anti-Atlas-Occidental). Encore une fois, sa situation lui fait jouer le rôle de gare routière d'une importance fort considérable aussi bien au niveau local que sur le plan du transport international.

Et en 3e lieu, la demande croissante des populations locales (habitants de Tiznit et région eux-mêmes) quant à ce type de service : café, restaurant et hôtel ...

Tableau 4 : Les investissements des émigrés dans les services (Août 1991)

Effectif total des services			Nature des services offerts par les émigrés
ensemble de la ville	part des émigrés		
	Nbre	%	
72	33	45,8	Hôtellerie, cafés, restauration.
101	18	17,8	Entretien de la personne, ect.
35	6	16,7	Agences de voyage international, salles de jeux ...
208	57	27,4	Total des services

Selon le tableau ci-dessux, les investissements des émigrés sont importants essentiellement dans deux domaines :

D'abord dans le secteur de l'hôtellerie, la restauration et les cafés, dont ils détiènnent un peu moins de la moitié des implantations (45,8%). Nous devons préciser également qu'ils ont en propriété trois hôtels de catégories 3 étoiles parmi les quatres hôtels classés de la ville.

- et en deuxième lieu, dans le domaine du transport international. En effet, sur un total de 7 agences, les émigrés détiènnent 5 agences de voyage opérant

alimentation, habillement-chaussures-bijouterie et équipement.

Quand au taux de participation des émigrés dans chaque branche de commerce, il fait apparaître l'importance accordée par ceux-ci aux loisirs-culture et équipement. Le taux de leur participation qui atteint le 1/3 montre bien cette importance.

Tableau 3 : Importance et nature des branches commerciales exercées par les émigrés (Août 1991)

Locaux de commerce (boutiques)			Nature des activités exercées par les émigrés (vente)
Nbre total dans la ville	part des émigrés		
	Nbre	%	
36	12	33,3	Loisirs-culture (cassetes vidéo, disques, appareils audio-visuel
155	51	33	équipement domestique, divers.
55	13	23,6	Eutretien de la personne : parfums, produits de beauté ...
43	9	20,9	Transport, bicyclette, cyclo-moteur, pièces de rechanges ...
293	52	17,7	Habillement-chaussures bijouterie
563	99	17,6	Alimentation : épicierie, boulangerie, patisserie ...
1145	236	20,6%	Total des activités commerciales.

L'investissement dans les branches indiquées dans le tableau ci-dessus est dû, en plus de la disposition des émigrés d'un capital important, aux raisons suivantes :

— la possibilité de faire venir les marchandises de l'Europe cette opération concerne les produits peu pesants et peu volumineux comme les bijoux en or, les tissus, les épices, les parfums, les cassettes vidéo, les disques, les appareils audio-visuels, les pièces de rechange ... «l'importation» se fait, soit directement par les émigrés, soit par les chauffeurs des auto-cars qui relient Tiznit à l'Europe [4].

— le désir manifesté des habitants de se procurer certains produits en provenance de l'étranger (Europe). En effet, il apparait un changement certain quant aux habitudes de consommation. Les populations locales et plus particulièrement les jeunes sont de plus en plus attirées par les nouveaux produits venus de l'Europe. L'utilisation de ces objets connait depuis quelques années déja, une extension spectaculaire, il s'agit là des produits d'entretien de la personne, de loisirs, d'habillement de mode, appareils audio-visuels ... .

Les retombées de l'émigration sont devenues un des éléments moteurs qui boulversent le commerce marocain et ce depuis quelques années déjà. A Tiznit, les repercussions sont remarquables à deux niveaux :

4.Au 1er mars 1986, après le contrôle douanier de 3 autocars à Bab Sebta à destination Tiznit, il s'est avéré que 40 % seulement des bagages étaient accompagnés par leur proprietaires, alors que 60 % était-envoyé par des gens restés en Europe (Daïd, H 1986).

grés. A titre d'exemple, le bénifice moyen d'un épicier passe de 800 dh/mois pendant les saisons d'automne et d'hiver à 2000 dh/mois en été (Daid H. 1986).

— l'approvisionnement des magazins par des marchandises en provenance des pays d'acceuil.

— la disponibilité de locaux au rez-de-chaussées des batiments que construisent les R.M.E. pour différent modes d'exploitations (direct, associé, achat, location ...)

— l'investissement direct de l'épargne des émigrés dans plusieurs branches de commerce, de services et d'artisanat.

En effet, parmi les 1881 implantations en activité dans la ville, 319, soit 17% [3] appartiènnent aux émigrés (août 1991). Ces investissements sont répartis comme suit :

Tableau 2 : Répartition des implantations du tertiaire appartenant aux émigrés dans la ville de Tiznit (août 1991)

	effectif général		part des émigrés	
	effectif	%	effectif	%
Commerce	1145	60,9	236	74
service	275	14,6	58	18,2
Artisant	461	24,5	25	7,8
Total	**1881**	**100%**	**319**	**100%**

Alors que le secteur de l'artisanat bénifice mois des investissements des R.M.E ; le commerce et les services détiènnent une importance fort considérable quant à cet investissement puisqu'ils représentent respectivement 74 et 18,2 % du total des implantations.

Cette situation s'explique par plusieurs facteurs dont les plus importants sont :

— Une demande croissante des services et marchandises en provenance de l'étranger (Europe) d'où l'importance d'investir.

— Un risque moidre quand aux eventuels echecs dans ce type d'investissement.

— Des difficultés relatives à l'écoulement des produits d'artisanat sur le marché local largement convoité.

— le manque de qualification professionnelle des émigrés quant aux travaux d'artisanat. Ceci tient dans une large mesure aux types de travaux exercés généralement dans les pays d'acceuil (bâtiement, mines, industries, agriculture ...)

a - le commerce : un important «secteur-refuge» d'investissement.

Parmi les 319 implantations appartenant aux émigrés, 74% sont dans le commerce, soit 236 boutiques réparties essentiellement entre trois branches :

3.Ce chiffre reste en deça de la réalité à cause des sous-déclarations constatées quant à l'origine du capital investi. Ainsi nous estimons que le pourcentage des implantations appartenant à des émigrés s'élève à 20 % environ.

Tableau 1 : Les mandats internationaux parvenant aux bureaux de poste de la province de Tiznit en 1991

Agences postables	Mandats		La somme en dirhams	La moyenne dh/mandat
Tiznit (toute la ville)	33.583	43,3	87.173.630,02	2595,7
Anzi	8.876	11,4	22.809.072,34	2569,7
N'Tighert	6626	8,5	15.381.260,65	2345,0
Lakhssass	5599	7,2	14.094.640,33	2517,3
Aglo	3807	5,0	9.154.216,69	2404,5
Arbât Sahal	3389	4,4	7.112.404,73	2098,6
Aït R'kha	1933	2,5	5.664.431,50	2930,3
Had Thala	1875	2,4	4.861.027,62	2592,5
Arbät Rasmouka	1864	2,4	4.864.967,19	2610,0
Bounaäman	1855	2,4	4.161.902,47	2243,6
Tafraout	3653	4,7	4.580.948,88	1254,0
Tigmi	1420	1,8	4.099.971,74	2887,3
Mirleft	1737	2,2	4.013.754,99	2310,7
Tyoughza	697	0,9	1.706.472,10	2448,3
Asbouya	499	0,7	711.990.82	1426,8
T.Amalou	183	0,2	608.041,14	3322,6
TOTAL	**77.596**	**100%**	**199.915.021,25**	**2576,5**

Source : Délégation des P.T.T.

D'aprés le tableau ci-dessus la somme transferée en 1991 est de l'ordre de 200 millions de dirhams ; somme importante certes, mais qui ne représenterait qu'une partie du total transferé par la communaute de Tiznit résidant à l'étranger. Selon les autorités locales cette somme ne représente que 30% des transferts des émigrés qui seraient de l'ordre de 600 à 700 millions de dirhams. Ces chiffres mettent bien en évidence le rôle considérable que joue les autres moyens de transfert de l'épargne des R.M.E.

2. Les investissements des émigrés[2] dans le secteur tertiaire : une opération en accroissement rapide :

Parrallèlement à l'accroissement de sa population, qui est passée de 11.391 hts en 1971 à 29.341 hts en 1991, la ville de Tiznit a vu le nombre de ses établissements (commerce, service et artisanat) multiplié par 2,2 pendant la même période, passant de 847 à 1881 implantations. Signalons que c'est à partir de 1986, que s'est accelérée l'opération d'ouverture des établissements pour atteindre une moyenne de 100 nouvelle implantations par an.

Parmi les facteurs qui ont suxité cette augmentation rapide, se trouve les retombées de l'émigration qui se manifestent sous plusieurs formes :

— l'augmentation de demande des produits et des services offerts par la ville, essentiellement pendant les vacances d'été qui coicident avec le retour des émi-

2.Nous désignons ici par émigré aussi bien ceux qui exercent toujours à l'étranger que les émigrés qui ont retourné définitivement au pays.

Transferts monétaires de l'emigration internationale et activités économiques dans la ville de Tiznit

Ahmed BELKADI

Faculté des Lettres
et des Sciences Humaines - AGADIR

Située dans une des plus importantes et anciennes régions d'émigration marocaine vers l'étranger [1] (Souss et Anti-Atlas Occidental), la province de Tiznit comptait en 1985, selon les autorités locales, 12600 émigrants à l'étranger, dont 96% sont d'origine rurale. Ceux-ci maintiènnent des liens importants avec leur lieu d'origine. Ces liens se manifestent essentiellement par des transferts monétaires à la ville de Tiznit en tant que cité la plus importante au niveau local. Aprés satisfaction des besoins alimentaires et sociaux de la famille de l'émigré, les sommes perçues sont en partie investies dans le bâtiment ou encore dans le secteur tertiaire.

Cette approche essayera de soulever les conséquences des transferts monétaires des R.M.E. (Résidants Marocains à l'étranger) sur le commerce, les services et l'artisanat dans la ville de Tiznit. Elle tentera ainsi de préciser la nature et le taux de participation des R.M.E. dans ces secteurs. Elle relatera également les différents branches d'activité qui préocupent les émigrés, et enfin le devenir du secteur tertiaire dans la ville à la lumière de l'investissement assez rapide depuis quelques années.

Mais avant tout cela, voyons dans un premier point l'importance des transferts monétaires que reçoit la ville et sa province.

1. Les transferts monétaires des R.M.E. : des sommes importantes mais difficile à cerner.

Du fait de la diversité des voies de transfert (postes, banques, chauffeurs des autocars, membres de la famille, amis, l'émigré lui-même ...) qu'utilise les R.M.E. pour faire parvenir leurs épargnes au «pays», il est difficile d'avoir une idée précise sur l'importance de la masse monétaire transferée à partir des pays d'acceuil, surtout que cela parvient sous plusieurs formes : argent en liquide, voitures, cadeaux, équipement domestique, habillement, bicyclettes, motocycles pièces de rechanrge ...

A titre d'exemple, nous présentons ici les sommes qui parviennent par la voie postale, l'un des plus importants moyens de transfert dont les données sont relativement faibles.

1.A la fin des années soixante et au début des années soixante dix, période de forte émigration, la région de Tiznit comptait entre 60 et 80 émigrants / 1000 habitants.

محور الثقافة

تدريس النحو بالمتن ومشتقاته في مدارس ومؤسسات العلم والتعليم بتزنيت وباديتها

أحمد العبود
باحث - تزنيت

يستهدف هذا العرض إبراز وتحليل المعطيات التربوية بخلفياتها العلمية والثقافية والحضارية، والتي يتأسس عليها التدريس بالمتن التحويلي ومشتقاته في سيرورته الزمنية لذلك فإن كان البحث يتخذ مجتمع تزنيت وباديتها، إلا أن طبيعة تلك المعطيات وخلفياتها تجعل المعلومات الميدانية لا تخص تزنيت وباديتها وإنما يتبين ارتباطها المصيري والثقافي والحضاري بالوطن والأمة العربية والاسلامية، وتكون ما يرتبط بتزنيت وباديتها بالذات يتعلق ببعض المعطيات المنبثة والضرورية، وبالعلامات والاستنتاجات التي يمكن التوصل إليها والمرتبطة بالأخص بمستقبل دور المنطقة هذه في تطوير هذا النمط من التدريس.

وعلى ضوء هذا تشتمل نقط التصميم الأولي للعرض على قضايا وأحداث حيث سيتم التطرق إلى القضايا والوضعية العامة لهذا النوع من التدريس في مؤسسات التعليم الأصيل بهذه المنطقة ومساهمة كراسي العلم في هذا الاطار مع الانتهاء إلى مجموعة من الأسئلة والخلاصات المخصبة لبحث نفس الوضعية والقضايا في المدارس العلمية العتيقة مع التركيز على نوعية المتون ومشتقاتها المعتمدة ووضعية التدريس وأساليبه، وسيتم الانتهاء في الأخير إلى مقارنات تحد نوعية التفاعلات الغائمة والمطلوبة بين هذه المدارس والمؤسسات المختلفة، مع التطرق إلى الدور الذي قامت به جمعية علماء سوس وفرعها الكائن بالمدينة على أننا سنستخلص استنتاجات ومقترحات تستهدف عدم هدم الطاقات التي يتيحها هذا النوع من التدريس مع آفاق تطويره.

أولا : القضايا والوضعية العامة لهذا النوع من التدريس في مؤسسات التعليم الأصيل ومساهمة كراسي العلم، في هذا الاطار.

يتعلق الأمر بثانوية الحسن الثاني للتعليم الأصيل التي تجمع بين التاريخ من التعليم الأساسي والتعليم الثانوي وبرافدها الرسمي بمدرسة العين الزرقاء للطور الأول من التعليم فتعقد بمسجد السنة في نفس المدينة.

1. في الطور الأول من التعليم الأساسي الأصيل :

أصبح هذا التعليم يتكون من أربع سنوات، وبرامجها توافق برامج السنوات الأربع الأخيرة من نفس الطور في التعليم الأساسي العام بالنظر إلى أن التلاميذ الذين يقبلون فيه لهم مبادئ في القراءة والكتابة مع حفظ القرآن كلا أو بعضا ... ومع قلة الوافدين أصبح يتساهل في هذه الشروط.

ونظرا لاعتماد نفس برامج وكتب التعليم العام إلا أن منهاج النحو والصرف لايمت بأية صلة إلى التدريس بالمتن النحوي ومشتقاته.

من جهة أخرى يلاحظ أن طلبة هذا التعليم هم الذين يشكلون معظم حلقة الكراسي بمسجد السنة حيث يعتمد التدريس بالمتن ومن العلوم أن شروط مباراة الالتحاق بالدراسة الابتدائية التي تجري على نظام هذه الكراسي والمتكونة من ثلاث سنوات، يوجد ضمنها استظهار القرآن وحفظ المتون العلمية وعدم تجاوز المرشح عشرين سنة [1] ويدرسن النحو بمتن الاجرومية وبشرح الأزهري والصرف بمتن الرنجاني بشرح السعد.

هذا وتعتبر تزنيت من المدن الأولي التي حظيت بهذه الكراسي ابتداء من يناير 1987 بعد فاس ومراكش وتطوان ومكناس، وتليها تارودانت.

والملاحظات التي يمكن أن تسجل على ضوء المقارنة بين نظام الكراسي العلمية والطور الأول من التعليم الأساسي الاصيل يوجد من بينها :

1. الكراسي تابعت دور المكمل والداعم، بألتالي فالتلاميذ يتعلمون على نمطين متغايرين تمام التغاير من تعليم أصيل جديد إلى تعليم أصيل عبر عنه وزير الأوقاف بأنه كان «عندنا في الجامع وليس في الجامعة في جامع القرويين وليس في جامعة القرويين، ونحن نقوم بإحياء التدريس والدراسة في جامع القرويين، وليس بخلق تعليم لأن التعليم له أهله والمسؤولون عنه» [2].

1. الملف الكامل لاحياء الدراسة في إطار الكراسي العلمية ـ عدد 272 دعوة الحق ـ 1988 ص. 8.
2. كلية وزير الأوقاف نفسه. ص 14.

ولا أدري مضاعفات هذا التغاير لأن الأمر نحتاج إلى فحص ميداني أكثر.

2. لو كان هناك طلبة قارون في نظام الكراسي ولا ينتمون إلى المؤسسة الابتدائية الأصيلة يتساءل عن إمكان التحاقهم بثانوية الحسن الثاني للتعليم الأصيل بالمدينة، هذا على المستوى التشريعي.

3. ومهما وضعت الملاحظات فإنه لا يجب ان يغيب عنا ان الكراسي العلمية تشكل «في نفس الوقت جامعة شعبية مفتوحة ينتفع بها طلبة أصليات وجمهور المثقفين وجميع رواد المسجد من العمال والصناع والحرفيين وجميع من له رغبة في النفقة في الدين» [3].

4. في الطور الثاني من التعليم الأساسي الأصيل يتميز بأن معظم الوافدين عليه من الذين لفظهم التعليم الأساسي العام والأقسام تكاد تكون خاوية بالنظر إلى قلة التلاميذ، وضعف المستوى باد ومعلوم أن هذا التعليم يخضع لنفس برامج التعليم العام، بالتالي فلا مجال للتدريس بالمتن، كما أنه لا تتحقق السنة المطلوبة منه في التعليمين معا، ما لأولى والاحدى في التعليم الأصيل، إذ ورد في المذكرة الوزارية 91/164 ان الغاية من إدراج أبيات الألفية عقب كل درس في كتب القواعد هي : «تيسير استرجاع القواعد خاصة وأن الكلام الموزون هو اسهل حفظا من الكلام المنثور، ولهذا يشجع المتعلمون على حفظها وتداولها.

3. في التعليم الثانوي الأصيل :

هنا سيكون توسع في دراسة ظاهرة المتن النحوي بخلفياتها المتنوعة لاعتبارات عديدة أهمها :

1. تفرد هذا التعليم بتدريس النحو واعتماده على شرح المتن في السنتين الأولى والثانية من الشعبة الأدبية الشرعية على مدى ثلاث ساعات إحداها للتطبيقات.

---

3. افتتاح الكراسي العلمية بمسجد جامع السنة بالرباط ـ 287آ دعوة الحق 1992. ص 164.

2 : كما أن هذا التوسع سيغني كثيرا عن التوغل في المعطيات الميدانية التفصيلية الخاصة بالمدارس العلمية العتيقة كما سيأتي بيانه.

3. عدم وجود منهاج محدد بالتالي يكون أبرز ما يعتمد هو دراسة المصنفات المعتمدة في التوجيهات وتنتمي إلى متون وشروح القرنين السابع والثامن للهجرة.

يضاف إلى هذا أنني لا أزال أؤطنه في هذا التعليم مع فتح ملف النحو منذ مدة.

وهكذا فسأتناول جانبين أساسيين، جانب يتعلق بتحليل المصنفات المعتمدة وهي شرح ابن عقيل وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك وتهذيب التوضح وكلها على الألفية، وذلك من أجل استخلاص الخلاصات والخلفيات، أما الجانب الآخر فهو ميداني.

أ ـ تحديد مواصفات درس النحو من خلال المصنفات المعتمدة يضيق الوقت لعرض مواصفات متن الألفية وتلك المصنفات المعتمدة بكاملها لذلك نمضي إلى استخلاص مواصفات درس النحو بالتركيز على شرح ابن عقيل مع استخلاص ما يمكن استخلاصه.

فقد تبين أن هذه المصنفات كلها ألفت لأغراض تعليمية، فزيادة على ما أضافه شرح ابن عقيل من التبسيط والتوضيح والتسهيل والتسلسل فقد أضاف :

1. الحدود والمفاهيم والدقة في وضعها وتركيبها، وهذا ما لم يحن به متن الألفية.

2. الاكثار من التداهر والأمثلة، بالتالي أصبح الكتاب كتاب أدب وشعر وقراءات قرآنية وحديث، وكل ذلك في إطار ما يندرج في الشواهد، مما يشكل منها متميزا في النحو، واتجاها معينا في اللغة والأدب وعلوم القرآن والحديث. لهذا لا ينظر إلى ابن عقيل على أنه مجرد شارح، وإنما هو عالم يتمتع بشروط الاجتهاد في النحو، والتي توضح أيضا أن ابن مالك ليس مجتهد مسائل تحمي النحو، بل هو صاحب منهج ومدرسة، لهذا استطاع الشارح العالم ان يبسط الخلاف النحوي ويدرجه على قدر حاجة المتعلمين.

3. من ثم فقد نهرت شروح معينة تستهدف شرح هذه الشواهد أهمها شرح خزانه الأدب لعبد القادر البغدادي شرح فيه شواهد الكافية [4]، كما شرح في كتاب آخر أبيات المغني لابن هشام. وهناك شرح يهم متن الألفية لمحمود العنتابي العيني (ـ 855 هـ) سماه : المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية»، ومن ضمنها شرح ابن عقيل، واختصره في فرائد القلائد» [5] كما شرح الجرجاوي شواهد ابن عقيل في كتاب سماه» فتح الجليل بشرح شواهد ابن عقيل» [6] ومع ذلك فإن شرح العنتابي وشرح الجرجاوي لم أو لم يتداولا كما هو الشأن بالنسبة لشرح البغدادي، وهذه عقبة في استثمار شرح شواهد ابن عقيل خلال درس النحو في قسم التعليم الأصيل حاليا.

هكذا لتتضح معالم المتن النحوي وكابني علي لمساعدة المصنفات السابقة وذلك في مناخه الطبيعي مع الابتعاد عن الاسقاط والتجوز والشرح فعلى عكس ما يذكر من أن المتن النحوي المتأخر علامة الجمود والعقم فقد تبين :

1. أنه لم يفصل بين النحو والعربية، إذا إن المصطلح الأخير هو المستعمل للدلالة على النحو.

2. وهذا ما يتضح من أن ابن مالك واقطاب شراح نظمه علماء مجتهدون اجتهدوا اجتهادا قائما على نهج إرساء دعائم ابن مالك إذ انه يضع الاستشهاد بكلام العرب في الرتبة الرابعة بعد القرآن والقراءات والحديث [7].

وعلى هذا المنهج بني المجمع اللغوي العربي قراره بالاستشهاد بالحديث الشريف [8].

كما دافع عباس حسن عن استشهاد ابن مالك بالشاذ من القراءات [9].

---

4. المقصود شواهد أهم شرح الكافية وهو لرضي الدين الاستربادي.

5. يعقوب : نصوص في النحو العربي : ـ 12 381

6. دفاع عن ظاهرة المتون وما بني عليها : ـ مجلة الدارة ـ ص 147.

7. عبد العال سالم مكرم ـ المدرسة النحوية من مصر والشام ـ ص 424.

8. نفسه ـ ص 241.

9. اللغة والنحو بين القديم والحديث ـ ص. 108.

3. ولقد استفيد حديثا من الروح التعلمية التي طبعت خلاصة ابن مالك خاصة التبويب الذي اختاره.

4. كان الحفظ يتوجه أساسا إلى الأدب واللغة والقراءات والحديث، وهذا في بدايات المتن النحوي، وكان كتاب سيبويه يحفظ ويروى بكامله لأنه يتضمن الكثير والكثير من الشواهد فهو كتاب الشعر والأدب. وفي عهد المتن المتأخر توجه الحفظ أولا إلى المتن المنظوم خاصة وهو لا يتوفر على الشواهد، من يتدارك ذلك بحفظها من خلال الشروح، زيادة على ما يحفظ من كلام العرب وغريب اللغة والقراءات في بقية المواد التعليمية، وهذا ما جعل ابن خلدون ينقد هذه الظاهرة [10].

لكن ذلك يجب أن يفسر في ضوء ارتباط التعليم بالشيخ إذ إن الأخذ من الكتاب مباشرة أسلوب غير وارد قديما في جميع الفترات. وهذا الارتباط هو الذي وجه الحفظ وجهات إيجابية ابتكارية عند العديد من الشيوخ مثل ابن عرفة (ـ 903 هـ) الذي امتدح طريقته ابن خلدون، [11] وطورها تلميذه القاضي ابن عبد السلام نشرها في المغرب كله، وتبناها محمد بن ناصر (ـ 1085 هـ) وتلميذه أبو علي الحسن اليوسي (ـ 1102 هـ). [12] وتمظهرت في مشروعي إصلاح الطريقة في جامع القرويين على يد كل من سيدي محمد بن عبد الله والمولى عبد الرحمان بن هشام في القرن الثالث عشر الهجري [13]. وهذا ما يلاحظ لدى سيدي عبد الله بن محمد الجد الأعلى للجشتيميين [14]، وعلى بن عبد الله الألغي (ـ 1347 هـ). [15].

زيادة على خلفية أخرى هي أن الحفظ القبلي لهذا النوع من المتن وليد هاجس الخوف على اندثار التراث وإبادته بفعل الهمجية الابادية سواء من طرف المغول والصليبية في الشرق والغرب الاسلاميين، ومن طرف الاستعمار والصهيونية اللتين تخلتفان أولا في كيان الحكم العثماني المحتضر، وبهذا انتقل

10. مقدمة ابن خلدون : الصفحات 532، 533، 578، 579، 431، 432.
11. ذكرى مرور ثلاثين قرنا على تأسيس الزيتونة حد المجلة الاسلامية ـ عدد 8 ـ 1980 ص.16.
12. نفسه ـ ص 14.
13. محمد التازي ـ جامع القرويين. ج 3 ـ ص. : 722 ـ 732.
14. المعسول 10/6.
15. المعسول 327/1.

الدلالة الحضارية للحفظ من إرادة البناء والتأسيس إلى إرادة التعليم وتقريب الثقافة والعلوم إلى الأذهان زيادة على تحصين التراث وحفظه من عوامل الابادة المستشرية.

إذن فالخلفية التربوية التعليمية للحفظ لا تقف عند حدود نتيجة الامتحان، وإنما قصد الاجازة بالتقاليد المعروفة، فيكون هناك تجاوز لمستوى التذكر، تدل على ذلك الخلفية الحضارية المختصرة في البناء في التحصين.

تلك هي أهداف المتن النحوي وما يرتبط به، لها مظهر معرفي، لكن عمقها وجداني، وقد ثم التطرق لها من خلال ذلك إلى إجراءات الطريقة التي تعتمد على مجلس الدرس، وبالأخص على الذي عبر عن السيرافي قائلا : «والطريق إلى كتاب سيبويه الأخفض، وذلك أن سيبويه قرأ الكتاب على أبي الحسن الأخفش» (16).

هذا يؤكد على أهمية التلقي الشفوي واعتمادا على الكتاب، كما يدل على مستويين في الاقراء. ولقد ساهم حفظ القراءات والشعر وكلام العرب في إدراج الشواهد غير كاملة، ما دام وأن المتعلمين تكفيهم الاشارة إلى الشاهد.

ب ـ المجال الميداني النحو، واقع ومتطلبات :

كان لابد من الاشارة إلى الخلفيات السابقة والتي تقرب حقيقة المتن النحوي ووضعه الطبيعي وبالتالي نضمن لأنفسنا اكتشاف روح هذا المتن والتشبع به، وإشراب تلاميذ تناب التعليم الأصيل إذ إنه يستهدف التأصيل في اجلى صوره، بذلك نتجنب الرؤية الاحتقارية المتهاقنة، والرؤية المزكية المجابية المتعافلة، وكل هذا يخدم بناء شخصية التلميذ لا في مستواها المعرفي فقط وبالأساس في مستواها الوجداني، ومن هذه الروح تنبثق الأهداف السابقة في صياغة تتلاءم مع المشهد في التعليم الثانوي الأصيل :

1. العناية بالشواهد واستثمارها لأنها تعنى الايداع والتأصيل وبالتالي لا يجب أن يتوجه الاهتمام أساسا إلى حفظ عبارة المتن النحوي. زيادة على ضرورة بلورة وإدراج قدرة الحفظ في سياق إغناء وتفجير القدرات الأخرى على جميع المسستويات عقليا ووجدانيا ونفسيا.

---

16. أخبار النحويين البصريين ـ ص. 50.

2. أهمية تيسير الخلاف النحوي وربطه بالشاهد وبمسألة الاجتهاد في النحو العربي واستمراريته وبنائه، ويعتنى في هذا الاطار بآرء ابن مالك.

3. أهمية التدريب على الدقة في وضع المفاهيم ووضوحها، وهذا ما تمتاز به عبارة المتن، ويمتاز بالأخص ابن عقيل في الخلاصات التي ينهي بها شروحه للأبيات.

4. وهناك أهداف أخرى تتعلق بأهمية تجاوز الأغلاط والأخطاء التي لازال التلميذ في الثانوي الأصيل يقع فيها، مع التفكير في ربط النحو بتقنية مكونات درس اللغة العربية.

وبعد هذا يطرح هذان السؤالان :

1. هل التوجيهات الرسمية تقبل هذه الأهداف ؟

2. وعمليا هل القناة المستهدفة قادرة على استيعابها، وهل روعي مستواها ؟

يضيق الوقت لعرض المعطيات المختلفة في هذا الاطار، إنما الخلاصة أنه يلاحظ عدم التجانس والتلاؤم من مستوى المراجع المعتمدة إلى تفصيل المقرر، إلى طريقة اقتراح مواضيع البكالوريا، زيادة على عدم وجود منهجية مسطرة رسميا.

وحتى نقترب من الميدان أكثر، ولتقديم ما آل إليه التعليم بهذه المنطقة، يتبين من خلال الزيارات الصيفية والندوات والدروس التجريبية مايلي :

1. تم الإجماع على أن المنهاج الحالي لمادة النحو لا يتلاءم ومستويات التلاميذ المستهدفين حاليا، حيث إن معظمهم من المطرودين من الطور الثاني من التعليم الأساسي العام، يضاف إليهم الوافدون من التعليم الأساسي الأصيل (الطور الثاني)، ولكنهم لم يفدوا أصلا من الطور الأول الأساسي الأصيل.

2. هل من الممكن خلق شروط التواصل الممكن والحقيقي بين المدارس العتيقة والكراسي العلمية من جهة والمنشود مؤسسات التعليم الأصيل من جهة أخرى ؟

3. كيف يمكن تحقيق الاصلاح المنشود في هذه المدارس مما يسهل أيضا مواصلة ومضاعفته في مؤسسات التعليم الأصيل ؟

ثانيا : التدريس بالمتن ومشتقاته في المدارس العلمية العتيقة : مرت هذه المدارس من مرحلة التأثر بالجهل السائد ما قبل الاستعمار [17] إلى مرحلة التأثر بالهيمنة الاستعمارية والظهير البربري [18]. وهذا ما حفز جمعية علماء سوس إلى أن تجعل من مبادئها إحياء العلوم الاسلامية في هذه المدارس، وكان المعهد الإسلامي بتارودانت نقطة انطلاق جديد لهذا الاحياء في عهد الاستقلال.

ولقد تحقق التوال المنشور بين المدارس العتيقة بهذا المعهد وفروعه ومنها فرع تزنيت، كما تحقق أيضا في ثانوية الحسن الثاني للتعليم الأصيل المنشأة فيما بعد بالمدينة، لكن الأمور آلت إلى ما سبق ذكره وانقطعت الصلة أو تكاد بالمدارس العتيقة، وتعطل مسلسل الإصلاح التعليمي المنشود.

وقد سبق لجمعية علماء سوس ولها فرع بالمدينة أن أصدرت منشورات لإدخال التغييرات على الأسلوب الدراسي ومناهجه وبرامجه في هذه المدارس التي كان من برنامجها وتنظيمها تحت إشرافها المباشر. وأرسل هذا المنشور إلى العلماء القائمين على هذه المدارس نقتطف من بنوده ما يلي : [19]

1. على جميع المدرسين أن يغيروا أساليب الدراسة في مدارسهم لأن العصر يتطلب من المدرس أن يربي الفكر تربية مفيدة قبل أن يحشوه بمعلومات جافة ... مع عدم تقليد أساليب الكتب القديمة التي لا تفيد غالبا في تربية عقول التلاميذ.

2. على جميع المدرسين أن يستعملوا السبورة في مدارسهم ...

3. على جميع المدرسين أن يدربوا تلامذتهم على النطق باللغة العربية الفصحى وأن يلقوا دروسهم بهذه اللغة التي هي لغة القرآن.

---

17. عمر المتوكل ـ المعهد الاسلامي بتارودانت ـ ج. 3 ـ ص. 6
18. نفسه ـ ص. 12.
19. نفسه ـ ج. 1 ص. 108.

لقد أحدث هذا المنشور بلبلة في أوساط العلماء المدرسين في تلك المدارس تلقاه بعضهم باشمئزاز، والبعض الآخر بالإعراض عنه، ولم يجب عنه بالقبول كالعالم ابراهيم بن عبد العزيز الأدوزي أستاذ مدرسة سيدي بوعبدلي وهي من بادية تزنيت.

كان هذا في الستينات، ولنتصور ما آلت إليه هذه المدارس مع ردود الفعل هذه ومع فترة نشاط الجمعية وتردي وتيرة التواصل مع مؤسسات التعليم الأصيل !!

لعل هذا يغني عن تقديم المعطيات الميدانية عن واقع التدريس بهذه المدارس إنما لابد من الاشارة إلى نقط أساسية تحتاج إلى التغيير قبل غيرها.

1. استمرار التدريس باللهجة المحلية وضرورة التدريس باللغة العربية.

2. المتون المعتمدة كثيرة كثرة لافتة للانتباه، والشروح المعتمدة أيضا هي شروح غير محققة تصدر في طبعات تجارية مليئة بالأخطاء. وإذا أضيف إلى هذا أن مستوى العلماء القائمين بالتدريس حاليا بإبلاغ مستوى العلماء المتقدمين، فإن التلقي الشفوي واعتمادا على الكتاب لا يحقق تجاوز تلك الأخطاء بشكل المطلوب.

أيضا هناك من يعتمد متونا فيها أخطاء أصلية في الوزن والاعراب واللغة، ومنها متون محلية، كما يشهد على ذلك سيدي صالح بن عبد الله الالغي [20].

هذا وفي الوقت الذي يتم فيه تفقد الكتاتيب القرآنية في جميع قرى وبوادي تزنيت وفي مدنها مع محاولة التجديد، فإن تفتيش المدارس العتيقة يظل بيد جمعية علماء سوس ولا تعرف مسيرته وسيرته.

ثالثا : مقترحات لمعالجة هذا الوضع العلمي التعليمي ومنها :

1. تطوير المنهاج التعليمي رهين أولا بإرادة سكان البادية ومجتمعها في رعايتها والإنفاق عليها، هذه الإرادة هي التي يجب إذكاؤها بالمساهمة المادية

20. سيدي صالح بن عبد الله الالغي ـ الحقائق المكللة والدرة الالغية ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ ط 1 ـ 1993. ص.5.

والمعنوية الرسمية من مؤسسات الدولة. كما أن تبدل عقلية المجتمع البدوي هذا، وتكون جيل آخر له رؤية متطورة في الحفاظ على تلك الارادة، هذا كله كفيل بتطوير تلك المناهج، ودعم أسباب التواصل بين جميع أصناف مراكز ومرافق التربية رسمية وغير رسمية.

2. بالتالي إذا كان التدريس والدراسة بالمتن ومشتقاته يمكن اعتماده في الكراسي العلمية، فذلك لأنها جامعة شعبية مفتوحة أيضا، ولكن بالنسبة للتدريس في المدارس العتيقة يبدو الأمر مخالفا تماما، إذ يحدث الشرخ الذي يسبب في القطيعة بين هذه المدارس والتعليم الأصيل، وقد سبق في العرض أن الروح القديمة التي يجب استلهامها في التدريس بالمتن النحوي، وإذ ذاك يحفظ المتن باقتصاد ويحفظ ويروى الشعر والأدب الجيد والقراءات باعتبارها أداة شحن الابداع وتغذيته.

3. وإن الظرف الحالي سيتوجب التفكير في معالجته حتى لا تظل المدارس العتيقة مهملة ومؤسسات التعليم الأصيل شبه معطلة، سيما وأن الايجاد دعمية مع الجامعة أسندت إليها مهمة مستقبلية تتجلى في جهوية المناهج التعليمية، وهذا ما يتيح ربط التعليم بالمجتمع والتنمية، ويمكن من عدم هدر الإمكانات التعليمية والتربوية التي تتوفر عليها بوادي تزنيت المتجلية في المدارس العتيقة أساسا، فهي كنز من عرق المجتمع القروي الذي جبل على التضحية والسخاء والبذل.

لائحة المصادر والمراجع

ـ ابن خلدون ـ مقدمة ابن خلدون ـ بيروت ـ دار القلم ط.4 1981.

ـ أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي ـ أخبار النحويين البصريين ـ بيروت ـ المطبعة الكاتوليكية 1936.

ـ عبد العال سالم مكرم. المدرسة النحوية في مصر والشام ـ دار الشروق ط1. 1980.

ـ عباس حسن ـ اللغة والنحويين القديم والحديث ـ دار المعارف ط.2 ـ 1981.

ـ عبد الهادي التازي ـ جامع القرويين بيروت ـ دار الكتاب اللبناني ـ ط1 ـ 1973.

ـ محمد المختار السوسي ـ المعسول ـ الدار البيضاء ـ مطبعة النجاح ـ 1961.

ـ المتوكل عمر الساحلي ـ المعهد الاسلامي والمدارس العتيقة بسوس ـ الدار البيضاء ـ دار النشر المغربية ـ 1990

ـ سيدي صالح بن عبد الله الألغبي ـ الحقائق المكللة والدرة الألغية ـ مطبعة النجاح الجديدة ـ ط 1 ـ 1993.

ـ يعقوب بكر ـ نصوص في النحو العربي ـ جرآن ـ بيروت ـ دار النهضة العربية ـ (1970 ـ 1971).

ـ عبد الكريم محمد الأسعد ـ دفاع عن ظاهرة المتون ـ مجلة الدارة ع : « السنة :»

ـ أحمد عبد العزيز المبارك ـ ذكرى مرور ثلاثين قرنا على تأسيس الزيتونة.

ـ المجلة الاسلامية ـ العدد : 08 ـ السنة : 1980.

ـ الملف الكامل لاحياء الدارسة الكراسي العلمية ـ عدد 272 ـ دعوة الحق ـ 1988.

ـ افتتاح الكراسي العلمية بمسجد جامع السنة بالرباط ـ عدد 287 ـ دعوة الحق ـ 1992.

قضايا من ديوان الشاعر أحمد بن زكرياء البعمراني

أحمد أبو القاسم

باحث - تيزنيت

مدخل تمهيدي :

لا يخفى على الباحثين المغاربة أن ما تزخر به المناطق السوسية من كنوز العلم والمعرفة يصعب عده وحصر أماكنه، إذ لا تزال كثير من المناطق السوسية لم يعرف البحث العلمي طريقه إليها بعد، بل وحتى بعض المناطق المبحوثة ما تزال تنتظر الباحثين المتخصصين، لدراسة كنوزها، وتحليلها والتعريف بمجالاتها المتعددة، لأن جل ما نقرأه عن مواطن العلم في سوس، لا يعدو بعض الإشارات، وإن تجاوزها فبعض الإحصاءات، دون إلمام شامل، ودون الكشف عن مزيد من المجهولات، فإذا عرفنا غيضا من فيض عن بعض المناطق كإلغ وأدوز وغيرهما فإن المسكوت عنه أكثر بكثير، كمنطقة أيت بعمران التي لم يكد الناس يعرفون عنها إلاكونها مسرحا لحروب طاحنة ومهدا للملاحم البطولية، والمقاومة، أما كونها مهدا للعلم والعلماء ومصدرا من مصادر العرفان فقليل من يعرف ذلك، والذين حاولوا أن يقدموا دراسات وبحوثا حول أيت بعمران [1] لم يتجاوزوا التاريخ الوصفي، والجغرافية الطبيعية، وبعض الإحصائيات البشرية دون الحديث عن المستوى الفكري ومراكزه وأعلامه، إلا ما كان عابرا يقتضي البحث ذكره بالإشارة ليس إلّا [2].

1. مثل علي المحمدي في بحثه : «السلطة والمجتمع في المغرب»، نموذج أيت بعمران دار توبقال 1989. وكذلك MONTEILV في كتابه :
«Note sur IF NI et Les AIT BAAMRANE. Paris, Ed ; LAROS 1948. (وصف جغرافي للمنطقة)
أما : JUSTINARD (في كتابه :
«Villes et tribus du Maroc». V. VILL (Les Ait BAAMRANE)
فقد نشر قصيدة في السيرة، ومقاطع مختلفة المواضيع، باللهجة المحلية، وترجمها إلى الفرنسية (انظر ص. 6 وما بعدها).

2. باستثناء الأستاذ عمر الساحلي في كتاب المعهد الاسلامي ... «(انظر ج 331/3 وما بعدها). دار النشر المغربية ط. 1 1990 البيضاء.

ولهذه الأسباب ارتأيت أن أمهد لهذا العرض بما عساه أن يلفت نظر الباحثين في المنطقة إلى أن أيت بعمران أبناؤها علماء مبدعون إلى جانب كونهم أبطالا مجاهدين، وأن في المنطقة مراكز النور والإشعاع العلمي والفكري إلى جانب ساحات القتال دفاعا عن الكرامة والشرف والوطن، بل ومن هذه المراكز من أكثر المناطق السوسية اهتماما ببناء المدارس العتيقة، ورعاية لشؤونها،وقياما بتكاليفها، فلكل قبيلة مدرسة على الأقل، ومن المدارس الكبرى المشهورة : مدرسة الجمعة لأيت عبلا، ومدرسة بوكُرفا بأيت إعزا، ومدرسة الخميس بأيت بوبكر [4]، ومدرسة تانكُرفا بأيت السمور ومدرسة أسك بأيت النص، ومدرسة اصبويا، ومدرسة أمستتن، ومدرسة أباينو بأيت علي ... الخ [5].

وقد كانت هذه المدارس تؤدي أدوارها التربوية والعلمية عبر التاريخ، منذ ق 8 هـ على الأقل [6]، فكان يلقن فيها القرآن الكريم بالقراءات، أو تدرس فيها العلوم، وذلك بحسب تخصص عمدائها (المشارطين). ومنها ما يؤدي دورا مزدوجا باستمرار، ولا يشارط فيها إلا من علا كعبه في القراءات بالروايات، ففي منتصف القرن 14 هـ وحده يوجد في المنطقة أربعون متقنا للروايات، ومنهم في أيت عبلا وحدها ثمانية يدرسون بالسبع، بل ومن الأربعين المذكورين من يدرس بالعشر [7]، أما الذين أتقنوا رواية إلى ثلاث فحدث ولا حرج، حتى الآن، إلا أن هذا الاهتمام الكبير بالقراءات لم يحل بين القراء ودراسة العلوم، لأن العادة جرت أن لا يبدأ الطالب في أخذ العلوم حتى يتقن قرأة ورش على الأقل، ولذلك فإن عددا من العلماء قد أتقنوا عدة قراءات ودرسوا بها إلى جانب تدريس العلوم، وبقدر ما يتقن الروائي من العلوم تزداد مكانته، ويكثر تلاميذه، ويتسع رزقه، ولذلك كثر الاهتمام بأخذ العلم، وانتشرت الأسر العلمية في أيت بعمران فتكامل

---

3. انظر ص. 5 من هذا العرض.
4. هكذا ينطق بها محليا على سبيل الابدال، ولا يعرف الأهالي «أيت بوبكر» وإنما «بوبكر» من وضع المترجمين، ويحتمل رد الكلمة إلى أصل : «أبوبكر»، والسوسيون يسمون أبناءهم «بوبكر» بفتح الباء الثانية في مناطق أيت بعمران وبإسكانها في بعض المناطق السوسية الأخرى.
والنسابون يدعون أن أيت بعمران أحفاد يحيى اللمثوني من ابنيه إبراهيم وأبي بكر والله أعلم.
5. عمر الساحلي المرجع السابق ص. 331، ومدارس سوس العتيقة للمختار السوسي ص : 96 مع تقصير كبير.
6. محمد المختار السوسي : رجالات العلم العربي في سوس ص. 13 ط. 1.
7. انظر اللوائح التي أثبتها عمر الساحلي في المرجع السابق ص. 339 ـ 346.

بذلك الجانب المعرفي في المنطقة في شبه التخصصات أحيانا (روائي، عالم ...) وفي شبه تعدد التخصصات في شخص واحد (روائي وعالم في وقت واحد).

وهكذا كانت مدارس أيت بعمران تؤدي أدوارها، منفردة أو مزدوجة فقدمت لهذا الوطن أفواجا متتالية من القراء والعلماء الذين لا نستطيع حصر عددهم نتيجة الاهمال، كما وقع في التراث المغربي على العموم، «وكم في المغرب من فاضل ضاع من قلة اعتنائهم» [8] بالتسجيل والتاريخ، وجمع الآثار ... وقد تعرضت مدارس أيت بعمران، كما هو الأن في المدارس السوسية، إلى عوامل التدهور، أدت بها إلى إيقاف أنشطتها كلا أو بعضا إلى أن انطفأت جذوتها، ولم يبق منها اليوم ما يستحق الذكر. ونذكر من هذه العوامل :

1. بعض الأمراض الفتاكة، وخاصة طاعون 1214 هـ الذي قضى على عشرات من العلماء والقراء والطلبة، وترك المدارس في المغرب قفرا يبابا [9].
2. المجاعات المتكررة نتيجة الجفاف المتواصل، وما زال الناس يتحدثون عن مجاعتي 1295 و 1345 هـ.
3. الاستعمار الذي نهج، بعد سيطرته، سياسية خاصة في المدارس العلمية المغربية، حتى يقضي على الأصالة والدين الاسلامي قدر المستطاع، ففرض لغته وثقافته، وقوانينه ومنهج حياته على الناس [10].

4. ومما زاد الطين بلة وفسادا حمل الناس بعد الاستقلال مباشرة على تسجيل أبنائهم في المدارس الابتدائية ذات النظام العصري الذي تركه

---

8. أورد اليوسي هذه القولة في المحاضرات رواية عن محمد العربي مؤلف مرآة المحاسن. (انظر المحاضرات ج. 174/1 تحقيق وشرح محمد حجي واحمد الشرقاوي إقبال).

9. راجع مذكرات محمد المنوزي في المعسول ج. 251/3، وكذلك رسالة محمد البزاز : «تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين 18 – 19 نشر كلية الآداب الرباط 1992.

10. انظر في المعهد الاسلامي ج. 1 : تقديم محمد الحبيب الفرقاني : «قل للسلطان يمكن أن نفتح للسوسيين ثكنات عسكرية ...» ص. 5 ...، وانظر حركة المدارس الحرة بالمغرب (1919 – 1970) : جون جيمس ديمس، ترجمة السعيد المعتصم ط.1. النجاح ج. البيضاء، وقد خصص الكاتب الفصل الأول لهذه الغاية، ومن المفيد مراجعته.

المستعمر، فاقفلت الكتاتيب والمدارس العلمية، إلا مالا يكاد يعبأ به، بالقياس إلى ما مضى من تقدم وازدهار في هذا المجال [11]، ولو سئلنا عن مظاهر اهتمام أيت بعمران بالعلم كاهتمامهم بالقرآءات لأوجزنا الاجابة فيما يلي :

* كثرة الفتاوي المتعلقة بالنوازل، وتعدد أسماء المفتين فيها.
* تعدد الأسر العلمية المشهورة بالتوارث العلمي، إذ لا تكاد قبيلة تخلو من عدة أسر علمية، يتوارث أبناؤها العلم أبا عن جد [12].
* الخزائن العلمية المتنوعة المبثوثة في القبائل، وهي كلها خزائن خاصة، ولذلك امتدت لها يد الضياع، فنهب بعضها، وشتت الوارثون الأخريات وهذا شيء معتاد في المغرب عبر التاريخ، لا تسلم منه جهة من جهاته.
* الآثار الأدبية، الشعرية والنثرية، التي لو جمعت لسدت ثغرة من ثغرات المكتبة المغربية، قد لا يسدها سواها. ولنكتف من هذا العرض بنتف نموذجية من إبداع الشاعر أحمد بن زكرياء البعمراني، نيابة عن الباقين في انتظار جمع آثارهم ودراستها إن شاء الله إما من قبلنا أو من قبل غيرنا من المهتمين.

الشاعر أحمد بن زكرياء البعمراني :[13] مسقط رأسه زاوية سيدي سليمان «بوتميت» بأيت الخمس، سنة 1335 هـ من أسرة مشهورة بالعلم والصلاح أبا عن جد، وينتهي نسبها الأعلى إلى أسرة علوية نزحت من فكيك إلى بعقيلة، ومن بعقيلة انتقل أحد أجداد الأسرة [14] إلى تادرارت، ولعل سبب الانتقال هو المشارطة ولذلك نسبت تادررات إلى الأسرة فقيل فيها : «تادرارت ند طالب»، وهو ما تعرف به حتى اليوم.

وكان الشاعر تلميذا من تلاميذ مدارس أيت بعمران، فقد أخذ القرآن في مسجد الزاوية، وهو مدرسة قرآنية مشهورة، ثم انتقل إلى مدرسة الجمعة

11.

12. انظر بعضها في سوس العالمة ص 138 ص. 2. البيضاء 1984. ورجالات ص. 174. وقد اعتمدنا أيضا روضة الافنان للاكراري بتحقيق حمدي أنوش (مرقونة)، في مكتبة الأستاذ أحمد بومزكو.

13. في المعسول 241/10 ـ 269 ترجمته بالتفصيل، وقد اعتمدناها إضافة إلى الرواية عن الشاعر مشافهة.

14. الجد الأعلى للأسرة هو محمد بن محمد بن عيسى بن داود. ذكره الحضيكي في مناقبه، ص. 12215 المطبعة العربية البيضاء 1357 هـ، وقد اطلعنا على المخطوط بتحقيق الأستاذ أحمد بومزكو.

العبلاوية البعمرانية، فأخذ عن عميدها قاضي القضاة العلامة محمد بن عبد الله أبلوش العبلاوي [15]، ثم انتقل إلى مدرسة تنالت فأخذ عن أستاذها الحاج الحبيب العلامة الكبير، ومنها انتقل إلى مدرسة إلغ، وفيها إذ ذاك العلامة الشهير المدني ابن علي الألغي، ثم بدا له أن يستفيد من العلامة الحاج مسعود الوفقاوي فانتقل إلى مدرسته إغـلان، ومنها رحل إلى القرويين، فتابع دروسها النظامية وغير النظامية لمدة عامين فأوقفته الحكومة الفرنسية عن الدراسة بطلب من الحكومة الاسبانية، نظرا لنشاطه السياسي ضد الاستعماريين، فرجع إلى بلده، ولزم بيت أهله نحو عامين، فإذا بالحكومة الاسبانية أمرت سكان أيت بعمران باتخاذ الجنسية الاسبانية بدون استثناء، وكان الشاعر من أول الثائرين ضد هذا الأمر الشنيع [16]، والأول من علماء أيت بعمران الذين حرضوا المواطنين على الثورة وقادوهم إلى الكفاح، فاصغى إليه الجميع، وظل قدوة وقائدا، وما كان من إسبانيا إلى أن نفت الشاعر ومن معه من المعارضين الكبار إلى الداخلة، فسجنوا هناك، مع الأعمال الشاقة لمدة سنتين ونصف. وقد أطلق سراحه في غشت 1949، فمنع من مخالطة الناس، وبعد أخذ ورد سمح له بمزاولة التدريس في مدرسة بوكَرفة، فانطلق بجد منقطع النظير ليؤدي رسالته التربوية والعلمية فاجتمع حوله الطلبة، فرأت اسبانيا في ذلك نجاحا وانتصارا له، فاغتاظت واتهمته بالتحريض على الفوضى فسيق من المدرسة إلى السجن بمركز تغزا، ومنع من أي اتصال مدة 35 يوما، ثم أطلق سراحه، وفرضت عليه الاقامة الاجبارية في داره، فهاجر سرا إلى الدار البيضاء، ووجد أحداث 1952 على قدم وساق وأسهم فيها إسهام الوطني المخلص، إذ شارك في العمل الفدائي داخل البيضاء ومنطقة خريبكا، ولكونه من الزعماء الكبار أخذ الفرنسيون في البحث عنه، دون أن يعرفوا شخصه، فاعتقلوا مكانه ابن عمه محمد بن الحسن، فغادر البيضاء مرغما إلى أيت بعمران، فألقى عصاه في مدرسة الخميس، التي فتح بابها على مصراعيه للاجئين المقاومين الذين كانوا يسربون الأسلحة من المستعمرات الاسبانية إلى الدار البيضاء.

---

15. ترجمته في المعسول 230/10.
16. أصل أوارالصراع مع الاستعمار في سيدي افني وأيت بعمران : الحسين وكاك ص. 35 وما بعدها دار الطباعة الحديثة البيضاء بدون تاريخ وانظر كذلك المعهد الاسلامي ج. 152/1 وما بعدها بما اعتمدنا مذكرات «أباكريم» مولاي الحنفي، التي سجلها في منفاه بالداخلة ومعه الشاعر، ورويناه عنه كثيرا من أسرار المقاومة البعمرانية منذ 1947 ـ 1957 مشافهة.

ولما رجع محمد الخامس من منفاه استعد البعمرانيون للاحتفال، فمنعتهم اسبانيا، واعتقلت 17 زعيما على رأسهم الشاعر، فنفوا إلى الداخلة لمدة خمسة أشهر وخمسة أيام : من 18 نونبر 1955 إلى 17 أبريل 1956م، وبعد أن فقدت اسبانيا آمالها في الاستمرار أطلقت سراحهم وابرموا معها اتفاقا يتضمن :

ـ رفع الحدود المصطنعة، وإلغاء الضرائب والمكوس، وترك شئون البلاد في أيدي البعمرانيين، وكان الشاعر إذ ذاك هو الناطق باسم البعمرانيين ورئيس حزب الاستقلال في المنطقة، وفي ماي 1956 ترأس الوفد البعمراني إلى القصر الملكي بالرباط لتهنئة المغفور له محمد الخامس بالاستقلال وتجديد بيعة البعمرانيين، وكان الشاعر هو المتكلم باسم الوفد أمام الملك، وكانت اسبانيا قدوعدت ممثلي أيت بعمران بتسليم زمام أمور المنطقة للشاعر إذا أذنت حكومة الرباط بذلك [17]، ولكن الحكومة المغربية تقاعست وأهملت الأمور، فتراجع الاسبان عن قرارهم، وساسوا أيت بعمران من جديد سياسة استعمارية، فضايقت السلطة الاسبانية دوائر حزب الاستقلال، وأغلقتها، فثار البعمرانيون من جديد، واعتقل زعماء الحركة الوطنية، وزعيمهم الشاعر، فنفي مع المعتقلين إلى جزر الخالدات، وبعد مفاوضات اسبانيا مع الرباط أطلق سراح المعتقلين بعد مائة يوم من الاعتقال والنفي، فخيرتهم اسبانيا بين الخضوع لاستعمارها أو النفي خارج أيت بعمران، فاختار الشاعر الخروج من أيت بعمران إلى المناطق المحررة، وإثر ذلك عقد البعمرانيون العزم على الكفاح المسلح بمساعدة جيش التحرير، فقامت انتفاضة 24 نونبر 1957م [17]. وفي فبراير 1957 كانت جمعية علماء سوس قد استدعت الشاعر للمشاركة في امتحان العالمية، فاعتذر بإنشغاله بشئون أيت بعمران، ثم استدعته إدارة المعهد الاسلامي باسم جمعية علماء سوس، ليدرس في المعهد، وكان ذلك 10 أكتوبر 1957. وكان يؤدي واجبه التربوي والعلمي بالمعهد إلى جانب كونه مستشارا في جمعية علماء سوس، وهو من أوائل مؤسسيها، ومن مؤسسي المعهد الاسلامي والمدافعين

17. من المفيد في هذا الموضوع ما كتبه محمد الوديع الأسفي : «منطقة أيت بعمران ملحمة البطولة». دار النشر البيضاء 1982، وهناك قصيدة مهمة باللهجة المحلية لـ «أباكريم الحنفي» وقد عنينا بترجمتها إلى اللغة العربية وعنوانها «تاديوت» أي الانتفاضة.

عنه، وقد استمر فيه مؤديا رسالة العالم إلى أن تقاعد 1987 بعد أن ربى وعلم مآت من طلاب العلم والمعرفة، تقلد جلهم الآن وظائف كبرى، ومسؤوليات جسيمة.

في المجال الإبداعي : إن دراسة الأدب وممارسته في المدارس العتيقة هواية، فقليلا ما تجد عالما يحسن السباحة في بحر الابداع، على الرغم من أن بعض العلماء يعتبرون الاشتغال بالأدب من الكماليات، أو ثقافة مكملة لثقافة العالم التي يجب أن تتسع دائرتها في الفقهيات (18)، إلا أن بعض المدارس السوسية تعتبر دراسة الأدب والابداع فيه من الضروريات التي لا غنى عنها للمدرس والتلميذ، فكانت المدرستان التنكرتية، والالغية بصفة أخص توليان هذا الجانب اهتماما أكبر، وتدرسان فنونا أدبية متنوعة، وتروضان التلاميذ على الابداع في الشعر، والنثر، وتفتحان المجال للتنافس والتباري بين التلاميذ، وتربيان الحس الذوقي والملكة النقدية في النابغين منهم، وتأخذان بأيدي الضعفاء بالتحريض والتشجيع، بل والتأنيب إذا اقتضى الأمر.

وأكاد أجزم أن سبب اهتمام بعض المدارس السوسية بالأدب يرجع إلى قربها من المناطق الصحراوية المغربية، وإلى احتكاك أساتذتها وتلاميذها بعلماء الصحراء، التي ظهرت فيها النهضة الأدبية مبكرا، كما قال العلامة عبد الله كنون قدس الله روحه (19).

والشاعر أحمد بن زكرياء من أعلام المدرسة الألغية النبهاء، كرع منها ورضع الأدب، وقد انتقل إليها بعد أن نمت مداركه، ونضجت قريحته، فقد وجده فيها المختار السوسي أيام منفاه، ونوه بمقدرته الابداعية، إذ جرت بينهما محاورات شعرية ونثرية سجل المختار السوسي بعضها في الالغيات، إلا أن الشاعر سرعان ما انخرط في ثورات الشعب المتأججة ضد الاستعمارين، فلم يبق له وقت لممارسة الابداع، بل صرف كل جهوده للمشاركة في تنظيم وتسيير حركات المقاومة المغربية 1947 - 1956.

18. د. عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ص. 200، المعارف الجديدة 1979.
19. النبوغ ص. 275 ج 1. ط.2، دار الكتاب اللبناني 1960، ود.ع.ج. في المرجع السابق ص. 181 أما الأستاذ اليزيد الراضي فقد جمع فأوفى في هذا المجال. انظر بحثه «شعر داود الرسموكي» المبحث الثاني من الفصل الثاني ص. 35 منشورات جمعية إيليغ. أكادير 1992، والجدير بالاشارة أن هذا البحث هو أول بحث جاد في دراسة الأدب السوسي وأول تحقيق علمي مفيد في التراث السوسي الابداعي.

وما أن عانق الشاعر التدريس حتى عاد إلى الابداع مستغلا كل مناسبة وطنية أو دينية أو ثقافية أو اجتماعية أو قومية، ليعبر عن أفكاره وعواطفه ومواقفه من قضايا وطنه ومجتمعه والحياة العامة، فأنتج في ذلك ديوانا متنوع النغمات والموضوعات، تمكنت من جمع ما تيسر منه، فبلغ عدد ما جمعت حتى الآن أزيد من : 3100 بيت موزعة على 104 قصيدة،ولكني على يقين من أن ما ضاع كثير.

وقد اخترت الحديث بالايجاز في هذا العرض عن القضايا التالية :

أولا القضايا الوطنية : [20] استغل الشاعر المناسبات الوطنية للتعبير عن قضايا وطنه وما يرتبط بها من تغيرات، وتطورات، ومن أهم هذه القضايا : الوحدة الترابية، ووضع حد للهيمنة الاستعمارية، وما من قصيدة أنشأها في مناسبة وطنية إلا وألح فيها على الوحدة الوطنية، وذكر فيها ببطولات الشعب المغربي من أجل تحرير وطنه ووحدة ترابه. وقد أنشأ الشاعر في هذا المجال 34 قصيدة موزعة بين المناسبات الوطنية المختلفة، وهذه القصائد تترجم عواطف الشاعر، وتبين عن مواقفه، وتمسكه بوحدة تراب وطنه، ودفاعه عن كرامة الوطن والشعب، وما يقومان [21] به من مقدسات لنأخذ مثلا موقف اسبانيا من الاحتفال بعيد العرش في إفني بعد رجوع محمد الخامس من منفاه،فقد أباحت للاجئين من المستعمرات الفرنسية أن يحتفلوا ومنعت البعمرانيين، ولكن البعمرانيين بزعامة الشاعر وطدوا العزم على الاحتفال رغم أنف الحكومة الاسبانية، وبهذا ذكر الشاعر في إحدى عريشاته قائلا :

في عهود الظلام كنا استطعنا ... فرض عيد الولا على الأعداء
عيد عرش نقيمه كل عام ... رغم أنف أولئك الدخلاء
فترى العرش كله يتحدى ... سلطات العد والبذل الولاء

ويقول في إخلاص الشعب للعرش في تلك الظروف الحرجة :

شعبنا لم يزل يعادي الأعادي ... ويصافي الملوك أهل الصفاء
ويقيم الذكرى لخامس أملا ... ك عظام سلالة العظماء

20. لا نشاطر الرأي من اعتبر الشعر الوطني هو فقط ما يتناول المقاومة والاستقلال، بل هو كل شعر يهتم بقضايا الوطن من أي نوع.
21. يعتمدان عليه في وجودهما باعتباره أساسا.

وسجل تضحيات الشعب المغربي وكفاحه من أجل الاستقلال فيقول :

لا تظنوا العـدو أطلقنـا عفـــــوا بلا محنـــة ولا ضوضاء
قدم النـاس للخـلاص ضحايـا غاليـات وأنفقـوا بسخـــاء
فالسجـون مليئـــة والمنافـــي من هنـا لهنـا الرهـط الفـداء
وكفانـا نفـي المليـك دليـلا قاطعـا في الصمـود والابتـلاء

وسجل تضحيات الشعب المغربي وكفاحه من أجل الاستقلال فيقول :

في مثل هذا اليوم قلنا صراحــة بشجاعــة المغتــاظ للاسبـــان
قوض رحالك حيث جئت فلا تكن متعـــرضا لارادة السكــــان

ويشير إلى الهجوم المسلح قائلا :

لما هجمنـا عليهـم في بكـرة في مثل هذا اليوم منـذ زمـان
تركوا المراكـز هاربيـن إلى الـورا فتحصنـوا بمداخـل الغيـــران

ويقول مذكرا بقضية التجنيس الذي حاولت اسبانيا فرضه على السكان فلم تفلح :

فتراهـم يتآمـرون علـى بنـــي عمـران في سروفـي إعـــلان
يتآمـرون عليهـم كيـلا يكـــو نواخا ضعين لسلطـة السلطـان
لكنهم وجـدوا الجميع مصممـا في فرض مغربـة علـى الاسبـان

وتبقى الوحدة الترابية من الهموم التي أثقلت نفس الشاعر، وشغلت باله، وضحى من أجلها بشبابه ووقته وماله، ولذلك ظل ينادي بها، ويلح في الدعوة إليها، محرضا على الجهاد من أجل تحرير بقية الأجزاء المستعمرة فقد قال قبل المسيرة الخضراء مشيرا إلى قضية الصحراء، وسبتة ومليلية، بعد أن تحدث عن ضم إفني إلى الوطن سنة 1969.

وهـذه نوبـة الصحـراء ان بقـيت تلك النفوس التي لم يعرهـا الوهـن
تلك النفوس التي لم ترض يوما سوى بطرد من غصبو الصحراء واستهنوا

ثم يوجه الخطاب إلى الصحراويين المغاربة لينضموا إلى إخوانهم ويتحدوا معهم في الجهاد :

وهـذه فرصة قد سنـحت لكـم للانضمـام فمـدوا الأيـدي يافطـن
هذي يد مدهـا شعب وعاهلـه فاغتنمـوا فرصة التحرير لا تهنـوا

وفي قصيدة أخرى يخاطب جلالة الملك في شأن سبتة ومليلية، قائلا، بعد الحديث عن رغبة الاستعمار في البقاء في صحرائنا للاستفادة من خيراتها ومنافذها :

وهـذه سبتـة ترجوكـم علنـا	لتنقذوا أرضها من غاصب هانـا
من غاصب جد في إخفا عروبتها	كيلا تكون عليه اليـوم برهانـا
وهـا مليليـة أيضا تناشدكـم	رب العباد الذي أولاك سلطانـا
لتأخـذوا بيـد أبنائهـا شممـا	وتطردوا عن حماها ذاك الاسبانا
كم ظل يلعب فيها غير مكثرث	بحق سكانها في العيش إخوانـا

ويقول داعيا للجهاد والكفاح :

واليوم لا أمل يبقـى ولا عمـل	سوى الكفاح لطرد الشر إذعانـا
لاسيمـا بعـد أن لاحت الاعبـه	في رفض كل حوار حيـن يلقانـا
سلاحنا الحق والايمـان قائدنـا	إلى الجهاد دفاعا عن قضايانـا

اما خصوم الوحدة الترابية فقد كان لهم الشاعر دائما بالمرصاد، وندد بهم في أكثر من قصيدة، ومن ذلك قوله معرضا بموقف الجزائر :

حار العدى واستجابو المفاوضة	وانخذل الحـاسدون أي خذلان
أضحـى يؤلب عنـا كل مرتـزق	كاننـا لم نكـن قط بصنـوان
ما بالهـم غدروا فور تحررهـم	كأنهـم خلقـوا لغيـر جيـران
ما بال قائدهـم أبـدى نواجـده	لعض صحرائنـا بنابـه الوانـي

ثانيا القضايا القومية : إن الأراضي العربية المحتلة من أهم القضايا القومية التي اتخذها المبدعون محورا من محاور إنتاجاتهم وأبدع فيها كل حسب إحساسه وشعوره ورؤيته، أما الشاعر فاعتبر القضية جزء من القضايا الوطنية باعتبارها قضية عربية إسلامية ذات صلة بالوطن العربي الاسلامي الذي هو كل لا يتجزأ، ولذلك أدرج الشاعر قضايا الشعب الفلسطيني والأراضي العربية المحتلة في كثير من قصائده الوطنية، فيقول مثلا :

كيف يحلو لنا الكلام وبيت الـ	ـقدس يحتلـه بنـو صهيونـا
ففلسطيـن في احتيـاج لمـال	ورجـال يستعذبـون المنونـا

وبعد أن تحدث عن الدعوة إلى الجهاد ضرب مثلا بالشعب الفُطنامي الذي استطاع أن يهزم أميركا القوية، دون أن يقدر عليها إلا بالصبر والكفاح والاستماتة

في الدفاع :

انظروا للفطنام كيف استقلت	بعدما قدمت ضحايا مئينا
ان عزم الشعوب يعصف آما	ل الغزاة ومبتغى الباطشينا

ثم يساوي بين القضية الفلسطينية والقضايا القومية والوطنية قائلا :

فاحتلال اليهود سينا وجولا	ن وأرض الجدود في فلسطينا
كاحتلال الصحراء من طرف الاسبا	ن ظلم يضايق الآمنينا

إلى أن يقول :

كلنا للكفاح شيخا وكهلا	وشبابا لنسترد العيونا
نحن لا ننشد السلام بذل	لعدو يستعمر المسلمينا
كل من ينشد السلام بعطف	من عدو يبوء بالذل حينا

وتبقى حرب الخليج من القضايا التي هزت العالم وحطمت المسلمين، وشتت شبه وحدة العالم العربي، واتخذت منها مواقف متناقضة، فسال فيها مداد كثير بابلغات شتى وإبداعات متنوعة، ولم يفت الشاعر أن يصرخ صرخة إبداعية مدوية تمثلت في ثلاث قصائد، كلها تهديد ووعيد إلى أمريكا وحلفائها، وتشجيع وتآزر للعراق، وإعجاب بصمودها، وبلائها - على الأقل في زعزعة اسرائيل لأول مرة في التاريخ. فجاءت هذه القصائد ملاحم قومية تستحق التنوية والاعجاب، سواء من حيث صدق عواطفها، أو من حيث أبعادها التاريخية والسياسية والقومية، أو من حيث مظاهر الابداع فيها، بل وحتى من حيث كميتها، إذ بلغت إحداها 139 بيتا، ومجموعها 235 بيتا ولم أعلم، حسب ما اطلعت عليه من كتابات من كتب في حرب الخليج هذا العدد، كما لم توجد قصيدة في حرب الخليج اعتنى بها كما اعتني بصدامية الشاعر ذات العدد الضخم (139 بيتا) : فقد أنجز فيها الطالب أحمد الراغبي بحثا تحت إشراف الأستاذ الكبير اليزيد الراضي، كما عني بشرحها عميد المدرسة الوكاكية محمد المكي بالبوجرفاوي، وكما ذكر لنا الشاعر أن الحكومة العراقية نشرت في إحدى المجلات العراقية إعلانا، عبارة عن استدعاء الشاعر لقضاء شهر في بغداد على نفقة الحكومة، ولكنه مع الأسف غير قادر على تحمل مشقة السفر نظرا لظروفه الصحية، وقد نشر القصيدة في الأوساط الثقافية بين أصدقاء الشاعر، ومعارفه الذين استنسخوها، من غير حاجة إلى جريدة أو مجلة ...

وقد قامت حرب الخليج في نظر الشاعر على دعائم ثلاث : أولها : خذلان العرب. وثانيها : الحقد الصليبي، وتسعى أمريكا وحلفائها من الغرب استعمار الشرق الأوسط خاصة.

وثالثها تحطيم العالم الاسلامي بكسر شوكة العراق ودك قوتها باعتبارها أكبر قوة في العالم الاسلامي تهدد الصهاينة وحلفاءها [22]. وفيما يلي إيجاز القول عن الدعامة الأولى :

يا قادة العرب هل تدرون ما كسبت ... أيديكم باحتكام الغرب في الدار
هو الخراب الذي لا ينمحي أبدا ... ما دمتم في حمى رعاة أبقار
أذ للتم شعبكم بكل ناقصة ... من المناكر والفحشاء والزاري
فالكل في غفلة وليس يجمعهم ... إلا اكتساب لدرهم ودينار
في كل ناحية رقص وعربدة ... وسمر يجلب الانسان «للبار»

ويقول في القصيدة الثانية مندا بهذا الخذلان وعواقبه الوخيمة :

قل للذين تخاذلوا وتعاطفوا ... وتعاونوا لمصالح الأعداء
كيف السبيل إذا تمكنت الفرا ... عين الطغاة لأمرها بجلاء

إلى أن يقول :

لولا تخاذلكم لتم تحول ... في كل مشكلة لكم بفناء

ويقول في القصيدة الثالثة موبخا القادة العرب على موالاتهم للعدو :

أمة العرب مالكم كلما قا ... م زعيم منكم يعوق المواتي
دون اتمام قصده من بناء ... ووقوف أمام كيد العداة

إلى أن يقول متحسرا :

يالها من مصائب ضاع فيها ... كل شعب يعيش للرغبات
رغبات البطون والفرج حتى ... يفقد العزفي لظى الشهوات

ثالثا القضايا الاجتماعية : وأقصد بالقضايا الاجتماعية، بعض هموم المجتمع ومشاكله التي تثير شعور المبدعين، ويعبرون عنها نيابة عن المجتمع،

---

22. انظر هذه الدعائم في : «انحارب الصليبية الثامنة» بأجزائه الثلاثة لفريق سعد الدين الشادلي، والفصل الأول والثاني من كتاب، د. المهدي المنجرة : «الحرب الحضارية الأولى مستقبل الماضي وماضي المستقبل».

قصد الاصلاح والتوعية، وهذه القضايا مبثوثة في قصائد الشاعر، ويعنى فيها كثيرا بقضايا الشباب، ويخصها بالذكر ونقتصر منها على ظاهرتين أولاهما : ظاهرة التقليد عند الشباب، ونمثل لها بما ورد في قصيدة له طويلة بعنوان : «اعرف بلادك» تحدث فيها عن مدينة تارودانت، ومآثرها الحضاريةملتفتا إلى الشباب قائلا بعد أن حمل المدارس مسئولية التربية المثلى :

من ذاك ظاهرة التشبيه بين أبي ... زيد وعائشة في الشكل والصور
تلك المظاهر في أبنائنا ظهـــرت ... اما البنات فلا تسل عن الخبـــر

فقال مشيرا إلى الشبان :

فبعضهـم أطلقـوا شعورهـــم فهـــم ... مثل الخنافس في وصف وفي نظر
كانــه أم كلثـــوم إذا ظهـــرت ... في مسرح الرقص أو كضارب الكنبر
أو انـــه قام بالتمثيـــل حرفتـــه ... تغيير أشكالـه في ليلــة السمـــر
اليس هذا عجيبا ان ترى ذكـــرا ... مخنثا يستبيـــح صبغــة الشعـــر

وأشار إلى الفتيات قائلا :

وبعضهـــن أساءت في تصرفهـــا ... فلبست لبسة الغلمـــان كالذكـــر
وقـد ترى بعضهـن أطلقت شعـــرا ... كأنها في الـورى عروسة المطـــر

ويؤكد أن هذه الظاهرة تفشت نتيجة التقليد الأعمى للممثلين، والممثلات، والمغنين والمغنيات، ودعاة الاشهار وعارضي الأزياء ...

ما الفرق بيـــن فلان وفلانـــة إن ... استويـا في لبـاس كل مشتهـــر

وثانيهما : ظاهرة الجفاف، والجفاف عنده ليس هو الجفاف الطبيعي الذي يسبب في القحط والجذب في انتظار الأمطار، ولكنه جفاف من نوع آخر، كما قال الشاعر في قصيدة بعنوان : «الجفاف أنواع» :

كل صعب يهون غير جفاف الـــ ... ـــجيب من كل درهـــم رنـــان
فجفـــاف الجيـــوب أصعب حالا ... من جفـــاف الأقطـــار والبلـــدان
فغـــلاء الأسعـــار من كل نوع ... زاد في الطيـــن بلـــة الحرمـــان
فاسألـــوا الله أن يزيـــد الحـــوا ... لات لتكفـــي مصارف السرطـــان

رابعا القضايا الثقافية : اهتم الشاعر بالقضايا الثقافية عموما، والأدبية منها خصوصا، فكان يحضر في الندوات والمؤتمرات، ذات الصبغة الثقافية،

وكانت داره،وما زالت،ملتقى الأدباء والعلماء، والتلاميذ، ولا ينفك يشارك في المناقشة والحوار والجدال، والنقد ...

وكان لذلك كله انعكاس واضح على شعره، ولنقتصر على قضيتين :

إحداهما تتعلق بمآل الثقافة العربية الاسلامية، نأخذها من قصيدة طويلة (62 بيتا) أنشدها في أسبوع ثقافي نظمته ثانوية محمد الخامس بتارودانت، إذ يقول بعد أن أشار إلى ضرورة تعلم اللغات الأجنبية، والاقبال على العلوم التقنية :

فاللغـــات كثيـــرة وجميـــل	بالفتـــى درسهـــا بدون نفـــور
لغـــــة الضاد أولا فإذا ما	اتقنوهـــا يهـــون هضم العسيـــر
وبهـــا نزل الكتـــاب وفيهـــا	من علـوم الاكـــوان غيـــر يسيـــر
لو رجعنـــا لهـــا بجـــد لنلنـــا	عزة في اقتصادنـــا المقهـــور
عزة ومناعـــــة في كثيـــــر	من مناحـــي الجمـــود والتقصيـــر
إنهـــا نكبـــة أصابت علومـــا	وفنونـــا قد سطـــرت من دهـــور

إلى أن قـــال :

لغة الضاد لا أرى لكـــم عنهـــا	غنـــاء يسركـــم في المصيـــر
هي أم اللغـــات رغـــم التحـــدي	والعـــزوف من جاهـــل مبهـــور
بهرتـــه لغـــات قوم أحاطـــو	ها بمـــا تستحـــق من توقيـــر
مالنـــا نحـــن لا نطـــور ماكـــا	ن جديـــرا بحاجـــة التطويـــر

وفي القصيدة رد على من يصم اللغة العربية بالنقصان والقصور، ويتهمها بالعجز عن ملاءمة العصر، يقول الشاعر :

انهـــا أُمنـــا ومـــن عاق أُمـــاً	فحـــري به حريـــق السعيـــر
لم يعب لغة الكتـــاب سوى من	جهلوا ضحوهـــا سبيـــل العبـــور
ان يكـــن ثم ناقـــد يزدريهـــا	من بنيهـــا فالنقـــد غيـــر بصيـــر
وقديما يقال ظلـــم ذوي القـــر	بى شديـــد كضربـــة الموتـــور

وثانيها:التي نريد إيجازها في العرض ذات صلة وثيقة بالشاعر باعتباره شاعرا، وهي الشعر نفسه، ماهو وما مقياسه ؟ وهي قضية ثقافية ما زال الصراع فيها قويا بين النقاد والشعراء ولعله لن يزول أبدا مادام الشعر والشعراء. ولنترك الشاعر يوجز رأيه في أبيات من قصيدة طويلة رثى بها العلامة الشاعر الحسن الألغي ففيها التفت الشاعر إلى الشباب قائلا :

فلـــم السكـــوت يا شبـــاب وأنتـــم	منابـــع أفكـــار بهـــا يتخيـــل

ولا تتركوا الميدان يوما لغيركم | فليس على غير الشباب المعول
ومن قال إن الشعر يسهل نظمه | فدعه غريقا في الهوي يتململ
على كل حال فالقصيد تغيرت | ملامحها حتى بدا الوجه يذبل
وهذا دليل يشعر الناس بالذي | أصاب القريض مذغدا يتحلل
فلا شعر بعدما ادعته جماعة | تقول بأن الشعر حر ومرسل
ولكن فهل للحر بحر يخصه | وقاعدة مثلى بها يتوسل

إلى أن قال :

فلا نكتفي بالذوق مادام دون ذا | يخالف ذا والكل للطبع أميل
سلم على شعر الخليل وأهله | وأبحره ان كان للحر منزل

خامسا : القضايا الروحية : إن القضايا الروحية لا يخلو منها الشعر العربي منذ البعث الاسلامي، ولكن شعر المدارس العتيقة فاز في هذا الجانب بالنصيب الأكبر، كالابتهالات والأمداح النبوية ...

وإذ نتحدث عن الروح لا نعني بها الشطحات الصوفية ولا الابتهالات ولا الأمداح النبوية التقليدية، وهذه كلها قد تجاوزها الشاعر، لكثرة تداولها. وإنما نعني بالقضايا الروحية عند الشاعر : الدعوة الاصلاحية المنبثقة من الروح الاسلامية الصافية.

وإذا تجاوزنا المبثوثات في قصائده المختلفة نجده يخصص للدعوة الاصلاحية قصيدتين كاملتين، إحداهما ينتقد فيها أوضاع المسلمين، وهي بمناسبة عيد المولد النبوي وفيها يقول :

أيها المنتدون هل نحن حقا | أمة المسلمين والمسلمات

إلى أن يقول :

قد فقدنا الكثير مما يزكي | قولنا بانتهاكنا الحرمات
كلنا في الهوا سواء فلا ناه | ولا منته عن الموبقات
ان دين الاسلام قول وفعل | وسلوك لا حسن الطرقات

ويقول معرضا بمن يضيع الصلوات ومن ينكرها :

فقليل منا يصلي ولكن | سفلة القوم تزدري الصلوات
تدعي أنها طقوس فلا معنى | لخفض الرؤوس في الركعات

ويقول محذرا من النفاق، واتباع الشهوات والاعراض عن دين الله :

أمــن العــدل أن نقــدم أجيــا ... لا عبيــدا لتلكــم الشهـــوات
امــن العــدل أن نحسن أخــلا ... قا ونحــن نبــاشر المنكـــرات
امــن العـــدل أن نرى كل يوم ... ثغــرة في صفوفنــا المحكمــات

وثانية القصيدتين بمناسبة ذكرى نزول القرآن، الذكرى المأوية الرابعة عشرة ، وفيها يقول في فضل القرآن الكريم :

نزل الكتــاب وفيــه خيــر شريعـــة ... فيهــا الهـــدى والنـــور للانسان
نسخت باذن الله كل شريعـــــة ... وقضت على الأصنــام والأوثــان
وتتابعت من بعــد ذاك عظاتهــا ... حتى استقــام الديــن بالبرهـــان
شهـر تجمع فيـه مالــم يجتمــع ... في غيــره من سائــر الأزمـــان

وكعادته لم ينس الشباب ودوره في كل ميدان، ولذلك دعا إلى تحمل مسئوليته في المجال الاصلاحي :

يأيهــا الشبـــان هذا دورڪـــم ... فتقدمــوا ببسالـــة الشجعـــان
هذا أوانكــم فهبــوا للعـــلا ... وتسلحـــوا بمكـــارم القــــرآن
إن الشبــاب الحــر لا يعنــو ولا ... يرضى بأن يسعى إلى الخـــذلان

وختاما لا نريد أن نمر على إنتاج الشاعر مرور الكرام دون أن نشير إلى ظاهرة إبداعية انفرد بالتوسع فيها والاكثار منها، وهي الفكاهة والظرف، وهو في هذا المجال أول شاعر عبر عن الأحداث الوطنية تعبيرا فكاهيا، وله في ذلك ثلاث قصائد طويلة كلها بمناسبة عيد العرش، وقد قرئت إحداها هنا بمناسب أسبوع الشعر العربي الفصيح بسوس الذي نظمته الكلية في السنة الماضية، وكان في مساجلاته يسخر على سبيل الفكاهة لا على سبيل الاستهزاء.

الشعر في المدارس العلمية العتيقة ببادية تيتزنيت

محمد خليل
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
عين الشق ـ الدار البيضاء

1. يقول العلامة محمد المختار السوسي [1] متحدثا عن نشأة المدارس العلمية ببادية سوس : «أول مدرسة عرفت في بوادي المغرب الإسلامي، هي مدرسة (أكْلو) بضاحية مدينة تيزنيت [2]، وذلك في أواخر القرن الخامس، وربما كانت قبلها مدارس أخرى، وإن كنا لا نعرفها الآن، ثم تتابعت القرون والمدارس تتكون في السهول والنجود، إلى أن نيفت على مائتين، وهي مدارس شعبية يقوم بها الشعب بجهودهم الخاصة، ولم تعرف قط إعانة حكومية، وكثيرا ما تكون في كل قبيلة مدرسة أو مدارس متعددة، إن كانت القبيلة كثيرة الأفخاذ، فتبني كل فخذ مدرستها على حدة، وهذه المدارس تسمى مدارس علمية، ليكون فرق بينها وبين كتاتيب القرآن التي لا تخلو منها كل قرية قرية وإن صغرت» [3]. ويقول في مكان آخر : «تأسست مدرسة أكْلو في أول القرن الخامس ـ وموقعها في ضواحي تيزنيت ـ وهي أول مدرسة عرفها التاريخ إلى الآن في بادية المغرب، وكانت تسمى الرباط [4]، ويسمى سكانها مرابطين، وإن كان ما يعرفه التاريخ اليوم من تلك الأولية، لا يدل على أنها هي الأولى في الواقع» [5].

---

1. توفي رحمه الله بالرباط يوم 30 جمادى الثانية 1383 هـ (17 نونبر 1963م) وخلف عشرات المجلدات التي تسجل ما ساهم به سوس في الحركة العلمية بالمغرب.
2. تقع هذه المدرسة على ساحل المحيط الأطلسي على بعد حوالي 16 كلم غرب تيزنيت.
3. (سوس العالمة) ص 154 ط 1960/1 مطبعة فضالة ـ المحمدية.
4. دأب المسلمون منذ القرون الأولى على تأسيس (الرباطات) التي كانت تؤدي وظائف متعددة : في التعليم، والجهاد، وحماية سواحل البلاد الاسلامية وثغورها.
5. (سوس العالمة) ص : 17.

دون محمد المختار السوسي هذا الكلام منذ أزيد من نصف قرن [6]، وهو حينئذ في السنة الثالثة من انطلاقه في مشروعه العلمي الكبير الذي تمكن خلاله ـ وبمفرده ـ من جمع وتدوين مادة علمية هامة كشف بها النقاب عما تزخر به منطقة سوس من ثقافة إسلامية متنوعة، وأزال بها الغبار عن تاريخ هذه المنطقة الحافل بالمفاخر والأمجاد التي يحق للمغرب أن يعتز بها من شماله إلى جنوبه. ذلك أن مساهمة سوس في الثقافة المغربية، وعبر مختلف العصور مساهمة متنوعة شملت علوم اللغة والدين والأدب وغيرها مما كان لمحمد المختار السوسي الفضل الكبير في إبرازه من خلال مؤلفاته.

إن ما قاله صاحبنا عن كون مدرسة أكلو هي الأولى من نوعها التي عرفتها البادية المغربية في تاريخ المغرب الإسلامي يعتبر في الوقت الحاضر أمرا لا يستحق الجدال، فهذه خمسة وخمسون سنة مرت على ما قاله هذا الباحث، ولم يتمكن غيره من الباحثين ـ لحد الآن ـ من اكتشاف خلاف ذلك. بيد أننا ملزمون بالوقوف عند المرحلة التاريخية التي أسست فيها مدرسة أݣلو حسب رواية هذا الباحث، ذلك أننا رأيناه قال في المرة الأولى «أواخر القرن الخامس» [7]، وقال في المرة الثانية : «أول القرن الخامس» [8] ولعل الصحيح هو : أول القرن وليس آخره، بدليل أن مؤسس هذا الرباط/المدرسة : محمد وݣاك زلو توفي نحو سنة 445 هـ [9].

هكذا ـ إذن ـ شاءت الأقدار الإسلامية أن تعرف بادية تيزنيت إنشاء أو تأسيس أول مدرسة علمية عرفتها البادية المغربية في تاريخها الإسلامي، إن إنشاء هذه المدرسة في قلب سوس، منذ حوالي عشرة قرون يدل على أن قبائل هذه المنطقة ـ منطقة سوس ـ كانت جد متشبعة، وجد متمسكة بعقيدتها الإسلامية، وكان أبناؤها، في ذات الوقت جد مقتنعين بأن تعلم اللغة العربية والعلوم الاسلامية، يعد إحدى الركائز التي تجب المحافظة عليها لبقاء هذه

---

6. انتهى محمد المختار السوسي من تأليف كتابه : (سوس العالمة) لسنة 1358 هـ/1939م. وهو حينئذ في منفاه بـ (إلغ).
7. سوس العالمة، ص 154.
8. نفسه، ص 17.
9. محمد المختار السوسي : (رجالات العلم العربي في سوس)، ص 9. طنجة 1409 ـ 1989.

المنطقة بصفة خاصة، والمغرب بصفة عامة : قلعة شامخة من قلاع الدفاع عن العقيدة الاسلامية، بل، والعمل على نشر الدعوة الاسلامية في أوساط الشعوب المجاورة والواقعة على الخصوص جنوب الصحراء الكبرى [10].

إن بادية سوس، لم تكن رائدة البادية المغربية في إنشاء ونشر هذه المدارس العلمية [11] فحسب، ولا في تنافس قبائلها على رعاية هذه المدارس طلبة وأساتذة وبنايات، بل بقيت سوس ـ ومن ضمنها بادية تيزنيت ـ حريصة، إلى اليوم، على بقاء واستمرار هذه المدارس في مهامها التي أنشئت من أجلها انطلاقا من أول القرن الخامس الهجري، ألا وهي قيامها بتلقين علوم اللغة العربية والدين الاسلامي، والأدب العربي، وخاصة الشعر، وفق المنهج القديم الذي كانت الدراسة تسير عليه في مختلف المدارس العلمية عبر مختلف أقطار العالم الاسلامي خلال عصور ازدهار الثقافة والعلوم في البلاد الاسلامية [12]، ازدهارا وصل إشعاعه إلى أوربا التي استفادت من ذلك الازدهار، استفادة أسست عليها قواعد نهضتها العلمية الحديثة [13].

فهذه المدارس ما زالت القبائل تتحمل مهمة تسييرها والانفاق عليها ومازالت تعتبر «مدارس شعبية يقوم بها الشعب بجهوده الخاصة» ـ حسب تعبير المختار السوسي ـ وما زال نظام الدراسة فيها تقليديا إذ «يلتحق الطالب بالمدرسة العلمية بعد أن يستظهر القرآن الكريم الذي كان حفظه شرطا في الالتحاق بها وبالقرويين وابن يوسف، ولا يرضى أن يلاحظ عليه أنه لا يتقن حفظه وهو يطلب العلم [...] ويكون افتتاح الدروس بالجرومية أو القرطبية في النحو، ثم بابن عاشر ثم الرسالة في التوحيد والفقه مرورا بمنظومتي المجرادي والزواوي في الجمل وأحكامها وفي معنى بعض الحروف وخلال ذلك تدرس لامية الأفعال لابن مالك في التصريف ولامية العجم [14] للطغرائي [15] ولامية

---

10. تجدر الإشارة إلى أن عبد الله بن ياسين (ت 551 هـ) قد قرأ بمدرسة آكلو، ثم توجه إلى الصحراء لإصلاح أحوال أهلها، ومنها مهد لقيام دولة المرابطين.

11. هناك ـ إلى اليوم ـ مدارس قرآنية تهتم بتلقين القراءات وعددها في سوس أقل من عدد المدارس العلمية.

12. انظر مثلا : (تاريخ التربية الاسلامية) للدكتور أحمد شلبي.

13. انظر مثلا : (شمس العرب تسطع على الغرب) للمستشرقة :

14. قصيدة زاخرة بالحكم وعلى قدر كبير من جمال الأسلوب وبلاغة العبارة تقع في 59 بيتا ومطلعها

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني عن العطل.

15. يعد الطغرائي عميد الكتاب والشعراء في دولة السلاجقة، مات مقتولا حوالي سنة 514 هـ.

العرب [16] للشنفرى [17] والمعلقات السبع [18] في اللغة والأدب [19]، وفي المرحلة الثانية تدرس تحفة الحكام لابن عاصم، ومختصر خليل في الفقه المالكي وورقات إمام الحرمين في مبادئ الأصول، والسلم في المنطق وألفية ابن ملك وهي المحور في دراسة النحو، ومقامات الحريري [20] في اللغة والأدب أيضا، وفي المرحلة الثالثة يدرس التوضيح في النحو والتلخيص في البيان والمعاني والبديع وجمع الجوامع في الأصول، بالاضافة إلى التفسير والحديث اللذين يخصص لهما ولسرد البخاري وقت في أيام رمضان، كما يخصص فيه درس الحساب بالمنظومة السملالية، والفرائض بمنظومة أحمد بن سليمان الرسموكي المتمم بها نظم السملالية» [21].

يكون الطالب ملزما بحفظ المتون والمختصرات والقصائد الشعرية المشار إليها في مواد الدراسة بمراحلها الثلاث، ولم يكن الطالب يجد صعوبة في حفظها لأنه اكتسب ملكة الحفظ حينما كان يحفظ القرآن الكريم ويكرز حفظه عدة مرات قبل التحاقه بالمدرسة العلمية.

2. يمكن القول : إن ابتداء الدراسة العلمية في هذه المدارس بتحفيظ مجموعة من المنظومات التعليمية : في النحو، والصرف والفقه ... يعتبر نقطة البداية في اتصال الطالب/التلميذ الأمازيغي السوسي «بالكلام الموزون المقفى الدال على المعنى»، الذي يعرف به قدامة بن جعفر [22] الشعر، وهو تعريف

---

16. قصيدة تصف ما تحداه صاحبه من شدائد وما واجهه من صعاب بإرادة صلبة تقع في 68 بيتا، ومطلعها :
أقيموا بني أمي صدور مطيكم — فإني إلى قوم سواكم لأميل.
17. يعد أحد أوائل الشعراء المعروفين – (الصعاليك) توفي سنة 510م.
18. لعل أساتذة المدارس العلمية بسوس يريدون بتحفيظ المعلقات : أن يكون اتصال التلاميذ بالشعر العربي ينطلق من أصوله الجاهلية الخالصة الصافية لغة وتعبيرا.
19. إن هذه القصائد ، اللاميتان والمعلقات كانت تلقن في هذه المدارس، لتحقيق هدفين : امتلاك رصيد لغوي عربي أصيل، وإيجاد مناخ شعري يستوحي منه التلاميذ جمالية أسلوب القصيدة وسمو أهدافها في آن واحد.
20. عاش بالبصرة : ما بين سنتين 446 – 516 هـ، يبلغ عدد مقاماته خمسين مقامة يمتزج فيها النثر المعتمد على السجع بالشعر، وكان أساتذة هذه المدارس – وما زالوا – يعتبرونها ذخيرة لغوية مهمة تساعدهم على قرض الشعر.
21. المتوكل عمر الساحلي : (المعهد الاسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة سوس) 71/3 ط 1 – الدار البيضاء 1990.
22. ولد ببغداد حوالي سنة 265 وتوفي بها سنة 337، من أشهر مؤلفاته : (نقد الشعر) الذي يعتبر أحد أشهر كتب النقد الأدبي التي ألفت في القرن الثالث الهجري.

مرفوض من النقاد العرب قديما وحديثا، ولكننا آثرنا إدراجه هنا، لأنه ينطبق تماما على تلك المنظومات التي يحفظها تلاميذ المدارس العلمية فور شروعهم في التعلم بهذه الدروس، ولاشك أن هذه الطريقة في التعليم كان لها أثر إيجابي على التلاميذ لأنها تجعلهم يتعلقون تعلقا شديدا بالشعر ويحفظون الكثير من القصائد في مدة وجيزة، بل إن منهم من كانوا يحفظون دواوين شعرية بكاملها.

لم يكن تدريس الشعر في هذه المدارس يسير وفق نمط واحد على غرار ما هو عليه الأمر في علوم النحو والصرف والبلاغة والفقه، بل إن هناك مدارس كانت تعطي للشعر مكانة بارزة في دروسها وفي مجالسها وقد اشتهرت مدارس كثيرة في بادية تيزنيت باعتنائها الفائق والمتميز بالشعر «كالمدرسة الجشتيمية والألغية والأدوزية والبونعمانية» [23]، ففي هذه المدارس تحتل مجموعة من دواوين الشعر العربي مركز الصدارة لدى الأساتذة وطلبتهم كالمفضليات [24] والأصمعيات [25] وديوان الحماسة لأبي تمام [26]، ودواوين عدد من مشاهير الشعراء : كالبحتري [27] والمتنبي [28] وابن زيدون [29]، إذ تركز هذه المدارس في دراسة هذه الدواوين الشعرية ـ كلا أو بعض ـ على الاهتمام أكثر بالشرح اللغوي والبلاغي للقصائد، وعلى التقطيع العروضي للأبيات، كما أن النقد والتحليل يحظيان بنصيبهما ففي تحليل القصائد كان المنهج المتبع مقتبسا من مجموعة من كتب النقد الأدبي القديم التي نالت حقها في الدرس الأدبي الشعري بهذه المدارس، إذ كان التحليل ينصب أساسا على العناية أكثر بالجانب المتعلق بمدى توفق الشاعر في صياغة معاني الأبيات، إذ تتم دراسة كل بيت على حدة، دراسة تبرز إلى أي حد وفق الشاعر في تلك الصياغة، فيحاسب الشاعر على هفواته كذلك وذلك اعتمادا على الآراء النقدية الواردة في

23. (سوس العالمة) ص : 52. وهذه المدارس ما زالت قائمة إلى اليوم.
24. يضم مائة وثلاثين قصيدة لشعراء جاهليين، جمع أغلبها المفضل الضبي الكوفي المتوفى حوالي سنة 168 هـ.
25. يضم اثنتين وتسعين قصيدة لشعراء جاهليين، جمعها عبد الملك الأصمعي، المتوفى سنة 216 هـ.
26. جمع فيه أبو تمام (المتوفي سنة 230 هـ) مجموعة من أشهر قصائد شعر الحماسة في الأدب العربي.
27. هو أبو عبادة الوليد بن عبيد الله، توفي سنة 284، يوجد هو وأبو تمام على رأس شعراء القرن الثالث في الشرق العربي، وألفت حول الموازنة بينهما مؤلفات نقدية، منها : (الموازنة بين الطائيين) للآمدي.
28. هو أبو الطيب أحمد بن الحسين توفي سنة 354 هـ، هو عميد شعراء القرن الرابع بدون منازع.
29. شاعر أندلسي معروف، توفي سنة 463 هـ. وكان على رأس شعراء الأندلس المشهورين في أوساط المدارس العلمية لسوس.

أهم كتب النقد الأدبي القديم مثل : نقد الشعر لقدامة بن جعفر (ت : 337 هـ) وأسرار البلاغة، ودلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجاني (ت : 471 هـ) والعمدة لابن رشيق القيرواني (ت : 456 هـ) والمنزع البديع للسجلماسي (توفي في القرن الثامن الهجري).

3. كانت العادة المتبعة في المدارس التي تعطي للدرس الشعري مكانة خاصة، أن تقام فيها مجالس أدبية أسبوعية مساء الأربعاء ويوم الخميس، وكان الهدف من إقامة هذه المجالس في نهاية الأسبوع الدراسي : أن يكون الأدب مقترنا بما تقتضيه العطلة الأسبوعية من الترويح عن النفس، وتحقيق متعة لا ينالها الطالب في دروس الفقه والأصول والحساب والنحو وغيرها، التي يكون منهمكا فيها طيلة أيام الأسبوع ولذلك كان الطلبة ينتظرون هذه المجالس الأسبوعية بشوق خاص، وأحيانا يستعدون لها بحفظ منتخبات شعرية جديدة أو بنظم أبيات شعرية بالنسبة لمن آنس في نفسه القدرة على ذلك.

وبما أن المجال لا يسمح بتفصيل الحديث حول نظام هذه المجالس، فإننا سنوجز القول بالإشارة إلى مجموعة من الأنشطة الأدبية التي كانت تمارس في هذه المجالس الأسبوعية، التي كانت تعقد أحيانا كثيرة بحضور أستاذ المدرسة وحده أو مصحوبا ببعض ضيوفه، وأحيانا أخرى يعقدها الطلبة فيما بينهم.

أ ـ فأحيانا تتخذ هذه المجالس مناسبة يتبارى فيها الطلبة في عرض محفوظاتهم من عيون الشعر الرائع في حلقات دروسهم مع ربط ما يقدم من هذا الشعر بغرض معين كالوصف أو المدح أو الهجاء، فيتلو كل طالب من ذاكرته ما يحفظه في ذلك الغرض لشاعر أو أكثر، ويكون كله مقترنا بمحاورات ومناقشات تحليلية نقدية لنماذج من تلك القصائد ـ حسب مفهومهم المحدود للنقد ـ

ب ـ وأحيانا يتم الاقتصار على التباري حول قصيدة واحدة، وذلك لتحفيز الطلبة على التنافس فيما بينهم من أجل شرح معنى بيت أو إعرابه أو تقطيعه عروضيا، إلى غير ذلك من القضايا التي يثيرها الحاضرون أساتذة وطلبة، لتطبيق معلوماتهم التي تلقوها في اللغة والنحو، والصرف، والعروض، والبلاغة.

ج ــ وأحيانا يستمع الحاضرون إلى قصيدة لأستاذ المدرسة أو لأحد ضيوفه ولأحد طلبة المدرسة تتلوها مناقشة تستهدف نقد القصيدة من الجوانب التي أشرنا إليها سابقا (اللغة، والعروض، والبلاغة غالبا).

وهكذا تتعدد المجالات التي تستغل فيها هذه المجالس/الدروس الأدبية الأسبوعية، بتعدد هذه المدارس، وبتعدد روادها، أساتذة وطلبة، فلكل أستاذ ــ في الغالب ــ طريقته وابتكاراته في هذه الدروس، ولكل بيئة ظروفها وحوافزها التي تكيف هذه المجالس التي تتحد في أنها تتخذ وسيلة لتحسين وتقويم الذوق الأدبي عند الطلبة من جهة، وللترويح عن النفس من عناء الدروس الأخرى، خاصة وأن هذه المجالس يقدم فيها إلى الحاضرين الشاي وما تيسر من الحلويات والفواكه وخاصة الجافة منها كاللوز والتمر والتين وأحيانا يقدم فيها حتى الأكل، وبذلك تصبح هذه المجالس عبارة عن مآدب فكرية ومادية.

4. يتضح من هذا ما كان لهذه المدارس من دور إيجابي في تربية الحس الشعري والشاعري لدى الطلبة، اقتناعا من السوسيين خاصة والمغاربة عامة ــ في ذلك العهد ــ بأن الشعر ينطلق عندهم من مفهوم خاص، «وهو مفهوم يربط الشعر بثقافة العالم أو الفقيه باعتبار دوره لا يتعدى الترويح عن النفس وتبادل العواطف مع الآخرين» [30].

يحدثنا محمد المختار السوسي عن رسالة تلقاها من أحد شيوخه الالغيين، سعيد التناني [31] ــ وهو حينئذ طالب بجامعة القرويين بفاس يقول فيها : «انك لو أتقنت علم الأولين والآخرين، ثم لم تكن أديبا فلا يكون لك وجه عند الألغيين، لكن إن اتيتهم بالأدب وجليت فيه، فإنك ستنال من بينهم مكانة مع ما يتيسر لك بعد من العلوم الأخرى، وإن لم تكن إلا ضئيلة، فإن قطب العلوم عندهم إنما هو الأدب وحده» [32]. يتضح لنا من هذا ما كانت المدرسة الألغية ــ وهي إحدى مدارس بادية تيزنيت ــ تعطيه للأدب من قيمة تفوق باقي العلوم، والأدب عندهم هو الشعر بالدرجة الأولى ثم النثر، إذ أنه عرف

---

30. د. عباس الجراري : (الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه) 200/1 ط. 1/ الدار البيضاء 1979.
31. توفي سنة 1346 هـ (انظر ترجمته في المعسول 5/15 وما بعدها).
32. المعسول : 5/15.

عن علماء وأدباء سوس قاطبة أنهم كانوا يكتبون رسائلهم شعرا [33] ــ في غالب الأحيان ــ حتى يثبتوا مدى تمكنهم من ناصية الشعر العربي فهما وإنشادا وإبداعا، وهم الذين لا يتكلمون إلا الأمازيغية حتى في دروسهم العلمية التي كانت تلقى بها.

ما هي الأغراض الشعرية الرائجة في هذه المدارس ؟

يمكن القول بأن كثيرا من أغراض الشعر التقليدي كانت ــ وما زالت ــ موجودة في هذا الشعر.

ــ يأتي في مقدمتها شعر الإخوانيات بمفهومه الواسع : إذ أنه شعر يشمل التهاني، والتعازي، والترحيب، والمدح، والعتاب.

إضافة إلى الأغراض الأخرى كالمديح النبوي، والرثاء، ووصف الطبيعة.

وتقل أو تغيب أغراض أخرى كالغزل والمجون والهجاء، لأسباب بديهية تتجلى في أن أصحاب هذا الشعر هم علماء وطلبة علم، لهم تقدير خاص في أوساط الأهالي، والمسؤولين، ولا يليق بهم أن يخوضوا في أغراض يعتبرونها مخلة بمركزهم العلمي والديني. ولهذا كانوا يحترزون من دراسة بعض شعر الغزل مثلا لشعراء قدامى فكيف يسمحون لأنفسهم بقرض شعر في هذه الأغراض.

5. فما هو حاضر الشعر في هذه المدارس ؟ وما هو مستقبله فيها ؟

مما تجدر الإشارة إليه أن عدد المدارس التي ما زالت قائمة إلى اليوم يعد بالمآت، وإقليم تيزنيت وحده يضم حوالي سبعين مدرسة ما بين قرآنية ــ أي التي تهتم بالقراءات القرآنية وليس الكتاتيب القرآنية ــ وعلمية، إلا أن عدد طلبة هذه المدارس يسير نحو التقلص فمعظمها يتراوح عدد الطلبة فيها بين العشرة والعشرين وقليل منها يضم عددا محترما أو مقبولا من الطلبة، كما أن ما لحق البادية المغربية عامة والسوسية خاصة من تطور حضاري جعل وظيفة هذه المدارس تتقلص، إذ لم يعد لأستاذ المدرسة ذلك المركز الذي كان له من

33. سبق لي أن شاركت بمداخلة حول الرسائل الشعرية في سوس، وذلك في اليوم الدراسي الذي نظمته شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب بأكادير يوم 1991.12.5.

قبل، سواء على صعيد القبيلة أو على صعيد السلطة والمجتمع محليا وجهويا ووطنيا [34].

ومع ذلك فهناك عدد قليل من المدارس تزاول نشاطها مواجهة مختلف أنواع الحصار المحيطة بها، وما زالت عقلية السوسيين عامة والتزنيتيين بصفة خاصة تولي لهذه المدارس عناية خاصة، فيقوم الأهالي – إلى اليوم – بتجديد بناياتها، وتزويدها بالتجهيزات الحديثة، وفي مقدمتها الكهرباء والفراش الحديث ... الخ، ومازال في بعضها نشاط شعري جدير بالعناية. فهناك دراسة للشعر وخاصة القديم، وهناك قرض للقصيدة الشعرية العمودية وهذا يستوجب إعطاء هذه المدارس الاهتمام الذي تستحقه سواء فيما يتعلق باحيائها وإنعاشها، أو فيما يتعلق بالوظيفة العلمية التي يتعين إسنادها إليها في عصرنا الحاضر، وهذا موضوع يتطلب أن تتكاثف فيه جهود قطاعات مختلفة بدءا بالجماعات والسلطات المحلية والمركزية، وانتهاءا بالمثقفين والباحثين الجامعيين والأكاديميين.

---

34. كان خريجو هذه المدارس يتولون مناصب في القضاء والتعليم، وكانوا يحظون بمكانة اجتماعية متميزة تحفز الطلبة على التعلم في هذه المدارس ونيل شرف التخرج على مشاهير علمائها كي يحصلوا على تلك المكانة الاجتماعية، عكس ما هو عليه الحال اليوم.

مقومـات التعليـم العربـي
فـي
سـوس وبعـض سماتهـا

المهدي السعيدي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الربـاط

تمهيـد :

تميزت البادية السوسية في التاريخ عن غيرها من البوادي باهتمام منقطع النظير بالعلم العربي، وتجسد هذا الاهتمام في ظهور المؤلفات المتنوعة في العلوم العقلية والنقلية وازدهار الآداب نثرا وشعرا وارتحال الطلبة السوسيين للأخذ بالحواضر المغربية والمشرقية والأندلسية، وكان وراء هذه النهضة العلمية عشرات المدارس العتيقة التي رابط بها جماعة من كبار العلماء ندروا أنفسهم، الاعتناء بالعلوم العربية بهذه المنطقة البعيدة في الواقع عن لغة الضاد، فكانت النهضة العلمية الأدبية مرتبطة أشد ارتباط بازدهار الحركة التعليمية باعتبار مراكزها مواطن إشعاع علمي وديني في المجتمع السوسي.

وحتى نتعرف عن قرب على التعليم العتيق بسوس لابد لنا أن نتوقف عند المقومات التي استند عليها خلال تاريخه الطويل ونقصد بالمقومات تلك الأطراف التي تضافرت جهودها وتعاونت لتمكن التعليم من أداء مهامه ومواصلة البقاء رغم الصعوبات والعراقيل، ويمكن حصر هذه المقومات في ثلاثة أطراف :

ـ الفقيـه.
ـ الطالـب.
ـ المدرسـة.

فالفقيه طرف باعتباره الأستاذ المدرس المشرف على تكوين التلميذ وعلى إيصال محصوله العلمي إليهم، والطالب عن أستاذه، والمدرسة طرف باعتبارها مكان اللقاء بين المدرس وتلميذه.

ولسنا هنا بصدد دراسة كل مقوم بتفصيل وإنما غرضنا إيضاح مساهمة كل طرف في ازدهار التعليم وملابسات هذه المساهمة. وانطلاقا من هذا الأساس سنتطرق إلى موارد عيش الفقهاء باعتبارها المحدد الأول لمشاركتهم في الحركة التعليمية، ثم إلى المدرسة باعتبارها مؤسسة تشرف عليها القبيلة وتحافظ بواسطة التموين على بقائها وأخيرا إلى وضعية الطلبة السوسيين من خلال علاقتهم، بالمؤسسة التعليمية وما يفرضه ذلك من التزام بقوانينها وبالأساتذة وما ينتج عنها من ضرورة الاحترام والتأدب.

1. موارد عيش الفقهاء :

الفقيه حامل لواء الشريعة في المجتمع وعماد التعليم العارف بالعربية والحامل علومها فهو لذلك ملجأ الناس لفض الخصومات وكتابة الوثائق، ومقصد مرضى النفوس والأجساد لشفاء الاسقام يأتيه الطالب فيعلمه، والخصيم فيفتيه، والضال فيرشده، فتبوأ بذلك بين الناس أعلى المراتب، يشير فيقفون عند إشارته، أو يحدث فيستمعون حديث حكمه العدل، وقوله الفصل ورأيه الحق وليست هذه المرتبة بمكينة لكل الفقهاء فلا يتسمنها إلا من كان غزير العلم، بالغ الزهد فيما بين أيدي الناس ، مضنيا أيامه ولياليه في قضاء مآربهم ، فتعددت لهذا مهام الفقهاء وتعددت معها موارد عيشهم من مشارطة وقضاء وكتابة الرسائل والعقود والتطبيب ... وغير ذلك.

أ ـ المشارطة :

في سوس ما يزيد على سبعين قبيلة [1] في كل منها مدرسة أو أكثر وفيها قرى كثيرة يتجاوز عددها سبعة آلاف قرية لا تخلو كلها من مسجد وتحتاج هذه المدارس والمساجد إلى من يشرف على سيرها وأداء وظيفتها وتنقسم هذه المهمة إلى قسمين : الشؤون الخارجية لهذه المؤسسات ويشرف عليها أعيان القبيلة والقرية (إينفلاس) وتنحصر في إصلاح بنائها وجمع الأعشار وأنواع المؤن وتعيين من يشرف على إقامة وظائفها الدينية والتعلمية.الشؤون الداخلية وهي من اختصاص الفقيه أو الطالب المشارط فيختص بإقامة الصلاة والتعليم وغير ذلك مما لا دخل فيه لجماعة العرفاء.

---

1. أنظر الخريطة قبائل سوس عند عمر أفا ـ مسألة النقود بالمغرب ص : 71.

2. Le Maroc, HORIZON 2000 Acenda 1990 réalisé par Aguerd Mustapha et et Ourara Mohamed.

وأصل المشارطة أن يلقى أصحاب المدرسة من يرتضون من الفقهاء ويعرض كل طرف شروطه على الطرف الآخر، ويتم الاتفاق على مقدار الأجرة التي تدفع للطالب أو الفقيه، حيث يشارط الطالب في المساجد الصغرى معاشهم ويجولون في معتركه الحيوي ...) [3] إلا أنها تشمل عادة قدرا معينا من الحبوب خاصة الشعير، والإدام سمنا أو زيتا وغير ذلك من منتجات فلاحية كالخضر والصوف إضافة إلى قدر من المال والطعام اليومي وأضحية العيد وربما اشترط بعض الفقهاء على الجماعة حرث أملاكه وحصادها وإمداده بما يلزم من كسوة ونعال [4].

ويتمتع المشاطرون في المدارس والمساجد الكبرى بعيش رغيد يغبطهم عليه أترابهم لذلك تحتد المنافسة عليها، ويلتمس الفقهاء الوسائل للوصول إليها كتزكيات كبار العلماء والوجهاء ووساطاتهم كما فعل محمد بن الحسن بوكوع الباعمراني الذي قال مخاطبا أحد الفقهاء من ذوي الجاه

أيا سيدي إنـــي إلــيك لملتـــج	**ومن يعتدي ظهرا على الباز قد يسمو**
أريد بجاهكــم توسطكــم لكــي	**أفوز بنحب طالما سامه الهــم**
لتنظر لي الشيخ الكبير على القبيل	للشرط كي ينزاح عن ذهنه غيم [5]

وقد يلجأ آخرون إلى الكيد لمن سبقوهم إلى احتلال تلك المدارس حتى يخرجوهم منها، كأن يدفع بعضهم لنفاليس القبيلة رشوة الصرف المشارط وإحلالهم مكانه [6] ويتربصون به الدوائر ليفتكوا به كالمحفوظ التيغرمتي الذي ابتغى المشارطة بمدرسة أيت عمرو الهشتوكية وكان بها الفقيه محمد بن أحمد الكطيوي، فلا زال به حتى أزاحه عنها بقتله بالسم [7].

هكذا اشتدت المنافسة على احتلال المدارس الكبرى في سوس، لأن عامة الناس وعلى رأسهم النفاليس يضعون شروطا معينة لقبول الفقهاء في مدارسهم ومساجدهم.وتختلف هذه الشروط حسب أطوار التعليم العربي بسوس

---

3. محمد المختار السوسي – مدارس سوس العتيقة ص : 12.
4. المعسول ج. 5 ص 320.
5. المعسول ج 10 ص 224.
6. المرجع السابق.
7. المعسول ج 16 ص 188.

إذ كانوا يشترطون كون الفقيه متضلعا في العلوم إبان ازدهار التعليم ونشاط مراكزه. ثم تنوسي هذا الشرط لما دب أرسله أستاذه إلى مسجد إدا وعيسى بهشتوكة و(.. كان كالنساء لا لحية له، فردوه على أنه صبي فقال لهم : إنني رجل، فإن أردتم الملتحين الكبيري الشعور في الأذقان فعليكم بملاح تماليحت حيث اليهود، وكان اليهود مشهورين بطول اللحى [8] وقد لخص الشاعر عبد الله العاطفي التتكي [9] وهو من الذين ذاقوا مرارة هذه الشروط في قوله :

شرط الجاهلـــون شتـــــى شروط	لم تكـــن في مذاهب السابقيـــن
أن يكـــون الامـــام فظـــا غليظـــا	سافل القـدر إن رأوا فيـــه لينـــا
عابس الوجــه مشمئـزا خبيثـــا	يبعث الرعب في نفوس البنيـــن
فإذا سار في حمـــى مقتديـــه	ملأ الحـــي هيبـــة وسكونـــا
لحيـــة كثـــة وقـــد طويـــل	ومن الندب أن يكون سمينا [10]

ويرتبط الوضع الاقتصادي للفقيه بالوضع العام لجماعة مشارطيه المعتمدين في معيشتهم على الفلاحة، فتتوقف أجرته على خصب أو جفاف السنة فإذا كان الخصب وفى له أجره كاملا أما إذا ساد الجفاف والجدب فعليه الانتظار إلى العام المقبل قانعا بكتابة أجره دينا على مشارطيه [11] ويحرص الفقهاء على استيفاء أجورهم حتى لا يألف الناس عدم دفعها أو التهاون فيها، فيصير ذلك بداية الاستهانة بالمؤسسات الدينية العلمية : المسجد والمدرسة ومن هؤلاء سعيد بن محمد التناني [12] الذي كان يجمع أجره كاملا قال : (حتى إذا لم يبق إلاتين يابس يعطون عادة منه لإمام المسجد، تطلبته منهم وقد كانوا يظنون أنه لا أخذهم به، لكنني ألححت حتى جمعوه لي فطلعت به إلى سطح المسجد، فقسمته قسمة قسمة، ثم أمرت الحاضرين من الرجال

8. المعسول ج 18 ص 114.
9. عبد الله العاطفي التتكي ولد عام 1949م بقرية تاسكموت من جماعة تازمورت قرب تارودانت، حفظا القرآن على يد والده وخاله ثم تلقى دراسة العلمية في كل من مدرسة عين المديور وإداومنو والمعهد الاسلامي بتاردانت وتنقل بعد ذلك في المشارطات وفي عام 1979 انتقل للعمل باذاعة اكادير ثم بالمحكمة الابتدائية بتزنيت فأكادير عام 1983، انظر منار السعود عن تافراوت الملود ومدرستها العتيقة ص : 56.
10. من قصيدة زودني بها الأستاذ أحمد الراضي بتارودانت.
11. المعسول ج 16 ص 109.
12. انظر ترجمة في المعسول ج 15 ص 5.

والصبيان فطلعوا فاستدار كل فريق بقسمة فأكلوا، فقيل لي مادمت لا تريده لنفسك لماذا ألحت علينا في جمعه، فقلت لهم : لا مقصود عندي في جمع الشرط كله إلا أن أريكم على أن تألفوا تأديته لائمة المسجد ولا يفسد الشرط إلا من يسامحون فيه) [13].

وفي مقابل الفقهاء والعلماء الذين يشارطون نظير أجر سنوي آخرون اختاروا نشر العلم وتدريسه احتسابا بلا أجر لاستغنائهم عنه بما يتوصلون به من مهن أخرى أو بمالهم من أموال كبلقاسم بن عبد الله الأيديكلي [14] الذي (أقبل على نشر العلم مجانا بلا مشارطة في مدرسة، وذلك في المسجدين الموجودين في أيديكل ينتقل بينهما ...) [15] وقد جمع إلى التدريس الفصل في الفتاوى والنوازل بلاضافة إلى تراثه والعلامة الكبير محمد بن أحمد الحضيكي الذي لم يقبض قط من (القبيلة شرطا على تدريسه وإنما قامت زاويته في مدته بما يفتح الله عليه من الفتوح ..) [16] بل ان بعضهم بلغ به الورع حد الامتناع عن التمتع بما يأتيه من هدايا مثل محمد عبد الله بن محمد الودريمي [17] الذي : (كان ...لا يأكل هو ولا أهله مما يأتي به الناس إليه من الهدايا والصدقات بل يأكل هو وأولاده من خالص كسبهم وحلال ملكهم ثم يعطي الناس ما جاء به الناس ..) [18].

وكما يتفاوت المدرسون في موقفهم من الشرط، يتفاوتون أيضا من حيث إخلاصهم في التدريس، فإذا كان بعضهم يقبل على التدريس بهمة وحماس عجيبين حتى في أكثر الأحوال شدة كالشيخوخة والمرض [19] فإن آخرين كانوا يقيمون بالمدرسة دون اقراء ولا تدريس [20].

وخلاصة الأمر أن المشارطة كانت الحرفة الأولى لغالب الفقهاء والطلبة إلا أن بعضهم أنف من مزاولتها لأنها حرفة الذل والانكسار وميدان العاجزين عن

---

13. المعسول ج 15 ص 20. .
14. انظر ترجمته بالمعسول ج 17 ص 12.
15. المعسول ج 17 ص 12.
16. عبد الرحمان الجيشتيمي ـ الحضيكيون مخطوط ص : 17.
17. المرجع نفسه ص : 58.
18. نفسه.
19. انظر المعسول ج 17 ص 36 ـ 37.
20. انظر المعسول ج 14 ص 98.

العمل في ميدان التكسب فحراثة يوم أو يومين أفضل من شرط عام [21] ويبدو أن مرد هذا الموقف إلى أمرين :

ـ تسلط النفاليس الجهال على الفقهاء ورغبتهم في خضوع هؤلاء لهم باعتبارهم المكلفين بدفع الأجور والاشراف على الموارد الاقتصادية للمدرسة وكثيرا ما يتضايق الفقهاء من هذا التسلط فيفضلون الرحيل مثل محمد بن الحاج الافراني [22] الذي كتب إلى شيخه، واصفا ما جابهم به بعض هؤلاء الجهلة، مايلي : «... فقد عولت على أن أقوض الخيام من عند هؤلاء الأقوام بعد ما صار صبيبهم إلى الجهام، وصارم ناصحهم إلى الكهام فلا خير في عيش يتمصصه الابي من بين أشداق الملتهمين، ولا في حياة قنوع غير جسور بين متلمظين نهمين فالمشاركة في الأوصاف، شرط في المعاشرة بالإنصاف، فكيف مثلي بين لئام رضع والطير إنما هي على الافها وقع، وركوبه الجنائز والتلف في المفاوز أدنى إلي من إعادة الشرط مع هؤلاء، والصبر مع أنذال جهلاء :

فما للمرء خير في حياة إذا ما عدّ من سقط المتاع

وقد أسمعني بعض نفاليسهم المفاليس الذين على مثلهم خلقت كلمة بيس ما يكاد السموات يتفطرون منه وتنشف الأرض ويحز الجبال هذا فلم أجد من المغادرة ونفض الكف من مدرستهم بدا ..» [23].

ـ قلة الأجرة وضآلتها حتى لا تكاد تفي بحاجيات الفقهاء مع رداءة الزاد اليومي وهذا ما عبر عنه المؤرخ الاكراري بقوله : (فإحضارات [24] المعلمين قرآن وعلما في غاية القلة فكل مسألة آلت لأضعاف القيمة إلا الاحضار لا يزيد لنباهة ولا ينقص لبلادة، فبقي المعلمون في «عش لا تمت» وإذا دخل رب الدار لداره فوجد اللبن في القدر قال للعيال : هلا أكلتموه، فقالوا له شبعنا فقال ادفعوه للكلاب فقالوا أبوه فقال اذهبوا به للطلبة في المسجد كي لا يخسر فلكم الأجر ...) [25].

21. انظر المعسول ج 11 ص 152.
22. انظر ترجمته بالمعسول ج 10 ص : 7.
23. نفسه ص : 17.16.
24. الاحضار : الأجرة.
25. محمد بن أحمد ـ روضة الافنان في وفيات الأعيان ـ تحقيق أنوش حمدي ص. 146.

ب ـ القضـــاء :

المهنة الثانية للفقهاء بعد المشارطة، حيث يفصلون بين الناس فيما يقع بينهم من خصومات سواء نالوا ظهائر سلطانية يستندون إلى شرعيتها أم لم ينالوها، وذلك بسبب حالة سوس السياسية، إذ كانت هذه المنطقة مستقلة غالبا عن السلطة المركزية، فإذا بسطت سلطتها كانت فرصة سانحة للفقهاء البارزين لينل ظهائر التعيين، اما إذا تقلص ظلها فإن كل من آنس من نفسه القدرة على فض النوازل ينتصب في الأسواق للفصل بين النداعين، أو يقبل عليه المتخاصمون في الدور والمدارس ليبث في خصوماتهم حسب مقررات الشريعة أو على الأصح المذهب المالكي ممثلا في منظومات المعاملات وشروحها وحواشيها، ومقابل ذلك يتقاضى النوازلي أجرته ممن ظهر أنه صاحب الحق بعد الاتفاق على مقدارها (26).

وبسبب تصدي كل من هب ودب للقضاء ثارت مناقشات عدة حول فض النوازل وأجورها وانقسم الفقهاء فريقين :

1. الفريــق الأول :

وهو الذي يحبذ الفصل بين المتخاصمين حتى لا تبقى الخصومات معلقة دون تطبيق حكم الشرع فيها إلا أنه مع اتفاق فقهاء هذا الفريق على فض النوازل فإنهم اختلفوا حول أخذ الأجرة عنها، إذ اعتبرها بعضهم رشوة وأكلا لأموال الناس بالباطل (27) خاصة من الذين يأخذون قدرا كبيرا من المال، ولا يكتبون لصاحب الحق إلا إذا كان بمقدوره دفع ما يطلبون من أجر (28) بينما ذهب آخرون إلى أن أخذ الأجرة لا حرج فيه إذا أنصف النوازلي وجاز ما استحق بلا اجحاف لأن ذلك تعويض له على ما استحق من بيت المال لقيامه بالفصل بين الناس ولما لم يتيسر له حقه هذا، جاز له أخذ الأجرة على الأحكام ومن هؤلاء ابراهيم بن محمد الظريفي الذي (كانت ترد عليه الفتاوى وأحكام الخصومات فيكتب فصلها وكان يأخذ الأجرة من الخصمين على ذلك وربما أخذ خمسين مثقالا دفعة واحدة، ولما اعترض عليه بعض فقهاء وقته في ذلك

---

26. المسعول ج 18 ص. 38.
27. المعسول ج 6 ص. 58.
28. المرجع السابق ص. 140.

أجاب بأن له حقا في بيت المال ولم يصل إليه وبأن ما يأخذه من الخصوم ما فيه كفايته) [29].

وانفرد بعض الفقهاء برفض كتابة الأحكام تورعا فإذا سئلوا عن نازلة أجابوا عنها مشافهة وربما عاهد بعضهم بعضا على ذلك [30].

2. الفريــق الثانــي :

وهو الذي يذم القضاء والبت في النوازل ويرى أن ذلك لا يتولاه إلا الطامعون في أموال الناس مما يجل الترامي في الباطل خصوصا وأن هذا القضاء لا سند شرعي له فيتولاه من أراد دون إذن السلطان المتمثل في ظهائر التولية، فتولية القضاة وعزلهم، واختيار منصفهم والانتصاف من ظالمهم كما ذكر عبد الله بن ابراهيم الرسموكي [31] في رسالة إلى أحمد بن محمد العباسي العلامة الكبير [32] حيث قال : (... والقضاء في أمثالها مما لم يكن فيها وال عادل مبسوط اليد أتم البسط ينتصف من القاضي والمتقاضي ... فيه من الشر الدنيوي والأخروي مما لا يفي عليك محصرا غالبا في أمرين إما جور القاضي وإما جور المتحاكمين إما جور القاضي فهلاك وإهلاك لا نفع فيه البثة، وأما جور المتحاكمين فشغل المرء بالقضاء معه إنما هو لعب ولهو وزينة وتفاخر في الحياة الدنيا لا فائدة فيه غير الإثم [33].

وقد بلغ التورع ببعض الأساتذة من العلماء منع طلبتهم من دراسة متون المعاملات والأحكام، باعتبارها كتبا لا يتعلمها الطلبة إلا ليطلبوا بها الدنيا [34] ومن أبرزهم العلامة أحمد بن عبد الله الصوابي [35] نزيل ماسة وكان دأبه التحذير (من القضاء بين الناس ويتعوذ بالله من أن يكون من قضاة زمانه لكثرة فسادهم ونذور السلامة ممن تولاه) [36] والعلامة محمد بن أحمد الحضيكي الذي كان

---

29. عبد الرحمان الجيشتيمي ـ الحضيكيون مخطوط ص 37.
30. المعسول ج 17 ص. 108.
31. لم أقف على ترجمته.
32. انظر التعريف به بالمعسول ج 18 ص 414.
33. كناش أحمد العوفي التزنيتي مخطوط ص 35.
34. عبد الرحمان التغرغرتي ـ مختصر طبقات الشعراني ج 4 ص 3 مخطوط.
35. انظر التعريف به في خلال جزولة ج 4 ص 34.
36. رحلة الحضيكي الحجازية مخطوط ص 2 ـ 3.

يطرد أهل الخصومات (وينهى تلاميذه عن الحكم بينهم، فقيل له من يفصل بين المسلمين إذا امتنع منه الطلبة ؟ قال : لو تركهم الطلبة لانفصلوا بلا حكم) [37].

ولعل سبب تنائي الفقهاء عن الأحكام راجع إلى ما يعانيه النوازليون من بطش وفتك من قبل المحكوم عليهم الذين لا يتورعون عن قتلهم انتقاما مما صدر ضدهم أحكام [38] حتى كان الفقهاء يرفضون البث في النوازل طلبا للسلامة وفرارا من معاداة الناس وكان هذا حال محمد بن أحمد الايديكلي التملي ودأبه والتهرب (من الحكم بين الناس، ولا يحب إلا أن يصالح بينهم، وكان يعلل كراهته للحكم ... بالخوف على نفسه من المحكوم عليهم ويقول : إنني أريد أن أنام على السطوح مطمئنا من غير خوف من أحد) [39].

ولا شك أن أصحاب الخصومات من عامة الناس لم تكن تهمهم معرفة حكم الشريعة في قضاياهم بقدر ما كان يعنيهم الحكم لصالحهم، فيتطلبون ذلك من النوازلي مما لا يمكن أن يقبله الا من كان غير متحرز ولا متورع، وقد وصف عبد الله بن إبراهيم الرسموكي حال المتخاصمين ومجالس أحكامهم منكرا ما يجري فيها من حياد عن الحق وهزل في الدين مشبها الخصوم بالأنعام التي تتهارش على أشياء غير ذات قيمة مبينا أن ذلك هو سبب امتناعه عن القضاء بين الناس قال :

قضى الله ألا أقضي الدهر بين ذا — وذا غير أن يقضى بملك عادل
فعذلا وعزلا من تولى ولاية — بغير مول عن سوى الحق عادل
وكل قضاء دون ملك فإنه — فجور وظلم أو فضول المهازل
أيا ويح من يرجو الأجور بجوره — أو الهزل في الدين العلي المنازل
إذا اختلفت آراء الأوباش بينهم — فكن أنت عنهم في بعيد المعازل
فهم نعم حال اغتلام فحولها — تصادمهم مثل اصطدام البوازل
فهم بعد ليسوا أصل عقل فيفهموا — مقالة حق في الفروع النوازل
أذوا لعقل يرضى بالولاية أمرهم — متى اختلفوا اصطكوا اصطكاك الجنادل
ليقتل بعض منهم البعض غيرة — على حبة أدنى حبوب الخرادل
ولا تغترر إن سلموا الحق ظاهرا — فباطنهم جحد وضغن المجادل

37. التغرغتي ـ مختصر طبقات الشعراني ج 4 ص 13.
38. أنظر مثلا المعسول ج 12 ص 296 و ج ص 26 وج 14 ص 11 وج 16 ص 10 وج 17 ص 18.
39. المعسول ج 17 ص 21.

فمـــن كان عن فلس وفليســـي حزنـــه   يثـــور فذاك الثـــور، ثور المهامـــل
متى رمت قربا منه ينطـــحك جهـــده   فعقـــرا وذبحـــا ذاك ليس بعامـــل [40]

ج ـ كتابة الرسائل والعقود :

ينفرد الفقيه أو يكاد بمعرفة اللغة العربية قراءة وكتابة في وسط أعجمي أمي لا رابطة بينه وبين لغة القرآن إلا يسيرا، ولما كانت كتابة العقود والرسائل وما شابهها تحرر بالعربية، صار الفقيه مقصورا لذلك الغرض، وربما كانت هذه الكتابة هدف الجماعة أو القبيلة من المشارطة لا إقامة شعائر الدين ولا التعليم والإرشاد ونسوق مثالين لذلك :

الأول : إشارة عبد الرحمان التمنارتي [41] إلى ظاهرة إهمال الناس مسائل الاحضار والمشارطة، وإقامة صلاة الجماعة بقوله (وقد جرى الأمر بالتهاون بذلك في كثير من القرى لاسيما أهل الجبال حتى أن معظم قصدهم في أخذ الطالب للمسجد إنما هو قراءة العقود وكتبها وكتب الرعوات فتهمل عندهم صلاة الجماعة وتعليم الصبيان وهي عقلة شنيعة ...) [42].

الثاني : زيارة جماعة سكان ميرغت العلامة محمد بن سعيد الميرغتي بعدما علا شأنه بمراكش (... فاسترجعوه إلى بلدهم لأنهم أولى بعلومه لينتفعوا به على ما زعموا، فشارط في مدرسة ميرغت، فكان كل واحد منهم متى أراد أن يكتب رسما يأتي إليه ويناديه : يا ابن عدي أريد كاغدا لتكتب لي فيه شهادة، فيعطيه الكاغد من عنده ويكتب له مجانا وربما ينزل عليه ضيفا، وحين أكثروا عليه بجفائهم قال كلمته المشهورة، يا مراكش يا كبدي، أما في ميرغت فأين كاغدك يا ابن عدي ... فأقلع إلى مراكش حيث استقر إلى أن لاقى ربه ...) [43].

وليس من عادة الفقهاء كتابة هذه الوثائق مجانا بل يأخذون عنها أجرة، وربما فضلها بعضهم على أجرة الأحكام كعبد الله بن محمد الكرسيفي [44]

---

40. كناش العوفي ص 36 ـ 37.
41. انظر التعريف به عند ليفي بروفنسال ـ مؤرخو الشرفاء ص 181 وعند اليزيد الراضي ـ أبوزيد التمارتي وشعره مخطوط.
42. الفوائد الجمة ص : 222.
43. المعسول ج 10 ص 201 و 202 وعدي التعريف الشلحي لاسم سعيد.
44. انظر ترجمته بالمعسول ج 17 ص 140 وما بعد.

و (كان ... يكتب عقود البيع والابراءات والأنكحة والديون ونحو ذلك ويأخذ عنها الأجرة وربما قال للمعطي زد لا يكفيك هذا إذا علم منه طيب نفسه بالزيادة) [45].

د ـ التطبيب :

كان الطب فيما قبل القرن الثالث عشر الهجري يدرس في بعض المدارس السوسية اعتمادا على كتب المشارقة والأندلسيين والمغاربة كالأنطاكي والزهراوي وابن سينا وابن رشد [46] وعلي بن صالح الدرعي [47]، وقد ألف السوسيون عدة كتب في هذا المجال سواء بالعربية ومن أولها مجموعة حسين بن علي الشوشاوي الطبية [48] أو باللسان السوسي ككتب عبد العزيز بن أبي بكر الرسموكي [49] وكان هذا الطب الساذج مبنيا ـ كما قال ابن خلدون (في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثا عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج)[50].

ولم يقتصر الفقهاء على تعاطي التطبيب بالأعشاب والعقاقير فقط بل كانوا يجمعون إليها العلاج بالرقي والتمائم والجداول والأحجبة وربما تجاوز بعضهم ذلك إلى السحر والشعوذة حتى صارت صفة الفقه منسحبة على كل من يتداول كتابة الأحجبة والوصفات السحرية، وبهذا أضحى الفقيه طبيبا يعالج أدواء النفس والجسد، واستغل بعضهم الفرصة لكسب الأموال فصاروا يهتمون بكل ما يوصلهم إليه من (جداول وأوفاق وطلاسم وعلوم السيمياء والكيمياء وأنواع الأزياج والاستخراجات والخدمات والاستترالات والعزائم والنيرنجات وتعاطي أسرار الحرف والأوضاع والتوفيقات إلى أن تعدى أكثرهم إلى تعاطي السحر بأنواعه والنفث والزناتي والرمل ...) [51].

---

45. عبد الرحمان الجيشتيمي ـ الحضيكيون ص : 28.
46. سوس العالمة ص : 53.
47. له منظومة طبية مخطوطة وقفت على نسخة منها لدى أحد فقهاء سوس.
48. أحصى العلامة المختار السوسي أربعة عشرا كتابا في الطب للسوسيين انظر سوس العالمة ص : 177 وما بعد.
49. خلال جزولة ج 4 ص : 18.
50. المقدمة ص : 888.
51. المعسول ج 3 ص 271.

وقد كثر إقبال الناس على أمثال هؤلاء في البادية السوسية وحتى الحواضر يتطلبون منهم قضاء المآرب وحتى الحاجات المنحرفة كما أشار الشاعر التتكي حينما عدد الشروط التي يجب أن تتوفر في الفقيه المشارط بقوله :

واستحبوا بل أوجبوا كونه الكا — هن يشغي مطامع الطامعين
فإذا ما هو واحليلة مرء — وحمت نفسها من الفاسقين
قدموا للفقيه ما يشتهيه — كي يصيد بالسحر من يشتهون

ويأخذ عامة الفقهاء أجرة على التطبيب إلا أنها غير محددة المقدار بل على قدر أريحية المتداوي، ويتغالى أصحاب الشعوذة فيها فيطلبون المال الكثير لعلمهم أن زائريهم لن يبخلوا بما لديهم لنيل مآربهم، أما المنزرعون من العلماء فلا يقبضون الأجر إلا بعد شفاء المريض وتحسن حاله مثل محمد فتحا بن أحمد ارسي [53] وكان (أكثر معاملته المرضى احتسابا للآخرة، وإذا أخذ الأجرة يقول هذا أقرب إلى الحلال من كتابة الوثائق والأحكام [54].

هـ ـ موارد أخرى :

لا يقتصر الفقهاء على امتهان الأعمال الخاصة بهم باعتبارهم عارفين باللغة العربية وعلوم الدين بل إن كثيرا منهم يهجرها للاشتغال بوسائل أخرى للكسب يمكن أن نقسمها إلى قسمين حسب المفهوم الخلدوني للكسب [55].

القسم الأول :

سبل المعاش الطبيعي وهي، الطرق الصحيحة للكسب كالفلاحة والتجارة والنساخة ...وغير ذلك ويجمع بعض الفقهاء بينها وبين المشارطة مثل العلامة عبد الرحمن التغرغرتي المهتم بالزراعة لا تفارقه الفأس والمسحاة، يعتني (بغرس الأشجار بيده، كاللوز وأكناري ـ التين، الشوكي وتعدله أزيد من ألف

---

52. من قصيدة زودني بها صديق الشاعر أحمد الراضي بتارودانت.
53. نسبة إلى إرس بانداوزال لا إرس بإداوكنيضيف أنظر ترجمته عند التغرغرتي مختصر طبقات الشعراني ج 4 ص : 1.
54. التغرغتي ـ مختصر طبقات الشعراني ج 4 ص 2.
55. انظر المقدمة ص : 694.

شجرة أدركت كله، وتؤتي أكلها تحت بصره). (56) ومحمد التملي الأرسي المتعيش (من نسخ كتب الحديث والسير وكتب التصوف، للعلماء العاملين للتبرك بخطه مبينة حسنة لا تصحيف فيها ويحسنون مع في الأجرة) (57). كما عرف عن فقهاء سوس وطلبته إتقان خياطة الأثواب (حتى أن السوسيين الذين يشارطون في الحوز وما وراءه، يتخذه من يشارطونهم خياطين رسميين في القرية فينتفع بالأجرة الأستاذ، زيادة على أجرة المشارطة) (58).

ويفضل فقهاء آخرون الاشتغال بهذه الحرف على القبوع في المساجد والمدارس ومن هؤلاء الفقيه الشاعر محمد الكثيري (59) الذي اشتغل بالتجارة فلامه أحدهم على ترك الشرط وعزه وانتحاء المتجر فرد عليه بقصيدة يظهرَ فيها معايب الشرط وما فيه من كد ومرارة قال :

وعـــــادل عنفنـــــي	لمـــا انتحـــيت المتجـــرا
وقـــــال لو ملت إلــــى	الشرط لكـــان أجـــدرا
في الشرط عز للفتـــــى	والمتجـــر فيـــه ما ترى
ومـــا درى المغـــرار أنـــي	كنت منـــــــه أبصرا
دريت من حالـــي وحـــا	ل الدهـــر فوق ما درى
الحـــر لا يشينـــــه	ما باعـــه أو إشتـــرى
والشرط عنـــــدي هور أ	س الـــدل لو استـــبصرا
قد عجت نحـــــــوه	فمـــا حمـدت منـه المخبـرا
قضيت فيـــه زمنـــا	شرد عن جفنـــي الكـــرا
ودقتـــه مرا ومـــن	يذقـــه مثلـــي استظهـــرا
هو الـــذي أنحلنـــي	هو الـــذي قد القـــرا
فلـــم يرقنـــي عصره	«كفـــي اللـــيث ما جرى»
اليـــوم قلبـــي قد سلا	عن شرطـــــه وأقصرا (60)

القسـم الثانـي :

سبل المعاش غير الطبيعي يلجأ إليها العاجزون عن طلب المعاش بالطرق الطبيعية، فيركنون إلى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب في تحصيله (61) ومن

56. المعسول ج 18 ص : 222.
57. التغرغرتي ـ ص : 2.
58. المعسول ج 1 ص : 39.
59. انظر ترجمته بالمعسول ج 9 ص : 245.
60. كناش الكثيري ص : 94.
61. ابن خلدون ـ المقدمة ص : 987.

هذه السبل صنعة الكيمياء والاشتغال بطلب الدفائن والأموال المكنوزة ...

ويظن محترفو الكيمياء إمكانية تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة بمعالجتها بواسطة مواد تختلف باختلاف طرق التحويل وأساليبه (62) وقد أشار العلامة ابن خلدون إلى أن معظم المشتغلين بذلك في المغرب (من طلبة البربر المنتبذين بأطراف البقاع ومساكن الاغمار يأوون إلى مساجد البادية ويموهون على الاغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة، والنفوس مولعة بحبهما والاستهلاك في طلبهما فيحصلون من ذلك على معاش، ثم يتقى ذلك عندهم تحت الخوف والرقبة إلى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفرون إلى موضع آخر) (63). ولانظن إلا أنه يعني بكلامه طلبة سوس الأغنياء مثل الحاج ياسين الواسخيني (64) الذي كان مولعا بهذه الصنعة حتى اتصل لأجلها بالسلطة المخزنية، وقد علق العلامة المختار السوسي على ذلك بقوله : (... ترك الحاج ياسين الكيمياء الحقيقية والكنوز الظاهرة بين أيدي أقرانه الذين استغلوا مكانتهم العلمية، قدرت عليهم أموالا لا يزال ورثتهم فيها إلى الآن مترفهين، فتتبع هو ذلك المحال عند أصحاب الإدارة الذين لا ينال منهم الا دون ما ينالون منه) (65).

أما المشتغلون بطلب الدفائن والأموال المكنوزة فيعتقدون أن كنوز الدول المنقرضة مخزونة في باطن الأرض، محروسة بطلسمات سحرية لا تستخرج إلا بكيفية معلومة حسب زعمهم فـ (يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المنحزمة الحواشي، إما بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن باعطاء الامارات عليها في أماكنها، يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونهم على الحضر والطلب ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من مقال الحكام والعقوبات، وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه، فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتضار والتستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء وعيون أهل الدول فإذا لم

62. نفسه ص : 988.
63. نفسه ص : 990.
64. انظر ترجمته بالمعسول ج 8 ص 242.
65. المعسول ج 8 ص 246 و 247.

يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي حتم به على ذلك المال) (66).

وقد تنبه العلامة محمد بن سعيد المرعتي إلى ما يقع فيه هؤلاء المعترون بطلب الأموال من الدفائن والكمياء من إضاعة الأعمال في غير ما نفع فقال يسفه أعمالهم وينصحهم بالإقلاع عنها إلى تعاطي العلوم التي هي الكنز الذي لا ينفذ :

خليلي إن الربح في العلم فاتركن	سبيل الكنوز الباطلات الكوادب
فذلك وسواس الشياطين للفتى	يصدونه عن كل ندب وواجب
وتاالله يا مسكين لم عشت مده	كمده نوح لم تعش غير تاعب
وكم مغرم بالكنز يلهت إتره	فمات ببير أو كهوف الشناخب
فمات ممات السؤال متشهدا	على حبه، كم من فقير وطالب
ولا تلتفت للكيمياء وأهلها	فماتم إلا الغش دعه وجانب
ولاتك مغترا بزخرف قولهم	فذالك إفكهم لقصد التجارب
وبعضهم يدلي بذلك حليه	وكيدا لأخذ المال من كل راغب
وكم طالب قد ضاع في ذاك عمره	عريب، فقير، تائه فيه غائب
وأقرانه نالوا العلوم وبعضهم	بتجر وحرث نال خير المكاسب
إذا شئت كنزا ينقد فاقتنع	وبادر إلى درس العلوم وواظب (67)

2. المدرسة مؤسسة قبلية :

كان المسجد يجمع بين الوظيفة التعبدية والوظيفة الوعظية التعلمية إذ كان الفقهاء يؤمون الناس في الصلوات ويتصدرون لإرشادهم وتوجيههم، كما يخصون طلبته بأوقات معينة يلقنونهم العلوم النقلية والعقلية.

ولما رسخ الاسلام وتبثت أصوله وتطورت العلوم وتعمقت الدراسات، لم يعد المسجد يفي بمهمة التعليم فأصبح إيجاد أماكن خاصة للتدريس وإقامة الطلبة وأستاذهم حاجة ضرورية، ظهرت لأجل ذلك المدارس ومؤسسات متخصصة تفي بالغرض.

66. ابن خلدون ـ المقدمة : 695.

67. مجموع مخطوط بخزانة المختار السوسي بتزنيت تحت رقم : 280.

ولما كان لسوس وضع خاص في التاريخ حيث لا تلبث السلطة المركزية التي تبسط عليه نفوذها أن تنجلي عنه، لم يكن بمقدورها المساهمة بفعالية في تنشيط الحركة التعليمية بتأسيس المدارس وتعيين الأسانيد وصرف الأجور، لذلك أضحى كل هذا من شأن القبائل.

وقد ساهمت القبائل السوسية في بناء المدارس ورعايتها خاصة إبان ازدهار الحركة التعليمية بمبادرة كبار العلماء وصلحاء الدين كانوا يرسلون طلبتهم إلى أماكن معينة لبناء المدارس منتدبين العرفاء وعامة الناس لمساعدتهم [68]، كما أن الفقهاء المدرسين غالبا ما يتولون بأنفسهم بناء مدارسهم أو تحويل مساجد قراهم إلى مدارس [69]، وفي خضم تنافس القبائل على بناء مؤسساتها التعليمية أضحت هذه من مظاهر التفوق والتطور في الوسط القبلي، وصارت القبائل التي لا مدرسة لها موضع السخرية والتهكم [70] كما أن أقوى القبائل تحرص على رعاية أكبر عدد من المدارس ويظهر ذلك من وجود كثير من مدارس سوس لدى تجمعين قبليين كبيرين هما إيلالن وإداولنيت وبالاضافة إلى كل ما سبق شجعت المعتقدات بناء المدارس فكان من الشائع في بوادي سوس ذات الاقتصاد الزراعي المعاشي أن عدم بناء المدارس يسبب القحط والجفاف لذلك حرصت كل القبائل على بناء المدارس.

ولا تختلف المدرسة في بنائها عن أبنية القرية التي تقع فيها من حيث المواد المستعملة ولا طريقة البناء إذ تتكون غالبا من مجلس للقراءة ومسجد لاقامة الصلاة ومحل لسكنى الأستاذ ثم بيوت لايواء الطلبة ومخزن لحفظ المؤن ثم مطبخ ومكان لاقامة أمة المدرسة أو خادمها وبيت صغير لتسخين الماء، ويغلب الفيق والسذاجة على البناء، ويقف المرء متعجبا من هؤلاء العلماء والطلبة الذين أفنوا أعمارهم في الاقامة بين هذه الجدران المتقاربة والسقوف الواطئة صابرين على لاواء المعيشة وقساوة الجو، لأجل نشر العلوم وكان هذا شعور العلامة المختار السوسي لما زار المدرسة التي درس بها محمد بن إبراهيم

---

68. انظر مثلا ارسال أحمد التمكدسني تلميذه الشريف الكثيري إلى هشتوكة لبناء مدرسة إذا ومحمد في المعسول ج 3 ص 304.
69. مثلما فعل محمد بن عبد الله الألفي أول أمره انظر المعسول ج 1 ص : 162.
70. انظر سخرية الايلالنيين من التمليين في المعسول ج 17 ص : 26.

الشيخ التمنارتي بقرية أكرض بتمنارت [71]، حيث قال : (... وازاء المدخل الخارجي مراق إلى المحل الذي يدرس فيه الشيخ أحيانا، وهو مبنى غرفا عليا واطئة السقوف لا يكاد يستقيم فيها الواقف ... وحوالي ذلك بيوت قليلة للطلبة المجاورين من الغرباء وكأني بأحد هذه البيوت كان مسكنا للعلامة عبد الله بن يعقوب السملالي [72] ... فكرت هنالك فقلت يا سبحان الله من ذا الذي يظن أن الأمكنة الساذجة وهذه السقائف البسيطة كانت ميادين فسيحة لأولئك الفطاحل المدرسين العظام) [73].

أما تموين المدارس فيختلف من مدرسة لأخرى حسب غنى أو فقر القبيلة التي تشرف عليها ونمثل لذلكِ بمدرستين :

أ ـ مدرسة سيدي إبراهيم بن علي بأيت وادريم : وكانت فرقة أيت توزونت المشرفة عليها قليلة المؤونة فكانت مدرستها ضعيفة لا تقدر على تموين الطلبة الكثيرين المجتمعين على الأستاذ محمد بن ابراهيم الركراكي فكانوا يتزودون من أهاليهم حتى يتمكنوا من متابعة دراستهم [74].

ب ـ مدرسة إدا ومحمد : وتشرف عليها قبيلة (كبيرة وهي تنيف عن إثنتي عشرة مائة كانون مع مالها من العنى الناشئ عن أرض طيبة صالحة للزراعة ومركز سهل معتدل الهواء حرارة وبرودة، متوفرة فيه أشجار الهرجل وغيره ... فلهذه توفرت خيراتها، وكثرت أعشارها وزكواتها، حتى أن مطاميرها الواسعة الكثيرة تملأ قمحا وشعيرا، وعدد المطامير التي بداخلها وخارجها ... أزيد من ثمانين مطمورة، كلها مملوءة زرعا، ومن تلك المطامير ما يكفي زرعها وحده لقوت الطلبة في السنة كلها لكبرها وسعتها) [75].

ولتنظيم العلاقة بين القاطنين بالمدرسة، إعتاد الأساتذة وضع قوانين تحدد الواجبات والحقوق والعقوبات للمذنبين، وكانت هذه القوانين في غالبها تنسج على غرار القوانين القبلية من حيث المعاقبة بالغرامات المالية إذ جعل

---

71. انظر حول الشيخ التمنارتي ومدرسة المعسول ج 7 ص : 5 وما بعدها.
72. أحد العلماء سوس الافذاذ من أهل القرن الحادي عشر أنظر المعسول ج 5 ص 5.
73. خلال جزولة ج 3 ص 16.
74. المعسول ج 5 ص 313.
75. المعسول ج 3 ص 305.

لكل ذنب مقدارا من المال، غير أن بعض الأساتذة كانوا يحاربون هذه العقوبات المالية استمرارا لمحاربتهم القوانين القبلية كأحمد بن محمد اليزيدي (76) وتلميذه محمد الكشيري الذي أنشدني مستدلا على رأيه بيت منظومة العمل الفاسي :

ولـم تجـز عقوبــة بالمـــال   أو فيه عن قول من الأقـــوال (77)

كما حكى أن أحد طلبة أستاذه اليزيدي بالمدرسة الالغية، حضر مرة قراءة حزب المساء القرآني بإحدى المدارس المجاورة، وبعد الختم طلب أستاذها من بعض تلاميذه تقييد أسماء الطلبة الغائبين، فسأله الطالب الألفي عن ذلك فأجاب بأن الغائبين يؤدون خمسين فرنكا عقوبة الغياب وعندما يجتمع ما يكفي من المال يقيم به الطلبة حفلة على عادتهم فعقب الألفي الزائر بقوله : ان في عملكم هذا ثلاث مآخذ الأول استرخاصكم قراءة القرآن بمعاقبة المتأخرين عنه بهذا القدر الضئيل من المال والثاني أن المعاقبة بالمال غير جائزة شرعا فيما هو مشهور والثالث أكلكم المال الحرام المجموع من العقوبات (78).

ولتفادي هذا الأشكال عمد الأساتذة آخرون إلى تعويض العقوبات المالية بالتغرير البدني، فلكل ذنب عدد معين من الضربات، ولعل أطرفها قانون مدرسة أبي البركات التنانية (79)، الذي نظمه أستاذها التامري في ثمانية وثلاثين بيتا (80) يقول في أوله :

الحمد للـه رب العالميــن قضى   بالعدل في الحكم لا يبغي به عوضا
سن العقوبات ضد المجرمين لاصـ   ـلاح العباد من الشر الذي بهضا
وبعد فالقصد نظم لزواجــر تر   دع المخل بما من نظــم فرضا

ثم انطلق يعدد الذنوب وعقوباتها وكلما كان الذنب كبيرا كلما كان عقابه أكبر فـ :

من كان لا يحفظ الدرس الذي كتبا   يضرب عشر إذا لم يفت غرضا

---

76. من علماء سوس المتأخرين الأفذاذ انظر ترجمة بالمعسول ج 9 ص : 167.
77. المجموع الكبير من المتون ــ منظومة العمل الفاسي ص 214.
78. جلسة معه بعد عصر الثلاثاء 22 شتنبر 1992 بضيعته بأولاد داحو بهوارة.
79. انظر في التعريف بها عمر المتوكل الساحلي ــ المدارس العلمية والمعهد الاسلامي ج 4 ص 105.
80. سلمني نسخة من هذا القانون المنظوم الأستاذ أحمد أبو القاسم بتزنيت.

فإن أفـــات يزاد مثلـــه أدبـــا   على الجهود التي ضيعها ومضى

أما من ابتلى بالنوم وعدم استيقاظ في الصباح الباكر للدراسة فعقابه أشد قـــال :

من نام عن درس يضرب عشرا وخمـ   ـس ضربات عقابا ضعفـــه فرضا

ولما كانت تلاوة القرآن صبحا وعشيا فرضا واجبا في المدارس العتيقة مع احترام مجلسه وتجنب كل ما يخل به، أوعد الناظم المشوشين بأشد العقاب بلا عد للضربات بل يضرب المذنب حتى يسيل جلده دما قال :

من يسافـــر بلا إذن فأولـــى له   ألا يعـــود إذا ما عقلـــه حرصا
أما إذا عاد غير مظهـــر أسفـــا   ولا اعتذارا صحيحا أنه ما مضى
إلا لعـــذر جلـــي فالعقـــاب له   يشتد وهو الذي لسيف ذاك نضى
ومن تعدى على الجيران فهو الـ   ـى السلطة يبعث ما عليه عندي قضا
كذا من بخروج أو كسور أتـــى   ـ لا قدر الله ـ في غيرها مرضا
ومن غدا سارقا شيئا ولو تافهـ   ـا فالغرم والضرب والطرد ولو بقضا

وهكذا يستمر الناظم في تعداد المخالفات وعقوباتها ثم يختم بالاشارة إلى أن هذا العقاب البدني لم يحدث الا لمن خلى قلبه من الحياء بقوله :

تلك قوانيـن للزجر وضعن لمـــن   لم يكن القلب فيه بالحياء أضا
فلا عقاب ولا خوف على أحـــد   ما دام بالتقوى والحياء قد غرضا
والله يهدي الجميع للمحجة حتى   لا يرى أحـــد للضرب قد عرضا

وإلى جانب مهمة المدرسة التعليمية فهي مكان نزول الطلبة والفقهاء الغرباء أثناء أسفارهم، ومجتمع رسمي لرؤساء القبيلة وأعيانها للتداول في شؤون قبائلهم (81) ومحلا لحفظ أمانات الناس التي يخشى عليها الضياع (مخافة إغارات العدو ونهب الديار لاسيما عند استحكام السنين الممحلة ذوات القحط والجوع لكون المدارس وفقهائها في غاية الاحترام، وذلك من ذهب وفضة ولبان ورسوم وأنواع الأمتعة) (82).

---

81. المعسول ج 16 ص 176.
82. المعسول ج 3 ص 281.

3. وضعيـة الطلبـة السوسييـن :

الطلبة هم عماد حركة التعليم ومادتها يؤمون المدارس بعد حفظ القرآن واتقانه، ويهتم غالبهم بتحصيل الفقه والفرائض والحساب وبعض اللغة لما يتغون من وراء ذلك من العيش الحسن [83] وقد سأل أحد الطلبة أستاذه أن يريه إكسيرا يتعيش منه، فأراه متن مختصر خليل وقال له أتقن فهمه تتعيش من ورائه [84].

ولنيل هدفهم يتصل الطلبة بالأستاذ بصفته الشيخ المربي وبالمدرسة باعتبارها المسكن والمأوى لغاية انتهاء الدراسة ومن خلال هاتين العلاقتين تتحدد وضعيتهم وفرص نجاحهم في مقاصدهم العلمية والعملية.

أ ـ وضعية الطلبة في المدارس :

كانت حياة الطلبة عند إقامتهم بالمدارس محفوفة بالمكاره خاصة الفقراء، المعتمدين على مؤونتها وكانت الأحوال تضيق عليهم أيام المساغب حين لا يجدون مايتقوتون به فيقتصرون على ما يسد الرمق، بينما كان البعض الآخر منهم يتزودون من لدن أهاليهم، وكان الطلبة يفضلون لذلك المدارس السهلية الغنية حيث الأقوات وافرة والأحوال المناخية ملائمة متجنبين قدر الامكان المدارس الجبلية الشحيحة المعاش القاسية الطقس [85].

وبسبب الفاقة وقلة ذات اليد يلجأ الطلبة إلى الاشتغال ببعض الأعمال بكسب المال اللازم لمتابعة الدراسة مثل :

ـ الاشتغال ببعض الحرف كالتجارة والجزارة، فيردون الأسواق القريبة يتاجرون أو يعملون بها ... [86].

ـ المشارطة لفترة معينة في مسجد من المساجد الصغرى لا تزيد غالبا عن السنة يحصل بعدها الطالب على أجرته فيعود إلى مدرسته للقراءة [87].

---

83. المعسول ج 13 ص 134.
84. المعسول ج 17 ص 220.
85. انظر المعسول ج 9 ص 130 وج 10 ص 161.
86. المعسول ج 15 ص 132 وج 18 ص. 45.
87. المعسول ج 18 ص 340.

وكان طلبة رأس الوادي [88] في غنى عن مثل هذه الانشغالات إذ كانوا يتلقون ما يكفيهم من قوت من السكان و(العادة في كل مدارس تلك النواحي أن تعطي الأسر الرتيبات [89] للطلبة الغرباء، يتنافس الناس في ذلك في كل تلك القبائل وبذلك عمرت مدارسهم ومساجدهم بالطلبة الغرباء من الجبليين والبعمرانيين والفائجيين ممن يرتحلون للعلم أو القرآن.)[90] وقد تمتع طلبة هذه المنطقة بوضع معيشي جيد إذا قورنوا بزملائهم في بقية المناطق، فبينما كان أحد طلبة الألغية يتقمم النفاية مما يلقيه أملياء الطلبة ويتبلغ بأوراق الاتاي التي تلقى بعد شرابه أمام البيوت في أواني الكناسات والقمامات [91] كان طلبة رأس الوادي يأكلون حتى التخمة ولا أدل على ذلك من إشارة العلامة المختار إلى وجود حفرة كبيرة بجانب إحدى مدارس المنطقة يطرح فيها الطلبة ما فضل عليهم من أطعمة فكانت تمتلئ بها [92].

ولما كان التعليم في سوس مرتبطا بالحالة الاقتصادية، تأثرت حالة الطلبة بذلك وكثيرا ما تتوقف الدراسة إبان المساغب أو تسير عرجاء بعد أن يودع الأساتذة غالب طلبتهم لعدم استطاعة المدرسة القيام بهم مجتعمين [93]، ويبدو أن حال طلبة تارودانت كان أحسن إبان وجود سلطة مركزية قوية فيها في العصر السعدي إذ ساندت الأوقاف حركة التعليم بالجرايات والعطايا خاصة بإشراف ناظرها العلامة سعيد بن علي الهوزالي الذي كان (... له عطف عام على طلبة العلم بتوسعة العطاء مما إلى نظره من أحباس حاضرة السوس وكان يرى أن توفير مستفادها ذريعة التسلط عليه ...) [94].

ولم يكن سؤالا حوال والمعاناة يفارقان الطلبة السوسيين المرتحلين لطلب العلوم الحواضر المغربية الكبرى بل إنها أشد لبعدهم عن الأهل والأوطان

---

88. هي المنطقة الواقعة أعلى وادي سوس شرق تارودانت حيث قبائل المنابهة إيرحالن هوزيوة، سكتانة أنظر خلال جزولة ج 167 وما بعد.
89. مفردها رتيبة ويقصد بها الطعام الذي تلتزم كل أسرة بتزويد طالب تختاره به.
90. المعسول ج 16 ص : 157.
91. المعسول ج 9 ص : 36.
92. خلال جزولة ج 3 ص 186.
93. المعسول ج 1 ص 168.
94. عبد الرحمان التمنارتي ـ الفوائد الجمة ص : 22.

وقد وصف علي بن ابراهيم السملالي [95] حال أمثاله من الطلبة الغرباء بفاس في رسالة كتبها إلى أهله بسوس يطلب فيها المعونة ويعبر عما يكابد من فاقة حتى ليعرض كتبه بل وملابسه للبيع بقوله : (... انقضى ما عندي قبل كتبي هذا بخمسة أشهر أو أكثر فوالذي بعث بالحق محمدا ما كان في ملكي حين الكتب ما أشرب به عند السقاء في السكة ولا ما أشتري به خبزة واحدة فضلا عن غيرها ومن كذب فعليه ما يلزمه، وترتب في ذمتي سلفا نحو ثمانية مثاقيل أو أكثر ... وانتم تعرفون ما نحن فيه فإن رأيت جوابكم في قريب فنعم، والا فشيخاي الفقيه المرنيسي والفقيه الكردودي طلبا مني أن أبيع لهم القاموس بسبعين مثقالا مرارا بعد مرار ثم بعد ذلك راودني عليه أيضا الفقيه الشريف مولاي أحمد الصقلي بالعدة المذكورة فعزمت على البيع وموافقته على ما طلب مني ... فلا تستهزؤوا في إرسالكم إلينا ما هو مقصود منكم فوالله ما بعث إلا حاشية العبادي التي عندي لأشتري بها حائكا نحتاج إليه غاية وبعت الذي كان على ظهري بأربع أواق ونصف وما ملكت غيره) [96].

ومن هذه الرسالة نتعرف على الملابسات التي تحيط بالرحلة العلمية للطلبة السوسيين إلى الحواضر فتجتمع عليهم الغربة والفاقة وقلة الحيلة فلا يزالون مصابرين حتى يعودوا إلى أهلهم ممتلئين علما ومعرفة فلا يلبث صيتهم أن ينتشر وتشير إليهم الأصابع وتقصدهم الوفود بعد أن لاكهم الدهر بشدقه.

وقد كانت المدرسة في نظر الطلبة خاصة إبان ازدهار التعليم العربي، الباب المفتوح على المجد والرقي الاجتماعي في مجتمع لابروز فيه إلا بالتصوف أو الفقه [97] فكان أحدهم يأتيها جاهلا إلا ما كان من حفظ القرآن وبعض المتون، فيرابط بها عقدا من الزمن أو أقل أو كثر، فينصرف عنها وقد احتقب من المعارف والعلوم مايجعله عند الناس في أعلى عليين، غير أن هذا الوضع تغير بالكلية لما أفل نجم التعليم العتيق وانثال الناس إلى المدارس العصرية، وشعر المقيمون بالمدارس العتيقة بما هم فيه من تعب بلا طائل في زمن احتقر فيه التعليم الأصيل وأهله وسدت في وجوههم أبواب العيش فلا

95. انظر التعريف به في المعسول ج 12 ص 301.

96. المرجع نفسه.

97. انظر أحمد التوفيق – التاريخ في الزمن المعسول ضمن أعمال ندوة محمد المختار السوسي الذاكرة المستعادة ص : 66.

يطمع أحدهم بعد تخرجه الا في المشارطة بأحد المساجد القروية أو على أحسن حال في إحدى المدارس يقضي فيها عمره بتكرار مدروسه دون زيادة ولا نقصان، بينما كان المجال فسيحا أمام الطلبة في القرون الخالية فيختارون التدريس أو القضاء أو كتابة العقود والوثائق وغير ذلك.

وقد عبر أحد طلبة المدارس العتيقة المتأخرين [98] عن معاناته فيها حتى شبهها بالسجن الذي ما بعده إلا ذل الشرط الذي يشترك فيها المتفوق والبليد راجيا من الله تيسير الترحال عنها فإن لم يكن فالموت أولى ملاحظا أن عصر التعليم العتيق قد ولى وأقل فليس هناك إلا الجوع والفقر وذلك في قصيدة نصها :

ملـلت مدرستـي المقامـا — إلـى متـى أبلـغ المرامـا
ضحـيت فيك بثلث عمـري — سعـي امـريء بالنجـاح هامـا
أبعـد سبـع السنيـن أبغـي — لي خطـة فيك واغتنامـا
آلـيت أن لا أزال حتـى — أنـال مرغوبـي أو حمامـا
إن صح حنث الأولـى فأخـرى — ياعمـر فلتنقض انصرامـا
شقاؤنـا فيك من أهـال — ذنوبهـم فينـا كالجبـال
قالـوا لنـا حيـن ودعونـا — هنـاك جدوى وروح بال
هنـاك مجـد هنـاك فخـر — هنـاك فلتبتغـوا المعالـي
ما العلـم إلا العتيـق فادأب — ولتحـظ بالسبـق في المجـال
فقلـت لمـا بلـوت أمـري — أخطأ تمول الحـق في المنـال
لعـل في غابـر الزمـان — ما قلتمـوا لا في ذا الأوان
قرأت في ذي الرحـاب سطـرا — الجـوع والفقـر واجبـان
فهـل مدارسنـا العتيقـا — ت ـ صاح ـ إلا دور الهـوان
فمـا أراهـا إلا سجونـا — مؤبـدات لكـل وان
إن حلهـا المـرء وهـو شاب — فالنجـح إن شاب في ضمـان
مالعلـم إلا الحـديث فاحتـل — للـفك، كم ذا وأنت عان
إن كان غايـة مشتهـا كا — «شرطـا» فقـد جزت منتهاكـا
كم من جهـول أضحـى إمامـا — لم يدن شبـرا من مستواكـا
والـذل شرط في كل شرط — فذل أن نلتقـي مناكـا
والجهـل أولـى من علـم مرء — مقيـد لم يطـق حراكـا
اللهـم ضقنـا ذرعـا فيسر — إمـا ارتحـالا، إمـا هلاكـا[99]

98. هو الشاعر عبد الله العاطفي التتكي المذكور أنفا.

99. القصيدة مؤرخة في 20 محرم 1395 هـ وقد عنونها صاحبها «إلى مدرستنا العتيقة» زودني بها صديقه أحمد الراضي بتارودانت.

وتعتبر هذه القصيدة أصدق تعبير عن أزمة التعليم في المرحلة الراهنة خاصة وأنه يعيش مفارقة كبيرة تتمثل في مواصلته تدريس مواد عفى عليها الزمان بمناهج أقل ما يقال عنها أنها بدائية، بل صارت هذه الدراسة منعدمة وصار الطلبة وأساتذتهم في زماننا الراهن مجرد قوم يعيشون عالة على مجتمعهم يزجون الاوقات بادعاء العلم وشهادة أثرية على عهد مضى واضمحل.

ب ـ علاقة الطلبة بشيوخهم :

تختلف هذه العلاقة باختلاف الطلبة والأساتذة إلا أنها في الغالب علاقة أبوية تنم عن العطف الذي يحظى به المتعلمون، ويظهر ذلك في محافظة الأستاذ فلا يقبل بها الا من تبين له أنه جاءها لطلب العلم ويطرد منها من يسبب الفوضى ويخل بشروط التعليم مما يكفل للباقين التفرغ للتحصيل، وقد مرت بنا قصيدة التامري التي نظم فيها قانون مدرسته، وفي آخرها حدد مسؤولياته باعتباره أستاذا حريصا على مؤسسته وجعل الحفاظ على الأمن والهدوء من أولوياتها يقول عن ذلك :

هذا وللكل حق في الأمان وفي	حمايتي عرضه والوقت والعـــرضا
والنفس من كل هون أو ضياع أو النـ	ـهب وشبه وفي النصح الذي ممحضا
علي الايطـــا أرض المحـــل سوى	من يطلب العلم أو بالدرس قد حمضا
وكل من جاءه لغير دين فطـــــ	ـردا ثم للضرب يمسى جلده غرضا
وعد وعدته والرحمان أسأل عو	نه علـــى أن أفـــي وفـــاء من غرضرضا (100)

كما يحرص الأساتذة الفطنون على تفقد أحوال طلبتهم فيواسون الفقراء خاصة المجدين منهم يزودونهم بالطعام ابان سنوات الجذب ومن ذلك ما حكاه محمد بن عبد الله الزيكي (101) لما كان يأخذ بمدرسة بونعمان على أستاذها الشيخ محمد بن مسعود المعدري (102) واصفا ما كان يحيطه به من عناية إذ قال : (وكان الأستاذ يعينني أنا خاصة من بين رفقتي لما انس من أحوالي التي يراها تجانب أحوال الطلبة، فكان يوصي لي خادمه بأطعمة الخاصة

100.من القصيدة التي زودني بها الأستاذ أحمد القاسم بتزنيت.

101.انظر التعريف به بالمعسول ج 15 ص 176.

102.انظر التعريف به بالمعسول ج 13 ص 38 وما بعد.

التي يقدمها لأضيافه، وقد أصابتنا هناك سنة مجذبة، فأمرها أن تتفقدني في ظلمات الليالي فتعطيني من هري المدرسة سرا، فأطعن أنا بعيدا عن المدرسة خفية عن الطلبة وذلك لأن غالبهم مكفي المؤونة) [103].

وإمعانا في المساواة بين الطلبة يمنع الأساتذة الأغنياء منهم التظاهر بما يميزهم عن غيرهم من الفقراء، حتى لا تصبح المدرسة ميدانا للتباهي والتفاخر بغير العلوم، وقد بلغ من حرص الفقيه عبد الله بن محمد خرباش [104] (منع شرب الأتاي في المدرسة إلا في المناسبات التي يكون فيها شربه عاما للطلبة كلهم، ومن عادته أن يعطيهم ما يكفيهم من السكر والأتاي في أمسية الخميس ...) [105].

ولا يقتصرون على الخدمة بل يحترمون شيوخهم ويوقرونهم إلى حد يصل إلى أمام التقديس، فتنتفي شخصية التلميذ مما يجعله كما يقول الصوفية كالمريض أمام طبيبه أو الميت أمام غاسله، فلا يقدمون على أمر إلا بإذنه ولا يعقدون شيئا من مهمات أمورهم إلا بمشاورته، وإذا عدنا إلى بعض أدبيات التعليم والتعلم في سوس نجدها تلح على هذا الجانب وتوضح بالتدقيق آداب تعامل الطالب مع شيخه في كل الأمور ما عظم منها وماهان، ونرى لزاما علينا للتمثيل استحضار نص من رسالة آداب التعليم للعلامة محمد بن أحمد الحضيكي [107] يوضح لنا تصور هذا الأستاذ لما يجب أن يكون عليه سلوك طلبته معه ومع غيره من الشيوخ قال : (والضابط مراعاة الأدب وحفظ قلب الشيخ، فللعبارة أثر وللنظرة وللجلسة، وأن لا يسبق الشيخ إلى شرح معنى أو جواب سائل، أو يعيده بعد ذكر الشيخ اظهارا منه لمعرفته، ولا يقطع كلام الشيخ بسؤال أو حكمة وغير ذلك، بل يصبر حتى يفرغ الشيخ وان تصدر الشيخ لقصة أو حكاية أو أخبار ثم فرغ منها فلا يذكر التلميذ قصة أخرى أو حكاية تشبه تلك فيؤدى ذلك إلى انقطاع حديث الشيخ وصيرورة الكلام بينه وبين التلاميذ مذاوبة فهذا من سوء الأدب، وحق التلميذ أن يغمد لسانه ويفتح

103.المعسول ج 15 ص : 176.

104.انظر التعريف به بالمعسول ج 14 ص 201.

105.المرجع نفسه ص : 203.

106.عبد الرحمان التغرغرتي ـ مختصر طبقات الشعراني ج 4 ص 37.

107.انظر التعريف به المعسول ج 11 ص : 302.

أذنيه ويدع معلومه مطويا لسماع الشيخ ومن الحكم : إنما خلق للانسان لسان واحد وأذنان ليكون سماعه أكثر، ولا يقل عند سماع قصة أو فائدة قد ذكرها ونص عليها فلان في كتابه أو هكذا سمعناه وحفظنا أو رأينا، بل يظهر من نفسه أنه ما رأى شيئا من ذلك ولا سمعه قط لحفظ قلب الشيخ، إلا أن يعلم أن الشيخ يحب ذلك وإن ناله الشيخ شيئا تناوله باليمنى ... وإن ناوله هو رسالة أو فتوى أو رسالة أو سؤالا ناوله باليمنى أيضا منشورة لئلا يتكلف الشيخ نشرها إلا أن يخشى وجود سر لا يجب الاطلاع عليه، وليقم بين يدي الشيخ ثقل إخراج يديه أمسك المكتوب له حتى يقرأه، وإن يمد يديه بل إن علم من الشيخ ثقل إخراج يديه أمسك المكتـ ب له حتى يقرأه، وإن احتاج إلى كتاب هيأه له أو مسألة منه في محل فليره المحل، ولا يحوجه إلى التفتيش، ان ناوله قلما فليمده أولا، أودواتا فليفتحها ويهيئها، أو سكينا فلا يرد إليه حدها وإن احتاج سجادة لصلاة أو جلوس فرشها له وإذا قام بادر إلى أخذها وكذا النعل يقدمها ويهيئها وكذا سائر الخدمة مما فيه حفظ قلب الشيخ، ومن أنف من خدمة المشايخ أو استحي فهو محروم ...) [108].

ولا تنتهي علاقة الطالب بأستاذه، بمغادرته المدرسة بل تبقى متصلة دائما خاصة وأن الشيخ يختار طلبته المجدين المطيعين فيبعثهم لعمارة المدارس التي يأتي إليه أهلها طالبين إرسال من يقوم بالتدريس فيها وذلك جزاءا لهم لتفوقهم في الدارسة واحترام شيوخهم [109]، ويحرص الشيوخ على رعاية تلاميذهم المتخرجين وتوجيههم فيما يعرض لهم من شؤون الحياة عامة ومسائل الدراسة خاصة، إذ أن التلميذ لا يأخذ عن شيخه العلوم فقط بل يتلقن أساليب الحياة وطرق التفكير ويتضح هذا أكثر إذا علمنا أن كثيرا من الطلبة كانوا يأخذون عن شيوخهم أوراد الطرق الصوفية وأذكارها وعهودها [110].

ومن مظاهر هذه الرعاية المراسلة بين الشيخ وتلميذه ينصحه ويوجهه كلما عارضه أمر من أمور الحياة ويمكن أن نقسم هذه المراسلات إلى قسمين حسب مواضيعها. فهناك رسائل تتعلق بشؤون الدراسة يكتبها الشيخ إلى تلميذه

108. محمد بن أحمد الحضيكي ـ رسالة في آداب التعليم مخطوطة ص : 675.
109. انظر مثلا المعسول ج 18 ص 253.
110. انظر مثلا المعسول ج 3 ص 61.

محاولا إفادته بتجربته الخاصة في الدراسة مبينا ما يصح، سلوكه من سبل وما يجب تجنبه من أساليب، وهناك رسائل أخرى تتعلق بشؤون الحياة العامة وكيف يجب على التلميذ أن يتصرف باعتباره فقيها وعالما له في المجتمع مكانة خاصة تلحظ العيون كل أعماله، ونمثل لهذين القسمين برسالتين :

الرسالة الأولى :

للعلامة محمد بن سعيد المرغتي وقد بلغه أن تلميذه العروسي بن عبد الله الجراري [111]، قام ببناء مدرسة لنشر العلوم فكتب إليه معبرا عن رؤيته للتعليم وكيفيته، مرشدا تلميذه إلى نواقص المدارس السوسية، نادبا إياه إلى تجنبها وحسن اختيار الطلبة من الحريصين على تعلم الدين للعمل به خاصة العقيدة والفقه، لا من الذين ينفقون أيامهم في حفظ القرآن ومعرفة قراءاته ومصطلحاتها ودقائق أسرارها، وقد جمعوا إلى ذلك ضعف الايمان والجهل بالدين وسوء الأخلاق، فلم ينتفعوا بما تعلموا وضاع بذلك تعبهم فمثل هؤلاء يجب منعهم من الإقامة بالمدارس وطردهم منها درء المفاسد ونص رسالته :

(... بلغني أنكم بنيتم المدرسة للطلبة للتعاونوا معهم على طاعة الله تعالى فحمدنا الله لكم على ذلك إذا علمتم بقوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾ [112]. فنسأل الله لكم الكمال بجاه نبيه ﷺ، ولكن أريد أن أنصح لكم فإن الدين النصيحة، وهو سهم بيني وبينكم، وذلك أن المسافرين [113] الذين يسكنون فيها إن لم تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، فكل ما وقع منهم فأنتم شركاء فيه لكونكم أعنتموهم عليه بالغذاء والعشاء والبيوت فما فائدة المدرسة إن كانت على هذا الوجه إلا بالزيادة بذنوبهم على ذنوبكم وإن كنتم تلمزونهم بالمعروف وتنهونهم [114] عن المنكر فقد صدق عليكم قوله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾، وإلا صدق عليكم قوله تعالى ﴿ولا تعاونوا على الاثم والعدوان﴾، وها أنا أبين لكم بعض ذلك لأنه يخفي على كثير من الناس إلا من أيده الله بنور العلم والفهم نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم منهم آمين.

111. انظر التعريف به في الرحلات العلم العربي في سوس ص : 40.
112. الآية الثالثة من سورة المائدة.
113. المسافرون في عرف السوسيين هم الطلبة الغرباء المرتحلون لطلب العلم.
114. في الأصل المخطوط تامروهم، تنهاهم والموافق للسياق والصحيح ما اثبتنا.

وبيانه طلبة هذا الزمن يشتغلون بدارس كتاب الله وأحكامه من الضبط والحفظ سنين كثيرة وهم في تلك المدة كلها في معصية الله تعالى لأنهم تركوا الفرض يعني فرض العين الذي كلفهم الله به ويسألهم الله عنه يوم القيامة، ثم اشتغلوا بالنوافل التي لم يكلفوا بها ولا يسألوا عنها فضاع الدين الذي هو المقصود في القراءة وهم يحسبون أنهم يحسنون صغار والعياذ بالله فتراهم إذا ذكروا الحدف والاثبات والنقطة الحمراء والخضراء والزائد الملحق [115] نشطوا لذلك وإذا ذكروا التوحيد الذي يعد العبد به من المسلمين وفرائض الوضوء والغسل والتيمم وفرائض الصلاة وتفسير الحلال والحرام وتقوى الله وعبادته والجنة والنار وغير ذلك مما هو فرض عين على العبد المكلف البالغ فروا من ذلك وبعد من ساحته، وإذا ساقهم القضاء والقدرة بالحضور عنده نعسوا في المجلس سهوا لا يردوا عقولهم بحفظ شيء منه، وإذا طرحوا الألواح [116] شغلوا أنفسهم بما تهوى من اللهو واللعب والصياح والجري وقلة الحياء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

والحاصل من لا يشتغل بالتوحيد وبالفقه بعد التوحيد فلا يسكن مدرستكم ولا تعاونوه على مراده من قراءة القرآن قبل قراءة التوحيد والفقه الذي يلزمه فإذا استحييتم من طرده أو إخراجه فما ضرر تم إلا أنفسكم، والله أحق أن يستحيى منه، وهذه نصيحة لكم ولغيركم من الطلبة ونؤكد على مؤدبكم الذي يسلك عليه الطلبة إذا جاءه طالب فليختبره فإن وجده عرف الله ورسوله وحصل عقائده وفرض عين منه فليجود له لوحته، وإلا [117] فليهرب منه ويقول له إقرأ ما فرض الله عليك والا فاذهب عني والسلام، وينبغي له ولغيره أن يحب كل من يقرأ التوحيد والعلم ولو يحمله على ظهره لأنه حبيب الله وحبيب رسوله وأن يكره غيره ويطرده ولو كان أباه لأنه عدو الله ورسوله والسلام) [118].

ومن خلال هذه الرسالة نتبين حرص الشيخ المرغتي على توجيه تلميذه الجراري إلى السبيل الصحيح للتعليم وهدفه المحقق فالهدف ليس المعرفة بل هي وسيلة إلى فهم الدين والعمل به.

115.هذه التعابير من مصطلحات القراءات.

116.يقصد الألواح التي يستعملها الطلبة في القراءة.

117.في الأصل المخطوط «بل يهرب» والعبارة بذلك فاسدة ولعل ما أثبتنا هو الصحيح.

118.كناش العوفي ص : 8.

3. **طبقة المنتهين** : ألفية بن مالك بالصبان والاشموني في النحو، السلم في المنطق وجمع الجامع في الأصول، والعروض بالخزرجية منية بن الفاربي في الحساب واللوغريتم في التوقيت، رسالة الماريدي في الربع المجيب، تقريب البعيد في تعديل القمر، والنخبة الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية والأطلس العالمي في الجغرافية.

ولعل ما يمكن استنتاجه من هذا المخطط للعلوم والفنون المدرسة هو سيادة العلوم الشرعية واللغوية على المضامين الملقنة وخاصة بالنسبة لطلبة الطبقتين الأولى والثانية ثم ارجاء تلقين بعض العلوم العقلية والتجريبية إلى المرحلة الثالثة أي النهائية، وما دام العدد الذي يكمل دراسته في هذه المرحلة يبقى جد محدود فإن الاستفادة ليست بذات أهمية. والملاحظة الثالثة هو غياب مجموعة من العلوم التي كانت تدرس في العهود السابقة كالطب، الهندسة، التصوف، التنجيم وعلم الجداول وعلم البحر والملاحة ... أما الملاحظة الرابعة فإن العلوم الأخرى التي تمت الاشارة إليها في المخطط السابق لاحظنا أنها لا زالت تدرس بوسائل وتقنيات بسيطة اعتمادا على كتب قديمة لا يمكن أن تستغرق التطور المذهل الذي لحق بهذه العلوم، ولعل ما يزيد من تفاقم الوضعية هو عجز المدرسين أنفسهم عن متابعة المستجدات العلمية في غياب اطلاعهم على لغة تمكنهم من الوقوف على نتائج البحوث العلمية في هذا الميدان المتطور.

الأساليب والطرائق المتبعة :

مما لاشك فيه أن الطالب يبقى حريصا قبل الاقبال على الكتابة أن يهيء ما يحتاجه لذلك سواء تعلق الأمر بالصمغ الذي يحضره من الصوف وإفرازات بعض الأشجار، أو تعلق الأمر بتحضير القلم الذي لن يتوان الفقيه في مراقبته. ثم يتحلق الطلبة على الفقيه فيملي عليهم ما يراه مناسبا لكل منهم حسب قدرته وطاقته وحسب درجة تحصيله ومستواه، وقد يبقى الزائر مشدوها عندما يعاين طريقة وأسلوب تعامل الفقيه مع جماعة غير منسجمة من حيث السن، والمؤهلات ومن ثم من حيث مضامين ما يملي عليهم ... فهذا يكتب كلمة ويشير له المدرس إلى رسمها، والآخر يملي عليه أية بأية ... والثالث يسائله عن بعض الشروح ... وإذا كان الفقيه حارصا أشد الحرص على معاقبة

الخالص قبل أن يتمكن، بسبب ترددك إلى من نهيت عن التردد إليهم مرارا، مع أن الواجب هو تعظيمهم وصمودك إلى ما أنت بصدده ثم لا تلتفت إلى قادح أو مادح ...) [122].

خاتمـــة :

من خلال كل ما سبق نخلص إلى ملاحظة مقدار الصعوبات والعراقيل التي جابهت حركة التعليم العتيق في سوس طوال تاريخه، فلم تكن السبل سالكة أمامها، فبالنسبة للفقهاء المدرسين كانت العراقيل تتجسد في قلة الأجرة إضافة إلى تسلط العرفاء الجهال واستبدادهم بأمور المدارس وعدم تقديرهم للأساتذة إلا إذا كانوا لهم من المتذللين الخاضعين وبسبب ذلك كانوا يهجرون المدارس ليتطلبوا المعاش في أعمال أخرى مما شكل ضياعا لطاقات وتبددا للجهود أما بالنسبة للمدرسة فكانت قلة المؤن، وغلبة الجذب، والجفاف على اقتصاد المنطقة من أكبر المشاكل، أما الطلبة فمعاناتهم أكبر يجتمع عليهم الجوع والفقر والغربة وضعف مناهج التعليم، ورغم كل هذه المشاكل استطاع التعليم في سوس شق طريقه والوصول إلى أهدافه الممثلة في نشر العربية في مجتمع تغلب عليه العجمة حتى صارت لغة المراسلة والشهادات والعقود والوثائق بل وظهر في صفوف السوسيين الشلحيين شعراء أفذاد بذوا أقرانهم من باقي مناطق المغرب، وتزويد المؤسسات الدينية من مساجد ومدارس بالأطر اللازمة لتسيرها وتجاوزت ذلك في بعض المراحل التاريخية إلى تزويد الادارة المخزنية بما يلزمها من أعوان وموظفين وما مثال الدولة السعدية عنا ببعيد. وبالاضافة إلى هذين الهدفين مكنت المدارس العتيقة للاسلام في سوس إذ كان أساتذتها بمثابة حراس العقيدة والوطن يرفعون أقلامهم وأحيانا سيوفهم في وجوه كل من سولت له نفسه النيل منها.

وقبل أن نختم حديثنا لابد أن نعبر عن أسفنا العميق لما آلت إليه حال التعليم العتيق الذي انقضى عهده وفات أجله حتى صارت مؤسساته كالمومياءات الفرعونية التي يحتفظ بها علماء الآثار شاهدا على عصر مضى

---

122. خزانة الفقيه أحمد بن محمد العتيق السليماني وقد زودني بالرسالة ابنه الأستاذ عبد الغفور.

ويزورها المستطلعون كما يزورون بناءات الأمم الغابرة هذه المدارس التي قال عنها المقيم العام الفرنسي بالمغرب لما رفع إليه طلب وفد من تجار سوس لإصلاحها وتنظيمها : (... يمكن أن نفتح للسوسيين ثكنات عسكرية في بويكرا واكادير أو غيرهما ليتدربوا فيها .. ولا يمكن أن نسمح لهم ولو بإصلاح أو تنظيم مدرسة واحدة ...) [123].

123. عمر المتوكل الساحلي – المعهد الاسلامي بتارودانت والمدارس العلمية العتيقة بسوس ج 1 ص 5. وهو الجزال جوان وقد قدم هذا الطلب سنة 1950.

لائحة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.

2. أحمد التوفيق :

★ التاريخ في الزمن المعسول ـ مساهمة في أعمال ندوة المختار السوسي «الذاكرة المستعادة 1986».

3. أحمد العوفي التزنيتي :

★ كناشه مخطوط مصور بخزانة خاصة بتزنيت.

4. التامــري :

★ قانون مدرسة أبي البركات، نسختها من عند الأستاذ أحمد أبو القاسم بتزنيت.

5. عبد الرحمان بن خلدون :

★ المقدمة. دار الكتاب اللبناني 1956 بيروت ـ لبنان.

6. عبد الرحمان التغرغرتي :

★ مختصر طبقات الشعراني ج 4 مخطوطة مصورة خاصة.

7. عبد الرحمان التمنارتي :

★ الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة مخطوط مصور بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط تحت رقم :

8. عبد الرحمان الفاسي :

★ منظومة العمل الفاسي ـ المجموع الكبير من المتون ط. 3 دار الفكر 1393 ـ 1973 بيروت ـ لبنان.

9. عبد الرحمانلجيشتيمي :

★ الحضيكيون مخطوطة مصورة خاصة.

10. عبد العاطفي التتكي :

★ قصيدة حول الشرط وأخرى حول المدرسة العتيقة مخطوطة مصورة.

11. علي بن صالح الدرعي :

★ منظومة طيبة مخطوطة خزانة خاصة بهشتوكة.

12. عمــر أفــا :

★ مسألة النقود بالمغرب في القرن التاسع عشر (سوس 1822 – 1906) مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1988.

13. عمر المتوكل الساحلي :

★ المدارس العلمية العتيقة بسوس والمعهد الاسلامي بتارودانت ج 1 و ج 4 دار النشر المغربية الدار البيضاء 1990.

14. ليفي بروفنسال :

★ مؤرخو الشرفاء تعريب عبد القادر الخلادي، دار المغرب الرباط 1977.

15. محمد بن أحمد الحضيكي :

★ الرحلة الحجازية مخطوطة الخزانة الملكية رقم 405.

★ رسالة في آداب العلم مخطوطة خزانة خاصة بتارودانت.

17. محمد بن أحمد الاكراري :

★ روضة الأفنان في وفيات الأعيان تحقيق أنوش حمدي، بحث لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ مرقون بخزانة البحوث بكلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط.

18. محمد الكثيري :

★ كناش يحتوي أشعاره ومقيدات منوعة، نسخة مصورة من الأصل الموجود لدى صاحبه.

★ جلسة معه بعد عصر الثلاثاء 22 شتنبر 1992 بضيعة بأولاد داحو.

20. محمد بن سعيد المرغتي :

★ قصيدة نصح الطلبة ضمن مجموع مخطوط بخزانة المختار السوسي بتزنيت تحت رقم 280.

21. محمد مختار السوسي.

★ سوس العالمة ط 1 مطبعة فضالة – المحمدية 1960.

★ مدارس سوس العتيقة نظامها – أساتذتها – مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال – تطوان 1987.

★ المعسول بأجزائه العشرين إلا الرابع والتاسع عشر والعشرين.

★ خلال جزولة ج 3، 4، د.ت.

* رجالات العلم العربي في سوس، مؤسسة التغليف ... تطوان 1989.
* رسالة إلى محمد بن أحمد العتيق السليماني محفوظة بخزانة المرسل إليه.

27. محمد أيت بومهاوت الواسخيني :
* منار السعود عن تافراوت الملود ومدرستها العتيقة كتاب مرقون بحوزة مؤلفه.

28. اليزيد الراضي :
* أبو زيد التمنارتي وشعره مخطوط بحوزة مؤلفه.

29. Aguerd Mustapha et Ourara Mohamed

Le MAROC, HORIZON 2000.

Agenda 1990, edition Okad.

شخصية محمد بن العربي الأدوزي العلمية من خلال شرحه لرحلته

محمد الحاتمي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
أكادير

سيدور هذا العرض حول شخصية سيدي محمد بن العربي الأدوزي العلمية كما تجلت لي في شرحه لرحلته وذلك عبر النقط التالية : التعريف بالشارح، التعريف بالمتن المشروح (الرحلة)، الشرح والشارح، مسالك تكوين الشخصية العلمية للشارح، مظاهر هذه الشخصية :

التعريف بالشارح : هو محمد بن العربي بن إبراهيم بن عبد الله بن علي بن محمد بن عبد الله بن يعقوب [1]. أحد أقطاب المدرسة الأدوزية الكبار الذين كان صيتهم يتجاوز المدرسة الأدوزية إلى غيرها في الاصقاع السوسية.

ولد بأدوز عام 1248 هـ وبها نشأ وترعرع. ابتدأ رحلته العلمية بما يبدأ به الطلبة فحفظ القرآن على يد «الأستاذ الكبير الملقب بأشوبير، شيخ أقرانه وشيخ من بعده» [2] وبعد أن حفظ القرآن، انخرط في سلك طلبة أبيه، واقتصر عليه في أخذ العلوم والمعارف «قرأ بأدوز، وأخذ عن أبيه علمه المكنوز» [3] في كل الفنون، وفي بحره كرع حتى ضرب بعطن [4].

وإلى جانب أخذه العلوم والمعارف، أخذ الطريقة الناصرية عن أبيه وعن شيخه سيدي الحسن التمكدشتي [5] وتشبع بها وبمبادئها، وأصبح من أنصارها.

---

1. انظر ترجمته في المعسول المختار السوسي ج. 5.
2. المعسول 150/5.
3. روضة الافنان للاكراري، تحقيق حمدي أنوش ص. 132 (نسخة مرقونة).
4. المعسول 150/5.
5. انظر ترجمته في المعسول وفي روضة الافنان..

لما توفي والده قام مقامه في التدريس والعناية بالمدرسة وطلبتها الذين بلغوا حوالي مئتين. «فلما تولى الاقراء، وجلس في منصة الافتاء، فرق بين جفنيه ونومه، وألحق ليله بيومه، وطلبة أبيه تتجاذب في الافهام، وتفاتحه في الابهام، ففتح الله بصيرته، وفتح للسائل عجرته وبجرته، وأسفر عن وجه السعود والسعادة، وقنى غرائب الفوائد والافادة» (6)، فلمع نجمه، وذاع صيته لما في جعبته من علوم ومعارف. واستمر في أداء مهمته في التدريس والتعليم منذ وفاة أبيه سنة 1286 هـ إلى سنة 1293 هـ حيث سيقوم برحلة مع الوفد الذي كان على رأسه الحسن التمكْدشتي.

ولما رجع إلى أدوز بقي يدرس ويطالع ويناقش ويقبل ويرد، ولا يتردد في الجهر بما يراه صوابا، لا يخاف في ذلك لومة لائم.

وبهذا السلوك العلمي الجاد، وبهذا الجهد المضني في الدراسة والتعليم تكونت شخصية ابن العربي العلمية الفذة التي تبين قائمة تأليفه مدى اتساعها وتنوعها وغناها، فقد أحصى له محمد المختار السوسي 26 مؤلفا (7) في مختلف العلوم والمعارف التي كانت متداولة في عصره من فقه ونحو وبلاغة وتصوف وتراجم ... إضافة إلى أشعاره التي أورد منها جملة لا ترقى إلى المستوى الفني.

وقد التحق الأستاذ محمد بن العربي الادوزي بدار الكرامة يوم 15 ذي الحجة عام 1323 هـ بعد حياة مليئة بالعطاء العلمي والأدبي.

التعريف بالمتن المشروح : سبقت الاشارة إلى أن سيدي محمد بن العربي قام برحلة إلى مراكش سنة 1293 هـ ضمن الوفد الذي كان على رأسه شيخه في التصوف سيدي الحسن التمكْدشتي. وكان هدف هذه الرحلة إعادة المياه إلى صفائها بين القائد الطيب محمد بن الحسن الكنتافي (8) الذي تجمعه بالتمكدشتي الطريقة الناصرية، وسلطان الوقت الحسن الأول.

وقد قام ابن العربي بنظم وقائع هذه الرحلة في رجز طويل عرض فيه لوقائع هذه الرحلة منذ يوم الخروج من أدوز في شهر محرم الحرام 1293 هـ إلى يوم

6. روضة الافنان ص. 132.
7. المعسول 5/184 – 196.
8. انظر ترجمته في روضة الافنان.

الرجوع إليها، فوصف الأماكن التي نزل بها، والأشخاص الذين لقيهم، واستطرد للحديث عن بعض القضايا التي كانت مثار النقاش آنئذ مثل قضية الولاية، وقضية الشاي ...

كل ذلك نظمه ابن العربي في رجز بلغت أبياته حوالي 1300 حسب النسخة التي لدي صورة منها، والتي ظهر لي من مقابلتها بما أورده المختار السوسي من مقاطع في المعسول أنها ناقصة نقصانا بينا.

تبدأ الرحلة بقوله [9] :

قال محمد هو ابن العربي ملتمسا من فضل ربي أربي
الحمد لله الكبير المتعال وصلواته على النبي والآل
وبعد هذه رحلة الادوزي كافلة بمغنم محوز

تنتهي بقوله [10] :

وجمع الشمل الشتيت الله واتصل القلب بمن يهواه
تمت ألقينا عصا التسيار والحمد لله على استقرار
ثم الصلاة والسلام بالدوام على النبي وآله الغر الكرام
وصحبه وتابعي الجميع ما جعل الختم من البديع

إن الأدوزي في رحلته هذه لم يكن سوى ناظم بعيد عن الشعر وروحه وأساليبه ولهذا أستغرب أن يقول عنه الاكراري : «شاعر مطبوع، يقتدي به في الصياغة التابع والمتبوع» [11]. ويعلق المختار السوسي على هذه الشّهادة فيقول : «... إلا الشعر الذي قال عنه إنه شاعر مطبوع، فإن الذي يظهر في ما رأيته له غير ذلك، وهو أديب حقا، ولكن ليس كل أديب شاعرا مطبوعا بل ربما أرى الوزن ينقص بعض ما يقول على قلة ذلك منه، ولا أدري ما السبب ؟ فهذه الرحلة وقع ذلك في كثير من أبياتها» [12]. إن هذه الشهادة التي صدرت من الاكراري في حق أستاذه قد لا تعدو كونها محاباة من التلميذ لشيخه وأستاذه.

---

9. الرحلة (مخطوط خاص) ص 1.
10. الرحلة ص 68.
11. روضة الافنان ص. 132.
12. المعسول 189/5.

إن الرحلة قد نظمها ابن العربي بلغة تقريرية واضحة بعيدة عن لغة الشعر، ليس فيها ما يستشكل، ولا تحتوي على الغامض المحتاج إلى الشرح.

الشـرح والشـارح : قام الناظم بشرح جزء من رحلته. وهذاالجزء المشروح يكاد لا يتعدى الثلث تقريبا. وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال حول الدواعي والأسباب التي دعته إلى شرح تلك الرحلة، رغم كونها نظمت بلغة واضحة قد تنزل أحيانا إلى درجة العامية ؟

في رأيي أن ابن العربي في شرحه لرحلته سعى لتحقيق غايتين :

1. الحديث بإسهاب وتوسع عن شيخه سيدي الحسن التمكدشتي، ومن خلال هذا الحديث التطرق إلى قضايا التصوف وما يتعلق به من مسائل الطريقة والولاية والقطبانية ... وغيرها من المسائل التي كانت مثار الجدل والنقاش آنئذ. إن الادوزي قد بسط القول في شيخه وأثنى عليه ورفعه مكانا عليا، ودافع عن طريقته الناصرية ضد الخصوم والأعداء بكل ما استطاع من حجج وأدلة. وهو قد تعرض لكل هذه القضايا في رحلته بإيجاز، وربما بدا له أن ذلك لم يوف بالمراد، فجعل الشرح وسيلة للاستفاضة في هذه المسائل.

2. إنه أراد أن يبسط في الشرح معارفه وعلومه وبراعته وعلو كعبه في هذا المضمار. وطبيعة الشروح مسعفة بهذا كله. فالشروح في الأدب العربي ملأى بالمعارف المتنوعة، والعلوم المختلفة، والفوائد الطريفة، والاستطرادات الظريفة مما له صلة، من قريب أو بعيد، بما يخوض فيه الشارح. وشرح ابن العربي لا يخرج عن هذا الاطار، ذلك أن المتصفح له ستظهر له شخصية ابن العربي العلمية التي لم تتخصص في مجال واحد، بل إنها تأخذ من كل علم بطرف أو أطراف، وبهذا يكون هذا الشرح مرآة صادقة تنعكس عليه شخصية ابن العربي العلمية والمعرفية، لهذا اخترته من أجل رصد ملامح هذه الشخصية العلمية، وتبيان القنوات التي ساهمت في تكوينها.

مسالك تكوين شخصية ابن العربي العلمية : لاشك أن شخصية ابن العربي العلمية قبل أن تظهر مكتملة في شرحه لرحلته قد مرت بمسالك لها الدور الأساس في تكوينها وتوجيهها وجهة معينة وعند تتبعنالهذه المسالك سنجدها ثلاثة :

1. التعلم المنتظم في المدرسة بدءا بحفظ القرآن وانخراطا في سلك التعليم بالمدرسة الادوزية التي كانت «بحرا خضما متماوجا بالعلوم خصوصا في عهد سيدي العربي بن إبراهيم ... وقد بلغت أدوز مبلغا عظيما حتى لا تقرن معها مدرسة أخرى في الاتقان وقتها» (13) وقد كانت المدرسة تشارك غيرها من المدارس العلمية بسوس في تلقين العلوم «من نحو ولغة وأدب وفقه وتفسير وحديث وفرائض وحساب وعلم الفلك» (14) كما أنها «قد امتازت من بينها بدراسة المنطق والأصول والبلاغة التي لا تدرس بتخصص وعمق إلا في مدرسة أدوز ... فهذه العلوم تحتل المرتبة الأولى عند الأدوزيين» (15).

إن هذا التعليم ذا المنازع المتنوعة والمشارب المختلفة الذي تلقاه ابن العربي سيجعل منه شخصية علمية واسعة الأفق.

2. **التثقيف الذاتي** : لم يكتف ابن العربي بما يتلقاه من دروس بالمدرسة، بل كان إلى جانب ذلك يعتمد على نفسه في التثقيف والتكوين الذاتي، فكانت الخزانة الأدوزية الملأى بالكتب والمؤلفات المتنوعة قبلته،فيها يجد ضالته وما يروى ظمأه إلى العلوم والمعارف، فانكب على العلوم يلتهمها بجد لا يعرف الكلل والملل «وفرق بين جفنيه ونومه وألحق ليله بيومه» (16) وهكذا اكتملت شخصيته العلمية التي ذاع صيتها بسوس وبخارجه.

3. **التربية الصوفية** : انتشرت الطرق الصوفية بسوس انتشارا واسعا بواسطة العلماء والفقراء والزوايا لدرجة تكاد لا تجد معها سوسيا إلا وله ورد. ولم يخرج صاحبنا ابن العربي عن هذا المسلك، فقد أخذ الطريقة الناصرية عن أبيه ثم عن شيخه التمكدشتي، والتزم بها وبأورادها وآدابها حتى تشبع بها واستقر في روعه أنها أفضل الطرق، فدعا إليها، ودافع عنها.

تلك هي القنوات التي مرت منها شخصية ابن العربي العلمية قبل أن تظهر لنا ناضجة مكتملة في شرحه لرحلته.

---

13. نفسه 158/5.

14. المدارس العلمية العتيقة بسوس، المتوكل عمر الساحلي ص. 196.

15. نفسه ص. 146.

16. روضة الافنان ص. 182.

خصائص الشخصية العلمية لابن العربي : بعد قراءتي المتأنية لشرح ابن العربي لرحلته تبينت لي، بوضوح، خصائص شخصيته العلمية التي هي :

1. الغنى والتنوع : إن قارئ الشرح يلفت انتباهه بشكل واضح هذا الغنى وهذا التنوع الذي تتسم به شخصية ابن العربي العلمية، ذلك أنك تجده في شرحه يوظف كل المعارف والعلوم المتداولة آنئذ، وهكذا فعلوم الفقه والنحو والتصوف والتاريخ والبلاغة والأدب والتفسير ... وغيرها حاضرة كلها وإن بدرجات متفاوتة، فالنحو والفقه والتصوف مثلا لها حضور أقوى من حضور التفسير والتاريخ، بينما نجد حضور البلاغة يكاد يكون خافتا لدرجة أنه يمر بها مرور الكرام دون بسط الكلام كما يفعل في المعارف الصوفية أو النحوية، ولنضرب مثلا على هذا المرور السريع على الجوانب البلاغية بقوله : «جلاميد الحجر، الاضافة بيانية» [17] وقوله : «حتى رفعت بين يديه الراية : أي العلم، واحد الرايات، وذلك كناية عن شرفه» [18] وقوله أيضا : «قال الشريشي : والتضمين يكون في بيت. والشعراء تتولع به كثيرا. وهو من صنعته البديع» [19].

إن صاحبنا يوجز كلامه عند التعرض للجوانب البلاغية، لكنه يفيض الحديث عند التعرض لقضايا صوفية أو فقهية، واكتفى هنا بمثال على ما أقول : عندما وصل الشارح في شرحه إلى قوله :

موسقـــة متـــعت الاسماعـــا وأزمـــعت أفراحنـــا إزماعـــا
ففـــي الغنـــاء للنفـــوس منفعـــه ولطـــف موقـــع لذهـــن سمعـــه

بسط القول وتطرق إلى اختلاف العلماء حول حلية الغناء أو حرمته، فيذهب مع الذين يحللونه، ويسوق الأدلة والحجج الداعمة لرأيه وذلك من أجل إثبات جواز الغناء والرقص أثناء الذكر في الحلقات الصوفية، وقد امتد حديثه في هذه القضية على ثلاث صفحات تقريبا.

إن هذا التفاوت في حضور المعارف أو غيابها أثناء الشرح يمكن إرجاعه إلى هيمنة جانب معرفي على الجوانب الأخرى نظرا لطبيعة التكوين واتجاهه، وفي ضوء هذا لا نستغرب حضور الفقه والتصوف حضورا أقوى من البلاغة.

---

17. شرح الرحلة ص. 55 (مخطوط خاص).
18. نفســه ص. 60.
19. نفســه ص. 113.

إن هذا الغنى وهذا التنوع الذي وسم شخصية ابن العربي ليست سمة اختص بها، بل إنها طابع مميز للمدرسة الأدوزية برمتها، يقول الأستاذ المتوكل عمر الساحلي : «فليس العالم عندهم (الادوزيين) إلا من له اطلاع واسع في جميع العلوم المذكورة ويستطيع أن يقرأ ولا يلحن، ويكتب ولا يغلط، وله ملكة واسعة ويستطيع أن يشارك بها في البحوث العلمية على اختلاف أنواعها من عربية وبلاغة وأصول ومنطق وفقه وحديث وتفسير» [20]. وباختصار فإن ابن العربي عالم مشارك. وهذه الصفة كانت تطلق على كل عالم متمكن من مختلف العلوم والمعارف.

2. الاتبــاع : رغم الغنى والتنوع اللذين طبعا شخصية ابن العربي العلمية فإن شخصيته نكاد لا نراها تستقل بنفسها في الرأي وفي المناقشة وفي القبول والرد، وهي في كل هذا تكاد تعتمد اعتمادا كليا على الأسلاف. لهذا كثرت نصوص الغير في شرحه، لدرجة أنه لا يخطو خطوة دون أن يستند إلى قول عالم سالف أو معاصر له، وهكذا طفح الشرح بالنقول ذات المشارب المتنوعة لدرجة أنها طغت على كلام المؤلف (الشارح). فلو أننا قمنا بعزل كل النصوص التي أدرجها ابن العربي في شرحه لما بقي له من كلامه إلا القليل. ولا حاجة بي هنا إلى الاستشهاد، فبمجرد فتحك الشرح على أي صفحة فإنك واجد فيها نصا أو نصوصا يبدأها بقوله : «قال فلان» أو «كما ذكره في كذا» أو «انتهى بخطة» إلى غير ذلك من العبارات التي يقدمها بين يدي النص المستشهد به أو يوردها بعده.

إن خصيصة الاتباع على هذا الشكل تجعل المتصف بها أسير غيره في الفكر والرأي والموقف، وتفقده الاستقلالية في الرأي والابداع، ذلك أن المتصف بها لا يعطي لكلامه ورأيه وزنا وقيمة إلا إذا كان معضدا برأي الغير.

إن هذه السمة لم ينفرد بها ابن العربي، بل إنها كانت سمة من سمات الفكر والثقافة المغربيين في القرون المتأخرة التي سبقت النهضة الحديثة. يقول عبد الله كنون : «ومن ثم فإن الحياة الفكرية والأدبية بقيت على حالها من تمثل الماضي واحتذاء حذوه سواء في المادة أو في القالب، في المعنى أو الأسلوب» [21].

---

20. المدارس العلمية العتيقة بسوس ص. 165.

21. أحاديث عن الأدب المغربي الحديث ص. 25 (ط 2، دار الثقافة، البيضاء 1978).

3. **طغيان النزعة الصوفية** : إن المنزع الصوفي في شخصية ابن العربي بارز بروزا بينا يكاد يطغى على غيره من الجوانب الأخرى. وهذا المنزع واضح في شرحه لرحلته، فهو يظهر من خلاله صوفيا ناصريا حتى النخاع، معتقدا في شيخه التمكْدشتي اعتقادا مبالغا فيه. وقد بسط اعتقاده في شيخه عندما وصل شرحه إلى هذه الأبيات

وذاك أنني قبيل الوقت قد	**ذكرت للشيخ مزيا تعتقد**
من أنه يولي، ويعزل الولي	**كما يشاء في جميع الدول**
ومن يديه الفقر والغناء	**لمن له الراحة والغناء**
وما يشاؤه يشاؤه النبي	**وما قلا قلاه طول الحقب**

فأفاض في الحديث عن الولي ومنزلته وقدرته، ومتى يكون الولي قطبا، وما صلة الولي بالنبي ﷺ. وحديثه في هذا المجال قد يكون عاما، وقد يكون خاصا، فحين يكون عاما فإنه يدور حول التصوف وأربابه ويدافع عنه وعنهم، ويحاول أن يجد تفسيرات لأقوالهم التي تبدو لغيره مناقضة لظاهر النصوص التشريعية (القرآن والسنة)، وهكذا يدافع عن الحلاج وابن عربي والسهر وردي وغيرهم من غلاة المتصوفة. وحين يكون حديثه خاصا فإنه يقتصر على شيخه التمكدشتي بذكر مناقبه وكراماته ومنزلته ... [22].

وحديث الشارح في هذا المجال فيه مبالغات قد لا يتفق معه الكثير في التسليم بها ولنسق أمثلة على هذه المبالغات، يقول : «وجدت بخط بعض تلاميذ الشيخ رضي الله عنه أنه أخبره عن رسول الله ﷺ أن تقبيل يده كتقبيل يده ﷺ. وهذه والله كرامة عظيمة، ومنة لنا جسيمة. ومن لم يتأهل لتقبيل يده ﷺ فهذه يقبلها سعادة له وتكرمة» [23]، ويقول في موضع آخر : «سمعت الوالد رحمه الله يقول سمعت الشيخ الرباني مولاي المهدي بن مولاي محمد المراكشي أيام ورد على الشيخ المسوق فيه الكلام أبقاهما الله للبلاد والعباد يقول : مما بشرنا به وقت دخولنا عليه : إن من قال إذا أراد أن يدخل إلى تمكْدست : **«الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن» إلى «لغوت»، دخل الجنة على ما كان عليه»** [24].

22. شرح الرحلة ص. 48 وما بعدها.
23. نفسه ص. 33.
24. نفسه ص. 52.

إن هذا المنزع الذي نزعه ابن العربي بالتمسك بأهداب الصوفية والولاية كان سمة عامة لدى جل السوسيين الذين طغى لديهم الجانب الصوفي المستند إلى كثير من المعتقدات والخرافات التي كان يروجها من كانت له مصلحة مادية أو معنوية في ترويجها. ورغم أن بوادر الحركة السلفية قد دخلت إلى المغرب قبل هذا الوقت، فإنها لم تصل إلى سوس إلا في مرحلة تالية.

4. اللدد في الخصومة : إن ابن العربي الادوزي بقدر ما يعلي من قدر شيخه وأتباعه وأصحاب الطريقة الناصرية، بقدر ما يحط من قدر الأعداء والخصوم، فهو عندما يهاجمهم لا يتورع عن الخروج عن دائرة التوقير والاحترام إلى دائرة الاستهزاء والتحقير، ولنستمع إليه وهو يشرح بيته هذا :

منهـا أرانـي بعض الأذكيـاء ردا له لقـول بعض الأغبيـاء

يقول : «بعض الأغبياء الجاهلين ما خاضوا فيه وهو الفقيه سيدي عبد الرحمان الجشتمي التملي، وهو مع جلالة قدره، واشتهار أمره، جدير بأن يرد عليه كل منصف، ويؤلف عليه كل مؤلف، انتصارا للشيخ وجنابه المحترم بالله من أن يرتاع في رياض أسراره الهمل، ويراث فيه الحمار والجمل ... ولما رأيت ما أبداه هذا الفقيه من العجرفة والتمويه، والتعمية للجاهل والسفيه، تاقت نفسي لمساجلته، والتعرض لمدافعته ومقاتلته، ومدد الشيخ معي، وذلك غاية مطمعي» [25]. إنها الحرب التي لا هوادة فيها ولا احترام ولا توقير، ولا مجادلة بالتي هي أحسن، يشنها ابن العربي على كل من سولت له نفسه أن يتحدث عن الشيخ بما لا يجب ولا يرضى.

تلك هي الخصائص والسمات التي حاولت استجلاءها من شرح ابن العربي الأدوزي لرحلته. وأخلص في نهاية هذا الحديث إلى أن شخصية سيدي محمد بن العربي الأدوزي، كما بدت لي من خلال الشرح، تعكس واقعا ثقافيا وفكريا كان سائدا في البيئة السوسية التي نشأ بها وترعرع، وما كان له إلا أن يتأثر بقضاياها ويسير بسيرها.

---

25. نفسه ص. 48 ـ 49.

خزائن المخطوطات بتزنيت وباديتها : واقع وآفاق

ابراهيــم أزوغ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ظهر المهراز ـ فـاس ـ

إن حديثي اليوم بينكم عن موضوع خزائن المخطوطات بتزنيت وباديتها يصدق عليه المثل العربي كمبضع التمر إلى هاجر بل ربما المثل الأمازيغي (إكاد بابا السوق أراس تكا إمي لاخبار) أجل لست بأعلم منكم بأمورها، ولا قاصدا إلى أن أزيدكم علما غريبا عنكم وأهل مكة أدري بشعابها وإنما قصدي إلى التذكير بها والذكرى تنفع المومنين والتهمم معكم بشأنها، فلطالما شكوت وشكا الباحثون مثلي، ورثينا لحالنا وحالها فلعل أصواتنا تجد آذانا صاغية، أو على الأقل تتوحد ليتردد صداها :

فقلت أدعي وأدعو أن أندى　　لصوت أن ينـادي داعيـان

وأمر آخر حق علي أن أنوه به أن ما قام به رائد هذا الباب عشر المعشار بل لا يكاد عملنا يذكر بجانبه فكم من خزانة فحص ونخل، وكم كتاب قرأ ونقل، وإنما حسبنا منه قول الشاعر :

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم　　إن التشبه بالكـرام نجـاح

وهذه هي علاقتنا بالموضوع، فمنذ بضع سنين والحمد لله اتجه اهتمامنا إلى تتبع خزائن المخطوطات في المغرب عامة وفي القطر السوسي خاصة نتصفح جملتها ونفحص بعضها وكان من جملة ما وقفنا عليه بعض خزائن تزنيت وباديتها كخزانة المجلس العلمي بها وخزانة مدرسة أدوز، وخزانة العلامة المرحوم سيدي علي أوطاهر مما كان معروضا منها في خزانة المختار السوسي الخاصة، إضافة إلى استعراض.

مذكر العلامة محمد المختار السوسي منها كتبه سوس العالمة وخلال جزولة والمعسول.

وما أنجزه بعض الطلبة من فهارس لها مما وصل إلى حدود علمنا ولن نألو جهدا ـ ان شاء الله ـ في السؤال عن أخبارها والاطلاع على ما يتيسر علينا منها متى أمكن ذلك وحسبنا القصد والجهد وما توفيقي إلا بالله.

أيهـا السـادة

إن هذه الخزائن تخفي وراءها وجها آخر من وجوه هذه الناحية لا يكاد يظهر إلا في أقنعة لا يتبين معها ملامحه فالمشتهر لدى عامة الناس أن السوس الأقصى سوس الكنز والمال أخذا من آمتهان أهلها للتجارة والأعمال، ثم أخذت العناية في العقود الأخيرة تتجه لصقل وجه السياحي الفولكلوري، في حين أن الوجه العلمي لسوس أجمل قسمات وانظر جلي ونقض عنه غبار الاهمال والنسيان، وهو أولى بالاهتمام والاظهار.

تلك المكارم لا قعبان من لبن

ومما يزيد هذا الوجه خفاء أن دلائله تخفيها تلك الجبال الشاهقة والقرى النائية والبروج المحصنة المحروسة المقفلة ولا تكاد ترى الهواء والنور، أو تراها العيون، فأصبحت سرا من الاسرار، وأصدار يتحدث عنها دون أن ترى به تفحص فمن يفك أسرها وينشر ذكرها غير الندرة، والنادر لا حكم به ؟

هذا وإن موضوع خزائن المخطوطات بتزنيت وباديتها أوسع من أن يحاط به في كتاب ضخم فكيف يتقصى في مقال كهذا الذي نحن فيه فكم من قضايا يثيرها وأسئلة تستوجب الاجابة عنهابدءا من تاريخ ظهور تلك الخزائن وتطورها، ومرورا بينا بيعها ومصادرها، وتقصيا لها في مواقعها وتنقلاتها، وفحصنا لمحتوياتها وتصنيف ذلك حسب الموضوعات والمؤلفين والقيمة العلمية والتراثية وتتبع كل ذلك في آراء العلماء والباحثين المختصين.

ثم الحديث عن واقعها الحالي وما يقف حجر عثرة أمام الباحث ويلاقي فيها من لغة وما نالها من المكبات وما يتهددها من المخاطر وما بقي منها سالما من عوادي الزمان، وما يلزم لذلك من الصيانة والحفظ وتوفير الظرف المناسب لاستمرار حياتها ومحافظيها، وتحسيسهم بخطورة المسؤولية الواقعة على

كاهلهم بسببها، ثم أخطاء ما فيها من كتب وفهرستها فهرسة كاملة، ومحاولة تجميعها في مجتمعات قريبة مواطنها وعلى عين أصحابها وإلى جانب ذلك كله السعي لتحقيق ونشر النادر منها.

ودون ذلك خرط القتاد

وحسبنا من ذلك كله هنا أن نثير بعضا القضايا منها تنبه الغافل وتوقظ الوسنان،

أ ـ مواقع خزائن المخطوطات في الإقليم

لا تكاد ناحية من نواحي الاقليم تخلو من وجود مخطوطات أو وثائق، فأينما اتجهت طالعتك أخبار عن بقايا خزانات الأسر العلمية وعقب الأعيان والقواد، والأغنياء، وهواة جمع الآثار إضافة إلى خزائن المدارس والمساجد والزوايا والرباطات ومن المتعذر إحصاء كل المخطوطات والخزائن إحصاء كاملا لأن كثيرا ممن يمتلكون المخطوطات يحيطونها عادة بالكتمان ولعياب جهود جادة في هذا الباب.

ومع ذلك فيمكن حيث التملك إلى خزائن عامة وخزائن خاصة فأما الخزائن العامة فيندرج ضمنها الكتب الموقوفة على المدارس العلمية كما يظهر في عقود التجـ التي تكتب أحيانا في الصفحات الأولى للكتب الموقوفة، وعلى سبيل المثال نجد في بعض كتب الخزانة الادوزية من أن سيدة كريسفية أوقفت جملة من الكتب ورثتها على طلبة المدرسة.

أو على مكتبات المساجد للمطالعة والانتساخ على عادة المقاربة في ذلك في كل المدن ومن ذلك مثلا الكتب المحبسة على الجامع الكبير بتزنيت.

أو على الرباطات والزوايا كما في زاوية تازوالت مثلا والزاوية الدرقاوية في إلغ وغيرهما ومعلوم أن هذه الأنواع تنتشر بكثرة في هذا الاقليم غير أننا لم نطلع في القديم على خزائن علمية عامة مستقلة عما ذكر، على نحو ما نجد في هذا العصر في بعض الجهات الأخرى، من المغرب ويمكن أن نلحق بهذا خزانة المجلس العلمي بتزنيت ففيها من المخطوطات ما يجعلها من أهم الخزانات العامة للمخطوطات في تزنيت، وأما خزانة المختار السوسي فعهدي بها أنها إنما

تعرض محتويات بعض الخزانات الخاصة خاصة خزانة الأستاذ المندوبي التي نشير إليها في وقت لاحق، وما أدري إذا زيد على مخطوطة المقرب لابن عصفور التي أوقفها عليها الأستاذ سيدي محمد العتيق شيء وأما الخزانات الخاصة فمن العسير احصاؤها كما ذكر آنفا ويمكن تصنيفها إلى :

1. خزانات الأسر العلمية المتنقلة بطريق التوارث كالادوزية والشابية (الازاريفية) والمحجوبية، والتاضوكوكتية وغيرها كثير وكثير.

وأهم ما يميز هذا النوع أنها غالبا ما تحتوي على النسخ الأصلية والمبيضة لعلماء تلك الأسر، ونسخاتهم، والنسخ التي صححوها أو وضعوا عليها طررا وهوامش، وإجازات.

2. خزائن الرؤساء والقضاة والقواد والأعيان كخزانة بودميعة في إيليغ وخزانة القايد عياد بتالغست وأولاد جرار.
3. خزائن الأغنياء والهواة (ويمكن إضافة التجار).

أهمية خزائن المخطوطات بالإقليم :

تكمن أهمية هذه الخزائن في كونها غير معروفة لكثير من الباحثين مما يجعل إمكانية اكتشاف الغريب النادر أمرا يسيرا كما تتضح تلك الأهمية في جوانب أخرى منها :

1. من حيث الكم تقدر مخطوطات هذا الاقليم بعشرات الآلاف، وخزناتها بالمئات، أما الوثائق والعقود فحدث ولا حرج.
2. وأما من حيث الكيف فتتميز محتويات هاتيكم الخزائن.
3. بتنوع مدادها ومضامينها، وبين سائر العلوم من قرآن وعلومه، وحديث ومصطلحه وفقه وأصوله ونحو ولغة وأدب وتاريخ وفلك وطب، ونصوص وأفاق. وهذا التنوع في التخصصات مما يجعل عدد المهتمين بها كثيرا.
4. وبتنوع الجهات التي جلبت منها ما بين مشرقية وأندلسية ومغربية إذ في هذه الخزانات كثير في المخطوطات المشرقية تأليفا ونسخا، جلبت في رحلات الحج أو طلب العلم أو السياحة أو التجارة وبعض الكتب الأندلسية ككتاب وشرح المضرب لابن عصفور المتحدث

عنه سابقا ولعل أمضا من هذا النوع كتابا في المغرب وتم ميز المشكل لابي على الحياني وأما مواطن انتاج تلك المخطوطات فهي في المغرب أيضا متنوعة ما بين سوس إلى فارس.

5. أما زمن انتساخها فأغلب ما وقفنا عليه النسخ ما بين القرن 8 هـ والقرن 14 هـ.

6. في احتوائها على عدد من النسخ الأصلية بخطوط مؤلفيها أو كتابهم أو مخطوط من نقل عن أصل المؤلف ولبيان ذلك نسوق بعضها انتقاه العلامة سيدي محمد المختار السوسي من كتب خزانة سيدي بعبدلي في خلال جزولة.

وغير خفي أن كتب الوقف كانت تراعى فيها ألفاظ وشروط الواقفين على الاستفادة منها عموما تتلخص قديما في :

أ ـ الاقراء بها ـ ب نظام المطالعة والاعارة ـ خ ـ انتساخها والنقل منها.

واقع خزائن المخطوطات بسوس.

مدى أهمية خزانات المخطوطات بالاقليم

من ناحية الكـــم :

من جهة الكيف (احتواؤها على نوادر).

الغالب عليها ـ الفنون ـ التاريخ ـ الخطوط (كتاب المقرب) لابن عصفور ـ العمدة ...

نظام الاستفادة منها ما بين القديم والحديث، خ الاقراء بها، التزام ألفاظ الواقف ق قـ، نظام المطالعة ـ نظام الاعارة النسخ إلى غير ذلك.

واقع خزائن المخطوطات بالاقليم : (دق ناقوس الخطر).

جداول المدارس العتيقة بالإقليم - تزنيت -

الدائرة	القيادة أو الجماعة	إسم المدرسة	عدد طلبتها			عدد البيوت الموجودة بها	تاريخ بنائها	ملاحظات
			المحليين	الوافدين	المجموع			
تزنيت	جماعة سبت بونعمان	المدرسة البونعمانية	13	54	69	73 بيتا	لا يعرف تاريخه	مجموع الطلبة بالدائرة 143 طالبا
	جماعة سبت بونعمان	م. سيدي بوعبد الله	20	07	27	34 بيتا	645 هـ	
	جماعة اثنين اكلو	م. سيدي وكاك	05	20	25	16 بيتا	القرن 5 ص	
	جماعة المعدر الكبير	م. المعدر الكبير	–	–	–	04 بيوت	بداية القرن 12 هـ	
	جماعة أربعاء رسموكة	أربعاء رسموكة	05	17	22	24 بيتا	أواخر القرن 12 هـ	
تافراوت	جماعة تافراوت	م. إمي اكشتيم	–	07	07	16 بيتا	حوالي 900 هـ	مجموع الطلبة بالدائرة 203 طالبا
	جماعة تافراوت	م. مركز تافراوت	–	27	27	17 بيتا	حوالي 1150 هـ	
	جماعة تارسواط	م. اولا	01	13	14	——	——	
	جماعة تارسواط	م. ازربي	–	15	15	08 بيوت	حوالي 517 هـ	
	جماعة افلا اغير	م. تكرامت	–	–	–	04 بيوت	حوالي 730 هـ	
	جماعة تسريرت	م. تمكيدشت	25	20	45	45 بيتا	أواخر القرن 13 هـ	
	جماعة افلا اغير	م. افيلال	05	05	10	12 بيتا	أوائل القرن 13 هـ	
	جماعة تعالة	م. تركت	–	18	18	20 بيتا	غير معروفة	
	جماعة تهالة	م. اموساك	02	13	15	18 بيتا	غير معروفة	
	جماعة تهالة	م. تهالة المركز	–	08	08	20 بيتا	غير معروفة	
	جماعة تهالة	م. ايمور	–	09	09	20 بيتا	غير معروفة	
	جماعة آيت وافقا	م. الدو كادير	–	07	07	15 بيتا	غير معروفة	
	جماعة آيت وافقا	م. انامر اغشان	08	08	16	25 بيتا	غير معروفة	
	جماعة آيت وافقا	م. دو تمنروت	–	12	12	20 بيتا	غير معروفة	

الدائرة	القيادة أو الجماعة	إسم المدرسة	عدد طلبتها			عدد البيوت الموجودة بها	تاريخ بنائها	ملاحظات
			المحليين	الوافدين	المجموع			
	انزي	م. دار المولود	28	92	120	68 بيتا	القرن 10 هـ	
	انزي	م. تزكين	02	16	18	16 بيتا	القرن 10 هـ	
	انزي	م. الماتن	06	26	32	30 بيتا	القرن 9 هـ	
	تيغمي	م. أدوز	05	35	40	07 بيوت	ـ 1400 هـ	
	تيغمي	م. موزايت	01	06	07	22 بيتا	ـ 1100 هـ	
	تيغمي	م. افا وزور	–	22	22	07 بيوت	ـ 1400 م	
	ادا كوكمار	م. ارزان	11	–	11	04 بيوت	ـ 1400 م	
	ادا كوكمار	م. إكضي	20	45	65	55 بيتا	ـ 1500 م	
	ادا كوكمار	م. تكثرت	10	02	12	12 بيتا	ـ 1400 م	
	ادا كوكمار	م. اركن	10	–	10	——	ـ 1200 م	
	ادا كوكمار	م. اكني المخصب	16	–	16	12 بيتا	–	مجموع الطلبة بالدائرة 595 طالبا
أنزي	ادا كوكمار	م. افلا اكنس						
	تيزوغران	م. ابو مروان	03	42	45	50 بيتا	——	
	تيزوغان	م. ونزكارت	00	12	12	بيتا	1936 م	
	تيزوغان	م. تزموت	00	09	09	بيتا	1600 م	
	تيزوغان	م. للاتعزة	07	13	20	20 بيتا	1936 م	
	آيت أحمد	م. ازاريف	18	31	49	38 بيتا	القرن 7 هـ	
	آيت أحمد	م. تصلا أو زاريف	16	02	18	15 بيتا	القرن 8 هـ	
	آيت أحمد	م. تمزكو	05	40	09	09 بيوت	القرن 11 هـ	
	زاوية سيدي احمداموسى	م. سيدي احمدا موسى	01	35	36	47 بيتا	القرن 10 هـ	
	زاوية سيدي احمداموسى	م سيدي امحمد اسليمان	15	03	18	08 بيوت	القرن 10 هـ	
	زاوية سيدي احمداموسى	م. تومنار	14	12	26	10 بيوت	ما قبل ق 10 هـ	

الدائرة	القيادة أو الجماعة	اسم المدرسة	عدد طلبتها: المحليين	الوافدين	المجموع	عدد البيوت الموجودة بها	تاريخ بنائها	ملاحظات
الاخصاص	الاخصاص	م. سيدي محند الشريف	13	10	23	09 بيوت	منذ 250 سنة والبيوت سنة 1968	
	الاخصاص	م. سيدي محند ايينص	00	06	06	—	—	
	الاخصاص	م سيدي علي اسعيد	11	21	33	16 بيتا	منذ سنة 1392 والبيوت سنة 1961	
	الاخصاص	م. سيدي محند الحسين	02	24	26	16 بيتا	ما يزيرعن 150 سنة والبيوت سنة 1962	مجموع الطلبة بالدائرة 174 طالبا
	الاخصاص	م. بوتمزكيدا	00	13	13	12 بيتا	أكثر من قرنين	
	الاجصاص	م. ثلاثاء اوفلا	15	10	25	07 بيتا	قديمة، ولا يعرف تاريخ بنائها	
	آيت الرخاء	م. توتاتن	14	06	20	15 بيتا منها مجلس شيد حديثا	البيوت سنة 1935 والمجلس سنة 1983	
	تغيرت	م. سيدي محند ايدير	02	15	17	—	—	
	تيغرت	م. فيلالت تجاجت	08	03	11	01	1802 م	
افني	الجماعة الحضرية افني	م. الجامع الكبير	12	34	46	19	أزيد من 300 سنة	
	ج. اربعاء الساحل	م. بوزرز	27	00	27	—	—	
	ج. اربعاء الساحل	م. أفردا	00	15	15	07 بيوت	—	
	ج. اربعاء الساحل	م. تغانمين	03	08	11	70 بيوت	—	
	ج. اربعاء الساحل	م. اخربان	02	14	16	06 بيوت	قديمة	
	تيوغزة	م. الجمعة ايت عبد الله	16	16	32	—	—	
	تيوغزة	م. يوكرفة	10	10	11	—	—	
	تيوغزة	م. اسك	06	06	12	—	—	

الدائرة	القيادة أو الجماعة	اسم المدرسة	عدد طلبتها			عدد البيوت الموجودة بها	تاريخ بنائها	ملاحظات
			المحليين	الوافدين	المجموع			
افني	تيوغزة	م. بيفرنا	13	00	13	—	—	مجموع الطلبة بالدائرة 812 طالبا
	تيوغزة	م. سيدي حسين	18	21	39	—	—	
	تيوغزة	م. سيدي بوعبدلي	58	06	64	—	—	
	مستي	م. سيدي محند بن داوود	13	07	20	12 بيتا	منذ 400 سنة	
	مستي	م. سيدي احمد الصالح	24	01	25	06 بيوت	منذ 400 سنة	
	مستي	م. المركزية	08	05	13	—	—	
	مستي	م. سيدي مومن	35	03	38	13 بيتا	منذ 300 سنة	
	مستي	م. أولاد ادريس	34	03	37	07 بيوت	أكثر من 230 سنة	
	اسبويا	م. الثلاثاء المركزية	30	16	46	—	—	
	امبويا	م. وريف	25	00	25	10 بيوت	أزيد من 200 سنة	
	جماعة امبويا	م. سيدي علي اتول	18	00	18	17 بيتا	أزيد من 200 سنة	
	جماعة امبويا	م. تخططيت	28	00	28	—	—	
	جماعة امبويا	م. تخططيت	35	02	37	11 بيتا	أزيد من 150 سنة	
	جماعة امبويا	م. انامر	10	00	10	12 بيتا	أزيد من 200 سنة	
	جماعة امبويا	م. اكجكال	22	45	67	07 بيوت	أزيد من 200 سنة	
	أملو	م. تنكرفة	30	40	70	—	—	
	أملو	م. تدارت ايت علي						
	أملو	م. الزاوية سيدي سليمان	20	10	30	10 بيوت	أزيد من 300 سنة	
	أملو	م. سيدي مسعود املو	23	04	27	—	—	
	أملو	م. أكادير أيت اعلال	25	00	25	—	—	
	أملو	م. سيدي زكري أيت يوب	10	00	10	—	—	
المجموع	26 جماعة محلية	78 مدرسة عتيقة			1927	1052 بيتا		

النشاط العلمي والأدبي بتزنيت
من
خلال بعض كتابات محمد المختار السوسي

أحمد العراقي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
ظهر المهراز ـ فاس

لامندوحة للباحث في كثير من شؤون منطقة سوس من الرجوع إلى كتابات علاماتها المرحوم محمد المختار السوسي (ت ـ 1383 هـ/1963 م). فقد نذر نفسه، كما يتبين من خلال آثاره المتعددة، للكتابة عنها، وذلك بضبط حوادثها وأطوارها المتعاقبة، والتعريف برجالاتها من العلماء والأدباء والصوفية والرؤساء وغيرهم، وحفظ آثارهم وتخريج بعضها، واستقصاء عاداتها ونوادرها وما إليها مما له اتصال بأهلها وحياتهم في مناح شتى. ولم يكن ذلك منه عن تعصب إقليمي مقيت يهدف إلى العنصرية والتفرقة، وإنما عن نزوع لأداء الواجب نحو المنطقة التي ينتمي إليها وجمع جهده لوضع سجل معمق عنها، يكون ـ إلى جانب ما وضعه وما ينبغي أن يضعه الباحثون عن جميع المناطق المغربية ـ عمدة لمن سيكتبون التاريخ المغربي العام [1].

ونرمي في عرضنا هذا إلى النظر في بعض كتاباته لنستجلي منها ملامح صورة النشاط العلمي والأدبي الذي عرفته مدينة تزنيت. وسنحاول ذلك برصد ما يتعلق بمجال هذا النشاط ومشاهير رجاله وبعض مظاهره.

وهكذا فقد تناول محمد المختار السوسي مجال النشاط العلمي والأدبي بتزنيت من خلال حديثه عن مدرستها العلمية العتيقة ثم عن خزائن الكتب العامة والخاصة بها.

---

1. سوس العالمة، له (ط 2 الدار البيضاء، 1984) : ب ـ هـ.

وإن المدرسة التزنيتية لم تعرف نشاطا ملحوظا قبل القرن الثالث عشر الهجري أو لعله لم يحفظ لنا منه شيء يذكر. وعلى حد تعبيره فإنه «لم نسمع عن الدراسة فيها شيئا قبل ابن الطيفور الاسغار كيسي (وهو من رجالات القرن الثالث عشر الهجري)، ثم وليه فيها الفحل الذي لا يحدع أنفه الحسن بن الطيفور الساموكني. ثم صارت تتدرج بين مد وجزر إلى الآن بالأساتذة الذين يشارطون، وعلى قدر هممهم» [2]. ويضيف بأنه قد «لاحظها السعد فصارت فرعا لمعهد تارودانت، فاستجدت من ذلك ثوبا قشيبا» [3].

على أن هذا لا ينفي أنه قريبا منها بضواحيها عرفت منطقة سوس أقدم مدارسها العلمية، وهي مدرسة الرباط في أݣلو أو المدرسة الوݣاݣيه التي تأسست أول القرن الخامس الهجري، ونسبت إلى وݣاݣ بن زلو اللمطي المتوفي سنة 445 هـ. ومن المشاهير الذين أخذوا بها عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين [4].

ونالت خزائن الكتب التزنيتية حظها من الوصف في عدد من مؤلفات محمد المختار السوسي، وفيما دونه عن رحلاته خلال جزلة.

فقد تحدث عن خزانة المدرسة إبان إحدى زياراته لها قائلا : «ومما زرته في تزنيت خزانة المدرسة، وقد كانت حافلة بالنفائس قبل اليوم، وقد كانت أولا للأستاذ محمد بن محمد بن الطيفور ... الأسغار كيسي المتوفى عام (1267)، وقد تشتتت بعده، وكانت فيها ذخائر أعلاق في أول هذا القرن ثم فقدت منها الآن ...» [5]. وأشار إلى أنه وقف فيها على كناش فيه أسماء كتب المحبس، وفي آخره تاريخ 1266 وذلك قبل وفاته بقليل. واستفاد منه أن المحبس الذي توفي غريبا بفاس قد خرج عن جميع كتبه : بعضها ـ وهو القليل ـ للعلامة محمد بن عبد الرحمن الفلالي، والباقي ـ وهو الكثير ـ لجامع تزنيت. وعلق بعد أن ذكر بعض ما ورد فيه بقوله «ولعمري إن ذلك لو بقي كما رأيناه هنا لكان نواة لمكتبة كبرى، ولكن ذهب غالبه شذر مذر بأيدي الطلبة

---

2. المصدر السابق : 166.
3. نفسه : 166، ها : 1.
4. نفسه : 155، ومدارس سوس العتيقة، له (ط 1، طنجة، 1987) : 95.
5. خلال جزولة، له (ط1، تطوان، 1379) : 195/4.

الذين يمرون بالمدرسة، وقد رأيت هناك كثيرا من الأوراق المتناثرة التي ربما تضم كتبا نفيسة» [6].

وتعرض لعدد من خزائن الكتب الخاصة فأفاض في الحديث عن خزانة الشيخ ماء العينين نزيل تزنيت ودفينها، ووجد أنها لا تقل عن خزانة تيمگدشت التي كانت تضاهي المكتبة الزيدانية بمكناس والمكتبة الكتانية بفاس، ومما قاله في شأنها : «وقد اطلعت على معظم خزانتهم هذه، ورأيت فيها من الخطوط الصحراوية والشنكيطية والسوسية والسودانية والفاسية والمكناسية والتونسية والمصرية والمشرقية ماعز وجوده ونظيره، وجلها من هدايا سلاطين المغرب بل والمشرق. فصار جميعها سالما من غير تكسير إلى أيام قيام أهل تزنيت على الشيخ النعمة بن الشيخ ماء العينين الخليفة بها عن أخيه الأمير المولى أحمد الهيبة، الكائن إذ ذاك ببرودانة، فأخرجوه بعد حروب عظيمة، واستولوا على ذخائره التي بتزنيت، ومنها مكتبته التي هناك. فتوزعتها أيدي النهب والفساد، وبيعت بأبخس ثمن» [7]. ولم تبق خزانة لم تدخلها كتب ماء العينين في سوس كله، فكانت مصيبة مزدوجة : مصيبة النهب، ومصيبة تمزق تلك الخزانة النفيسة التي جمعها الشيخ ماء العينين وأجداده في قرون ثم حافظوا عليها ...» [8].

ومن بين خزائن الكتب الخاصة العامرة التي كانت تزخر بها تزنيت خزانة الشيخ العلامة الحسين السوقي الافراني، فقد كانت تضم نفائس من الكتب في أنواع من الفنون العقلية والنقلية والتاريخية. وورثها من بعده أولاده وتوزعت بينهم، واستأثر القائد عياد الجراري ببعضها. وقد وقف محمد المختار على ما بقي منها بيد ولده محمد الكبير بتزنيت [9].

ومن بين تلك الخزائن الخاصة أيضا خزانة القاضي محمد أوعمو، وقد وقف على جملة من محتوياتها، ووصف بعض نفائسها [10].

وواضح أن محمدا المختار لم يستقص كل ما كان موجودا من خزائن الكتب الخاصة بتزنيت، إنما تعرض لما زاره منها، ولعله قليل من كثير إذ لم

6. المصدر السابق : 199/4.
7. المعسول، له (ط 1، الدار البيضاء والرباط، 60 ـ 1963) : 327/3 ـ 328.
8. المصدر السابق : 177/4.
9. نفسه : 330/3.
10. خلال جزولة : 194/4 ـ 195.

تكن دور الفقهاء تخلو من كتب. وينبغي أن ننبه هنا على ما كان لاحظه بصفة عامة من : «أن خزائن الكتب السوسية القديمة كثيرة، ولكن قد عتت على جلها يد الزمان لطول العهد، وبعد مدى الأزمنة الخالية من أصحابها ولأن غالب أصحابها لم يترك ورثة ممن ينهج طريقه العلمية المثلى ...» [11] كما ينبغي أن ننبه أيضا على ما كان لاحظه عموما حول طبيعة محتويات الخزائن السوسية : «إن الأكثر من كتب تلك الناحية التي طفحت بها خزائنها قلما يكون فيها نصيب للتاريخ والأدب إلا في المطبوعات، ولهذا يرجع بخفي حنين من لا يرى الندور ولا الجدة، ولا الغربة ولا قرة العين إلا من أمثال كتب التاريخ والأدب، لا في كتب الحديث والتفسير والفنون الأخرى الاسلامية [12].

وقامت كثير من مؤلفات محمد المختار السوسي على التعريف بالأسر العلمية ورجالات العلم والأدب في سوس، وضمنهم عدد من مشاهير تزنيت سواء أكانوا منها أصلا وظلو بها أو نزحوا عنها أم كانوا من غيرها ونزلوها بالسكنى والانتقال.

ففيما يخص الأسر العلمية ـ وشرطه فيها عموما أن يتوالى فيها العلم خلال ثلاثة أجيال على الأقل أو جيلين إن تعدد فيها العلماء ـ [13] فقد عدد من التزنيتيات اثنتين.

ـ **الأولـى** : هي المحمدية، وآيت محمد فرع من فروع الشرفاء، وفيهم علماء وقضاة ونظار ورؤساء. ولها امتياز بكل هؤلاء الآن [14]. وكان في طليعتهم زمان المؤلف القاضي محمد أوعمـو وأخوه الناظر أحمد [15].

ـ **الثانيـة** : هي الطيفورية الساموكْنية، وتنسب إلى والد الحسن بن الطيفور نزيل تزنيت، وفي فروعها علماء كبار كالعربي بن محمد الساموكْني [16].

11. المعسول : 319/3.
12. سوس العالمة : 175.
13. المصدر السابق : 121.
14. نفسه : 136.
15. رجالات العلم العربي في سوس، له (ط1، طنجة، 1989) : 238.
16. سوس العالمة : 136، والمصدر السابق : 192.

وأما فيما يخص فقهاء وعلماء وأدباء تزنيت فإن مجال عرضنا يضيق عن إيراد كل من تعرض لذكرهم في مختلف مؤلفاته، إلا أننا سنكتفي بالاشارة إلى بعض مشاهيرهم، ومن بينهم :

ـ محمد بن الطيفور الاسغار كيسي المتوفى نحو سنة 1255 هـ، فإنه لم يسمع شيء عن الدراسة في المدرسة التزنيتية قبله [17]. وهو «علامة شهير مدرس مؤلف» نزل تزنيت، وكان له بها صيت ذائع [18]. وكان ولده محمد عالما كبيرا، تخرج به، وهو الذي حبس كتبه على جامع تزنيت، وتوفي بفاس سنة 1267 هـ [19].

ـ الحسن بن الطيفور الساموكني المتوفى سنة 1278 هـ. وهو علامة شهير نزل بتزنيت، وعمر جامعها بالتدريس لأنواع العلوم نحو عشرين سنة، ولم تر في القرون الأخيرة مثله، وأخذ عنه بها عدد من الأعلام. وتصوف، فأخذ الطريقة التجانية عن أحد أعلامها آنذاك بسوس، وهو المؤرخ محمد أكنسوس. وكانت له معه مكاتبات ومخاطبات شعرية، وأسئلته التي سأل عنها شيخه مشهورة، وهي التي أجابه عنها بمؤلفه «الحلل الزنجفورية عن الأسئلة الطيفورية» [20].

ـ أحمد بن المبارك الطاحوني المتوفى سنة 1311 هـ. وهو من كبار علماء تزنيت، زاحم فيها الأستاذ الحسن بن الطيفور، وقد أفتى وقضى وشارط. وكان إلى علمه يحب الأدب ويتعالى إلى المجاذبة فيه، وله مديح في السلطان المولى الحسن الأول [21].

ـ الحسين السوقي الإفراني، نزيل تزنيت ودفينها سنة 1328 هـ. وهو شيخ جليل من مفاخر سوس الكبرى. أخذ بسوس وبعض الحواضر ثم حج ودخل مصر ورجع بعلم غزير، فدرس وقضى وأفتى وألف [22].

---

17. سوس العالمة : 166.
18. المسعول : 307/14، ورجالات العلم : 148.
19. المعسول : 307/14، ورجالات العلم : 149.
20. المعسول : 266/11 ـ 282، ورجالات العلم : 191 ـ 192.
21. المسعول : 261/13 ـ 264، ورجالات العلم : 160.
22. رجالات العلم : 182 ـ 183.

ـ ماء العينين الصحراوي، نزيل تزنيت ودفينها سنة 1328 هـ. وهو علامة كبير، نال ما لم ينله غيره في عهده من كثرة التلاميذ ومن نشر العلم ومن امتداد الشهرة. كان له اعتناء بالكتب فجمع خزانة قيمة كبيرة لا تضاهي في البوادي. [23] وهو الشيخ أحمد الهيبة المتوفى بكردوس سنة 1333 هـ. وكان علامة جيدا محصلا أديبا شاعرا رقيق الطبع. ثار بتزنيت فبايعته الناس بسوس وغيره، ودخل مراكش، لكنه فر منها إلى غيرها [24] وهو أخو الشيخ النعمة المتوفى سنة 1339، وكان قد أنابه عنه في تزنيت إلى أن أخرجه منها التزنيتيون سنة 1330 هـ. وكان هو أيضا علامة مدرسا [25].

ـ وأخيرا القاضي محمد أوعمو المتوفى سنة 1370 هـ. واعتبره محمد المختار حسنة من حسنات سوس في زمانه، وقطب القضاء الرسمي فيه، وأكبر قاض وراء الحمراء. وهو وإن كان وسطا في العلم فإنه كان محبا له ولأهله. وقد اختار لمساعدته جماعة من العلماء والفقهاء المرموقين أمثال عبد الرحمن العوفي وعلى بن الطاهر الرسموكي ومحمد بن أحمد الاكراري [26]. وهو أخو أحمد ناظر أحباس تزنيت وقاضيها من بعده، العلامة المحصل المتقن، له ميل إلى قرض الشعر. قال عنه محمد المختار ولا نعلم له اليوم في تزنيت مقارنا بحق [27].

ونستشف من خلال عدد من كتابات محمد المختار السوسي المختلفة بعض مظاهر النشاط العلمي والأدبي الذي عرفته تزنيت، ونقتصر منها على مظهرين يتعلقان بحركتي التأليف والشعر.

أما حركة التأليف فنتوقف عندها من خلال ما ألفه كل من الحسن بن الطيفور والحسين الإفراني، وهما من أكبر العلماء الذين عرفهم تاريخ هذه المدينة وأوفرهم تأليفا.

---

23. المصدر السابق : 162.
24. نفسه : 162.
25. نفسه : 162 ـ 163.
26. المعسول : 206/13 ـ 229. ورجالات العلم : 238.
27. المعسول : 234/13 ـ 244، ورجالات العلم : 238.

لقد خلف ابن الطيفور آثارا علمية عديدة منها : «نظم وثقائق الغرناطي و «شرحه» و «شرح الآجرومية» و «شرح البردة للبوصيري» و «مؤلف في الصفة المشبهة» و «معونة الصبيان على لفظ سواطع الجمان» و «رجز في مسائل» و «شرحه» و «نظم في الجداول» و «شرحه» و «شرح تائية في الأوفاق» و «مجموعة نوازله» و «رده على أحمد الجشتيمي في الرهن» (28).

وخلف الحسين الافراني آثارا علمية عديدة أيضا، منها : «ترياق القلوب» في التصوف، و «الخواتم الذهبية في الأجوبة القشاشية» و «المجالس المحبرة الفائضة» و «تعليق على فروق القرافي» و «تفسير سورة الاخلاص».. (29).

إن استعراض آثار هذين الرجلين يعطينا فكرة عن نوع حركة التأليف التي كانت تعرفها هذه المدينة وهي لا تختلف في شيء عما كانت عليه في جميع سوس وعموم المغرب، بل وفي غيره من أقطار البلاد العربية في العصور المتأخرة، حيث كان يغلب عليها الاجترار لتراث الاسلاف بالتكرار تلخيصا وتطويلا وشرحا وتعليقا، وتفتقد في مجملها إلى كثير من شروط الأصالة والابتكار.

وعرفت تزنيت حركة شعرية نشيطة زمان وجود آل ماء العينين بها لم تشهد مثلها من قبل. فقد قام رواج شعري حول أميرها الشيخ أحمد الهيبة، الذي كان عالما حسن الادراك، ذا ذوق جيد في الأدب، يرتاح للشعر ولذويه، ويرفع أقدارهم ويثني عليهم (30).

وأصبحت المدينة بوجوده فيها ـ قبل خروجه منها إلى غيرها ـ قبلة كبار علماء سوس وأدبائه المشهورين أمثال الشاعر الطاهر الافراني والبشير بن المدني الناصري والمحفوظ الأدوزي وأبي بكر الاقاوي والأديب المانوزي وأحمد بن عبد الحميد الإيلاني وغيرهم، ولم يتخلف عنه منهم إلا القليلون (31).

---

28. سوس العالمة : 198.
29. المصدر السابق : 203.
30. المسعول : 212/4.
31. المصدر السابق : 107/4 ـ 108.

وإذا كان لنا أن نضرب المثل بأحد الشعراء الوافدين على هذا الأمير بتزنيت وعلى أخيه الشيخ النعمة الذي خلفه عليها فلن يكون سوى الطاهر الافراني (ت 1374 هـ /1955 م). لقد كان من الواردين الأولين ومن أشهرهم وله في الأمير وذويه جملة وافرة من الاشعار مدحه فيها فأطال وأطاب، وأصبح بذلك شاعر حضرته، يوالي عليه من القطع والقصائد، ويتابع تحركاته ويلتزم بتأييده. وقد أورد محمد المختار ــ وكان من تلاميذه ــ نماذج وافرة من شعره في هذا الأمير وفي غيره، تتخلل جل أجزاء معسوله العشرين وبعض مؤلفاته الأخرى [32].

وعرفت تزنيت أيضا حركة شعرية ملحوظة حول قاضيها محمد أوعمو فقد قيل فيه كثير من الشعر من قبل عدد من الشعراء السوسيين أمثال الحبيب البو سليماني وعلى بن الحبيب ومحمد بن سعيد الغرمي والطاهر السكراتي والحسين بن ابراهيم التالعينتي وعبد الله بن الطاهر الافراني والطاهر السماهري ومحمد بن أحمد الإكراري وابنه ابراهيم الذي قال فيه من قصيدة :

مسدي الصلات إلى العفاة ومورد الـ ... ـإحسان ذي الفخر الجليل العالي
تزنيت بالحسنى وبالبشرى افخري ... ولتسعدي بحياة ذا المفضال ...

وقد أورد محمد المختار نماذج من شعر بعضهم فيه ضمن ترجمته له ولأخيه أحمد واعتذر عن تتبعه لأن المؤرخ الأديب علي بن الحبيب قد تتبعه واستوفاه في تاريخه [34].

وبعد، فقد حاولنا من خلال النظر في بعض كتابات محمد المختار السوسي أن نجمع جملة من المعلومات حول النشاط العلمي والأدبي بمدينة تزنيت، وركزنا من بينها على ما يتعلق بمجال هذا النشاط وبرجاله ثم ببعض مظاهره. وقد يكون فيما لم نقف عليه من كتاباته الأخرى ما يمكن أن يغني الموضوع ويفتح له مزيدا من الآفاق ويعمقها، فعسى أن تتاح لنا فرصة مقبلة للاطلاع عليها فنحقق بعضا من ذلك.

---

32. منها سوس العالمة : 113 ــ 116.
33. المسعول : 206/13 ــ 244.
34. المصدر السابق : 227/13.

المدرسة الجشتيمية والتمكْديشتية
العلاقات والأدوار

عمر بزهار
باحث - أيت ملول

يسعى هذا العرض الذي أشارك به في هذه التظاهرة العلمية الهامة حول إقليم تزنيت إلى الحديث عن ظاهرة فكرية تتمثل في وجود مدارس تنعت بالعلمية أو العتيقة، وفي قيام هذه المدارس بأدوار كبيرة في مجالات العلم والمعرفة وفي ميدان التوعية والاصلاح، ومجال الوطنية والدفاع عن حوزة البلد وسيتم ذلك من خلال : تقديم مدرستين في المنطقة هما : المدرسة الجشتيمية والمدرسة التمكْديشتية. وسيتمحور العرض حول التعريف بالمدرستين انطلاقا من العلاقات المختلفة التي تربط بينهما، ثم الأدوار العلمية والمعرفية التي برزت فيها المدرستان بشكل كبير، ثم يختم بادوارهما في ميدان الارشاد والدفاع عن الوطن ضد العدوان الخارجي.

وستكون منطلقاتي في إبراز هذه الأدوار من نصوص صدرت من أعلام المدرستين أو من غيرهم ممن لهم علاقة بهما، أو من بعض الدارسين الذين يعتبرون مصدرا هاما من مصادر البحث في المدارس العلمية العتيقة بالمنطقة.

وقبل توضيح الأسباب التي جعلتني اختار هاتين المدرستين دون غيرهما، اسعى إلى إبراز نقطتين هامتين تتعلقان بالمدارس تتشابه وتلتقي أحيانا فيما بينها من حيث طبيعتها وأدوارها ومناهجها في تأدية تلك الأدوار، وبذلك فلا يمكن لنا أن نميز بين مدرسة وأخرى لهذا التشابه وذلك الاتجاد في أكثر الأحيان.

أما النقطة الثانية فهي أن بعض المدارس لها خصوصيتها ومميزاتها لا تشترك فيها مع مدارس أخرى قد تعاصرها أحيانا، وانطلاقا من هذه النقطة الأخيرة فإنني لا أدعي أن المدرستين اللتين اقترحت تناولهما تمثلان كل المدارس العلمية، مما لا يجعل الكلام عنهما يعني بالضرورة الكلام عن غيرهما.

ولذلك فإن الذي جعلني أختار هاتين المدرستين بالذات مايلي :

1 . بالنسبة للمدرسة الجشتيمية تعتبر أول مدرسة كبرى تظهر في المنطقة، إذ يرجع تاريخ تأسيسها إلى ما قبل 1143 هـ، وهي الفترة التي ولد فيها عبد الله بن محمد أول من اشتهر من الأسرة، وتمتد جذورها إلى المدرسة الهوزيوية والحضيكّية قبلها.

أما المدرسة التمكّيدشتية، فرغم كونها لم تؤسس إلا في النصف الثاني من ق. 13 هـ إلا أنها أكبر مدرسة وزاوية في المنطقة بعد تامكّروت، وهي كما يقول محمد المختار السوسي (أم المدارس الحوزية البالغة خمسين مدرسة منبثة حوالي مراكش بواسطة مزوضة التي أسسها أحد تلامذة آل تمكّيدشت) [1].

2 . السبب الثاني يتمثل في العلاقات التي ربطت المدرستين، وهي علاقات متعددة الأطراف متشعبة الجوانب، منها ما يعود إلى المحيط الذي نشأتا فيه، ومنها ما يرجع إلى أدوارهما المختلفة.

هذا ويمكن تصنيف هذه العلاقات إلى علاقات اتفاق وتشابه وعلاقات اختلاف وتصادم.

فيما يخص الصنف الأول من العلاقات نجد :

1 . وجود مركزيهما في منطقتين متقاربتين جغرافيا، فهما معا اختارتا دائرة تفراوت، فالجشتيمية بأكّشتيم قبيلة أملن، والتمكّيدشتية بمنطقة تمكّيدشت بقبيلة ايسي.

2 . كونهما متعاصرتين ومتزامنتين خاصة في فترات ازدهارهما وعطائهما بفضل الأقطاب الذين قادوا المدرستين كأحمد بن محمد التمكّيدشتي وابنه الحسن وعبد الرحمن الجشتيمي وابنه أحمد.

3 . اعتناقهما معا للطريقة الناصرية التي عرفت انتشارا واسعا في سوس خلال القرنين 12 و 13 هـ ويرجع اتصال الجشتيميين بهذه الطريقة إلى مؤسس مدرستهم عبد الله بن محمد الذي أخذ عن شيوخ تامكّروت، وغرف من منابعهم العقلية والروحية، ومنذ ذلك الحين تغلغلت هذه الطريقة في نفوس

---

1. سوس العالمة ص. 162

الجشتيميين وتوارثوها أبا عن جد كما يقول المؤرخ الأكْراري وهو يتحدث عن أبي العباس أحمد : (من أكابر الطريقة الناصرية، وعليها يحتوي هو وأبوه وجده في العصور الماضية وبها يفتي للناس) [2]. أما عند التمكْيدستيين فيقول الشيخ الحسن عن أبيه في «رسالة الأنوار» : (كان رضي الله عنه على طريقة الشاذلية من طريق الناصرية، وعليها عرج من جهة الأخلاق والورع) [3].

4. دورهما المشترك في نشر العلم والمعرفة وفي التوعية والارشاد وفي الدفاع عن حوزة الوطن ومحاربة المستعمر، وهي أدوار سأركز عليها بعد رصد أوجه الاختلاف بين المدرستين.

فرغم علاقة المشاركة والتعاون تبقى الخصائص المميزة لكل مدرسة قائمة الذات وذلك شيء طبيعي.

وأهم عنصر يمكن اعتباره عاملا أساسيا من عوامل الاختلاف بين المدرستين يتمثل في كون المدرسة التمكْيدشتية جعلت هدفها التربية الروحية والدعوة الصوفية قبل بث العلوم ونشر الفنون فكانت بذلك زاوية ثم مدرسة، وهـذا الدور الازدواجي جعل المدرسة تكتسب شهرة عالية ويؤمها الخواص والعوام على السواء : فالطلبة يتقاطرون عليها طلبا للعلم والعوام يقدمون لها شتى المساعدات لتلبية طلبات طالبي العلم والمعرفة، فاتسعت بذلك رقعتها لتستقطب عددا من القبائل السوسية وتؤسس لها فروعا في مناطق مختلفة، وبهذا تفوق زميلاتها الجشتيمية التي لم تؤسس إلا لنشر العلم، ولا يقصدها العامة إلا عندما يطلبون الفصل في الخصومات وإصلاح ذات البين. وانطلاقا من هذه المفارقة البسيطة بين المدرستين في طبيعتهما ووظيفتهما، ظل زعماؤهما يراقب بعضهم بعضا ويلاحظ حركاته وسكناته ويسجل أخطاءه ومخالفاته فتولد من ذلك صراع بسيط وخلاف طفيف تجاه قضايا متعددة لها علاقة بوظائفهما، وسأقتصر على ثلاث قضايا منها :

القضية الأولى متولدة عن عنصر الاختلاف المشار إليه، وتتمثل في علاقة كل من المدرستين بالعامة، فالتمكْيدشتيون بما عرف عن مدرستهم من

2. ج. 6 من المعسول ص : 139.
3. نفسه ص : 174.

كونها زاوية بالدرجة الأولى ظلت القبائل تؤمها للتبرك وتقديم مؤونة الطلبة للمدرسة والتبرعات للزاوية مما جعل الجشتيميين ينكرون عليهم خدمة القبائل لهم معتبرين ذلك وجها من أوجه الاستغلال، في حين أنكر التمكْيدشتيون على الجشتيمية دور شيوخها في الافتاء والقضاء وفض النوازل وما يستتبعه ذلك من أخذ الرشوة معتبرين ذلك أيضا ميدانا للاستغلال.

وقد عبر زعيما المدرستين المتعاصرين عن موقفهما تجاه بعضهما من خلال بيتين مشهورين يتضمنان نقد كل منهما بما اشتهر به فقال أحمد التمكْيدشتي عن أبي زيد عبد الرحمن :

يا من يريد من الناس أداسن تحكمن مقامـــه عنـــد الله إمـــزي

ورد عليه عبد الرحمن الجشتيمي بقوله :

يا من يريد من الناس أداس كرزني مقامـــه عنـــد الله امـــزي [4]

القضية الثانية التي وقع فيها الاختلاف بين المدرستين تتصل بالشاي (الاتاي) الذي أثار بعد شيوعه نقاشا حادا بين علماء سوس، فلم يجرؤ أحد على القول بجوازه. وكان جلهم يحرمه قياسا على الخمر، إلا الفقيه أحمد الجشتيمي الذي ناظر العلماء في شأنه ودعاهم إلى شربه لعدم وجود دليل منطقي يحرمه. وله في ذلك أراجيز ومنظومات متعددة ومن الذين وقفوا ضد هذه المادة ورفضوا إباحتها التمكْيدشتيون الذين وجه إليهم أبو العباس أحمد الجشتيمي قصيدة منها هذا البيت :

فقل للذي ينهى عن الشرب للاتا ي فاتك أجر الشكر عن خير ريحان

القضية الثالثة وهي تشبه الأولى، وتتمثل في الخلاف بين المدرستين حول قضية فقهية شغلت بال الرأي العام الفقهي آنذاك، وتتعلق بنوع من البيوع يسمى بيع الثنيا الذي شاع بين الناس حينئذ رغم اختلافهم في جوازه، وكان الجشتيميون أول من أثاروا القضية، ونبهوا عليها الفقهاء، وكان موقفهم منها المنع بخلاف التمكْيدشتيين الذين لم يروا مانعا في ذلك لأنه مما عمت به البلوى وقد وجه أبو العباس الجشتيمي في شأن هذا البيع أسئلة إلى علماء سوس وفاس،

4. المسعول ج. 6 ص : 58

وطرح ذلك على علماء المالكية والشافعية والحنفية في مصر والحرمين وله في ذلك منظومات متعددة.

أما القضية الرابعة فتتصل بالطريقة الصوفية التي أسلفنا أن المدرستين اتحدا فيها والتقتا عند الطريقة الناصرية. وبما أن التمكْيدشتيين اعتبرت مدرستهم زاوية قبل أن تكون مدرسة فقد نظر إليهم الناس على أنهم ذوو ولاية وأصحاب كشوفات وكرامات، وهو الشيء الذي أنكره الجشتيميون فتصدوا لهم في شخص موال لهم هو أحمد بن داوود الذي دعا الناس لزيارته والاعتراف بولايته، وقد تبادل رسائل الاتهام مع عبد الرحمن الجشتيمي الذي ألف في الرد عليه رسالة سماها «إرسال الصواعق على ابن داوود الناعق»، وفيها حرض الناس على الابتعاد عنه وعدم الاعتراف بولايته.

أعتقد أن هذه القضايا التي كانت مثار خلاف بين المدرستين لم تكن لتحدث قطيعة بينهما ولا لتؤثر في علاقتهما الوطيدة الطلائعية، لأن ما أدت إليه ليس صراعا بالمعنى الحقيقي للكلمة ولكنه منافسة شريفة تستهدف وضع الأمور في نصابها، وتوحيد الرؤى لخدمة الصالح العام. ولا أدل على ذلك من أن المدرستين اتحدث مواقفهما وتصوراتهما في كثير من القضايا، والتقتا في أدوار هامة ومواقف شريفة جادة. خاصة حينما يتعلق الأمر بالحفاظ على وحدة المجتمع المغربي وتماسكه، وبالدفاع عن المقدسات الوطنية، ضد كل خطر خارجي، والقيام بدور الارشاد والتوعية، وسأتعرض لهذا الجانب بعد أن أوجز الكلام عن الأدوار العلمية والمعرفية للمدرستين التي تبدى فيها عطاؤهما بشكل واسع :

1. مجال التدريس : فيه تجلى دور المدرستين أكثر، فمنذ أن تم تأسيس المدرستين اضطلع أعلامهما بمهمة الاقراء وتخريج العلماء والأدباء مزودين بكل المعارف التي تروج آنذاك من دينية ولغوية وتاريخية وأدبية وإن كانت كل من المدرستين تركز على جانب دون آخر، فالتمكْيدشتية ركزت على العلوم الدينية واللغوية والتربية الروحية، في حين زاوجت الجشتيمية بين العلوم الدينية واللغوية والأدبية، وكانت لها في مجال التربية والتعليم طرائق خاصة ومناهج منفردة استأثرت بها دون غيرها.

وقد استمرت الجشتيمية تؤدي هذا الدور رغم انتقالها من المدرسة المركزية إلى تارودانت وتيوت، إلا أن فترة ازدهارها في هذا المجال انتهت بوفاة أبي العباس أحمد 1327 هـ، أما التمكّديشتية فقد استمر تلقين العلوم فيها ربما، إلى الآن.

2. مجال الكتابة والتأليف : رغم مشاغل التدريس والقضاء والافتاء والارشاد التي قامت بها المدرستان، فقد تمكنتا من إغناء الخزانة المغربية بسيل هائل من المصنفات والتآليف في شتى العلوم والمعارف الانسانية. فإذا كانت المدرستان تختلفان من حيث الاهتمام بحقل من المعارف دون آخر، فإن ذلك انعكس على الانتاج الفكري والابداعي لها، فقد اقتصر انتاج المدرسة التمكيدشتية على بعض الرسائل الكبرى إلى جانب المراسلات المتبادلة بينهم وبين المعاصرين لهم، ثم بعض المنظومات والقصائد التي اقتصرت على أغراض بعينها كالرثاء والزهد ... أما المدرسة الجشتيمية فإن إنتاجها شمل أغلب المعارف المعتنى بها آنذاك، وهكذا ألفوا في العلوم الدنينية واللغوية والتراجم والتاريخ إلى جانب الانتاج الأدبي الهائل من شعر ونثر، وهو إنتاج ضخم منه المطبوع والمخطوط الذي لم ير النور بعد. ويصعب في هذه العجالة حصر كل إنتاج أعلام المدرسة ويمكن الاشارة إلى المنظومة الكبرى لأبي زيد الجشتيمي والمسماة بـ : «العمل السوسي» ثم كتاب : «الحضيكيون» وغيرهما ...

3. دور الاصلاح والارشاد ونشر الوعي الديني والوطني : من المعلوم أن حالة المغرب في الفترة التي بلغت فيها المدرستان أوجهما مليئة بالأحداث الجسام، والأزمات العديدة التي فتح بابها وقعة إسلي وحرب تطوان وبداية التدخل الأجنبي بالمغرب، وهي مناوشات لها انعكاسات سيئة على المغرب في جل المستويات، خاصة الاجتماعية والدينية، فبخصوص الناحية الاجتماعية سبب التدخل الأجنبي بلبلة في أوساط السكان ونشر نوعا من الهلع وعدم الأمن، مما خلف فتنا بين القبائل، وعلى المستوى الديني انتشر الفساد والانحراف عن الدين وفشت البدع البعيدة عن السنة مما جعل المدارس العلمية تتجاوب مع تلك الأحداث، وتواكب ملابسات المرحلة فقام علماؤها بدورهم في الاصلاح والتوعية، ومن أولئك الاعلام الذين لهم دور في الارشاد شيوخ

المدرستين اللتين نتناولهما فقد تبودلت بينهم وبين غيرهم رسائل في هذا الشأن تصف الحالة، وتستهدف تطويق البلبلة والانحراف، ومن الرسائل التي نلتقي بها في هذا الصدد رسالة أحمد التمكَدشتي إلى قبيلتين أو فريقين تناحرا فيما بينهما ولم تعين الرسالة اسم الفريقين ولكنها ذكرت المحولات المتكررة من الشيخ للصلح بينهما مع انذارهما بعقاب الله وعذابه تقول فقرة من تلك الرسالة للشيخ أحمد : (إلى الاخوان حيث كانوا ... مالي أراكم لا تمتثلون أمر الله قال تبارك وتعالى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاءه جهنم﴾، وقال : ﴿وان طائفتان من المومنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما﴾، وإنما حملني على أن أكتب إليكم هذا محبة الله ورسوله) [5].

وفي رسالة أخرى نجد الشيخ أحمد نفسه يلزم قبيلتين أخريين بالهدنة، فيقول : (ومن فسخها ـ الهدنة ـ ذاق وبال أمره، منفردا به، والسلام، ويطلب الجواب من الفريقين برسول أو رسالتين أو هما معا) [6].

ولم تقتصر الأمور على الفتنة والصراعات بل تعدتها إلى الانحراف عن تعاليم الاسلام وحاولت الخروج عن السنة الصحيحة وانتشار البدع، وقد صدرت من المدرستين توجيهات لارشاد السكان وتوجيههم ودعوتهم للرجوع إلى الدين الصحيح وتخويفهم من عواقب الانحراف والزيغ. تقول رسالة مؤرخة بـ 1262 هـ لأحمد التمكَدشتي : (وبعد، فلكل دعوى برهان، وبرهان الايمان محبة رسول الله، وبرهان المحبة اتباع رسول الله، والخير إذن كله محصور في السنة المحمدية، والشر كله محصور في البدعة والكفر، والشقاق والنفاق، وانقادوا إليه بالسمع والطاعة ...) [7].

ومن القضايا الهامة التي يمكن رصدها في هذا المجال أن علماء المدارس لم يكتفوا بوصف الأوضاع والقيام بدور التوعية والتوجيه، بل نجدهم في أكثر الأحيان يستعينون بالسلطان ويوجهون له رسائل على شكل أسئلة تنتظر الجواب حول تلك الأوضاع، وربما حتى يستعينوا به وبتوجيهاته حينما لا

5. المعسول ج. 6 ص : 240.
6. نفسه ص : 241.
7. ص. 243.

يستطيعون تغيير المنكر، فتأتي أجوبة السلطان لتستنكر الفساد والانحراف وتدعو العلماء إلى التعاون لتقويم المنحرفين وردع الضالين.

ومن النصوص التي يمكن الاستشهاد بها في هذا الجانب رسالة من أحمد التمكّيدشتي إلى المولى عبد الرحمن، تقول فقرة من الرسالة : (والقدرة الأزلية قد أوقعتني بين قوم يرتكبون أقبح المساوي ويتساقطون في أضعف المهاوي، وإن أهملتهم حوسبت بهم، وإن أنذرتهم أنذر الموتى والصم فيهم، فقد بدلوا الأحكام واستحلوا الحرام، واشتغلوا بالبيوع الفاسدة ...) [8].

وقد أجاب المولى عبد الرحمن الشيخ أحمد برسالة طويلة أسهب من خلالها في ذكر حالة سوس وتحذير المنحرفين وتخويفهم وندد بالأحكام الخارجة عن الدين، وبالبدع والأعراف المحتكم إليها، نقتطف من الرسالة مايلي : (فقد وصلنا كتابك مفعما إلينا بالشكوى من فساد الزمن وأهله، وتورط كل مدع في جهله، وتبديل الناس أحكام الكتاب والسنة بأحكام الجبت والطاغوت، وتعلقهم بما هو أوهي من خيط العنكبوت، ونبذهم الشريعة المحمدية وراء ظهورهم، وارتكابهم البدع المخالفة في جميع أمورهم ...) [9].

إن النصوص التي عكست هذا الدور عديدة، سيتطلب منا تتبعها وقتا طويلا ولذلك سأكتفي بهذا القدر لأشير إلى أن ما قام به زعماء المدارس بصفة عامة في تلك الفترة، يمكن اعتباره إرهاصا للاصلاح السلفي الذي نجده يشمر في صدر هذا القرن على يد أقطاب الحركة السلفية في المغرب، وقد اعتبرنا هذه بادرة من بوادر الاصلاح وإن أتت على يد بعض شيوخ المدارس والزوايا الحاملين للواء الطرقية التي كانت من بين التيارات المستهدفة من قبل الحركة السلفية، لأن هؤلاء الطرقيين المعتدلين حاولوا بدورهم محاربة البدعة والرجوع إلى الينابيع الأولى للاسلام.

4. دور المقاومة ورد العدوان :

لم يقتصر دور المدارس العلمية العتيقة على بث العلوم ونشر الوعي وإصلاح المنحرفين بل لقد تجاوز ذلك إلى العمل الفعلي، ومقاومة التدخل

---

8. ص. 247.
9. ص. 248.

الأجنبي إبان المناوشات الاستعمارية على الحدود الشمالية والشرقية بدءا بوقعة اسلي إلى حرب تطوان، وسأقف عند هذين الحدثين البارزين اللذين نجد شيوخ المدرستين يقومون خلالهما بدور استنفار القبائل، والتعبئة العامة : فبخصوص الحدث الأول نلتقي مع رسالة موجهة إلى أحمد التمكّيدشتي من لدن المولى عبد الرحمن يثني فيها على موقف الشيخ في استنفار القبائل للجهاد وسد الثغور والتصدي للمعتدي، تقول فقرة من الرسالة : (محبنا في الله الفقيه الأرضى السيد أحمد بن محمد التمكّيدشتي ... وما ذكر من جد القبائل في تلك الناحية في الجهاد، وقيامهم على ساق الجد في سد الثغور واغاظة العدو الكفور، فذلك الظن في المسلمين ... فقد كفى الله أمر الكفر وشره لأن العدو قصمه الله ألح في طلب السلم) [10] أما الحدث الثاني المتعلق بالهجوم الاسباني على تطوان، فقد وجهت بصدده رسالة من السلطان إلى بوستا عامله على مراكش ليراسل علماء المدارس بسوس، حتى يستنفروا القبائل، للذهاب صفا واحدا من أجل الدفاع عن تطوان، وقد عينت رسالة بوستا أسماء العلماء الذين سيقودون الركب ويكونون في مقدمة المجاهدين تحت رئاسة الأديب الفقيه أحمد الجشتيمي. ثم أرسل التمكّيدشتي رسالة مماثلة إلى قبائل سوس، ومما جاء فيها : (ولعل السلطان نصره الله أراد الحصار على العدو الكافر بتطوان لأنه دخلها لعنه الله وأخزاه ...) [11] إن كل هذه الأدوار التي قام بها فقهاء المدارس وأعلامها من تدريس وتربية وتأليف وقضاء وإرشاد وتوعية وتطبيب أحيانا إلى جانب الدفاع عن حوزة الوطن، لم تكن لتضايقهم وتجعلهم يتبرمون من تأديتها، بل نجدهم يعتبرون ذلك واجبا عليهم لمكانتهم العلمية والدينية، وقد عبر عبد الرحمن الجشتيمي عن هذه المسؤوليات الجسيمة بصدر رحب وتفان كبير بقوله :

القاصدون الينا غير واحدة	أغراضهم التي من أجلها قدموا
فمنهم خصيم ومنهم من يشاورنا	وطالب لدواء هاله سقم
حاجاتهم كلهم من فضل خالقنا	ميسر عندنا قضاؤها لهم

10. المعسول ج. 6 ص : 190

11. نفسه ص : 267.

ظاهرة الرسوب المدرسي لدى الطفل القروي بادية تزنيت

الطيب عمري*
باحث - تزنيت

الرسوب المدرسي والمناخ الثقافي الاجتماعي الأسروي

قام علماء التربية بجهود جبارة للتعرف على المؤسسة المدرسية وما يحكم العمليات التعليمية التي تجري فيها، فانصب اهتمامهم على دور المعلم والكتاب والطريقة والنظام المدرسي في تفسير وتحديد أسباب النجاح والرسوب عند مختلف الفئات السكانية وفندت العديد من المفاهيم والمقاييس والأحكام، مما أدى إلى انصاف الفئات القروية. إلا أن هناك جانبا لم يخرج إلى دائرة الضوء، ولم تعط له الأهمية الكبيرة في تفسير الظاهرة، وهو تأثير المناخ الأسروي الاجتماعي الثقافي على عملية التحصيل المدرسي، هذا الوسط قد يؤمن للطفل التي تجعل دراسته استمرارا طبيعيا لحياته، يكلل بالنجاح، أو هو على العكس، يحكم على التلميذ بالرسوب والفشل، مع وقف التنفيذ متفاوت في مداه الزمني حيث تفقد المدرسة وظيفتها الحيوية بالنسبة إليه.

ولما كان الانسان في صراع من أجل الانتاج، وفي علاقاته الاجتماعية يخضع في تطوره الثقافي للمحيط الذي يعيش فيه، وحسب الظروف التاريخية التي يتميز بها هذا المحيط، نجد الثقافات تختلف من مجتمع إلى آخر حسب المكان والزمان، أي حسب الظروف الطبيعية. وهذا الطابع المميز نعبر عنه بالأصالة أو الخصوصية الثقافية، والطابع المشترك بالعمومية الثقافية والمجتمع السوسي له خصوصيات ثقافية، فما زال يمارس الثقافة واللغة في أشكالها البدائية معتمد أساسا على الأدب الشفوي، ولم يحاول تطوير اللغة

* اصل المداخلة بحث ميداني قام به كل من الأستاذ عمري الطيب وبادرة محمد تحت إشراف الأستاذ سعيد الغزاوي.

والثقافة في اتجاه أكثر تقدما، نظرا للتهميش الممنهج الذي تعرضت له المنطقة عبر التاريخ، ولسيادة المعرفة الخرافية المليئة بالغيبيات والأوهام في التعامل مع ظواهر الحياة. وفي هذا السياق يقول «بول باسكون»، أثناء إجابته عن سؤال طرح عليه عن الثقافة السائدة في البادية «... سأكون ميالا للتأكيد على (وجود) تجريد من الثقافة، وكأن غياب الثقافة كان ممكنا، وبصفة عامة لم تتمكن الصحافة المكتوبة والتلفزة من اختراق البادية بما يكفي لخلق أوضاع جديدة ... كما تعتبر المدرسة «العصرية» التي لم تكيف مع الشروط تقريبا، وهي لا يمكنها، في كل الأحوال أن تكون مصدرا ثقافيا هاما ... ان الثقافة تقوم في قسمها الأكبر على النقل الشفوي والصوتي، وهذا أمر قديم جدا لم يحارب في الماضي من طرف طرق الحياة الجديدة».

وعليه يجد الطفل القروي الذي ثمة تنشئته الاجتماعية بلغته الأم والمتشبع بالثقافة الشفوية، صعوبة حين وصوله إلى المدرسة حيث تصبح عملية الادماج هذه موضع تساؤل جوهري، لأن هؤلاء الأطفال الذين تمت تنشئتهم الاجتماعية في ثقافة مغايرة لتلك التي تقدمها المدرسة، انخرطوا في عملية مزدوجة للتفاعل مع الجماعة المشتركة، ويشكل التمدرس لديهم المرحلة الصعبة بين النموذجين الثقافيين المرجعيين، النموذج المنقول خلال عملية التنشئة الأولية الخارجة عن المدرسة والنموذج الذي تقترحه الثقافة السائدة من الجهتين بواسطة المدرسة، وينجم عن هذه الازدواجية، صراع الهوية، الذي سيتم ليس فقط على مستوى اللغة بل أيضا على مستوى مجموع المعايير والأدوار الاجتماعية المميزة للمجتمعات التي يتواجد فيها الأطفال الممدرسون.

وينظر «بورديو» و «باسرون» للثقافة المدرسية من زاوية علاقتها بالثقافة الفرعية الخاصة بالفئات الاجتماعية المختلفة في المجتمع، على أنها ليست بالثقافة الأم لأي من الفئات الاجتماعية وإنما هي أقرب ما تكون إلى الثقافة الخاصة بالطبقة «البورجوازية» وأبعد ما تكون عن الثقافة الشعبية وفي ذلك يقولان : «ان الأسرة تنقل، سواء بطرق مباشرة أو غير مباشرة، نوعا من رأسمال الثقافي، ومن التراث الأثني، وهما يشكلان أخيرا نظاما من القيم الضمنية المستبطنة بشكل عميق، والتي تساهم في تحديد المواقف المختلفة من رأس المال الثقافي الذي تشترطه المدرسة».

إن هذا التراث الثقافي الذي يختلف في مظهريه، بحسب الطبقات الاجتماعية والمناطق هو المسؤول عن اللامساواة القائمة بين الأطفال تجاه الاختبار والتقويم المدرسيين، ومن هنا فهو يساهم إلى حد بعيد في اللامساواة القائمة في فرص النجاح المدرسي. فالاستعداد للمدرسة يبدأ قبل سن الدراسة الابتدائية بوقت طويل من خلال مسار العمليات المعرفية عند الطفل، إلا أن هناك تهيئة حقيقية تكاد تكون حاسمة بالنسبة لعملية التحصيل، تتم أو لا تتم، تبعا لحالة المناخ الثقافي في الأسرة. فأبناء الأسر المؤهلين للدراسة في المدينة يتمتعون بفرص لا تتوفر لأبناء الفئات المقهورة في البادية ...

ويؤكد كل من بلوم وبرنشتاين، ان معظم الفروقات الادراكية قد وجدت عند الأطفال قبل دخولهم إلى المدرسة الابتدائية، لذلك لا يكفي أن نطبق مبدأ التكافؤ على أساس إمكانية الحصول على التعليم، بل يجب أن نقدم للأطفال ذوي المنشأ الاجتماعي «المتخلف» إمكانية (اكتساب) قدرات عقلية، وذلك بأن نوفر لهم أكبر قدر ممكن من المساواة في مؤسسات ما قبل المدرسة، وفي المدرسة نفسها، أو بعبارة أخرى، يجب أن نعطي، الأطفال كلهم فرصا متكافئة في تربية متكافئة، وذلك تبعا للمنشأ الاجتماعي، إذن، ان النظرية الة تفسر الرسوب المدرسي بالذكاء والتخلف، بينت مدى عجزها وقصورها إذ لا تأخذ بعين الاعتبار المعايير الة تعكس أهمية القيم الاجتماعية والثقافية. حين يفتح الطفل عينيه على الحياة ويجد نفسه محاطا بمناخ عنيف بالمثيرات الثقافية، فإن شهيته تتفتح للتعلم ذي الطابع المدرسي وتصبح الكتب، أو المجلات والصحف والأوراق والأقلام جزءا من ألعابه وبالتالي من حياته الطبيعية، ويعاق الطفل معرفيا بمقدار تدني المستوى الثقافي للبيئة التي ينشأ فيها. ذلك أن الغبن الثقافي لا يتيح للأهل الرازحين تحت أعباء الحياة اليومية، تنمية الشهوة المعرفية عند أطفالهم وعند هذه النقطة بالضبط يبرز أحد أشكال التفاوت في فرص التعلم بين الطفل الذي نشأ في بيئته مشبعة بالمثيرات الثقافية، وذلك الذي نشأ في بيئة تتصف بما يسمى بـ «الحرمان الثقافي» كما يحرم الطفل القروي من عملية التماهي بالكبار ورموز هذا التماهي في الأوساط المثقفة، حيث تعتبر عملية التماهي تعويضا هاما عن قصور المناهج والنظم التعليمية» الراهنة في الأوساط المدينية المثقفة (سأكبر وأذهب إلى الجامعة

وأصبح كذا ... مثل أبي أو ...)، إن الأطفال المحرومين ثقافيا يفتقدون هذا السلاح في التهيؤ للدراسة وأعبائها، فنماذج التماهي المعروضة عليهم، لا تمت بصلة إلى عالم المدرسة وقيمها وتوجهاتها، أنهم يتوجهون نحو الشارع الذي يقضون جل وقتهم فيه بحثا عن أبطالهم، أو نحو مهارات التعامل مع الطبيعة (مطاردة الحيوانات والطيور والحشرات ...) أو هم يتوجهون نحو مهارات تدبير الحال من خلال تصرفات التحايل الاجتماعي، وفي كل الحالات تظل آفاق المستقبل، مسدودة أمامهم في حالة من الغرق الفعلي في الحاضر ومثيراته وهمومه واهتماماته، أنهم يحاولون أن يكونوا الآن بدل الاسقاط على المستقبل الذي يظل غائبا لأنه ليس أكيدا، هؤلاء الأطفال لا يتوقعون مستقبلا من خلال الدراسة، لأن أهلهم لا مستقبل لهم في نهاية الأمر. ويصبح المهم هو الآني، هو الممكن، هو النتائج المباشرة، انعكاسات هذا الواقع خطيرة على العملية المدرسية، وما تسفر، عنه من تثبيط وإحباط وفشل دراسي أكيد ...

وليس من المستغرب، أن يدخل طفل من هؤلاء إلى المدرسة، دخوله إلى عالم غريب كل الغرابة عن عالمه المألوف ويجابه قيما وتوجهات لا تمت في شيء للقيم الموجهة لسلوكه في بيئته الأسروية والشارعية، ويتعرض لمتطلبات تبدو فاقدة لكل صلة بحياته، ومرتبطة بمستقبل يتجاوز طاقته على التصور، وليس من المستغرب كذلك أن يظل هامشيا في المدرسة، وكذا أن تظل عملية التعليم هامشية في حياته.

ويلاحظ أن تكافؤ الفرص التعليمية بالنسبة لهؤلاء الأطفال لا يكون بمجرد إدخالهم إلى المدرسة لأنهم في الواقع غير متساوين مع أقرانهم في المدينة أو في المناطق الأخرى، من الناحية الثقافية والاجتماعية الضرورية لبدء عملية التعلم، يقول أحد الفلاحين المستجوبين في إطار بحث ميداني : «هل تدرون لماذا لا ينجح أطفالنا في المدرسة ؟ زيادة على انعدام وسائل النقل، فهناك انعدام الكهرباء كسبب ثان، ولا يتوفرون عليها سواء بالمنزل أو المدرسة، ففي فصل الشتاء يبدأ سقوط الظلام منذ الساعة الرابعة أما بالمدينة، فيتابع الأطفال دروسهم في المدرسة إلى الساعة السادسة وبإمكانهم الاستمرار في إنجاز واجباتهم المدرسية بالبيت».

ويضيف فلاح آخر : «إن أبناء الفقراء يقولون : إنهم لن يتمكنوا من شيء ولا داعي لتضييع الوقت في حين، أن أبناء الفئات المحظوظة يتمكنون من تدبير

الأمر لأن الوسط يشجعهم»، اما الفئات المهمشة المغبونة، فلا تتعلم لأنها تتخبط في ظروف حياتية صعبة. ففي حالة الأب الفقير أو التاجر الصغير يدخل الطفل إلى المدرسة سنتين أو ثلاثا، وبعد ذلك يأخذه أبوه لكي يساعده ويصبح تاجرا صغيرا هو كذلك، بعد أن يفتح له دكانا صغيرا في القرية، وهذا كثيرا ما يقع لأبناء المهاجرين إلى الخارج، لأنهم يتعرضون أكثر من غيرهم للرسوب والتسرب، لغياب المراقبة الأبوية وانعدام تحفيز الطفل على الدارسة كقيمة هامة. فابن الفئات المحظوظة ثقافيا واجتماعيا يتعلم في المرحلة الأولى كي يرضي المحيطين به على الأقل، وكي يحقق ذاته من خلال الحصول على ثنائهم وتقديرهم الضروري جدا لتعزيز قيمته الشخصية، وصورته الايجابية عن ذاته، أما ابن الفئات القروية المحرومة ثقافيا واجتماعيا، يفتقر إلى هذا التحفيز لأن الأبوين غارقين في الهموم الحياتية المتلاحقة مما لا يترك لهما مجالا لفتح شهية الطفل المعرفة.

إذن بدون المستوى المادي المعقول للأسرة لا يستطيع الطفل القروي أن يفيد مما يقدم إليه من تعليم مجاني وقد نجد أبناء الفئات المغبونة ثقافيا واجتماعيا أكثر احتمالا في استبعاد أنفسهم من التعليم عن طريق تركه بعد أن يدخلون أو عن طريق الرسوب في الامتحان، حيث أن بعض الأسر القروية تعتبر الأبناء وسيلة من وسائل الانتاج، واستخدامهم كمساهمين في أشغال الزراعة والرعي، والهجرة باعتبارها تدخل في الاستراتيجية العائلية كمورد اقتصادي يعوض حياة الفقر والبؤس.

يقول بول باسكون : «مقهورون ومبتروا الأطرف في المجتمع الحاضر، والثقافة المهيمنة هي في الوقت الحالي، ثقافة المجتمع الصناعي المديني الرأسماليين عندنا لا. ويحس سكان البادية وفي كل سجلات وجودهم، بواقع استغلالهم من طرف عوالم مجمعية أخرى».

الرسوب والوسط المدرسي :

كل ما عرضناه إلى الآن من معوقات أمام النجاح المدرسي يكون تربة خصبة يعززها انعدام الوسائل والاطار التعليمي الملائم في المدرسة، كي يتعزز الرسوب والتسرب الذي يكون نصيب هؤلاء الأطفال، ولن نفيض هنا في استعراض ما هو معروف تماما من تدني مستوى التعليم الذي يقدم للأطفال

القرويين المهمشين ثقافيا، بالمدرسة التي يؤمها هؤلاء سيئة في جميع المستويات والبناء قلما يكون مناسبا وملائما للحياة المدرسية (سواء من حيث قاعات الدرس والمرافق الأخرى... والتجهيزات لا تتعدى المقاعد الخشبية وسبورات قديمة، اما التجهيزات الرياضية فمنعدمة مما يؤدي إلى حرمان الأطفال من وسائل التسلية واللعب الكفيلة بالتحقيق وافراغ التوترات النفسية، (إلا ما كان من صياح وهرج وتشابك بالأرجل والأيدي أثناء فترة الاستراحة.)

إذن لم يكن هناك ما يشوق التلميذ ويجذبه إلى الوسط المدرسي، الدروس فوق مستوى فهم واستيعابهم ولا تمت إلى واقعهم الاجتماعي أو اهتماماتهم بصلة، تدرس بطرق عتيقة وغير مجدية، ولا تضمن إيصالها إلى الافهام.

يدخل الطفل القروي المدرسة وهو غير مهيأ لايجاد مكانته في هذا العالم الغريب فظروفه الاجتماعية والثقافية والنفسية تتفاعل مع الشروط السيئة للوسط المدرسي، وقلة استعداده تتعزز وتتضخم آثاره من خلال انعدام الوسائل التربوية الملائمة في المدرسة، وتكون النتيجة تحول الحياة المدرسية إلى سلسلة من الأزمات. والصراعات تنتج عنها في الغالب ظاهرة الرسوب، لأن عدم رضا الطفل القروي بعالم المدرسة الخانق، بدأ يتراكم منذ اليوم الأول لدخوله، كما أن فرض عدم الحركة عليه داخل القسم ساعات طوال وفي وضعية صفية، تغيب فيها ظروف الارتياح يبدأ في تفجير التوتر الذي ترسخ في نفسه في البيت ماضيا وحاضرا، وتتأزم نفسيته أكثر فأكثر، ويحدث ذلك لأن وضعية الصف والوسط المدرسي لا يتيح له التنفيس عن أزمات من خلال السلوك الحركي...

كما أن الطفل القروي لا يستجيب لبعض المواد التي تدرس في بداية المسار الدراسي، فحينما يقول المعلم للتلاميذ: «هذا قطار» «ركبنا القطار» «ندخل القطار» بعد أن وضع جهازا من المطاط أمامهم، نجد فئة كبيرة منهم لا تدخل هذا الجو الوهمي، ولا تستجيب له، لأنهم لم يألفوا هذا الجو الرمزي، فالتفكير لديهم يظل رهن المحسوس والملموس، حيث يسهل عليهم القيام بعمليات حساب ذهنية تتعلق بقضايا مادية تمس حياتهم اليومية، إلا أنهم يعجزون عن النجاح في عمليات من نفس مستوى تعقيد الأولى مطروحة بشكل مجرد.

وعلى عكس التعثر في متابعة عمليات التحصيل الدراسي نجد ذكاء من نو ع آخر عند الطفل القروي، إنه أساسا الذكاء الاجتماعي، وبعبارة أخرى تدبير الحال في التعامل مع الحياة اليومية، ونجد كذلك تفوقا واضحا في تخيل الخطط الناجحة للهروب من المدرسة، إضافة إلى الذكاء الاجتماعي نلاحظ نموا جيدا للذكاء العملي الذي يتخذ شكل التعامل السلوكي الحركي مع الحياة وواقعها.

يقول «بورديو» و «باسرون» في إطار نقدمها لنظرية المواهب والقدرات التي ما انفكت تثيرها المدرسة التقليدية تبريرا لنجاح التلاميذ ولرسوبهم المدرسي : «إن النجاح والرسوب المدرسي مسألة نسبية إلى حد بعيد ولا علاقة لهما بمواهب وقدرات التلاميذ، بقدر مالها علاقة بمتطلبات المدرسة نفسها، هذه المتطلبات التي يعبر عنها منهج مدرسي معين وتقدم دراسي معين ومستويات تعليمية معينة».

بالاضافة إلى ذلك، نجد التواصل المدرسي ليس حياديا، انه عائق ثقافي واجتماعي ونفسي لدى الطفل القروي في التكييف والنجاح خلال المسار المدرسي، وأساس هذا العائق هو عدم قدرة هؤلاء الأطفال على الدخول في الجو الرمزي للوضعية التعليمية، كما أن للتواصل الاصطفائي الذي تقوم به المدرسة دورا كبيرا في نفي أبناء القرويين وتبخيسهم، ونقصد بالنفي المدرسي مجموع الدوافع الداخلية التي تؤدي بالطفل إلى رفض كل ما هو مدرسي، أما التبخيس فيمنعه من وعي ميزاته، ويعطيه فكرة سيئة عن ذاته، ويكون الرسوب والفشل خاتمة هذين النسقين لدى الأطفال، الذين يحملون مقدارا من الاحباطات من كل نو ع، ففقدان الضمانات الحياتية الآنية والمستقبلية يجعل المرء، يعيش في قلق دائم على نفسه وعلى ذويه، إنه رهن اعتباط الطبيعة التي تغطي أو تمنع، ورهن الظروف المختلفة التي تحمل الرزق الوفير أو على العكس المصائب والمآسي التي لا ضمانة ولا حماية له منها، وفي مثل هذه الظروف يحل الانفعال محل العقل ولغة الحلول السحرية محل لغة المنطق، وهكذا نجد أنفسنا أمام تعزيز تأثير الحالة النفسية على الرسوب المدرسي.

ويبقى المعلمون الذين يشكلون فعليا بقايا الجهاز التعليمي، أنهم في هذه المدارس رغما عنهم حيث تعتبر هذه المنطقة، حسب رأيهم، تأديبا لبعضهم ـ كما أن المستوى العلمي والتربوي لبعضهم في غاية التواضع

وإعدادهم التربوي ضعيف، وكذا حال أوضاعهم المادية مزرية لا تكاد تقيم الأود. إنهم بدورهم مستلبون وأغراب، هامشيون اجتماعيا كشأن من يعلمون، هم في المدرسة في حالة إحباط دائم، لا يساعدهم على تحمله إلا الأمل في خلاص سريع بضربة سحرية، وفي انتظار تبدل الأحوال، سرعان ما ييأسون من بذل الجهد التعليمي فالاحباطات المادية والمعنوية تجعلهم يعيشون في حالة التوتر النفسي، ويتخذ بعضهم هذا ذريعة للتشفي من التلاميذ والتهاون والتراخي في العمل، وفي هذه الحالة يجد الطفل القروي نفسه بين المطرقة والسندان، توتر في العلاقات الاجتماعية النفسية داخل الأسرة وتوتر في العلاقات داخل المدرسة فيفقد بذلك شهية التعليم ...*

وهكذا بدل أن يجد الطفل القروي الاهتمام الكافي الذي يوقظ رغبته في المعرفة (خاصة في مثل هذه المنطقة التي تضرب فيها الأمية أوصالها)، نجده يتعرض للاهمال والتشفي مما يهدد مسيرته الدراسية وذلك بالرسوب مرة أو مرات متعددة، حيث يقوي هذا تأثير كل المعوقات الذاتية والأسروية التي أتى إلى المدرسة مثقلا بها.

ولا عجب إذن، أن يعتبر «بورديو» و «باسرون» دور المعلمين في معاودة الانتاج الاجتماعي دورا مركزيا فالمعلمون على شاكلة تلاميذ أيام زمان ونمطهم التقليدي، لهم من خبرتهم التربوية الكلية ما يجعلهم متأهبين للعمل من أجل ديمومة نظام القيم الذي يرتكز عليه رأسمالهم الثقافي وهم بالتالي لا يتورعون عن تقدير التلاميذ الذين يبدون في سلوكهم تلك القيم بالذات، ولذلك يثبط المعلمون همة التلاميذ ويبخسون جقهم في أن يكونوا وينتج عن «العنف الرمزي» للتعسف الثقافي «المفروض على الأطفال القرويين من طرف معلميهم كون العمل التربوي نفسه، هو سبب إخفاق العديد منهم، وذلك لأنهم يفتقدون تلك اللغة وتلك القيم التي تمثل القاسم المشترك بين أبناء الفئات المدينية ومعلميهم ويسمي «تورديه» امتلاك المهارات اللغوية الملائمة لتسهيل عملية التواصل التربوي بالرأسمال الثقافي «وعلى غرار الرأسمال الاقتصادي الذي

---

* أصل المداخلة بحث ميداني قام به كل من الأستاذ عمري الطيب وبادرة محمد.

يجري استثماره من قبل ممتلكيه فى النظام التعليمى بطريقة شعورية أو غير شعورية، وهكذا يؤهل «الرأسمال» ممثليه لأن يجنو المكافآت التي يمنحها النظام، وبذلك يدعمون استمرارية عضويتهم بين الصفوة، وللسبب يبقى على من ليس لديهم ذلك «الرسمال» الثقافي أن يجاهدوا أكثر ليحصلوا عليه في سبيل تأمين نجاحهم في النظام التعليمي.

إن اللغة هي العملة الأكثر استخداما في المدرسة وهذا ما جعلنا نعتقد، أن تفوق أبناء النخبة المثقفة المدينية يعود إلى تفوق لغوي، فهؤلاء اكتسبوا الصيغ والأساليب اللغوية في وسطهم، وهي أساليب مقومة إيجابيا في المدرسة. ويرى «بورديو» ان نظام التعليم ينحو إلى إعطاء الأفضلية الاضافية لهؤلاء، لأن نظام القيم الضمنية التي يفرضها هي أكثر ما تكون التصاقا بالقيم والتقاليد والثقافة السائدة لدى النخبة.

إن ثقافة النخبة هي أقرب ما تكون إلى ثقافة المدرسة، في حين أن أبناء الأوساط القروية لا يستطيعون الحصول، إلا بمشقة، على كل ما هو معطى بشكل طبيعي لأبناء الفئات المثقفة كالأسلوب والذوق والفكر، ومجمل المواقف والجدارات.

وخلاصة القول إن المدرسة لا تعترف بالفروق الناشئة عن الانتماء الاجتماعي والثقافي حيث تضع مؤشرات موحدة التقويم مما يترجم إلى الشعور «بالدونية» لدى الأطفال القرويين، وعندما تنكر وتهمل المدرسة المكتسبات العائلية لدى هؤلاء الأطفال، فإنها تنكر في الوقت ذاته هويتهم الثقافية أي صيغة التنظيم والاستعمال للقيم المتداولة لديهم، هذه القيم يتشربها الأطفال بشكل مباشر في بيئتهم العائلية وبالتالي، فإن موقف المعلم منها يحدد سلبيتها أو إيجابيتها بالنسبة للعمل المدرسي. لأن المعلم لديه نموذج عن الطفل، وهو قلما يكون الطفل القروي. وهذا الأخير يتعرض من قبل المعلم لضغط نفسي انفعالي، عن تصرفه تجاهه (كعدم الصبر، الايماءات اللغوية والحركية، النسيان والاهمال ...) مما يساعد على رسوبه وتعثره في مساره الدراسي.

المراجع المعتمد عليها :

ـ محمد المختار "السوسي" المعسول الأجزاء العشرون

ـ مصطفى حجازي التخلف الاجتماعي (مدخل لسيكولوجية الانسان المقهور) الطبعة الثانية 1980

ـ مجلة الفكر العربي عدد 4 السنة الثالثة 1981 بيروت لبنان

ـ مجلة الثقافة الجديدة العدد 9 دجنبر 1977.

ـ مجلة الأساس عدد 5 فبراير 1983.

ـ الزمن المغربي عدد 8 سنة 188.

ـ مجلة بيت الحكمة عدد خاص بـ «بول باسكون» العدد 3 السنة الأولى 1986

ـ بحث ميداني تحت عنوان ظاهرة الرسوب المدرسي لدى الطفل القروي السوسي نموذجا

اقتراحـات عامـة

1. لتحقيق مبدأ ديموقراطية التعليم والتوسع في المناطق القروية لا يمكن النظر إليه بمعزل عن التنمية القروية المتكاملة لهذه المناطق.
2. لابد ان تعمل وزارة التربية الوطنية على تحسين نوعية التعليم في المناطق القروية وجعله أكثر ملاءمة لظروف عالم القرية وحاجاته.
3. الاهتمام بتعليم الكبار خاصة في المناطق البعيدة، ويشمل كل الذين فاتهم التعليم النظامي من الجنسين، وجعل برامج التعليم في القرى قدر الامكان وترتبط باحتياجات المجتمع ومشكلاته وأوجه النشاط السائدة.
4. ضرورة تطوير المحتويات التعليمية والتربوية بإعطاء الأهمية للمعطيات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والحياتية.
5. تمكين المعلمين من إبداء الرأي والمشاركة في اتخاذ القرارات، لما لهذه الممارسة من دور كبير في تعزيز الثقة بالنفس والنمو الذاتي، بالاضافة إلى فتح المجال أمامهم لاعادة التكوين المستمر.
6. لابد من احترام اللغة الأم للطفل القروي، بل ان اقتضى الحال استغلالها وتوظيفها داخل الفصل الدراسي، حتى يتحقق ذلك الجانب العلائقي العاطفي بين المعلم والمتعلم (خاصة في القسم الأول والثاني من التعليم الأساسي).
7. دراسة جميع اللغات الوطنية، لوضع بيداغوجية علمية صحيحة قصد تدريس اللغة العربية الفصحى وغيرها من اللغات.

لقد تعرضنا في هذا البحث المتواضع لظاهرة الرسوب المدرسي لدى الطفل القروي ومن خلالها تناولنا وضعية التعليم بالوسط القروي فحللنا الظاهرة لمعرفة أسبابها، واقترحنا بعض الحلول التي من شأنها الافضاء إلى تطوير التعليم بالوسط القروي وذلك في إطار برمجة للتنمية القروية الشاملة لأن التنمية الشاملة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية هي الاطار الأمثل لتطوير المجتمع شرط أن تتلاءم وتراعي حاجيات وتطلعات الانسان القروي الذي يجب أن يشكل منطلق وهدف كل تنمية مأمولة ومقبلة ...

التاريخ والثقافة في شعر الحسن البونعماني
مدخل لقراءة أعلامية

الحسين أفا
كلية الشريعة
أكادير

تعتبر هذه المداخلة محاولة قراءة في فكر وثقافة شاعر القطر السوسي ـ كما يسميه العلامة محمد المختار السوسي ـ الحسن البونعماني، وهي مدخل لقراءة أعلامية، انطلاقا من كون الحسن البونعماني كان معروفا بحبه وشغفه وولائه لسوس، فسخر معظم إنتاجه لذكر أمجاد سوس، وإبراز مزاياه وهي ميزة تميز بها عن غيره من شعراء وأدباء سوس، وقد أقر المرحوم محمد المختار السوسي هذه الحقيقة بقوله : «كلنا من سوس، وهناك كثيرون من حملة الفهم والعناية نبتوا كلهم من سوس، غير أن هناك حقيقة تاريخية لابد أن نعلنها وأن نقر بها نحن السوسيين الذين اتصلوا بالحواضر، تخريجا أو زيارة أو سكنى، وهي أننا كلنا لم نكن بعد لنتذكر سوس بعدما وجدنا في الحواضر، وفي علمها وإفهامها، وفي أفكارها ومدنيتها ما أسكرنا حتى نسينا أنفسنا ونسينا سوسنا وأمجاد سوسنا، ورجالات سوسنا، ومن نسي بلده وأصوله وسلفه، فلم ينس إلا نفسه، وإن كان من أهل الشعور، وهذه الكلية الجامعة المستغرقة لكل فرد فرد، لا يمكن للمنصف أن يستثني منها إلا الحسن البونعماني فقط، فلئن كان للمانوزي جولات في هذا الميدان فإنها لم تخرج عن محاورات في المجالس، وملفقات مكتوبة ملأها بالتفنج وبما يظهر من التحيز، وأما الالتفات الحقيقي لاحياء المجد السوسي العلمي والتاريخي من غير تفنج ولا تحيز، فإن البونعماني أبو عذره. أقول هذا وأسجله على نفسي بكل انصاف وإقرار وأنا بأتمي «كما يقول سادتنا العدول» [1].

---

1. المعسول : 13/156-157.

يقول معبرا عن هذا الولاء :

وطني عليك تحيتي وسلامي ... ما أنت إلا منيتي ومرامي
لا عن رضى فارقت أرضك نازحا ... عنها ولكن شيمة الأيام
الله يشهد أنني لا أرتضي ... وطنا سواك لموئلي ومقامي

فإذا كانت المداخلة تعد مدخلا لقراءة أعلامية، فإن الدراسة الاعلامية، سواء كانت أعلاما بشرية أو جغرافية، تقتضي الوقوف عند كل علم على حدة، والنظر في مكونه اللغوي والصوتي، وضبطه دلاليا، وما يحمله من إشارات تاريخية وثقافية، مع مناقشة كل علم على حدة على ضوء هذه المعطيات، ولكن هذا المسلك لن يتأتى لنا في عرضنا هذا، لأن المتن الذي رصدناه كحقل لاشتغالنا، وهو المتن الشعري للحسن البونعماني، والذي حصرناه في ست وثمانين (86) نصا ؛ بين القصائد والمقطعات، في مجموع من الأبيات بلغ ثمانمائة وألفي بيت (2800) قمنا خلالها بإحصاء ما يفوق ستمائة علم بشري وما يناهز أربعمائة موقع جغرافي، ناهيك عن أسماء الحيوان والطيور وغيرها.

ونحن لا نتوخى من عرضنا سوى الوقوف على بعض النماذج من الأعلام التي لها دلالة فكرية وتاريخية، حسب ما يؤشر على مقصدية الشاعر لتخليد هذه الأسماء في إبداعه، انطلاقا من الموقع الذي يحتله هذا العلم في نفسه، وقرابته منه عن طريق الأواصر العائلية أو الروابط العلمية، أو الميول الصوفية، أو وشائج الصداقة، أو شدة الاعجاب، أو عرفان بالجميل، مما يجعل التصنيف على مستوى الأعلام البشرية يشمل الأنبياء والصحابة والأئمة والملوك والأمراء، والزعماء السياسيين، والعلماء، والأدباء، وأفراد الأسرة والمتصوفة، والأصدقاء والمعارف. كما تحتل أسماء الأماكن فضاء مهما في إنتاجه مع إعطاء الأسبقية لمسقط رأسه ومنشأ أجداده، كالمعدر وبونعمان، وأماكن أخرى ذات دلالة علمية وتاريخية ودينية سنشير إلى بعضها لاحقا.

وقد اختارت مقاربتنا المنهجية أفقا اشتغاليا أعلاميا تنفتح من خلاله وعبره على البنية الفنية والجمالية في ترابطها العضوي مع البنية الفكرية، كما درجت عليها الممارسة الشعرية عند الحسن البونعماني تمثيلا لا حصرا، وقد رمنا لذلك بلورة نظرة مختصرة وجزئية للاعلام البشرية والجغرافية كنماذج من خلال ما تيسر لنا جمعه من شعره في الديون الذي صنعناه في إطار رسالة جامعية، وذلك

من خلال رصد بعض أسماء الأشخاص والأماكن ذات دلالات ثقافية وتاريخية، من خلال معانيها السياقية دون إخراجها عن مقصديتها الواقعية، متكئين عليها لابراز أهم الخصائص الأسلوبية التي يتميز بها شعر البونعماني.

انطلاقا من كون الخطاب الشعري من حيث هو عمل فني، ليس إلا تشكيلا لمجموعة من الألفاظ اللغوية، وان اللفظ العادي يكتسب قوة شاعرية مشرقة إذا أدمج في تركيب شعري، أو عبارة بيانية، على هذا الأساس تكون القراءة الاعلامية في تجربة البونعماني تتصل بالمكونات الثقافية للشاعر وبمحيطه الاجتماعي والبيئي، تبرز دلالة إيحائية باعتبار أن المبدع كان حريصا على أن تكون هذه الأعلام منتقاة تمثل مختلف الشرائح البشرية عبر مختلف العصور والأزمان، بجانبها أعلام جغرافية وأسماء الأماكن والمواقع، كأسماء المدن والبوادي والمراكز والمدارس والمزارات.

إن طغيان الأعلام البشرية والجغرافية السوسية خاصة، في ديوانه، وهيمنتها على مساحة هامة في فضاء المتن الشعري عنده، لم يكن اعتباطيا، بل أتى نتيجة عوامل وظروف معرفية وبيئية بالدرجة الأولى، فواقع سوس العالمة، ومكانة أسرته ضمن الأسر العلمية والتصوفية حتمت عليه أن يتناول هذا الواقع بنوع من الدقة والتفصيل، المشوب في غالب الأحيان بالرغبة في التأريخ له، اعترافا منه بالجميل لمن كان لهم الفضل في تأصيل أسس العلم والثقافة في هذه الأصقاع عبر العصور :

وَحَسْبِي افْتِخَاراً أَنْ أَرَى مِنْ عُمُومَتِي الجزوليَّ شَمْسَ الدين فِي الغرب تَطْلُعُ
سَلُوا النِّيلَ عَنْ أَبْنَاءِ نُعْمَان واسَألُوا بِأَلْغَاسَ كَم في الشَّرقِ والغرب وقَعوا

لقد كشفت قراءتنا في شعر البونعماني عن تعدد الاعلام البشرية والجغرافية، وعن تعدد في الموضوعات والمستويات الدلالية، ولكن دون اغفال الذات الشاعرة، إذ كان لها طغيان واضح، جعل من أناه القوة المهيمنة التي تنطلق منها معظم الصفات التي ترتبط بالآخر، فالذات هي المحور الأساس الذي تدور عليه معظم النصوص :

وفي أصدق التاريخ برهان نسبتي يؤيده سوس ومن فيه أكتع
على أنني والحمد لله في غنى بخلقي وآدابي إذا اهتاج أشجع
وفي شهرتي في المغربين كفاية ولا زال مني للمعالي التتبع

أو كما في قوله :

**يحاول غِر القوم شأوي في العلى		متى كان كفء الصة في الشأو صفدع**

وما حديثنا عن تجليات الأنا عند الشاعر إلا محاولة لابراز ذاتيته والوقوف عند مكامنها، باعتبارها منطلقا وجسرا يربط الشاعر بغيره، إذ بواسطتها يكون مشدودا إلى البنيان الاجتماعي السوسي والوطني والعربي والانساني، لأنه جزء من نسيجه العام، فمن خلال ذاته يتحرك داخل الضمير الاجتماعي ومن إيحاءاته، يقول في معاناة الجزائر في حربه مع الاستعمار الفرنسي :

**هذي الجزائـر أضنتنـا نوائبهـا		لم تبق للعين دمعـا من مآقينـا**

أو كما في قوله متحدثا عن مأساة فلسطين :

**ماسة الفلسطيـن أضنت وأدمـى		جرح لبنـان إذ تسيـل الدمـاء**
**لليهـود شتـى الجرائـم لكـن		إن هذه الجريمـة النكـراء**
**نجسوا المسجد المقدس لمـا		كان منهـم لقـدسه الافضاء**
**طعنـوا بالتهويـد كل غيـور		وهو في القـلب طعنة نجلاء**

ولأسماء الأعلام في شعر البونعماني وظيفة بالغة الأهمية، ذلك لأنها تساهم في تحديد هوية النص الشعري، سيما وقد شغلت حيزا كبيرا، إذ تكاد تغطي على باقي الكلمات الأخرى، وهذه الأسماء ترتبط بالتاريخ الاسلامي كقوله في قصيدة التوسل :

**وجـاه النبـي وآلـه وصحابـه		وأتباعهم أولي الهدى والبصائـر**
**وأبطالِ بدر لا عدمتُ ودادهـم		وسلمـان الفارسي وسعد وجابـر**
**وجاه أو يس والأئمـة خص من		روى الموطـــأ لأول ولآخر**

كما ترتبط بالتاريخ العربي حيث يقول :

**فأيـن جذيمـة وأيـن قصيـره		وعمرو ففي الزَّبا اتعاض لماكر**
**ولـم تبق من بني النضير بويـرة		ولا ابنا نويرة الرقيقـا المشاعـر**

وكذا الاعلام المتصوفة في منطقة سوس، أو في غير سوس كما في قوله :

**وبالتمنرتييـن والمدنـي الـذي		بإفران وهو من ضياء ابن ناصر**
**وخرباش من أهل الخصوصية انطوى		علـى عدد من التلاميـذ كاثـر**
**وبالشيخ الكتاني الشهيد ونجله الـ		ممجـد ملحـوظ العناية باقـر**
**كذلكـم الشيخ التجانـي أحمـد		أبو الفيض من فاس لأقصى التكارر**

وقد خص افراد أسرته بالذكر، واضفى عليهم صفه العلماء المتصوفة :

وجدي مسعود فتى العلم والهدى لقد أخصبت من علمه الجم أربع
وعمي ابن مسعود إمام زمانه تآليفه أسمى وأغلى وأبدع
حذا حذوه في العلم والدين والدي وأسرتنا في سوس أعلى وأروع
هم رفضوا عز المناصب واكتفوا بعلم له فوق الملوك الترفع

وقال في قصيدة أخرى متحدثا عن أسرته في موطنها الأصلي المعدر :

أرى فيه للمسعوديين مظاهرا من العلم قدما يالها من مظاهر
ألا إن فيهم الآن مشاعلا أتت من أوائل لأيدي لاواخر (..)
مصابيحهم لا تنطفي بعواصف يشق ضياؤها سدول الدياجر
ففيهم من الاعلام أشهر من قفا [2] فما في البوادي مثله والحواضر
وفيهم من الأفذاذ أفضل عالم وأذكى محاور وأعلى مناظر

فكان اهتمامه شديداً بذكر العلماء الذين كان لهم الفضل في ناصيل أسس العلم والمعرفة في سوس، فأشاد بتضحياتهم وبأعمالهم الجليلة :

وأعلام من العلماء شادوا منار العلم من أقوى الأسيس
إذا طلعوا على الدنيا بعلم أشعُّوا كالبدور وكالشموس

إلى أن يقول :

أسالم [3] إن قومك قد أضاعوا علوما كنت ترعاها لسوس
ويا وكّاك [4] قم تشهد أناسا رأوا علم الهدى أدنى خسيس

أو كما في قوله :

شهادة عالم الدنيا الأدوزي هو المحفوظ تحفظُ في دروس
وما بالعهد من قدم فأنسى رضى [5] الله وعالم آل إيبيسي [6]
هما فرسا الرهان لدى فنون إذا انبرت الجياد من الفروس
أعيش الآن بعدهما غريبا كأني لست بالسوسي الجنيس
فما نكد الحياة على أديب سوى فقد المجانس والأنيس

---

2. إشارة إلى بيت امرئ القيس المشهور في مطلع معلقته :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

3. آل سالم : أسرة علمية قديمة في مدرسة تمكيدشت بضواحي تقراوت- إقليم تزنيت.
4. وكاك : من تلاميذ أبي عمران الفاسي، دفين قرية الزاويت بأكلو، بضواحي تزنيت.
5. رضي الله : هو العلامة الأديب محمد المختار السوسي.
6. عالم آل إيبسي : هو الأديب عبد الرحمن الايبسي المعاصر للشاعر.

وللأدباء والشعراء مكانة خاصة في نفسه يتذكرهم في كل مناسبة :

أين الإبوركي [7] وجشتيمي [8] ومسلوت [9] طراز كل مجـــالس وأعـــراس
وأين أوبو [10] وداوود [11] وشنكيطي [12] فرسان علـــم وآداب وإنفـــاس

وكان للبونعماني ولع كبير بذكر رجال التصوف والأولياء والصالحين والمجاديب الذين يتوسم فيهم الخير والبركة، يقول :

وبالحسن [13] السمكّني العالم السنـي والأيوبـي كرام النزيـل المـزاور
مبارك [14] أوباكي وطاهر [15] أومسين همـا الصارمـان في نحـور الجبابـر
ولـه إجوعلـى [16] بن أحمـد الولـي مؤذن تمشت [17] الغـريب المآجـر
وأم جبون [18] ومرزاقاة إبـا جبـا [19] من الأوليـاء سالـم وسالـم وحـاذر

ويلتجئ البونعماني إلى الأسماء التراثية ويحملها دلالات تاريخية وسمات اجتماعية وحضارية، تؤكد استلهامه التراث القديم وتشبع نفسه به والاحتكاك بمتونه، وتأثره بشخصياته الدينية والعلمية والتاريخية والأدبية التي تعتبر مكونا أساسيا من مكوناته العلمية والثقافية والتربوية.

كما برزت أسماء الأماكن في شعره بشكل ملفت للانتباه، ينتمي معظمها إلى البيئة السوسية، يستحضرها في كل مناسبة مناسبة، دون أن تغيب عنه لحظة من لحظات إبداعه وتتردد عنده باستمرار، كورود أسماء الأماكن التي لها حضور مكثف في إنتاجه مثل : بونعمان، والمعدر، وإلغ، وأدوز

---

7. الابوركي : صاحب الفهرست، وهو الأديب محمد بن عمر الاسغركيسي.
8. الجشتيمي : الحاج أحمد بن عبد الرحمن الجشتيمي دفين تيوت.
9. المسلوت : القاضي سيدي أحمد بن مبارك المسلوت.
10. أوبو : القاضي الأديب سيدي محمد بن علي أوبو.
11. داوود : الأديب الشاعر سيدي داود بن عبد النعيم الرسموكي.
12. الشنقيطي : باشا ردانة، وهو الشاعر الكبير البيضاوي.
13. الحسن السمكني : الحسن بن ابراهيم الانمري السموكني.
14. مبارك أوبكي : من الفقراء الصوفيين دفين تزنيت.
15. الطاهر أوماسين : مجدوب بتزنيت أيضا.
16. إجو علي : صالحة بتزنيت لها قبريزار.
17. تمشت : مقبرة آل ادوز، دفن بها علماء أدوز.
18. أم جبون : صالحة باغبولا بضواحي تزنيت.
19. مرزاقاة إباجبا : صالحة بتزنيت كذلك.

وتمكُنْيدشت، وتمّاشت، والكست، ومُزّايت، وتازروالت، وأزاريف، وأسغركيس وأسا، وماسة، وتاكوشت، وغيرها ... وتحيل أسماء هذه المواقع على واقع سوس الجغرافي ومحيطه الاجتماعي، وألفاظه من هذه الناحية ذات حمولة ثقافية تسعى إلى إبراز الدلالة العلمية التي تعبر عنها أسماء الأماكن لهذه المناطق، وما يتداول فيها من التقاليد والعلاقات البشرية المختلفة وغالبا ما تعكس البيئة البدوية التي وظفها الشاعر توظيفا إيجابيا مستهدفا إبراز سوس كقيمة علمية وثقافية وحضارية، ويتضح ذلك من خلال النماذج التي سنعرضها يقول :

قطري المفدى سوس يعرف محتدي	وتحن نحوي إن أغب جدرانه
وتقر لي ولتالدي أشياخه	ولطار في بين الورى شبانه
ولو استطاعت أن تسير دياره	شوقا إلي لجاء بونعمانه

ويقول في المعدر :

وبالمعدر الذي رجال زواياه	أعز المنى عندي ومتعة خاطري
أقول إذا لاحت لعيني قبورهم	ولوحت بالعشق الالهي لناظري (..)
لمسقط رأسي المعدر الحب في الحشا	هواه العذري لم يكن في المعاذر

كما يشيد بالخيرات الطبيعية التي تتوفر عليها مناطق متعددة في سوس كما في قوله :

إنتر (20) معادنها تحكي خصائصها	وأكُن (21) وُرغ حر بالحفر والفاس
فماء يعقوب أبينو (22) يشاكله	لو صين موقعه من أيد نجاس
وماء عين حزام قد تضارعه	عين القليعة (23) عن قرب لأخماس (24)
أڭلو(25)وإڭلي(26)وأنسا(27)أومزّيت(28)جرت	علومها فتجاوزت ربا فاس

20. إنتر : مكان بضواحي تزنيت به مناجم تستخرج منها معادن مختلفة.
21. أكن ورغ : مرتفع الذهب، منجم بضواحي تزنيت كذلك.
22. أبينو : عين معدنية ساخنة بقرب من كلميم شبيهة بعين مولاي يعقوب بضواحي فاس.
23. القليعة عين معدنية ساخنة بضواحي أيت ملول على طريق بيكري في قرية القليعة، ماؤها شبيه بماء سيدي حرازم بضواحي فاس.
24. الاخماس : المراد به خميس أيت عميرة الذي به القليعة.
25. أكلو : زاوية سيدي وكاك بن زلو اللمطي بأكلو بضواحي تزنيت.
26. إكلي : المدينة الأثرية حول تارودانت مهد الموحدين، موطن للمهدي ابن تومرت.
27. أنسا : مدرسة علمية بسوس، مدفن سيدي عمرو بن هارون.
28. مزيت : (مضيت) مكان في جبال ولتيتة باذا وبعقيل، تخرج منها من العلماء مايضا هي ما تخرج من فاس والازهر.

ولم يقتصر على ذكر الأماكن الخاصة في سوس وحدها، وإنما أورد وبنفس الحرارة والقوة والغزارة أسماء أماكن ومناطق أخرى بالمغرب التي ترتبط في وعيه بأغلى الذكريات : كمراكش، وأبزو، والرباط، ومكناس، وفاس، وغيرها من الأماكن :

للـه ذكـرى القلعـة الغـراء [29]	كم هيـجت للقـلب في الحمـراء
مكنـاس تحكـي في رباهـا أننـي	بربـا اللـوى في القلعـة الغـراء

بالاضافة إلى أماكن أخرى خارج المغرب، تم توظيفها عن طريق ربطها بأحداث تاريخية تهم فلسطين ومصر والجزائر، وليبيا وإيران وفرنسا واسبانيا والبرتغال ...

يقول عن مأساة فلسطين :

ماسة الفلسطيـن أضنت وأدمـى	جرح لبنـان إذ تسيـل الدمـاء
لليهـود شتـى الجرائـم لكـن	إن هذي الجريمـة النكـراء
نجسوا المسجـد المقـدس لمـا	كان منهـم لقـدسه الافضاء
طعنـوا بالتهويـد كل غيـور	وهـو في القـلب طعنـة نجـلاء

ويقول في مساندة الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي :

هذي الجزائـر أضنتنـا نوائبهـا	لم تبـق للعيـن دمعـا من مآقينـا
وليس يشفـى غليـلُ النـفس إلا إذا	جالت لنـا ثم جرد من مداكينـا

وللديار المقدسة موقع خاص في نفسه، يحن إليها ويشتاق إلى زيارتها :

يا أهـل مكـة فزتمـوا بجوارهـا	إذ سار ذاك سعـادة الأبـد

أو يقول :

واسعـد بطيبـة والبقيـع ونخلهـا	وزر النبـي الهاشمـي المصطفـى
إن فزت بعـد تشوق بزيـارة	لمقامه السامـي علـى الدنيـا العفـا

وللدول الغربية حضورها في شعره، وله منها موقف خاص :

فلا تختـر من الدخـلاء جنسا	فسيـان الامـاريكـي وروسي
كلاب كلهـا عقـر حذار	حذار من العقـور ولا الانـوس

---

29. القعلة الغراء : المقصود بها قلعة أبزو بضواحي بني ملال موطن أصدقائه آل منصور البزيويين.

إن الشاعر يجنح في ذكر الأماكن إلى التشخيص والوصف المباشر لاستغراق الموصوف في الزمان والمكان، ويجسد صورته كما تلتقطها العين وتلتقطها الاذن، كما في وصفه لوادي العبيد :

أنظـــر إلـــى وادي العبيـــد	ينساب مثـــل الأرقـــم
طورا يمـــيس وينثـــني	عجبـــا ولا يتكلـــم
ويهيـــم طورا معـــولا	كالمستهـــام المغـــرم

أو كما هو الشأن في وصف قلعة أكادير، إذ وصفها ليلا بعد أن دمرها الزلزل في بداية الستينات، ورممت اسوارها وسلطت عليها أضواء كاشفة لتظهر للعيان من بعيد، من موقع المدينة الجديدة أسفل الحصن.

وقد التقطتها عين الشاعر من هذه الزاوية، فقال فيها :

أخبرونـــي ما بال قصة حصن	تمنـــح الليـــل منظـــرا جذابـــا
منظـــر يشبـــه السفينـــة شكـــلا	أوسنـــا هالـــة تذود السحابـــا
أو سوارا مذهبـــا وهاجـــا	راق حسنـــا كواعبـــا أترابـــا
أو كقصر مشيـــد في هواء	جعلـــو سوره العجـــيب عبابـــا
وأحاطـــوا العبـــاب بالنـــور لكـــن	لست أدري أمـــاءه أم سرابـــا

إذ يلتجئ في وصف مثل هذه الأماكن إلى التعبير الوصفي المباشر، أو ما يعرف بالتصوير البصري الذي يعتمد على العين باعتبارها الحاسة الأساسية التي تلتقط المشهد، وبها يتوسل إلى تكوين الصورة على صعيد الواقع، وتفتح أمامه مجالا بصريا للوصف المباشر، الذي غالبا ما يرتكز على المظاهر الخارجية المحدودة، المرتبطة أساسا بفضاء موضوعات الشاعر وميوله الوجداني.

وتتوقف هذه المعاينة على انفعال الشاعر المبدع، وما تقترن به من أفعال الرؤية التي يقدمِها السياق المشحونة بالاحساس العميق من جراء ما تخلفه الأماكن المُعاينَة، وما ترمز إليه في وجدانه من غبطه وسرور، لأنها ترتبط عنده بذكريات سعيدة، يشعر معها بالنشوة والحبور عندما يتناولها مرئية أو مسموعة، كما في قوله يتحدث عن أبزو مقر خلانه آل منصور الكرماء.

للـــه ذكـــرى القلعـــة الغـــراء	كم هيجت للقلب في الحمـــراء (...)
ولئـــن سبت مكنـــاس قلبـــي بعدهـــا	فلكـــم سبت قلبـــي من الشعـــراء
بجمالهـــا الفتـــان وهـــي كغـــادة	تسبـــي العقـــول بمقلـــة نجـــلاء

وتوحي هذه الأماكن عنده بأكثر من ذكرى وتقترن في وجدانه بأكثر من معنى، إذ يكفي أن يذكر أسماء الأماكن أو أسماء الأشخاص التي ترتبط بها، لتلتهب الذكريات في أعماق نفسه، فتتحول إلى سلسلة من التداعيات تؤدي إلى حشر المزيد من أسماء الأماكن وأسماء الاعلام التراثية المرتبطة بها، كما في قصيدته : «من زوايا بني نعمان إلى زاوية أسغركيس» التي يقول في مطلعها :

ألا حي إلا له بأسغركيس صديقا كان لي خير الانيس
فأسغركيس كعبة كل فضل له شد الوفود رحال عيس

وهذا دأبه في كثير من قصائد شعره، وهو في كل ذلك يعتمد على التشبيه لابراز الصورة الواقعية، ليعبر بها عن الواقع المادي المحسوس إذ بواسطتها ينتقل من مكان إلى آخر متجاوزا بذهنه وخياله الحدود الزمنية والمكانية، ودائرة الأشياء الملموسة في الواقع المحسوس، ليضفي عليها من عنديته، حسب تجاربه واستكشافاته، ما يثير اهتمام سامعه وقارئه، دون أن يتجاوز واقعه الثقافي والبيئي والظروف المحيطة به، لأن الشاعر ابن بيئته، منها استمد تكوينه، ومنها استلهم الموروث الفني والأدبي لعصره وتبلورت على ضوئه تجربته الشعرية :

لقد كانت جزولة في قرون لآساد المعارف أي خيس
كما سطعت بأمجاد عظام وأبطال لدى الهيجاء شوس

فشعر الحسن البونعماني شديد الصلة بسوس وبتاريخه، حيث تعبق أشعاره باريج الحب العذري للرقعة التي ينتمي إليها، فصاغ أكاليل من الشعر يخلد بها شوامخ الاعلام من العلماء والفقهاء والصلحاء والرؤساء وأفراد الأسرة والمعارف، ولم ينقطع هيامه عن ذكر أسماء الأماكن والوقوف عليها للتأمل والعبرة، فاعتبرها مركز اشعاع علمي في هذه المنطقة عبر مراحلها التاريخية المتلاحقة، مع الحفاظ على تلك القيمة الفنية المتميزة، وهذا ما يضيف إلى شعره قيمته التاريخية والاجتماعية والحضارية.

دراسة مقارنة لمستوى الاكتساب اللغوي أثناء تعلم اللغة العربية عند طلاب المدارس العلمية العتيقة وتلاميذ المدارس الحكومية بتافراوت إقليم تيزنيت [1]

ابراهيم أبو الصواب
كلية الآداب والعلوم الانسانية
ـ أكادير ـ

هناك جملة من الملاحظات المنهجية يجب إبداؤها أولا في بداية هذا العرض.

ـ تهدف هذه الدراسة التي أنجزناها حول تعليم وتعلم اللغة العربية إلى تحقيق نتيجتين :

الأولى ترتبط بقياس مستوى تعلم اللغة العربية لدى العينتين من التلاميذ قيد الدرس.

والنتيجة الثانية هي الوقوف على المنهج أو الطريقة الأكثر ملاءمة لتعليم وتعلم العربية من بين الطريقتين المتبعتين بتافراوت : طريقة المدارس العلمية، وطريقة التعليم الحكومي.

ـ تطمح هذه الدراسة إلى تعميم بعض نتائج البحث على إقليم تيزنيت بصفة خاصة، وجزء كبير من منطقة سوس بصفة عامة، حيث يتعايش النظامان التعليميان نظام المدارس العلمية، ونظام المدارس الحكومية.

---

1. أشكر كل الذين ساعدوني في إنجاز هذه الدراسة، وأخص بالذكر التلميذة بوهو نزهة وصديقاتها وأصدقاءها بإعدادية الأطلس بتافراوت التلاميذ : دياني رشيدة ـ بوخريط بشرى ـ بوفتاس أمينة ـ دحماني محمد ـ عثمان بلقاسم. كما أشكر الطلبة فقهاء مدرسة تركت خصوصا الطالب النجيب السيد السرايدي عبد القادر. دون أن أنسى أولئك الذين لم يكتبوا أسماءهم على الأوراق التي حرروها من أجل إنجاز هذا البحث، سواء من ينتمي منهم إلى إعدادية الأطلس أو إلى مدرسة تركت. وأتقدم بالشكر الجزيل والاعتراف بالجميل إلى الأستاذ العلامة سيدي الحاج إبراهيم فقيه ومسؤول مدرسة تركت على الاستقبال الحار والضيافة الكريمة التي خصصها لي أثناء مقامي بالمدرسة. إلى كل أولئك أقدم باقة شكر وامتنان على تفهمهم لروح البحث العلمي وأهمية الدراسات الجامعية.

ـ إن تعليم وتعلم العربية وفق هذين النظامين جعل المنطقة تتميز من بين مناطق المغرب بوضعية تعليمية خاصة، يجب أن توجه إليها البحوث العلمية بالمقارنة والتحليل واستخلاص النتائج بغية التقويم والتطوير. وتعتبر هذه النقطة الأخيرة السبب الرئيسي الذي كان وراء هذه الدراسة.

ـ إن هذا البحث يشتمل على جزء نظري يستمد أسسه من النظريات اللسانية الحديثة. ومن جزء ميداني تطبيقي يعتمد على دراسة معطيات محلية.

الإطـار النظـري للبحـث :

لقد اعتمدنا أثناء إنجاز هذه الدراسة على إطار نظري يعتبر الموجه العام لمختلف حيثيات البحث من تحليل المعطيات، واستخلاص النتائج، والالتزام منهجيا بكيفية إنجاز البحوث الميدانية في إطار اللسانيات التطبيقية.

وهذا الاطار النظري مقتبس من اللسانيات التطبيقية Applied linguistics ميدان تعليم وتعلم واكتساب اللغة. لقد تم الاعتماد خصيصا على الأعمال التي أنجزها في هذا البـاب كل من S. KRASHEN (1981) - (1982) و W. RUTHERFORD (1987) - (1988)

وفيما يلي مضمن الإطار النظري المعتمد باختصار :

يفرق KRASHEN بين إجرائين إثنين في عملية استيعاب اللغة :

إجراء التعلم Learning

إجراء الاكتساب Acquisition

إن إجراء التعلم يعطي للمتعلم القدرة على استعمال النحو.
بينما إجراء الاكتساب يعطي للمتعلم القدرة على استعمال اللغة في إطار وظيفي تواصلي.

تتكون نظرية كراشن المعتمدة على أربع فرضيات رئيسية :

1. فرضية النسق الطبيقي للاكتساب : The Natural order Hypothesis

مؤدى هذه الفرضية أن هناك نسقا طبيعيا في عملية اكتساب اللغة الأم

يتبعه الطفل معتمدا منطق اكتساب البنيات السهلة ثم البنيات الصعبة.

فالمطلوب بالنسبة لهذه الفرضية هو : كيف يتم تكييف تعلم واكتساب اللغة الثانية وفق النسق الطبيعي.

2. فرضيــة المراقـب The Monitor Hypothesis

ترتكز هذه الفرضية على ما يسمى بنظام المراقبة حيث يوجه المتعلم استعماله وفق مراقب لغوي داخلي.

إن عملية التعلم المرتبطة باستعمال النحو تضخم من عمل المراقب الشيء الذي يجعل عملية الانجاز عملية بطيئة أو ضعيفة.

3. الفرضيــة الدخــل The INput Hypothesis

إذا كانت فرضية المراقب صحيحة فإن إجراء الاكتساب يعتبر إجراء مركزيا بينما إجراء التعلم يرتبط بالمحيط لذلك فإن فرضية الدخل تعطي الأهمية لاجراء الاكتساب الذي يقود إلى عملية التواصل.

4. فرضية المصفاة الانفعالية The Affective filter Hypothesis

يجب وفق هذه الفرضية أن يتخلص المتعلم من جميع الانفعالات التي تجعله في حالة نفسية عائقة لعملية الاكتساب، ولهذه الفرضية علاقة بالبيداغوجية التعليمية.

وبالنسبة لـ W. RUTHERFORD فإنه يدافع عن جملة من المظاهر التعليمية ترتبط بما يسميه «النحو البيداغوجي» Pedagogical grammar، ويعتبر أن النحو يساهم في تكوين القدرة النحوية لدى المتعلم grammatical competence ويلتقي Rutherford مع KRASHEN في اعتبار النحو أفضل وسيلة لتعلم اللغة المكتوبة حيث إن النحو يخدم التواصل الكتابي للغة، بالرغم من كونه عائقا أمام الانجاز اللغوي أو ما يسمى (بالتواصل الشفوي).

البحــث الميدانــي :

أما بالنسبة للجزء الميداني من البحث، فلقد اعتمدنا تحليل إنشاء بعض

التلاميذ من المدرسة الحكومية (تذ.م.ح.) التعليم الأساسي. وكذلك إنشاء أنجزه بعض الطلبة من المدرسة العلمية العتيقة (تذ.م.ع.ع.) واعتمدنا كذلك على حوار شفوي بالعربية مع بعض من هؤلاء التلاميذ. وتم تسجيل مختلف الملاحظات العلمية. كما قمنا بعد ذلك بتحليل علمي للوسائل المعتمدة والمناهج المتبعة في تعليم العربية عند الطرفين.

شمل البحث الميداني عشرين متعلما عشرة منهم داخل المدرسة الحكومية، منهم خمسة في السنة السادسة والسابعة (المستوى الابتدائي) وخمسة آخرون في السنة الثامنة والتاسعة (المستوى المتوسط).

وشمل البحث كذلك عشرة طلاب في المدرسة العلمية العتيقة، خمسة منهم مبتدئون (السنوات الأولى لقراءة الأمهات) وخمسة ذوو مستوى متوسط (بعد السنوات الأربع الأولى من الأخذ) وهؤلاء كلهم من مدرسة تركت. غير أن أربعة فقط من هؤلاء الطلاب هم الذين شاركوا في الانشاء، بينما الآخرون أخذت منهم معطيات في مجلس السرد حيث يتناوبون على القراءة، وكنت حاضرا أسجل ملاحظاتي اللغوية.

فرضيـة البحـث الميداني :

انطلقت قبل إجراء البحث من فرضية مؤداها أن تلاميذ المدارس العلمية يتعلمون العربية في إطارها العام ويمهرون فيها أكثر من تلاميذ المدارس الحكومية تخرج وكان منشأ هذه الفرضية هو ما يتداوله المربون من ضعف مستوى التعليم الحكومي، وكون المدارس العلمية تخرج علماء مستواهم اللغوي لا يصل إليه عادة إلى بعض التلاميذ من المدرسة الحكومية بعد تخرجهم من الجامعات.

هذه هي فرضية البحث الميداني غير أنه بعد إجراء البحث تبين أن فيها أخذا وردا.

وفيما يلي بعض النتائج التي توصلنا إليها.

أمثلـة للأخطـاء المرتكبـة

الأصـوات والصـرف

الظاهرة المدروسة	أخطاء تذ.م.ح.		أخطاء تذ.م.ع.ع.	
	ابتدائي	متوسط	ابتدائي	متوسط
إغفال الصوامت المعجمة	يضن – نضرتنا كتيرا – الالفاض يرتذي	دهني – مند تحدت – مماتلة	هده دو	التهديب
الخلط بين الصوت المعجم والمهمل		×	عثر	×
الصوائت القصيرة والطويلة	منضار (المقصود منظر) رجول	×	النخل (المراد النخيل) يتحور («يتحاور) اجتهد (المراد اجتهاد)	×
استعمال الأفعال مع النواصب والجوازم	لن نكونوا	لم ينتهى	كي يصبحون	×

أمثلة للأخطاء المرتكبة التركيب والمعجم

الظاهرة المدروسة	اخطاء تذ م . ح		اخطاء تذ م . ع . ع	
	المستوى الابتدائي	المستوى المتوسط	المستوى الابتدائي	المستوى المتوسط
المفعول به	– وهي التي تجعل منك انسان... – تجعل منك اما طبيب او مهندس او معلم	رأيت فسيفساء ونقوش وكتابات	نعتمد نظام دراسي...	×
همزة إن	ومع كامل الاسف أن هذا النوع	حيث أنها	قيل أنها	×
حروف الجر	وهي التي تربيك على احسن تربية – ان لايكون مهملا بدروسه	– قمت لزيارة	– تطبيق القواعد عن الامثلة	×
البناء للمجهول	– سوف لا نصيب بالفشل [المراد نصاب]	– يسأل عن كل ذلك[1] [المراد يسأل]	– ضمّ اليه[1] [المراد ضمّ اليه]	×
المعجم استعمال غير مضبوط	– اصبحت الثقة عنصرا محايدا [المراد منعدما]	–لانعدام الاتصالات [المراد المواصلات]	– ليكون قديرا [المراد قادرا	لم نر المحاضرات [المراد لم نسمع]

1– تم رصد هذا النوع من الاخطاء اثناء القراءة الشفوية

بعض النتائج المحصلة

المستويات اللغوية	الظاهرة المرصودة	تذ.م.ح.		تذ.م.ع.ع.	
		ابتدائي	متوسط	ابتدائي	متوسط
الأصوات	الصوامت المعجمة	−	−	−	+
	الخلط بين الصوائت القصيرة والصوائت الطويلة	−	+	−	+
	النبر	−	+	−	−
الصرف	المذكر/المؤنث	−	+	−	+
	العدد	−	−	−	+
	استعمال الأفعال مع الجوازم والنواصب	−	−	−	+
التركيب	استعمال المفعول به	−	−	−	+
	استعمال همزة إن	−	−	−	+
	استعمال حروف الجر	−	−	−	+
	البناء للمجهول	−	−	−	+
المعجم والدلالة	استعمال غير مضبوط لمعاني الكلمات	−	+	−	−
	المعجم الحديث	+	+	−	−
	المعجم القديم	−	−	+	+
ظواهر أخرى	مفاهيم النحو	−	+	+	+
	التواصل الشفوي	−	−	−	−

ملاحظات تفسيرية :

يمكن تصنيف الأخطاء المدروسة إلى نوعين إثنين :

ـ أخطاء ترجع إلى التداخل اللغوي Tranfer / Interference بين اللغة العربية واللغة الأم (SELINKER 1972) و BRAWON (1980)

ـ أخطاء ترجع إلى ما يسمى بظاهرة اللغة التقريبية عند المتعلمين Interlangage (SELINKER 1972).

فالأخطاء الصوتية ترتبط كلها في نظري بالنوع الأول إذ يمكن تفسيرها انطلاقا من التداخل اللغوي.

إننا نعلم أن الصوامت المعجمة لا تتوفر إطلاقا لا في اللغة العربية المغربية ولا في اللغة الأمازيغية.

ثم أن هاتين اللغتين لا تستعملان الصوائت الطويلة إلا قليلا وفي حدود ضيقة عكس اللغة العربية الفصحى. وهنا يكمن تأثير اللغتين الام على عملية تعلم أصوات العربية الفصحى لدى العينتين قيد الدرس.

يمكن تفسير إشكالية النبر أيضا من هذه الزاوية. أما الأخطاء التركيبية والمعجمية، فإنني اعتقد أن الكثير منها يرتبط باللغة التقريبية للمتعلمين، ولايرجع منه إلى التداخل اللغوي إلا الشيء القليل مما له علاقة بالميدان التركيبي بصفة عامة. وهذه هي النقطة التي ما تزال تحتاج في هذه الدراسة إلى البحث اللساني المعمق. ويعزز عملية التداخل اللغوي في ميدان الأصوات كون هذه المادة (الأصوات العربية) مادة مهملة في نظامنا التعليمي العتيق منه أو الحكومي الحديث. ففي التعليم العتيق أهملت القراءات والتجويد والمتون التي كان القدماء يدرسونها في هذا الباب. وهذا مما جعل اللحن والخطأ الصوتي ملازمين لقراءة وأحاديث العلماء بالعربية الفصحى.

وبالنسبة للتعليم الحكومي، فنحن نعلم أنه ليس هناك أي برنامج تعليمي لتدريس أصوات اللغة العربية بطريقة علمية في المراحل الأولى من المدرسة الحكومية. يضاف إلى هذا أن كثيرا من الدروس تلقى بالعربية المغربية. وهنا مكمن الضعف في أصوات العربية الفصحى عند خريجي المدارس الحكومية.

هناك إشكالية أخرى ترتبط بنظام الكتابة العربية، ذلك النظام الذي لا يلقن بطريقة علمية في كلا المؤسستين. فمثلا :

هذا يكتب بدلا من هاذا

وهتين بدلا من هاتين

وهؤلاء بدلا من هاؤلاء.

ثم إنه كثيرا ما يتم الخلط بين الهمزة والألف. وكذلك بين الواو والياء باعتباراهما صامتين وبينهما باعتبارهما صائتين.

وبصفة عامة فالكتابة العربية كما تلقن ــ وليس كما يجب أن تلقن به ــ لا تقدم تمثيلا صوتيا لنطق اللغة العربية الفصحى.

إن لنظام الكتابة هذا تأثيرا على أصوات المتعلمين في كلا الحقلين. وهنا يكمن سبب آخر من بين أسباب ارتكاب الأخطاء الصوتية أثناء تعلم اللغة العربية الفصحى.

لقد تبين أن تلاميذ المدارس العتيقة يعيشون داخل النظام التعليمي ما يسمى بالازدواجية اللغوية :

اللغة الأمازيغية / اللغة العربية الفصحى.

بينما تلاميذ المدارس الحكومية يعيشون حالة التعدد اللغوي : الأمازيغية/العربية المغربية/العربية الفصحى بالاضافة إلى الفرنسية.

ففي المدارس العتيقة عادة ما يتم التحكم في الازدواجية اللغوية، لكن التعدد اللغوي يعتبر حسب نتائج البحث عائقا أكثر مما هو حافز لتلاميذ المدرسة الحكومية ولهذا لم تتم الاستفادة من التعدد اللغوي.

ولتوضيح هذه الاشكالية أكثر نشير إلى أن بعض برامج التعليم في المدارس الحكومية توجه عملية التعلم لتخدم هدف التواصل، لكن هذه البرامج تركز على القواعد في نفس الوقت. وهما عمليتان متناقضتان وفق نظرية KRASHEN السابقة، ثم إن الخطاب اللغوي الذي يتم بالعربية المغربية لدى كثير من المدرسين يتناقض والهدف المذكور.

وفي نفس الوقت نجد برامج التعليم العلمي العتيق تهدف بطريقة غير صريحة ليس إلى التواصل الشفوي ولكن إلى فهم النص المكتوب. ولذلك فإن

التركيز على النحو والقواعد المقننة يتوافق وتحديد هذا الهدف. كما أن الخطاب اللغوي الذي يتم باللغة الأمازيغية أثناء الدرس لدى كثير من العلماء المدرسين يسير وفق الهدف المرسوم. وهنا سر التحكم في الازدواجية اللغوية عند المتعلمين، تلك التي تتجلى في كون اللغة العربية الفصحى لغة الكتابة والقراءة بينما الأمازيغية هي لغة الحديث والتواصل الشفوي.

وفي إطار المعجم والدلالة يلاحظ غياب المصادر الحديثة داخل المدارس العلمية، وهذا من سلبيات المنهج داخل نظام التعليم العتيق.

هناك ملاحظة أخيرة لها علاقة بالمجال البيداغوجي وهي أن تلاميذ المدارس العلمية يتوفرون أكثر من الآخرين على حوافز تقوي فيهم رغبة تعلم اللغة العربية. فمن بين هذه الحوافز السيكولوجية نذكر :

الحافز الديني : لغة القرآن والحديث والتعبد بهما. ثم الرغبة في التخرج عالما وفقيها في لغة ودين الاسلام وكذلك الرغبة في نيل بركة الشيخ مع ما يصاحب ذلك من طاعة الأستاذ والصبر على التعلم.

ولقد لاحظنا أثناء حضورنا خلال الدروس بالمدرسة العلمية المذكورة أن هذا الجو السيكولوجي لا يعتبر سببا لأي انفعال نفسي للمتعلمين أمام أستاذهم بل إن الأستاذ العالم يخلق مجالا ترفيهيا وجوا من الاحترام المتبادل تنعدم معها كل الانفعالات النفسية لدى الطلبة المتعلمين الشيء الذي يساعد العملية التربوية بتلك المؤسسة، وهذا يتفق وما تدعو إليه فرضية المصفاة الانفعالية عند KRASHEN.

وبالمقابل تنعدم بعض الحوافز السيكولوجية عند تلاميذ المدارس الحكومية. فمثلا انعدام حافز العمل والشغل الذي كان عند أجيال الستينات والسبعينات يكاد يكون له دور سلبي على عملية التعلم، وحتى إذا كان هناك نوع من التوهم في هذا المجال فإنه حافز لصالح اللغات الأجنبية أكثر مما هو حافز لتعلم اللغة العربية. هناك حافز سيكولوجي لم يوظف بما فيه الكفاية رغم أن الكتب المدرسية تناولته كثيرا، وهو حافز اللغة الوطنية والبعد النفسي لمفهوم الوطنية في إطار اللغة.

إن عدم توظيف هذا الحافز بما فيه الكفاية لصالح تعلم اللغة العربية يحتاج إلى دراسات سيكولوجية ولسانية ليس على مستوى صياغة البرامج فقط، ولكن أيضا على مستوى دراسة نفسية المتعلمين.

مناقشـــة وتعقيـــب :

إن النتائج المحصل عليها في هذا البحث تعتبر نتائج نسبية، حيث إن العينات التي اشتغلنا عليها عينات محدودة جدا، وكان يجب أن يشمل البحث عينات أكثر من العدد المذكور سالفا.

يجب أن تشمل الدراسة طلبة علماء جد متقدمين في المدارس العتيقة، وتلاميذ التعليم الثانوي بإقليم تيزنيت وربما إذا أردنا تعميم النتائج ومقارنتها طلبة كلية الآداب بأكادير شعبة اللغة العربية.

هذا من ناحية الكم، أما من ناحية الكيف، فالعينات غير متجانسة أيضا فيما يرتبط بالمدة الزمنية التي تتلقى فيها كل فئة من الطلبة مبادئ العربية :

ففي الوقت الذي نجد فيه تلاميذ المدارس الحكومية يبتدؤون دروسا في المحادثة والحوار والفهم في سن الثامنة/التاسعة/العاشرة. نجد تلاميذ المدارس العتيقة لا يبتدؤون تعلم العربية إلا في سن متقدمة 15 أو 16 سنة، صحيح أنهم يحفظون القرآن، لكن بعيدا عن الفهم ولا يستثمرونه في إطار تعلم العربية.

فالعينات إذا غير متجانسة حتى من ناحية العمر، فأغلب عينات المدارس العتيقة دخلوا فيما يسميه كراشن بما بعد الفترة الحرجة Post critical period أي الفترة الزمنية التي يتم فيها اكتساب اللغة بطريقة فطرية أسهل مما في غيرها من الفترات العمرية اللاحقة. وهذه الفترة عادة ما تمتد إلى سن الثانية عشر تقريبا KRASHEN (1979).

هذه العينات إذا أغلب أفرادها دخلوا إلى مرحلة ما يسمي بتعليم الكبار Adult learning. ولهذه المرحلة خصائص تميزها عن المرحلة الأولى من الناحية البيولوجية والسيكولوجية مما له علاقة بعملية التعلم. ويجب أخذها بعين الاعتبار، وإلا أعطت عملية التعلم نتائج معاكسة.

إن اختيار العينات تم حسب علاقاتي الشخصية والعائلية بالتلاميذ والطلبة، ولم أقم ببحث ميداني داخل الأقسام، ولم أزر الأساتذة ولا المفتشين

ولم أملأ استمارات بهذا الصدد. وكان يجب أن يتم القيام بكل هذا، غير أنني قمت فقط بما تسمح به إمكاناتي الشخصية، وما تسمح به الفترة الزمنية الضيق التي خصصت لانجاز هذا البحث.

هذه جملة من المشاكل التي تلازم هذا البحث قدمتها هنا بنوع من التوضيح للاشارة إلى المسلمات التالية :

ـ هذا النوع من البحوث يحتاج إلى مجهودات متضافرة سيما إذا أنجزت خلال فترة زمنية محدودة جدا كفترة إنجاز بحثي هذا، وربما أثر ذلك على النتائج المقدمة الشيء الذي قد يجعلها تتسم بنوع من النسبية. هذا وستبقى منهجية البحث بصفة عامة هي النتيجة الرئيسية التي يمكن الاستفادة منها. فالموضوع إذا ما يزال مفتوحا للبحث والاجتهاد.

ـ إن لهذه الدراسة هدفا آخر ذا صبغة تربوية يتمثل في توجيه أنظار الباحثين خصوصا طلبة كلية الآداب شعبة اللغة العربية إلى ضرورة الاهتمام بهذا النوع من الاشكالات العلمية، وكذا إلى أهمية إنجاز بحوثهم في القضايا اللسانية التي تجمع بين النظري والتطبيقي. وهذا من شأنه أن يجعل كلية الآداب بأكادير تساهم في تقديم حلول علمية للمناهج التربوية والتعليمية المتبعة في هذه المنطقة من بلدنا.

ـ إن لهذه البحوث الميدانية شروطا نظرية وتطبيقية ومنهجية تجب مراعاتها، وإلا أصبحت النتائج المقدمة نتائج لا تتسم بالضبط العلمي. غير أنها إذا تمت بدقة كفيلة أن تقدم لنا معالجة علمية لكثير من المشاكل التي تتخبط فيها أنظمتنا التعليمية.

وهذا النوع من الدراسات تعتبر بحوثا لا مناص منها إذا أردنا أن نطور معارفنا ومناهج تعليمنا سواء منها ما هو مستمد من التراث اللغوي العربي القديم أو من المناهج السيكولوجية التربوية الحديثة.

مراجع البحث

المراجع العربية

1. الادوزي محمد العربي بن ابراهيم السوسي : أيسر المسالك إلى الفية ابن مالك. مخطوط. النسخة الخاصة.
2. بوشوك المصطفى بن عبد الله 1990 : تعليم وتعلم العربية وثقافتها، دراسة نظرية وميدانية في تشخيص الصعوبات، اقتراح مقاربات ومناهج ديداكتيكية، بناء تصنيف ثلاثي الأبعاد في الأهداف اللسانية. الهلال العربية للطباعة والنشر ـ الرباط.
3. بوصواب ابراهيم 1986 تدريس اللغة العربية الفصحى امام الاشكاليات السيكولسانية التي تطرحها ظاهرة التعدد اللغوي بمدينة أكادير. في أعمال ندوة مدينة أكادير الكبرى، منشورات كلية الآداب، أكادير.
4. وزارة التربية الوطنية 1993. الدرس اللغوي. الدار البيضاء.
5. وزارة التربية الوطنية 1993. قواعد اللغة العربية. الدار البيضاء.
6. وزارة التربية الوطنية 1993. المطالعة والنصوص. الدار البيضاء.

المراجع الأنجليزية :

1. BROWN. H,D. 1980 : Principales of Language Learning and Teaching. New Jersey, Prentice Hall.
2. KRASHEN. S,D. 1979 : Adult Second Language Acquisition as post-critical Period Learning. in IIL. Review of spplied linguistics 43.
3. KRASHEN. S,D 1981 : Second Language Acquisition and Learning Oxford pergamon press
4. KRASHEN. S,D. 1982 : Principales and Practice in Second Language Acquisition - pergamon press-New-York.
5. RUTHERFORD.W. 1987 : Second Language grammar Learning and Teaching. Longman. New York.
6. RUTHERFORD. W, and SHARWOOD.M.S, 1988 : Grammar and Second Language Teaching. A book of Reachings. Newbury House.
7. SELINKER.L. 1972 : Interlanguage in IRAL. 10.209.231.

النظام التربوي للمدارس العلمية العتيقة بين الأمس واليوم

محمد أمزيان
باحث - تزنيت

إن الحديث عن النظام التربوي للمدارس العلمية العتيقة هو خطاب يقر بتناسق مجموعة من المبادئ والقواعد المنظمة للعمل التربوي بهذه المؤسسات الأصيلة سواء من حيث الأهداف التربوية المتوخاة أو الطرائق والأساليب التعليمية المعمول بها في تلقين المتون وتعلمها، المضامين والمتون الملقنة وكيفية انتقائها وعلمية بنائها، نظام التدريس بهذه المؤسسات وأشكال المراقبة والتقويم ثم شبكة العلاقات والروابط التي تجعل من هذه المدارس مؤسسات مندمجة في وسطها الاجتماعي تعمل على الرقي به والتأثير عليه من خلال الدور الذي لعبته سابقا في تاريخ المجتمع المغربي.

المدرسة وأصل التسمية :

إن كلمة «مدرسة» تدل على مؤسسة نظامية رسمية كما تدل على مؤسسة أهلية غير نظامية، ولعل أصلها ديني، أي أن دخولها إلى لسان العرب كان من «الباب الديني قبل أن تنتهي أخيرا إلى دلالتها الراهنة في نطاق التعليم الحديث» (1).

ويرى جواد علي ان المؤرخين لحقبة ما قبل الاسلام أرجعوا كلمة «مدرسة» إلى أصل عبري ومفادها المعهد الذي تدرس به التوراة، وبمجيء الاسلام أصبحت تدل أيضا على المكان الذي يدرس به القرآن، كما ذكر ذلك ابن منظور في معجمه لسان العرب : «المِدْراس البيت الذي يدرس فيه

1. طه الولي (89) التعليم عند المسلمين في بداياته وتطوراته 123 – 143 الدراسات النفسية والتربوية العدد التاسع ابريل.

القرآن ... وقرأ ابن عباس ومجاهد : دارست، وفسرها قرأت على اليهود وقرأوا عليك».

وقد وردت في القرآن الكريم آيات كريمة تشير في فعل «درس» يقول تعالى في سورة القلم (37) ﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ ويقول في سورة الأعراف (169) ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتـاب أن لا يقولوا على الله الا الحق ودرسوا ما فيه﴾ والخطاب موجه في الآيتين الكريمتين إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى. والكتاب يراد به التوراة والانجيل.

ويستنتج جواد على ان كلمة «مدرسة» ذات جذور عبرية فيميزها عن كلمة «كتاب» و «كتاتيب» التي استعملت في الجاهلية وصدر الاسلام حيث تدل على المكان الذي يتعلم فيه الأطفال القراءة، والكتابة وضروب المعرفة الأخرى.

وجاء في لسان العرب : المكتب والكتاب موضع تعليم الكتاب وجمع كتاب : كتاتيب، وجمع مَكْتَب مَكَاتِب، والمكتب موضع التعليم كما كان يطلق اسم المُكَتِّب على المدرس الذي يدرس التلاميذ في المكتب وقد كان الخلفاء الراشدون كلما فتحوا بلدا سواء في الشام، مصر أو افريقيا إلا و «انتدبوا إليه رجالا يفقهون أهله بالدين ويعلمونهم القرآن ويفتحون الكتاتيب لناشئته» [2].

ويطلق أيضا اسم «المعلم» أو «الأستاذ» على كل من امتهن حرفة التعليم سواء بالنسبة لأبناء العامة أو لفائدة أبناء الخاصة كالأعيان الخلفاء والأمراء، إلا أن هناك من ميز بين (المُكتب) في الكتاتيب و «المُؤدب» في القصور.

ويحكي ابن عذاري المراكشي في كتابه «البيان المعرب في أخبار الأندلس والمغرب» أن موسى بن نصير أمر العرب الذين صاحبوه في فتحه للمغرب «أن يعلموا البرابر القرآن ويفقهوهم في الدين» [3]. وكذلك فعل عقبة بن نافع. وقد أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز مجموعة من الفقهاء والوعاظ إلى القيروان قصد إرشاد الناس إلى تعاليم الاسلام وما لبث كل واحد منهم أن

---

2. نفس المرجع.

3. ابن عذاري المراكشي : «البيان المغرب في اخبار الأندلس والمغرب».

بنى داره بجانب مسجد لعبادته ومجالسه و«اتخذ بقربه كتابا لتحفيظ القرآن وتلقين مبادئ العربية لصغار أطفال البلد» (4).

الكتاب القرآني والمدرسة العلمية العتيقة :

يطلق أيضا على الكتاب اسم «المسيد» نسبة إلى المسجد أو «الجامع» و «الحضار» أو «تمزكيدة»، كما يطلق على المدرس الذي يتولى تعليم الأطفال القراءة والكتابة والقرآن الكريم اسم «الفقيه»، «المعلم» «المربي» «الشيخ»، «الأستاذ»، «المؤدب»، أو الطالب و «الكتاب القرآني» عبارة عن بناية بسيطة لا تتعدى في جل الأحيان حجرة واحدة متسعة ملحقة بمسجد، ليستفاذ من مرافقه وتجهيزاته، تفرش أرضه بحصير يجلس فوقه المعلم ويتحلق حوله التلاميذ.

أما الأدوات التي كان يستعملها الصبية خلال دراستهم فلم تكن تتعدى لوحا من الخشب وقلما من القصب ومحبرة صغيرة مدادها مستخرج مما توفره البيئة، وكان التلميذ يقوم بكتابة الدرس على اللوح، وبعد أن يحفظه عن ظهر قلب يمحوه ليكتب درسا جديدا على نفس اللوح (5).

وإذا كنا نميز بين الكتاب القرآني والمدرسة العلمية العتيقة باعتبار هذه الأخيرة مؤسسة متقدمة على الأولى من حيث روادها وطبيعة العلوم الملقنة بها، فإن هناك من الباحثين من يعتبر المدارس العلمية العتيقة بمثابة مرحلة الكُتَّاب الثانية، في حين يعتبرها البعض الآخر بمثابة المدارس المتوسطة (6) بين الكتاتيب القرآنية من جهة ومؤسسات التعليم الاسلامي العالي كجامع القرويين بفاس وجامع بن يوسف بمراكش. وإذا كانت أيضا فترة الالتحاق بالكتاب القرآني لا تتجاوز بضع سنين يتعلم خلالها الصبي القراءة والكتابة وما تيسر له من القرآن فإن طلاب المدارس العلمية «يقضون في المتوسط حوالي 11 سنة

---

4. حسن حسني عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية ص 78 ـ الجزاء الأول.

5. أحمد اجزناي (91) التعليم الأصيل بالمملكة المغربية مجلة تعليم الجماهير 79 ـ 106 العدد 38 شتنبر.

6. WAGNER D. (82) in L.L.ADLER ED. CROSS CULTURAL RESEARCH et ISSUES. N.Y. ACADEMY PRESS.

ترجمة أحمد بنعمو وسعيد بحير : بيداغوجية الكتاتيب القرآنية بالمغرب المعاصر. الدراسات النفسية والتربوية 29 ـ 36 العدد السابع فبراير 87.

في الدراسة الاسلامية وقد تصل على 17 سنة عند بعض الطلاب الآخرين ... ويتوقع المتخرجون أن يصبحوا فقهاء ليعودوا في الغالب إلى أقاليمهم الأصلية» [7].

وقد عرفت هذه المدارس أيضا بلفظ «المحضرة» جمعها «محاضر»، ومن هنا دون شك أتت تسمية روادها «إمحضارن» وتشيع هذه التسمية بالمناطق القروية وبسوس خاصة حيث حافظت هذه المؤسسة على أصالتها وإشعاعها الديني والثقافي.

وقد تكون المدرسة قرآنية يتعلم فيها الطلبة القرآن حفظا ومتنا ورسما وقد تكون المدرسة علمية تدرس بها مختلف العلوم الشرعية إلى جانب العلوم اللغوية والأدبية، وقد تجمع بينهما آنئذ يكون بها المقرئ الذي يتولى تدريس القراءات بمثابة الفقيه أو الأستاذ الذي يتولى تلقين العلوم.

مرافق المدرسة العلمية العتيقة :

هناك بعض السمات المشتركة من حيث التصميم الهندسي للمدارس تخص المرافق التي تشملها : «أخربيش» وهو بمثابة بهو تزيد أو تنقص سعته حسب المساحة التي شيدت عليها المدرسة، ونجد به مصطبة يجلس عليها الأستاذ ليتحلق حوله الطلبة أثناء تلقينهم للعلم والمعرفة كما يوجد في جانب منه مكان مخصص لوضع الألواح ؛ وقد تتوفر بعض المدارس على أكثر من موضع مخصص للمجالس العلمية حيث يلقي فيها المدرس دروسه حسب أصناف الطلبة ومستواهم العلمي والمعرفي.

هذا بالاضافة إلى غرفة المدرس، الخزانة، ثم المسجد ـ إذا كانت تابعة له ـ بكل مرافقه كـ «المياضي» و «تافضنا» حيث يتم تسخين الماء للوضوء والاغتسال. وقد تتناوب نساء الدوار أو المداشر، في غياب خادم على تزويد المرافق بما تحتاجه من حطب وأخشاب قصد التدفئة أو الطهي ... لكن لوحظ في الآونة الأخيرة ان الطلبة يستعملون الغاز في غياب الحطب لطهي ما يأكلون. وفي بعض الحالات تتولى الأسر في الدوار إرسال الطعام بالتناوب إلى الطلبة خصوصا إذا كان عددهم قليلا ؛ إلى جانب هذه المرافق السابق ذكرها

7. نفس المرجع.

هناك مساكن الطلبة وهي بمثابة غرف صغيرة تضيق أو تتسع لأكثر من واحد منهم، يحشرون فيها أمتعتهم وكتبهم وأدواتهم ويعنون بتنظيفها، وفي الآونة الأخيرة تم تجديد مجموعة من البناءات لفائدة الطلبة في عدد من المدارس بمبادرة من بعض المحسنين، ولم يطرأ تغيير على ساكنة هذه البيوت منذ مدة لأنها كانت ولا تزال تستقبل الذكور وعند توزيع البيوت على الطلبة قد تراعى بعض المعايير كالسن أو تقارب المستوى العلمي أو الانتماء الجغرافي ... كما قد تراعى مصلحة المدرسة والدارسين بها ويشير محمد حجي أنه في الماضي لم يكن «ليسمح بالسكنى في المدارس للنساء ولا لمن تخشى منه الفتنة من الولدان، ويشترط في الساكن أن يستفرغ جهده في الدرس والتحصيل ويلازم حضور مجالس التدريس التي تعقد داخل المدرسة، وإذا سكن الطالب في المدرسة عشرة أعوام ولم تظهر نجابته أخرج منها جبرا ... وعند توزيع البيوت يخصص الناظر بيوت الصدارة للعلماء العزب والمتقدمين من الطلبة، والبيوت المضيئة لمن يشتغل منهم «بالنساخة ويسكن أهل الحضر في الطابق العلوي لأنهم أقل إزعاجا من البدو والجفاة ويبعد أصحاب الأصوات المرتفعة عن قبة الصلاة والدراسة» [8].

قبول الطلبة بالمدرسة :

لا يطلب من التلميذ عند الالتحاق بالمدرسة أية وثيقة إدارية وهذا ما يؤكد الطابع الشعبي للمدرسة ومدى تفتحها على محيطها بل بالعكس تعطى للطالب مهلة للتفكير قبل أن يقرر ما إذا كان سيمكث بالمدرسة، وقد تصل هذه المدة إلى ثلاثة أيام يتردد فيها الطالب على دروس وحلقات المدرس بعد ذلك يبدي رأيه في البقاء أو الرحيل إلى جهة أخرى. وعند التحاق الطالب يبدأ المدرس في تقويم معارفه ومداركه العلمية قبل أن يوجهه إلى فئة أو مستوى دراسي معين. وفي هذه الآونة أيضا يذكر المدرس الطالب بشروط تخص التزامه بالحضور والمواظبة على الدروس والحرص على هندامه (الجلباب، قص الشعر والأظافر ...) وحسن معاشرته لمدرسه وزملائه في الدراسة ثم تعهده بحفظ ما يكتبه في الوقت المحدد ... وفي غياب الوفاء بالتزاماته يبقى معرضا للطرد.

8. محمد حجي (76) الحركة الفكرية بالمغرب في عصر السعديين ج الأول دار المغرب للتأليف والتوجيه والنشر ص 127.

وإذا كان متوسط أعمار الطلبة يتراوح بين 15 و 25 سنة حسب المستويات والطبقات التي ينتمون إليها فإنهم في غالبيتهم من أبناء المناطق القروية القريبة أو الوافدين عليها من المناطق النائية. هذا وقد استرعى انتباهنا أثناء زيارتنا لبعض المدارس ولوج بعض التلاميذ الذين انقطعوا أو فصلوا من التعليم العمومي ليلتحقوا بهذه المدارس. فيبدأون بحفظ القرآن ويتابعون تلقي مختلف العلوم والفنون، وقد لاحظنا أيضا ارتفاع نسبة الوافدين على المدرسة بالمقارنة مع المحليين، ويمكن أن نعزو هذا إلى عزوف الطالب عن البقاء تحت سلطة ووصاية أسرته ثم رغبته في استشراق آفاق جديدة لأنه سيحظى بهامش أوسع من الحرية أو ما يمكن أن يستفيده من منح وهبات بعيدا عن قريته وأهلها، خصوصا إذا عرفنا أن هذه المرحلة تصادف المراهقة وما تتميز به من حب في المغامرة.

المدارس العلمية مراكز إشعاع :

إن المدارس العلمية بسوس على غرار مثيلاتها بشمال البلاد عرفت فترات تطور وازدهار أو تقهقر وانكماش حسب الأحوال السياسية والاجتماعيةالتي شهدها المغرب عامة أو شهدتها بعض المناطق إثر أحداث عدم الاستقرار وتزايد أطماع الغزاة في الداخل أو الخارج، لكن يمكن الجزم على العموم أن المدارس العلمية بالشمال نتيجة محايثتها لمراكز الاشعاع الثقافي والفكري ومراكز القرار السياسي خاصة بعد نزوح عدد من العلماء وعودة بعض من تلقى منهم العلم بالمشرق أو بأوربا ... جعلها تتبوأ مكانة بارزة في استقطاب العلماء والفقهاء من جهة والاعتناء بالعلوم العقلية والتجريبية من جهة ثانية. ومن الحواضر التي ازدهرت فيها المدارس العلمية التي اعتنت بتدريس العلوم العقلية والتجريبية نذكر على سبيل المثال لا الحصر : فاس مراكش، مكناس، سلا، الرباط، طنجة، تطوان، والعرائش ... ومن هذه العلوم نذكر على الخصوص : علم البحر والمراسي، علم الهندسة، الحساب والرياضيات، الفلك، التنجيم، علم التوقيت والتعديل ...

وقد نشطت البعثات الطلابية إلى المشرق العربي وأوربا في عهد كل من السلاطين : عبد الرحمان بن هشام، محمد الرابع، الحسن الأول ... وقد ذكر محمد بن المفضل بنكيران في خاتمة شرحه على رسالة في الهندسة «اهتمام

محمد الرابع بالرياضيات والموسيقى والتنظيم العسكري الحديث كما جلب عددا من الأدوات العلمية المستخدمة في هذه العلوم، ساعات فلكية، مجاهر، أسطرلاب ...» [9] وقد كان خريج مثل هذه المدارس في الهندسة في القرن 13 الهجري» يحمل لقب «مهندس» ومن درس التوقيت يحمل لقب «موقت» وكان منهم من استكمل دراسته بأوربا أو شغل منصبا عاليا بالبلاط [10].

ولعل من العوامل الأساسية التي وقفت وراء ازدهار وتطور المدارس العلمية العتيقة هو مساندة السلطة المركزية لها سواء في عهد المرينيين أو السعديين أو العلويين ثم نظرا للدور الوظيفي الذي لعبته هذه المدارس في تثبيت أو تقويض دعائم هذه السلطة نفسها. فكان الحكام الولاة والسلاطين يولونها العناية والرعاية من خلال ما يرصدون لها من إعانات وهبات أو من خلال ظهائر التوقير الممنوحة لفقهائها وعلمائها وإذا نظرنا من زاوية دينية إلى وظيفة هذه المدارس ودور الفقيه أو المُدرس داخل القبيلة تأكد لدينا الدور الفعال الذي تلعبه على الساحة السياسية آنذاك وفي وقت كانت الاطماع الأجنبية والتشردم القبلي والطائفي من المخاطر التي هددت دوما وحدة وسيادة البلاد. لذا فقوة السلطة السياسية تستمد أساسا من تدعيم الجهات الدينية بما فيها المدارس العلمية العتيقة، المساجد والزوايا. كما أن أفول أو ضعف نفوذ السلطة السياسية يرجع إلى مهاجمة هذه الجهات له وإشهار الجهاد ضده. فكانت إذن العلاقة بين النظام المركزي والمؤسسات الدينية موضع مد وجزر حسب الظروف الخارجية والداخلية الفاعلة فيها. ففي العهد السعدي مثلا عرفت حركة دائبة في ميدان الثقافة فشجعت مبادرات التأليف والترجمة والشرح والتعليق والاختصار المنظوم والمنثور لمختلف العلوم والفنون والصنائع : في التوحيد، الفقه التصوف، الطب، الفلك، الحرب، الرحلة، التربية، النكاح والزواج، الصداقة، السياسة، آداب اللباس، المنطق، الهندسة، التوقيت، التنجيم، وغيرها من الفنون والعلوم والصنائع.

---

9. محمد المنوني (73) مظاهر يقظة المغرب الحديث ج الأول مطبعة الأمنية الرباط ص 97.
10. محمد المنوني : نفس المرجع ص 106.

وفي أغلب المدارس العلمية بشمال البلاد كانت العلوم النظرية تدرس إلى جانب العلوم التجريبية كالملاحة البحرية وعلم الفلك خاصة على الثغور [11] في حين شهدت مدارس سوس عناية كبيرة بالعلوم الشرعية وقضايا الدين. وفي عهد الحسن الأول أنشئت المدرسة الحسنية بطنجة كانت تدرس فيها علوم الحساب والهندسة والجغرافيا والعلوم الدينية إلى جانب اللغة الأجنبية [12]، إلا أنه ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث عشر سيلاحظ نوع من التراجع بالنسبة للعلوم العقلية والتجريبية نتيجة عدم مسايرة التطور الحاصل في هذه العلوم وتفاقم حالات الاضطراب السياسي. ويشير روجي لوتورنو انه ابتداء من هذه الفترة (13 هـ) أصبح التعليم يتدهور تدريجيا بمدارس فاس حيث تم التخلي عن مجموعة من العلوم التي ماتت كالتنجيم، الكلام، التصوف، الجغرافيا، الطب، الجداول والكيمياء على الخصوص التي اعتبرت مكروهة في السنة لأنها من نصيب اليهود [13].

رعاية السلطة السياسية لشؤون الطلبة والمدرسين :

لعل ما يثبت مظاهر اعتناء البلاط آنذاك بأمور الطلبة ما احتفظت به أمهات الكتب من ذكريات وما حفظته الخزائن من وثائق ومراسلات رسمية موجهة إلى العمال والقواد والباشوات بمختلف الجهات لتتبع ومعاينة ما يبذله الطلبة من جهود في التحصيل والدراسة قصد مكافأة المجد منهم برفع أجرته وتوجيهه نحو استكمال خبرته أو معاقبة المقصر في واجبه. ففي رسالة موجهة من حاجب بلاط السلطان الحسن الأول إلى عامل سلا تصدر أوامر «بأن لا يعطوا الراتب إلا لمن لازم القراءة، ومن عطل يوم كذا، يسقط عنه راتب ذلك اليوم، ومن امتنع عن التعليم يقطع عنه بالكلية وينظر غيره» [14] وفي رسالة من السلطان عبد الرحمان بن هشام يقول : «ومن ظهرت نجابته واتضحت درايته

11. ابراهيم حركات (85) التيارات السياسية والفكرية بالمغرب خلال قرنين ونصف قبل الحماية النجاح الجديدة البيضاء ص 15.

12. محمد الدريج (92) تطور المؤسسات التربوية التعليمية في المغرب خلال القرن 19 الدراسات النفسية والتربوية العدد 13 يوليوز 38 ـ 50.

13. روجي لوترنو (86) «فاس قبل الحماية» ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ج 2 دار الغرب الاسلامي بيروت ص 656.

14. محمد المنوني : نفس المرجع ص. 101.

أعلمنا به لنزيد له في العطاء ونمنحه ما يظهر عليه من جميل الاحتفاء والاعتناء» [15].

اما عن علاقة الفقهاء والعلماء بالسلاطين فقد كانت خاصة ومتميزة إذ إن الظهائر المسلمة لبعضهم توجب معاملتهم معاملة خاصة، ففي مطلع القرن 14 الهجري سلم الحسن الأول ظهيرا التوقير لأحد الفقهاء جاء فيه : «إننا بفضل ذي المنة ... سدلنا على حامله ... وأولاده أردية التوقير والتعظيم والاحترام وحملناهم على كاهل المبرة وجميل الرعاية والأنعام، ورفعنا عنهم جميع التكاليف المخزنية والوظائف السلطانية بحيث لا يسامون بمكروه ولا يعاملون إلا معاملة حسنة» [16].

وتدل مجموعة من الرسائل والمخطوطات على شديد الصلة التي ربطت بين بعض العلماء أو الفقهاء والسلاطين حيث تلبى حاجيات وطلبات العالم أو الفقيه في توظيف ابنه أو أحد أقربائه كإسناد مهمة القضاء أو الحسبة إليه ... ففي رسالة جوابية بعثها السلطان عبد الرحمان بن هشام إلى أحد الفقهاء نقتطف مايلي : «... قد وصل ولدكم ... وها نحن أجبناه لما طلبت ... ووصل ولد (فلان) مؤديا الواجب ... وقد قبلناه لما طلب، وجلعناه واسطة بين خديمنا القائد ... وتلك القبائل يتولى قبض جبايتهم ويدفع ذلك على يده» [17].

وضيعة الفقيه / المدرس

نقصد بوضعية المدرس حالته المادية والاقتصادية في المقام الأول ووظيفته المعنوية والمهنية في المقام الثاني وسنفرد لكلتا الحالتين فقرتين خاصتين. أما من الناحية المادية ونتيجة الحظوة والرعاية التي كان محاطا بها من لدن السلطة السياسية فإن بعض المدرسين، وكما يشير إلى ذلك المختار السوسي، كونوا ثروات كبيرة مما يدل على رخاء عيشهم آنذاك وسعة رزقهم، فإلى جانب ما تؤمنه القبيلة من طعام يومي ومن زيت، زبدة وثمر ... نجد بعض القبائل تخصص ثلث أعشارها من الغلات لرعاية وتسيير مرافق المدرسة [18].

---

15. نفس المرجع السابق ص 108.
16. المختار السوسي (66) المعسول ج 6 المطبعة الملكية الرباط ص 161.
17. المرجع السابق ص 248.
18. المختار السوسي (66) المعسول ج 3 المطبعة الملكية الرباط ص 305.

أما في الآونة الأخيرة فإننا وجدنا بعض القبائل استبدلت ثلث الأعشار بقيمة نقدية تفرض على كل أسرة (40 ـ 50 درهما في السنة)، إضافة إلى هذا نجد بعض الفقهاء والمدرسين وهم أئمة المساجد ينتفعون من أوقاف وأحباس هذه المؤسسة الدينية، وغالبا ما يتولى الأهالي رعاية هذه العقارات أو غيرها إعفاء للمدرس أو الفقيه من عناء الحرث أو السقي ... وقد ألف هذا الأخير وهو إمام المسجد أن يتلقى هبات ومنح من المحسنين خاصة أيام الجمعة والأعياد والمناسبات والزيارات غير الرسمية لأفراد القبيلة الذين يقصدونه سواء لفك نزاع نشب بين الاخوة أو الأقارب أو عند كتابة بعض الأحجبة أو التمائم لطفل مريض، ابن عاق، أو لمن يريد التيمن بخط الفقيه لاستشراف الطالع والاستزادة في التجارة المربحة ومن الناحية المعنوية فإذا تقلصت إلى حد كبير صلاحيات الفقيه في الآونة الأخيرة، فإنه سابقا كان يقوم بعدة خدمات كما هو الشأن بالنسبة للعدول اليوم إذ يحرر عقود البيع والنكاح، البيع والشراء والكراء والرهن، أو عقود الميراث والوصية ... وهذا ما كان يدر عليه مدخولا إضافيا مكن البعض منهم من مراكمة أموال وعقارات ومن زيارة المشرق وحج بيت الله ... ومما لا شك فيه أيضا أن الفقيه كان ولا يزال يتمتع بعدة امتيازات كالسكنى إذ غالبا ما كان منزله لصيقا أو قريبا من المسجد حيث تؤدى الصلاة. كما كان الفقيه أو المدرس معفيا من مختلف أنواع الضرائب والرسوم ... إلا أن ما لا حظناه من خلال استطلاعاتنا هو مدى التباين الشائع حول أجرة الفقهاء والمدرسين حسب فقر أو غنى المنطقة التي توجد بها المدرسة المعتيقة ففي المناطق التي تحظى بنسب هامة من العمال المهاجرين أو بساكنة مهمة أو بموارد قارة أو شبه قارة فلاحية كانت أم ثرواتية، نجد أن الفقهاء يحظون بعناية فائقة من لدن الأهالي والسكان، كما يستفيدون من الأحباس الموقوفة على المجاسد والمدارس.

المهام الوظيفية للمدرس ـ الفقيه :

كما أسلفنا سابقا عرفت الوظائف والمهام الموكولة للمدرس والفقيه نوعا من الانحسار نتيجة ظهور مؤسسات مختصة بتطبيق القوانين الجاري بها العمل. لكن في السابق كان المدرس الفقيه يفصل في النوازل والخصومات التي تحدث بين الأشقاء والأقارب أو بين الأهالي والقبائل فقد كان يعهد بمهمة

القضاء إليه إلى جانب الامامة والتدريس أما في الفترة الأخيرة لم يعد المدرس الفقيه يفتي إلا في الأمور الخاصة بالعقائد والعبادات كما يستشار من لدن الأهالي في اقتسام التركة وفي قضايا النكاح والزواج وبعض العلاقات الشخصية (الرضاعة، الحضانة، النسب ...) كما يعنى بإرشادات الناس وإسداء النصح لهم وينير سبيلهم في بعض النوازل الفقهية التي تعترضهم «فمطلق العامة يمدهم بالتوحيد والعقائد وضروريات الدين وجوامع الحلال والحرام والعلم الجامع الذي يتقربون به إلى ربهم» (19) ومن المهام التي كان يتولاها المدرس سابقا ويضطلع بها، إرساله لطلبته وخاصة المنتهين منهم إلى القبائل قصد التوعية والارشاد. ففي معرض حديثه عن مناقب أحد الشيوخ الورعين يشير المختار السوسي إلى أنه : «في كل حياته، يرسل تلاميذه إلى القبائل للارشاد والتدريس، يؤسس مدارس للعلوم ... فلم يلبث أن عادت غالب المدارس القديمة في الجنوب ... مع تعهده القبائل في الرمضانات فيفرق طلبته كل ثلة إلى قبيلة تقرأ فيها البخاري، وترشد الناس من العامة إلى دينهم، فيتلقاهم الناس بالضيافات متنقلين بين القرى (20) ومن المهام التي سخر لها المدرس الفقيه كل جهده وطاقته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يفعل هذا مستعينا بالسلطة المعرفية والاجتماعية المخولة له، إذ لم يتوان لحظة في مناهضة المنكر وما يقترفه عامة الناس من المعاصي والزلات، يقول أحد الفقهاء مخاطبا قومه «فكيف الحيلة فيما أنتم عليه من عدة أمور لا يجوز لكم ارتكابها، فمن أعانكم على أنفسكم فقد ظلم نفسه، وقد وقعتم في أمور يرضاها الشيطان ويسخط عليها الرحمان» (21).

ونتيجة ما كان يحظى به المدرس من حماية ورعاية من لدن السلطة السياسية آنذاك فإنه لم يكن ليتردد في طلب المساندة من هذه الأخيرة لرد الاعتبار له وإعادة ما ضاع منه من أملاك بعد السطو عليها أو ما أصابه من تعسف وإهانة بعد التدخل السافر لأحد الولاة أو القواد الجائرين أو ما أصبح عليه من عزلة وهجران بعد تنكر الناس له ومحاولة بعضهم الانقضاض على متكتسباته. ففي رسالة جوابية من أحد السلاطين لأحد الفقهاء يواسيه فيها عما

19. المختار السوسي (61) «الترياق المداوي» المطبعة المهدية تطوان ص 72.
20. المختار السوسي المعسول ج 6 ص 191.
21. المختار السوسي المعسول ج 6 ص 242.

أصابه من تعسف وظلم أحد القواد نقتطف ما يلي :

«وبعد وصل كتابكَ بما فعله قواد (راس الوادي) بزاويتكم بـ إيرازان وأكلوا من الفعائل التي لا ترضى لخيركم، فكيف بكم، وصرنا من ذلك على بال، فنأمرك أن تقدم لحضرتنا» (22).

وغالبا ما تدخلت السلطة السياسية لتعيين بعض الفقهاء المدرسين على رأس بعض الزوايا وتكليفهم بالامامة والخُطبة والتدريس ثم تصدر أوامرها إلى القواد والباشوات والولاة قصد حل بعض الخلافات التي تنشب من حين لآخر بين الفقيه وأحد أقربائه أوبينه وبين أفراد قبيلته عند حلول موسم اقتسام عائدات المدرسة أو الزاوية أو ما تم توقيفه عليها. ومن ناحية ثانية كانت الأوامر تعطى للسكان والأهالي بدفع ما بذمتهم من الزكوات والاعشار لفائدة هذا المسجد، أو هذه الزاوية أو تلك المدرسة. كما قد يُنذر الوالي أو الحاكم أو يعاقِبُ كل من تعرض لمصالح المدرس الفقيه بسوء وأذى. وهذا ما يفسر التشريف والحُظوة اللتين كان بعض الفقهاء محطا بهما. ويحرِصُ الابن بعد وفاة أبيه أو الأخ بعد وفاة أخيه علي تجديد ظهائر التوقير والاحترام من لدن الحاكم أو السلطان أو الذي خلفه لأن في هذا التجديد حفاظا وإبقاء على سلطته ومرتبته ومصالحه في القبيلة، لأن ما كان يغدق آنئذ على المدارس وفقهائها كان يثير شهوة الآخرين والمقربين إليهم على وجه الخصوص.

الدعـوة إلـى الجهـاد :

يمكن القول إن العلاقة التي ربطت المدرس الفقيه بالسلطة السياسية أو بينه وبين الأهالي وسكان القبيلة لم تكن دائمة على وتيرة واحدة أو تكون دوما تتسم بالهدوء والتقدير من هذا الجانب أو ذاك بل على العكس من ذلك كانت تشوبها من حين لآخر بعض الهزات التي تجعل هذا الطرف أو ذاك يسحب ثقته من الطرف الآخر وتنشب بينهما بعض المناوشات. ففي رسالة وجهها أحد المدرسين الفقهاء إلى السلطان عبد الرحمان يقول : «... وأنا أسألكم سيدي بلسان التضرع والخشوع والقدرة الأزلية قد أوقعتني من بين قوم يرتكبون أقبح المساوئ ... قد بدلوا الأحكام واستحلوا الحرام، واشتغلوا بالبيوع الفاسدة وبالأنكحة الباطلة ... وبالخيانة في الأمانة» (23).

22. نفس المرجع ص 246.
23. نفس المرجع ص 248.

وإذا لم يقف المدرس مكتوف الأيدي أمام هذه المعاصي، فإنه لم يقف وقفة المتفرج أمام ما لحق بالبلاد من صعاب وما تهددها من مخاطر ويمكن اعتبار الفقهاء آنذاك ورجال الزوايا في عصرهم صلة وصل بين مراكز القرار السياسي وبين عامة المواطنين، فكثيرا ما استعانت السلطة المركزية بنفوذ وقوة الفقيه لتجنيد الناس والقبائل عند مواجهة الخطر، ففي رسالة أحد الفقهاء إلي أهل «أملن» بضاحية تافراوت كتب إليهم يقول «... وبموجبه أعلامكم بالجهاد وأن تفرضوا المجاهدين ومؤونتهم حتى يصلوا للسلطان ... ولعله أراد الحصار على العدو الكافر بتطوان لأنه دخلها» [24].

نظـــام الدراســـة :

لقد أولى الاسلام عناية كبيرة للعلم وشرف العالم بتقدير وحظوة كبيرة، لذا نجده يحث على طلب العلم والمعرفة ليس فقط في المراحل الأولى من حياة الفرد بل طوال حياته، وقد لعبت المدارس العلمية العتيقة إلى جانب المساجد والزوايا دورا طلائعيا في العناية بالعلم والعلماء، قال تعالى في كتابه العزيز : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ المجادلة (11) وجاء في سورة النساء قوله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ وبما جاء في الحديث الشريف : «العلماء ورثة الأنبياء» ويعلق الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» بقوله : «ان لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة» [25] وفي حديث آخر يقول الرسول عليه السلام «أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد» واقتداء بما أتى به القرآن الكريم والسنة الحميدة عملت المدارس العلمية العتيقة. على نشر العلم وتكريم العالم. وكان من العوامل المشجعة على ذلك تعاضد الأهالي وتضافر جهودهم على إنشاء المدارس والمساجد وإحياء دورها الاشعاعي فاعتنوا بإغناء خزاناتها وجوامعها بالكتب والمصادر النفيسة فيجد فيها الطلبة ضالتهم في مختلف العلوم والفنون والصنائع.

---

24. نفس المرجع ص 267.

25. أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين الجزء الأول دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ص 5.

الأهـداف التربويـة :

تستند الأهداف والغايات التربوية التي تتوخاها المدارس العلمية العتيقة إلى كل من القرآن الكريم والسنة النبوية باعتبارهما المصدرين الأساسيين لنموذج الانسان والمجتمع اللذين تتوخاهما. من هنا يمكن الحزم باندماج هذه المؤسسات الأصيلة في النسيج الاجتماعي باعتبارها وليدة بيئة إسلامية، إن الرأي الذي ينكر على هذه المدارس أن تكون خاضعة لأسس أو نظام محكم بدعوى أن تسييرها لم يكن خاضعا لتقنين رسمي بل كان نابعا من نوع من العشوائية والتلقائية في العمل أو انه خاضع لأهواء الممولين والمحسنين لها ... لايمكن أن يكون الا مجازفة، فالمدارس العتيقة لم تكن منعزلة عن المجتمع والمحيط الذي أوجدها وتطورت في أحضانه تأثرت به وأثرت فيه، كما ان الأهداف التربوية التي تتوخاها لم تكن دخيلة عن النظام الاجتماعي الذي يؤطرها بكامله. وما الوسائل المادية والمعنوية التي يضعها الأهالي رهن إشارتها لخير دليل على أصالتها كما أن فتح أبوابها على قدم المساواة أمام أبناء مختلف الشرائح الاجتماعية جعلها أكثر دينامية وأكثر شعبية في تربية الأجيال وتكوينهم، بل انها فتحت أبوابها لايواء الغرباء وأبناء السبيل [26].

ويمكن أن تلخص الأهداف التي يطمح إليها النظام التربوي بالمدارس العتيقة في النقط التالية :

1. تعليم القراءة والكتابة باعتبارهما دعامتا الدين إذ بدونهما يتعذر حفظ القرآن وفهمه، ثم ان معرفة القرآن وفهمه وضبط رسمه وحفظ متنه أمر ضروري لمعرفة الدين وممارسة تعاليمه وشعائره.

2. تهذيب النفس والخلق، فالدين الاسلامي يحث على التحلي بمكارم الأخلاق والسلوك القويم كطاعة الوالدين والصدق والأمانة والنظافة ومساعدة الآخر وعدم إيذاء الآخر.

3. الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية والثقافة الاسلامية مما ساهم في حمايتهما من الاستيلاب وتحصين البلاد من الأطماع الأجنبية.

26. المختار السوسي المعسول ج 3 ص 230.

فقد نشأ العلم في إطار العقيدة الدينية ولممارسة شعائرها بشكل نقي خال من الشوائب يضمن له سعادة الدارين الدنيا والآخرة. ويستدل الغزالي في بيان فضيلة العلم والتعليم بقول النبي عليه السلام : «لأن تغدو فتتعلم بابا من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة [27]» ويقول معاد بن جَبل : «تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ... وهو إمام والعمل تابعه» [28].

آداب المعلم والمتعلم :

إن ما يطبع النظام التربوي بالمدارس العتيقة كونه يستند الى مجموعة من المبادىء التنظيمية والقواعد التربوية والاحكام الخلقية في الاسلام سواء كانت خاصة بالمدرسين أو بالمتعلمين، وقد وردت مجموعة منها في كتاب « تذكرة السامع والمتعلم والمتكلم في آداب العالم والمتعلم » لاحمد بن ابراهيم الحموي الشافعي [29] :

- الاشتغال بالتعليم من أجل إصلاح النشئ وليس طمعا في المال.
- التجرد عن ممارسة المهن الوضيعة.
- الحفاظ على التعاليم السماوية والتحلي بمكارم الأخلاق.
- الاعتناء بالهندام.
- تجنب الزلفى للحكام أو كثرة التردد عليهم.
- انتقاء العلوم المفيدة وتجنب القضايا المثيرة للجدل.
- القدوة الحسنة في الأقوال والأفعال.
- الاقتدار والأهلية لممارسة التدريس.
- حسن المعاملة للتلاميذ ومعرفة كيفية ارشادهم في حالة التقصير أو الخطأ.

ومما جاء أيضا في رسالة أحد الفقهاء إلى صديق له في إحدى المدارس العلمية العتيقة بسوس : «اما بعد فهاك ولدي عبد الرحمان ... فاحفظه من

---

27. أبو الغزالي، المرجع السابق ص 8.
28. المرجع السابق ص 11.
29. محمد بن ابراهيم الحموي الشافعي : تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم. الدراسات النفسية التربوية العدد التاسع ابريل 123.89 ـ 143.

الخروج مع الصبيان والكبار ... ولا يذهب به أحد للدار قريبا أو بعيدا إلا أن تذهب معه ... ولا يأكل حتى يجوع ... ولا يشرب اثر الأكل حتى تمضي ساعة ... وخوِّفه أول ما جاء حتى يخافك ثم ارحمه ... ولينم قليلا قبل الظهر ... وانهه عن الكذب ... ولا يعلم منك الرأفة والحنانة ... ولا تتركه يتكبر ويتعدى على الصبيان، فإنما أردناه للمسكنة والصلاح ... ولا تطلع على سره أحدا في القراءة ولا غيرها فمن سألك عنه فقل له نرجو له الخير ...» [30].

أوردنا هذه الفقرات من هذه الرسالة الطويلة لما تنطوي عليه من حرص الأب على تربية ابنه وما يرجوه من مدرسه العمل والاقتداء به سواء من حيث تنظيم أوقات دخوله أو خروجه من المدرسة أو من حيث آداب معاشرته لمدرسه وزملائه، كما تعكس هذه الفقرات صورة المدرس لِما يجب أن يتمثلها المتعلم، فظاهر هذه الصورة الخوف والرهبة وباطنها الرأفة والرحمة.

وهذه القواعد والمبادئ التربوية التي تنظم علاقة المدرس بمتعلمه نجد مثيلات لها في كتاب «البيان والتبين» للجاحظ الذي نقل وصية عتبة ابن أبي سفيان لمدرس أولاده قائلا : «ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني، إصلاحك نفسك فإن أعينهم معقودة عليك ... علمهم كتاب الله ... ثم روِّهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ... وروهم سير الحكماء وأخلاق الأدباء وجنبهم محادثة النساء وتهددهم بي وأدبهم دوني، وكن لهم كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء وإياك أن تتكل على عذر مني لك فلقد اتكلت على كفاية منك» [31].

التنظيم اليومي للدراسة :

ليس هناك برنامج محدد سلفا ولا تنظيم مسبق للحصص الدراسية كما ألفناه في المدرسة العمومية، لكن مما لاشك فيه أيضا أن المدة التي يقضيها الطلبة في الدراسة والتحضير ترتبط ببعض المقاييس كأوقات الصلاة وأيام الأعياد الدينية. تبدأ الحصة الصباحية مباشرة بعد صلاة الصبح وتلاوة الحزب الراتب حيث يلتحق الطلبة «بأخربيش» لحفظ ما كتب بالأمس على الألواح، ثم

---

30. المختار السوسي المعسول ج 3 ص

31. طه الولي : نفس المرجع ص 123 ـ 143.

يتناوبون على الاستظهار بين يدي الفقيه. بعد ذلك تغسل الألواح بحجر الصنصال (الصنصار) في مكان «المحي» المخصص لذلك، ثم يشرع الطلبة في كتابة المتن الجديد، ومما تجدر الاشارة إليه هنا أن اللوح يمكن أن يعكس مستوى الطالب من خلال ما يقوى على تدوينه في غناه وتنوعه بين عدة فنون وعلوم إذ نعثر في اللوح مثلا على المتن وشروحه وتعاليقه، إضافة إلى بعض الأبيات الشعرية أو الأقوال المأثورة ... وعندما يفرغ من الكتابة ينصرف إلى تناول وجبة الافطار ليعود مباشرة عند طلوع الشمس إلى الدراسة والتحصيل حتى منتصف النهار ... وبعد أداء صلاة الظهر يلتحق الطالب ثانية بالمدرسة لاستظهار ما كتبه قبل طلوع الشمس، وبعد صلاة العصر ينصرف إلى خزانة المدرسة لتوسيع مداركه أو يرتل القرآن حتى صلاة المغرب بعدها يقرأ الحزب الراتب، ثم يعود مرة أخرى إلى الدراسة والتحصيل في فترة ما بين العشاءين، وبعد الصلاة ينصرف إلى غرفته لتناول العشاء قبل أن يلقي نظرة على ما سيستظهره في الصباح الموالي ثم يسترخي للنوم.

أما بالنسبة للعطل فهي مقترنة بالأعياد الدينية كعيد الفطر وعيد الأضحى، وعيد المولد النبوي ... وبالمواسيم الدينية المحلية حيث يحظر الطلبة ويرتلون القرآن، كما تكون مثل هذه المناسبات فرصة للتنافس بينهم لاظهار مقدراتهم وكفاءاتهم في التجويد والترتيل أو قرض الشعر أو النقد ... وغالبا ما انتفع الطلبة بيوم أو يومين بعد انتهاء الموسم الديني لهذا الولي الصالح أو ذاك، إذا غالبا ما يكونون مضطرين لقطع مسافات طويلة على الأرجل قبل الوصول إلى مكان الزاوية.

في عيد الفطر مثلا تنقطع الدراسة ابتداء من اليوم السابع والعشرين من رمضان إلى غاية العاشر أو الحادي عشر من شهر شوال، ونفس القدر بالنسبة لعيد الأضحى أو المولد النبوي حيث يتم تسريحهم لمدة خمسة عشر يوما تقريبا أو يزيدون على ذلك بقليل. وقد يحدد الفقيه المدرس قبل حلول العيد يوم العودة لاستئناف الدراسة، إلا أن ما تجدر الاشارة إليه هي تلك المرونة التي تطبع علاقات المدرس بطلبته وبحكم الالتزام والانضباط اللذين يتحلى بهما معظم المترددين على هذه الدروس. وفي شهر رمضان تكتسي الدراسة طابعا خاصا، إذ يتم تخصيص هذا الشهر المبارك لدراسة الحديث في صحيح

البخاري مثلا، وبمناسبة عيد المولد تخصص فترة قبل حلول الذكرى للسيرة النبوية الشريفة، وغالبا ما يحضر سكان القرية أو القبيلة مثل هذه الحفلات الدينية.

نستنتج مما سبق ان النظام التربوي للمدارس العلمية العتيقة يقوم على مجموعة من المبادئ والقواعد العامة التي تؤسس وتحكم العلاقات بين الغايات والأهداف التي توجه هذا النظام وتحدد الوسائل والأساليب المناسبة لتحقيقها وكذا الروابط التربوية التي تجمع بين كل من المدرس والطلبة. وتبقى هذه المبادئ والقواعد العامة مستندة إلى تعاليم الدين الحنيف، لأن الاطلاع على تعاليمه وتدبرها يستدعي العمل بها ضمانا لسعادة الدنيا والآخرة. إلا أن ما تجدر الاشارة إليه كون هذه المدارس تختلف من حيث سيادة فن أو مجموعة من الفنون والصنائع على أخرى، فقد اشتهرت بعض المدارس في سوس بكونها متخصصة في القراءات وأخرى في اللغويات وثالثة في الأدبيات ... إلا أن مفهوم التخصص هذا يستوجب منا نوعا من الحذر إذ لا يرقى إلى المعنى الشائع حاليا بالنسبة للمدارس أو المعاهد العليا المتخصصة في تدريس العلوم أو الفنون. فرغم التنوع في الفنون التي تدرس بهذه المدارس العلمية العتيقة فإنها عملت ومنذ زمن بعيد على تكوين أجيال كان أصحابها معالم الهداية والارشاد. فقد اهتم أهل سوس، كما هو واضح من حيث عدد المدارس العتيقة به (انظر الجداول المرفقة) بالعلم والعلماء. فقد تنافست القبائل على الاشادة بدورها كما تنافست على استقطاب شيوخها وفقهائها، فكانت لكل قبيلة مدرسة خاصة بها أو مدارس تعنى بتموينها يؤمها الطلبة من كل الجهات ولا يلاقون بها سوى الترحاب وفائق العناية والرعاية تكريما لأهل العلم وحملة نوره. قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ المجادلة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله الا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له».

اما أخذ العلم وامتلاك ناصيته فهذا ما يأتي تدريجيا، وليس بوسع طالبة العلم أن يأخذه جملة، لأن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة فالطالب النبيه هو الذي «يكتب أحسن ما يسمع ويحفظ أحسن ما يكتب ويحدث بأحسن ما يحفظ كما يقول أبو الوفاء علي التجاجتي في كتابه مآثر السلف ومفاخر الخلف.

المتــون المدرســة :

لعل التغيير الذي طرأ في العهود الأخيرة على مضامين المتون المدرسة بالمدارس العلمية العتيقة هو الذي أدى إلى سيادة الطابع الديني الأخلاقي على حساب الطابع العلمي، الشيء الذي أظهر نوعا من النفعية في التدريس وكأن خريج هذه المدارس سيجد نفسه وهو يزاول وظيفة فقيه بأحد الدواوير المام قضايا وسائل تهم الحياة الدينية للأهالي وخاصة ما يتعلق منها بالعقائد والعبادات والقضايا الفقهية التي تحيل إلى تنظيم علاقات التعامل بين الأفراد في الأمور العينية كالارث والوصية ... لذا خفت نور العلوم العقلية والتجريبية كالكلام، المنطق، الحساب التعديل وعلم الفلك والهندسة ... إضافة إلى هذا يمكن أن نشير إلى عامل آخر بدأ يطبع رواد هذه المدارس كما صرح لنا به أغلب مستجوبينا من المدرسين في استطلاعاتنا لآرائهم حول عزيمة الطلبة وطول نفسهم فأمام تضاؤل أعداد الطلبة الذين ينهون دراساتهم نظرا لما تحتاجه هذه العلوم من تركيز وجهد ومثابرة لا يمكن إلا أن يضعف من حضورها ضمن المتون المدرسة الأخرى.

وفي الآونة الأخيرة عمل نظام الحماية على تضييق الخناق على هذه المدارس من خلال عرقلته لتلقين هذه العلوم وغيرها من العلوم الانسانية والاجتماعية في حين أبقى على تدريس العلوم الشرعية واللغوية.

ولعل ما أصبح يميز دراسة أمهات الكتب والدواوين بهذه المدارس كون الطلبة يعتمدون على متون مختزلة وملخصة لها سواء تعلق الأمر بكتب الفقه، النحو، التصريف، الحساب، الفلك أو التعديل ... وما يميز هذه الكتابات المختزلة الملخصة كونها أيضا أتت على شكل نظم وأشعار، وكثيرا ما أتى هذا النظم باللهجة الأمازيغية المحلية، وهذا ما أساء بجواهر أمهات الكتب والمصادر الأصلية. وهذه النزعة الاختزالية لم تشجع على تطوير البحث وروح النقد رغم أنها سمحت بتوسيع انتشارها، فنظم الفقه والحساب وعلم الفرائض وغيرها من العلوم يسهل تداوله وحفظه من لدن المتعلمين، كما أن تلقينه باللهجة المحلية ساعد على استقطاب الرأي العام الشعبي الذي لم يكن في عامته ليرقى إلى مستوى النخبة الخاصة المتعلمة. فكان إذن من السهل على الفقهاء والمحدثين والعلماء أن يعرضوا لمسائل الدين والدنيا مع عامة الناس من خلال اللهجة

المحلية ومن خلال التلخيصات التي غالبا ما أتت تحت أسماء عديدة : شرح كتاب كذا، مختصر كتاب كذا ... ويرى محمد حجي أن هذه النزعة الاختزالية مردها الجمود والركود الفكري الذي خيم على عصر الانحطاط الشيء الذي أدى إلى «ضيق مجال العمل أمام العلماء ... حيث أغلق باب الاجتهاد [32] وقصور همم المتعلمين وانصرافهم عن دراسة أمهات الكتب».

والحقيقة أن خلو الساحة الفكرية والثقافية من التيارات المتباينة والمتناقضة التي من شأنها أن تدفع إلى البحث والاجتهاد، أدى إلى الاستكانة والخمول والاقتصار على ما هو موجود بل الأدهى من ذلك تم اختصار واختزاله في مجموعة من المتون الجاهزة للحفظ والاستذكار، كما أن ابعاد الاجتهاد أدى إلى سيادة الحفظ للمتون النقلية على حساب نظيراتها العقلية من منطق، وكلام وفلسفة ... بل نادى العديد من الفقهاء إلى محاربتها لكونها تشجع على الاختلاف وتدعو إلى البدع، وامام هذه السيادة للمتون النقلية تراجعت العلوم العقلية والتجريبية لكونها أيضا لا تحتمل هذا الاختزال الذي يزيد من صعوبتها وتعذر استيعابها من لدن المتعلمين أكثر لما كان الأمر متعلقا بمصادرها الأصلية. وهذا ما أدى في نهاية المطاف إلى طغيان أسلوب الحفظ كأسلوب وحيد للتعامل مع هذه المتون.

ونقدم فيما يلي نموذجا لهذه المتون المدرسة حسب اختلاف طبقات الطلبة من المبتدئين المتوسطين أو المنتهين من خلال استطلاعاتنا لبعض المدارس بالاقليم.

1. **طبقة المبتدئين** : الجرومية في النحو، متن ابن عاشر في الفقه الزواوي في النحو، المجرادي في النحو، السملالية في الحساب، لامية الأفعال في التصريف، لامية العجم والوردة والبودة في الأدب.

2. **طبقة المتوسطين** : الرسالة لابن أبي زيد في الفقه، قطر الندى لابن هشام في النحو، الحديد في الحساب، المقنع في مبادئ علم الفلك الشمقمقية وابن دريد في الأدب، وألفية بن مالك بالمكودي في النحو، والتفسير بالبيضاوي، والورقات في الأصول.

---

32. محمد حجي : نفس المرجع ص 83.

3. **طبقة المنتهين** : ألفية بن مالك بالصبان والاشموني في النحو، السلم في المنطق وجمع الجامع في الأصول، والعروض بالخزرجية منية بن الفاربي في الحساب واللوغريتم في التوقيت، رسالة الماريدي في الربع المجيب، تقريب البعيد في تعديل القمر، والنخبة الأزهرية في تخطيط الكرة الأرضية والأطلس العالمي في الجغرافية.

ولعل ما يمكن استنتاجه من هذا المخطط للعلوم والفنون المدرسة هو سيادة العلوم الشرعية واللغوية على المضامين الملقنة وخاصة بالنسبة لطلبة الطبقتين الأولى والثانية ثم ارجاء تلقين بعض العلوم العقلية والتجريبية إلى المرحلة الثالثة أي النهائية، وما دام العدد الذي يكمل دراسته في هذه المرحلة يبقى جد محدود فإن الاستفادة ليست بذات أهمية. والملاحظة الثالثة هو غياب مجموعة من العلوم التي كانت تدرس في العهود السابقة كالطب، الهندسة، التصوف، التنجيم وعلم الجداول وعلم البحر والملاحة ... أما الملاحظة الرابعة فإن العلوم الأخرى التي تمت الاشارة إليها في المخطط السابق لاحظنا أنها لا زالت تدرس بوسائل وتقنيات بسيطة اعتمادا على كتب قديمة لا يمكن أن تستغرق التطور المذهل الذي لحق بهذه العلوم، ولعل ما يزيد من تفاقم الوضعية هو عجز المدرسين أنفسهم عن متابعة المستجدات العلمية في غياب اطلاعهم على لغة تمكنهم من الوقوف على نتائج البحوث العلمية في هذا الميدان المتطور.

الأساليب والطرائق المتبعة :

مما لاشك فيه أن الطالب يبقى حريصا قبل الاقبال على الكتابة أن يهيء ما يحتاجه لذلك سواء تعلق الأمر بالصمغ الذي يحضره من الصوف وإفرازات بعض الأشجار، أو تعلق الأمر بتحضير القلم الذي لن يتوان الفقيه في مراقبته. ثم يتحلق الطلبة على الفقيه فيملي عليهم ما يراه مناسبا لكل منهم حسب قدرته وطاقته وحسب درجة تحصيله ومستواه، وقد يبقى الزائر مشدوها عندما يعاين طريقة وأسلوب تعامل الفقيه مع جماعة غير منسجمة من حيث السن، والمؤهلات ومن ثم من حيث مضامين ما يملي عليهم ... فهذا يكتب كلمة ويشير له المدرس إلى رسمها، والآخر يملي عليه أية بأية ... والثالث يسائله عن بعض الشروح ... وإذا كان الفقيه حارصا أشد الحرص على معاقبة

أو معاتبة الطالب المنتهي اثر كل خطأ أو هفوة يرتكبها فإنه على العكس من ذلك قلما يتشدد مع الطالب المبتدئ، بل اننا نجده يعهد به إلى أحد الطلبة المنتهين لمراقبة وتتبع خطواته، وفي هذا التكليف اعداد لتحمل المسؤولية وتخفيف العبء الذي يحمله المدرس، ومن ناحية ثانية تشجيع لروح التعاون والعمل الجماعيين. ومما استرعى انتباهنا أيضا أثناء زياراتنا الاستطلاعية عدم خلو أية مدرسة من عريف أو مقدم يختاره المدرس من بين الطلبة المنتهين نتيجة توفره على مجموعة من الشروط كخصاله الحميدة، كبر سنه، جديته في العمل، أو لسعة علمه ومداركه لكي يتولى مراقبة باقي المتعلمين في غياب الفقيه أو مرضه. وهناك من المدارس التي يتم فيها تعيين أكثر من عريف حيث يتولى الواحد الاشراف على الطلبة المبتدئين والثاني على طبقة المتوسطين في حين يعهد إلى الثالث بتتبع أمور المنتهين.

ويمكن اعتبار هذا الأسلوب أيضا مشجعا للمبتدئ على التحصيل حتى لا يحس بالنفور والرغبة عن الدراسة لما ناله من عقاب أو توبيخ، ومع تقدمه في التحصيل وقطع أشواط الدراسة تبتدئ المحاسبة تدريجيا عن كل ما يصدر عنه من هفوة أو خطأ .ولا يتوانى الفقيه في إلحاق شتى أصناف العقاب به. ومما تجدر الاشارة إليه كون ألوان العقاب المعهودة سابقا خفت حدتها وانحسرت بشكل ملحوظ وأصبحت أساليب التأنيب والترهيب سائدة أكثر من أساليب العقاب والتعذيب نتيجة الحرية في تنقلات الطلبة من هذه المدرسة إلى تلك الشيء الذي أدى بدوره إلى تقلص مدة معاشرة المدرس وصحبته قبل الأخذ عنه والتمكن من عمله.

وقد شبه المختار السوسي أحد الفقهاء بإحدى المدارس بالأسد الضاري الذي لا يفتر في الضرب والرفس والكبل والرمي بالأحجار لطلبته حيث تلطخ ملابسهم بالدماء ولما رجاه أن يخفف عنهم ويرحمهم، رد عليه الفقيه المدرس ان أباءهم يلومونه وربما أنبوه إذا لم يلاحظوا على أجساد أبنائهم علامات التعذيب والاكراه، وعن عواقب ومخلفات هذا التعذيب ذكر الذكر الكبير الذي ينتاب بعضهم أثناء النوم والفزع الشديد يراوده من حين لآخر إلى درجة أن الكثير من الطلبة «يحصل له الفرح العظيم إذا قيل له مات معلمه» [33].

33. المختار السوسي المعسول ج 3 ص 318.

إن الملفت للنظر أن تعليم القراءة والكتابة ومختلف الفنون والعلوم بالمدرسة العلمية العتيقة يقوم على مجموعة من الأسس المعرفية والادراكية. فالمدرس لا يدخر جهدا في الاستعانة ببعض الحكم، الأمثال، القصص أو الأشكال لتقريب المعنى من أذهان التلاميذ، وتشبه هذه الطريقة إلى حد كبير ما كان يعمد إليه الفقيه في الكتاب أثناء تعليم القراءة من تشبيه الحروف الملقنة للناشئ بأشياء ملموسة وأشكال هندسية مألوفة في بيئته المحلية لتعزيز إدراكه لها، كما أن لجوءه إلى بعض آيات التنكيت أو التنكيل أو التجريح يكون الهدف منه دفع التلميذ إلى الاقلاع عن عادة سيئة وتنفيره منها. ومن أنواع التشبيه المعتادة في تعليم الحروف الهجائية نذكر على سبيل المثال ن نون اعرقن ـه : هي ابدن، ـعـ : عين تغروط، ع : عين امي ا وشن ...

ويمكن ان نستنتج بناء على ما سبق ان أهمية المدرس المعرفية تجعل من عملية التعليم والتعلم ذات اتجاه واحد بل أكثر من ذلك لأن الفقيه المدرس قلما يثير اشكلات مع تلامذته أو يطالبهم بحلها والبحث عن مختلف الدوايات والشروح بين عدد من الفقهاء أو النحاة أو الأدباء والشراح ... وهذا هذه المتون الملقنة لم يختلف في شرحها وفهمها أحد، فيكون المتعلم مقتصرا فى ما أخذه من مدرسه ولا يتجاوزه إلا فيما ندر، كما أن أسلوب الحفظ المعتمد في الغالب يحد من إمكانيات الطالب ويشلها ويجعل منه متلقيا سلبيا أكثر منه محاورا ديناميا. وفي معرض حديثه عن الطرائق السائدة في جامع القرويين في عهد السعديين ذكر محمد حجي أربعة أصناف [34].

1. طريقة حل المتن ـ 2 ـ طريقة حل المسائل ـ 3 ـ طريقة المحاضرة 4 ـ طريقة المناظرة.

وإذا انتشرت الطريقة الأولى وعمت مختلف المجالس فيما بعد فلكونها سهلة وبسيطة تتدرج من السهل إلى الصعب وتعتمد المعارف السابقة لبلوغ اللاحقة وذلك على عكس الثانية التي تفترض الماما واسعا لدى المتعلم يجعله قادرا على البحث من خلال إثارة صعوبات ومشاكل تحتاج إلى حلول ملائمة، كما أنها تستحضر في الدرس الواحد عدة معارف تتعلق بعلوم وفنون أخرى.

---

34. محمد حجي : نفس المرجع ص 94.

أما الطريقة الثالثة فهي أقرب إلى الأولى لكونها تعطي مركز الصدارة لما حضره المدرس وما اعتبره مفيدا بالنسبة للمتعلمين. وهذا التحضير يجنب المدرس متاهات الخروج عن الاطار المرسوم أو الدخول في نقاش وخلاف حول المبنى أو المعنى للمتن، في حين تقترب الطريقة الرابعة من الثانية أو هي بالأحرى شكل منظور لها، قد لا تناسب متوسطي الفهم والتحصيل لكونها تتوجه إلى النجباء والمنتهين من الطلبة الذين لهم القدرة على الانتقال من علم لآخر ومن فن لآخر دون صعوبة وفي هذا متعة للمتناظرين الذين يتوجب حصولهم على معرفة واسعة ودقيقة إذ كلما احتدم النقاش والجدل كانوا في حاجة إلى تعميق المعرفة وتدقيق لها سواء للدفاع عما يقوله أو لاقناع الآخر قصد العدول عن أفكاره.

إن ما يطبع إذن مجالس التعليم بالمدرسة العلمية العتيقة هو كون المدرس يحصر المتن أو الشرح على فئة من المتعلمين سواء أكانت مبتدئة، متوسطة أو منتهية، إذ أنه يملي على هذه الفئة ما يراه مناسبا من المتن، فيتولى بعد ذلك شرحه لفظا ومعنى مع إيراد بعض الشواهد للشارح أو الشراح ثم «تذهب كل طائفة إلى مجلسها عند المطالعة ... وينقسم الجميع إلى أكثر من عشرين فرقة بحسب مطالعة الأنصبة ... ففريق الرسالة مثلا مع مثيله وأصحاب ابن عاشر والأجرومية والألفية متضامون إلى بعضهم، وكل واحد مع إخوانه لا يطالع إلا مع قرنائه ولا يدخل مع غيره» [35].

أسلـوب الحفـظ :

لقد شكل الحفظ والحفظ عن ظهر قلب الأسلوب الوحيد في التعامل مع المتون ثم بعد الحفظ يأتي المعني والفهم، فكثيرا ما سهل على المتعلم ترديد نصوص منثورة أو منظومة دون فهم مغزاها وأبعاد دلالاتها سواء تعلق الأمر بالمبتدى الذي يحفظ متن «ابن عاشر» قبل أن يقوى على فهمه أو يقدر على حل مسائل فقهية أو بالنسبة للمتوسط الذي يحفظ بعضا من «المقنع في الفلك» أو بالنسبة للمنتهي الذي يحفظ بعضا من «السُّلم» في المنطق ... فمن لم يستحضر عندهم النص في مساءلة ما لا يلتفت إلى كلامه ؛ ولا يُحسب عندهم من طلبة العلم إلا من يأتي بالنص في كل مساءلة يتكلم فيها

35. المختار السوسي، المعسول ج 3 ص 309.

من حفظه كما يحفظ الآية من القران وإن كان على غير هذه الصفة يقولون في حقه «من لم يحفظ النص فهو لص» (36).

وقد لاحظنا أثناء دراستنا الاستطلاعية أن معظم المدرسين إن لم نقل كلهم ألحوا على أهمية شحد ذاكرة المتعلم منذ الصبا بتعويده وتدريبه على الحفظ، لأن الحفظ يقوي لديه ملكة التذكر، ومن الأقوال المأثورة في هذا الباب «اِحفظ يأتيك المعنى» الحفظ في الصغر كالنقش على الحجر.

وفي معرض انتقاده للأسلوب المتبع في تعليم العلوم الشرعية يعتبر هودسون HODGSON، أن التربية ماضيا وحاضرا هي تلقين أقوال وقواعد ثابتة للتذكر يمكن تعلمها دون أدنى تفكير، وان القولة اما ان تكون صحيحة أو خاطئة، ومجموع الأقوال الصحيحة هو ما يشكل المعرفة ... والتربية بهذا المعنى هي حشو أكثر ما يمكن من هذه الأقوال وفي أسلم صورة ممكنة» (37).

ومما لا شك فيه أيضا أن المتعلم كان ولا يزال يكد ويجتهد طوال النهار وأطراف الليل في حفظ النصوص المختصرة أو الشاوحة، وكان عمل المدرس هو تبسيط ما شكل على المتعلم وتذليل ما صعُب عليه من خلال الشرح والتعليق والمقارنة والوصف ولا يدخر جهدا في تقريبا المعنى لما يلجأ إليه من استحضار لبعض القصص أو الحكي المستظرف، وكل مُدرس يعلم ان حفظ النصوص وتدقيق المعاني وتوسيع المدارك لا يأتي دفعة واحدة، ففي البداية يكون الالمام بالمغزى الكلي للمتن تعقبه مرحلة وسيطة تمهد إلى مرحلة نهائية يتمكن فيها المتعلم من بلوغ اقاصي الفهم والمعرفة وحل المسائل المستعصية في ضروب العلوم والفنون. وهذا ما أشار إليه بن خلدون «في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته» «اعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا إذا كان على التدريج ... يلقي عليه أولا مسائل من كل باب هي أصول ذلك الباب ... ثم يرجع به إلى الفن ثانية ويستوفي الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ... ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عويصا ولا مهما ولا مغلقا إلا وضحه (38). وهذه

36. علي بن ميمون : الرسالة المجازة في أحكام الإجازة. عبد القادر العافية (89) التعليم بالقرويين من خلال وصف بن ميمون الدراسات النفسية والتربوية العدد التاسع 155 – 162.

37. HOGDSON, M.G.S. The venture of Islam vol 2 Uni. chicago ترجمة أحمد بنعمو وسعيد بُحَير. الدراسات النفسية والتربوية العدد السابع فبراير 87 – 29 – 36.

38. عبد الرحمان بن خلدون (67) المقدمة، دار الكتاب اللبناني بيروت ط 3 ص 1038.

الخطوات الثلاث التي تخص كل متن أو علم يلقن بهذه المدارس نجدها مكبرة : ويتعلق الأمر بمستويات المتعلمين أنفسهم ومعيار انتسابهم لهذه الطبقة أو تلك فهناك طبقة المبتدئين المتوسطين ثم المنتهين، وقد تستغرق جميعها حوالي عشرين سنة ولو أنها غير محددة بزمن ما دام المعيار هو هِمَّة الطالب ومثابرته في الدراسة والتحصيل، وفي رد أحد الفقهاء المدرسين على سائل يسأله عن كيفية الحفظ والاستذكار يقول : «فقد ساءلتني عما يفتح الفكرة حتى تحتسي المعاني الدقيقة ... فاعلم أنني ما انتفعت في تشحيد الذهن بمثل الاستمرار على كُتُب الأدب ... وكان شيخنا الهوزيوي يقول احفظوا أحسن ما يعجبكم ... فما مررت ببيت استحسنه إلا حفظته حفظا جيدا، فاكرره حتى يرسخ ... فكثيرا ما أنسى بيتا سنين، ولا يخطر لي في بال حتى أقع على معناه في بيت آخر أو في جملة ... ولكن لا يكون كذلك إلا إذا كان عذب اللفظ رائق المعنى [39].

تنقــلات الطلبــة :

مما لا شك فيه ان تعلم العلوم ومختلف الفنون لا يتأتى عن ملازمة شيخ أو مدرس واحد بل من خلال معاشرة عدد منهم والتردد على عدد من المجالس ؛ إلا أن ما يطبع تنقلات طلبة المدارس في الآونة الأخيرة هو مغادرة الدارسة قبل اكتمال تعليمهم وامتلاك ناصية العلم وقد لاحظنا أن الطلبة ينقطعون عن ملازمة مدرسهم لضرورة العمل أو الهجرة إلى الخارج أو امتهان التجارة. وقد أورد المختار السوسي تصريح أحد الشيوخ لحفيده يوصيه «ولئن فاتك أن تكون أحد الفقهاء، فان فقهاء اليوم قد يكون الخير في أن لا يكون الانسان منهم وسندعو ان تتيسر لك التجارة وأن تحج [40] وبذلك تقلص إن لم نقل اندثرت عادة «الصُّحبة» التي لازمت الفقهاء والمتصوفين حيث كان الطالب والمُريد يُلازم مدرسه وشيخه ويرتحل معه أينما ولى وجهه، وهناك من رافق شيخه إلى الحج «فإن أراد الله الانسان للخير شغله بتحصيل العلوم الشرعية في وقت غَفلته يجدها درعا واقية» [41]، لم يبق اذن اثر لتلك العادات السالفة

39. المختار السوسي، المعسول ج 6 ص 68.
40. المختار السوسي المرجع السابق ص 154.
41. المختار السوسي : الترياق المداوي ص 7.

في طلب العلم والاستزادة منه كما كان الأمر مثلا في العهد السعدي حيث يصطحب بعض الطلبة مدرسهم الذي يشد الرحال إلى مكان آخر غير المكان الذي عهد التدريس به، وعلى العكس من ذلك أصبح المدرس مقيما ليرتحل الطلبة إليه طلبا للعلم ورغبة في الاستزادة وهذا ما يعرف لدى الطلبة بظاهرة «التخنيشة» كأن يجمع متاعه في كيس أو خنشة ثم يشد الرحال إلى الوجهة التي تروقه، وكثيرا ما كان استقرار الطلبة بالمدارس في الآونة الأخيرة رهينا ليس فقط بسمعة المدرس وكفاءته أو حسن معاملته لطلبته بل أيضا رهينا بتوفر السكن وشروط العيش وما يتلقاه من منح وهبات من لدن المحسنين أو ما يحظى به من عطاء عند استضافته من لدن أفراد القبيلة في السلكة مثلا وهي بمثابة حفل ديني صغير أو كبير يقام بمناسبة عيد ديني أو زيارة موسم ولي صالح أو بمبادرة فردية ... حيث يُتلي القرآن الكريم والدعوات وتوزع الصدقات ... فقد يأتي أحد الأفراد ويستشير الفقيه في الإذن لبعض طلبته لحضور حفل أو وليمة فيكرمهم ويتصدق عليهم بما ملكت يداه. ولما كانت مثل هذه المناسبات فرصا مرغوب فيها من لدن الطلبة ويتهافتون عليها فهناك من المدارس التي نظمت شكل المشاركة بالتناوب حتى يتسنى للجميع الاستفادة، ثم إلى جانب هذا هناك بعض المواسم التي يُستدعي إليها طلبة المدارس لوحدهم دون غيرهم من المتصوفة والاتباع عندما يقصدون بعض الزوايا والأضرحة فيتلون القرآن ويتضرعون بالدعاء الصالح حيث يعتني بهم أهالي القبيلة أو الدوار أو الجماعة التي تشرف على الضريح.

الختـــم والاجـــازة :

ويعني الختم أو الختمة الانتهاء من دراسة كتاب أو متن أو مصدر خاص بأمهات الكتب في الفقه، التفسير، الحديث ... وغالبا ما اقترن الختم أو الختمة بقراءة إضافية لترجمة صاحب الكتاب أو المصدر وذكر آثاره وأسانيده وما حصل عليه من إجازات من لدن فقهاء وأساتذة أجلاء.

وقد كان الطالب كلما أنهى دراسته وتحصيله على يد مدرسه أن يطلب منه إجازته في العلوم التي أخذها عنه بطريقة معتادة بين الفقهاء والعلماء سواء تعلق الأمر بعلوم قرآنية، حديثية، صوفية أو فرعية أو غيرها وقد اصطلح الناس على الاجازة «لأن أهلية الشخص لا يعلمها غالبا من يريد الأخذ عنه من

المبتدئين ونحوهم لقصور مقامهم عن ذلك، والبحث عن الأهلية قبل الأخذ شرط، فجعلت الاجازة كالشهادة من الشيخ للمجاز بالأهلية» [42].

بعد انتهاء الفترة المعلومة من مزاولة الطالب لمُدرسه وبعد تأكد هذا الأخير من تحصيل الطالب لعلمه ومروياته يجيز له أن يروي عنه ؛ ومن خلال رصدنا لمجموعة من الوثائق والمخطوطات لاحظنا أن هناك أنواعا من الاجازة : فمنها ما يتم شفويا يأذن من خلالها المُدرس لطالبه بأن يروي عنه ما تلقاه على يديه، ومنها ما يتم كتابيا حيث يمنحُ الطالب إجازة يشهد فيها مُدرسه بكفاءته ومؤهلاته في المعرفة التي لقنها إياه أو التي تلقاها عن مشايخه الأحياء منهم والأموات ... ثم هناك من الاجازة التي تتم كتابة عن طريق التراسل. كتب عبد الرحمان الجزولي صاحب الفوائد إلى شيخه أحمد الصنهاجي يقول «لما فاتني لقاؤه والأخذ عنه مشافهة كتبت إليه ... الفقير عبد الرحمان يطلب منكم لِلَّه أن تجيز له أن يروي أسانيدك في الحديث ... فكتب إلي بخط ولده لعجزه عن الكتابة لفرط هرمه ... فقد أجزت لك أن تروي عني جميع ما يجوز لي متلفظا بها بشروطه المعتبرة عند أهلها» [43].

آفـاق العمـل :

لم يكن ليواجه الطالب المجاز في العهد السابق أدنى صُعوبة في إيجاد عمل يكون بمثابة مصدر عيشه، فعلى الرغم من أن طلب العلم وتحصيل العلوم لم يكن الهدف منهما الحصول على وظيف ولكن في السابق لم يكن ليتورع احد لصد هذا المتخرج الذي أنهى دراسته، فآفاق التدريس بالمدرسة أو المشارطة مع إحدى القبائل يتولى فيها الإمامة أو مزاولة القضاء ... كلها كانت مفتوحة ومتيسرة له، وكانت الاجراءات جد مبسطة حيث يتولى مُدرسه أو أحد أساتذته الذين أخذ عنهم إرسال طلب معه إلى الشيخ أو إلى أحد القضاة المخزنيين ليتولى منصبا شاغرا، فشوكة العلماء شديدة البأس وقوية التأثير في من حولها، «وإذا أراد الخروج إلى بعض المدارس يكتب له الشيخ إلى أرباب المدرسة مثلا من شيوخ أو نفاليس فيذهب إليها فلا يصده صا» [44].

42. المختار السوسي المعسول ج 6 ص 243.

43. محمد بن أحمد الحضيكي : المناقب ج 1 المطبعة العربية البيضاء 1355 هـ ص. 43.

44. المختار السوسي المعسول ج 3 ص 310.

أما في الآونة الأخيرة فإن فرص الالتحاق مثلا بالقضاء أصبحت منعدمة وبقيت آفاق العمل بالنسبة لخريجي هذه المدارس منحصرة في التدريس رغم أنها جد قليلة نتيجة انقطاع كل مدرس إلى المُكوث بمدرسته، وتزداد هذه الفرص بازدياد الإقبال على إعادة بناء بعض المدارس المُهدمة أو المهجورة من طرف بعض المُحسنين إلا أن فرص مزاولة مهمة فقيه أو إمام بمساجد القبيلة تبقى المنفذ الوحيد والمهم نتيجة تزايد تنقلات الأئمة والفقهاء بفعل النزاعات والاختلافات التي تحتدم بين أفراد القبيلة حول هذا الفقيه أو ذاك وحول الشروط التي تضعها القبيلة أو حول الشكوك التي تحوم عليه. فمما استرعى انتباهنا أثناء رصدنا لعدد المدارس العلمية العتيقة بالاقليم ـ تزنيت ـ وتاريخ تعيين أو انتداب المُدرسين إليها لاحظنا طول المدة التي استغرقها مُعظمهم في التدريس بنفس المدرسة وهذا ما يؤكد الرأي الذي ذهبنا إليه من كون مهنة التدريس لدى البعض يمكن أن تكون مصدر لثراء وعيش رغيد (انظر الجداول المرافقة).

بطاقة تقنية عن المدارس العلمية العتيقة بالاقليم :

يبلغ عدد المدارس العلمية العتيقة بإقليم تزنيت 79 مدرسة موزعة على مختلف الدوائر والجماعات، ومنها ما شيد منذ عهود قديمة كمدرسة سيدي وكاك بجماعة اثنين اكلو التي يرجع تاريخها إلى القرن الخامس الهجري التي أسسها وكاك بن زلو بعد تخرجه على يد أبي عمران الفاسي كما تخرج منها عبد الله بن ياسين [45] ثم مدرسة سيدي بوعبد الله التي تأسست في منتصف القرن السابع الهجري ... وهناك في المقابل ما تأسس في السنين الأخيرة أواسط الثمانينات. وتأوى هذه المدارس حسب الاحصائيات الرسمية حوالي ألفين طالب موزعين على خمس دوائر (ارجع إلى الجداول المرفقة) تزنيت 143، تافراوت 203، انزي 595 الاخصاص 174، ايفني 812، وتزيد نسبة الوافدين على المدارس بالمقارنة مع أعداد المحليين وهذا ما يفسر غروف عن متابعة الدراسة التي توجد بقريته، إذ تبلغ النسبة العامة لأعداد الوافدين 54،07. ويتوزع هؤلاء الطلبة على 1052 غرفة بمعدل طالبين لكل غرفة تقريبا اما نسبة توزيعهم على المدارس فيبلغ متوسط أعداد الطلبة حوالي 24 طالب لكل مدرسة.

45. أبو الوفا علي التجاجتي (91) ماثر السلف في مفاخر الخلف منشورات جمعية ايليغ ص 12.

ومما لا شك فيه اذن أن عدد المدارس قد تقلص حاليا بالمقارنة مع ما كان عليه بالأمس. فقد لاحظ المختار السوسي في كتابه «سوس العالمة» ان النهضة العلمية العجيبة التي حدثت في القرن التاسع والعاشر الهجريين ادت إلى كثرة التأليف وتداول الفنون، كما شاع التدريس في مختلف بقاع سوس. ومن الآثار التي خلفتها هذه النهضة العلمية مشاركة الفقهاء والعلماء في الحياة السياسية فقويت شوكتهم واشتد نفوذهم على مراكز السلطة السياسية. وقد فاق عدد المدارس آنذاك ثلاث مائة مدرسة تخرج منها عدد هائل ممن حمل لواء نشر العلم بين الأجيال التي لحقت، فاشتهرت بعض الأسر بعلمها واجتهدت في تخليد مآثرها سواء من خلال ما شيدته من مدارس أو ما حفظته من نفائس في خزاناتها التي لا زالت تزخر بالمخطوطات النادرة التي تنتظر من ينفض عنها الغبار ويفجر ينابيع مكنوناتها حتى لا يبلغ منا التشاؤم والأسى ما قاله أبو زيد الجشتيمي في هذه المدارس العلمية بعد أن تقلص نفوذها وانحسر أفقها في سوس :

خلت قبائلها من كل ذي أدب	**وكل حبر فصار العرب كالخرب**
فادبر العلم وانهدت صوامعه	**في سوسنا فاستطال الجهل بالغلب**
تدارك الله سوس ومدارسها	**بنعمة وجميل اللطف والقرب**

تأملات في لوح تيزنيت

أحمد إد لفقيه
كلية الشريعة
آيت ملول.

إن حاجة الإنسان إلى قانون ـــ أي قانون كيفما كان نوعه وطبيعته ومصدره ـــ يحمي حقه في الحياة ويصون عرضه وماله من كل اعتداء يضربه، لا تقل أهمية عن حاجته إلى الماء والهواء والقوت.

ومرد حاجة الانسان إلى قانون يحتمي بظلاله أنه كائن اجتماعي تحتم عليه سنة الحياة وفطرة آدميته أن لا يعيش إلا بالجماعة ومع الجماعة، لعجزه بمفرده عن مواجهة متطلبات العيش والتصدي لمشكلات الحياة، وسبحان الواحد الأوحد الذي من صفاته وحده جل علاه: الغني المطلق.

ولتلك العلة الحتمية فإن القانون كان منذ الأزل وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ظاهرة اجتماعية لا مندوحة عنها لكل الأفراد والجماعات مهما قل عدد اعضائها، وكيفما كانت عقيدتهم وإيديولوجيتهم وفلسفتهم في الحياة، وذلك ما يفسر ما توصل إليه علماء الاجتماع والقانون من أن وجود القانون قديم قدم وجود الانسان على وجه الأرض، وبسيط في بدايته بساطة الانسان البدائي.

وبما أن القواعد القانونية قواعد سلوك، مجردة وعامة، واجتماعية، فإنها بناء على تلك الخصائص تتطور دوما بتطور مجالها المكاني والزماني والانساني، وتتغير دوما بتغير القيم الاجتماعية التي تندمج فيها وتحملها، ولا يشذ القانون المغربي قديما وحديثا في هذه الخصائص من قوانين البلدان الأخرى.

فمنذ عهود ما قبل التاريخ استطاع الانسان المغربي التعايش والتعامل مع الأقوام التي تعاقب نفوذها على المغرب كالفينيقيين والقرطاجيين والبزنطيين

والرومان وفق الأعراف والتقاليد الجاري بها العمل في حقل المعاملات التجارية بالمقايضة، في إطار الأحوال الشخصية والعينية.

وبعد الفتح الاسلامي للمغرب في منتصف القرن الأول للهجرة ظل المغاربة أوفياء لأحكام الشريعة الاسلامية التي يتولى الحكم بها وفض المنازعات على ضوئها القضاة الشرعيون في بوادي المغرب وحواضره.

وقد استمرت الوضعية على ذلك الحال إلى أن أصبح نفوذ (المخزن) عاجزا أو في حالة شبه عجز / بسبب ظروف سياسية وآقتصادية وآجتماعية مرت بالبلاد / من الامتداد إلى بعض الأصقاع النائية عامة والجبلية بصفة خاصة ــ ومنها منطقة تيزنيت وباديتها ــ فآنحسر ظل السلطان عنها أو كاد فلم ينتظم فيها القضاء الرسمي إلا في نقط معدودة وفي فترات محدودة فآنتشرت الفوضى وعمت الفتن، فكان من الطبيعي أن لا تقف القبائل مكتوفة الأيدي أمام الأخطار التي تهدد أفرادها في حياتهم وأموالهم وأعراضهم، وهي لا تملك الشرطة أو العسس الرسمي ولا قوات الجيش التي يعول عليها في إخماد فتيل الفتن، بل دفعتها الضرورة والحاجة إلى شن نظام مزدوج لاستتباب الأمن وآنصاف المظلومين وردع المعتدين، ويتجلى ذلك النظام فيما يلي:

أ ــ نظام التحكيم أي احتكام المتخاصمين برضاهما إلى أحد علماء القبيلة وفقهائها، ويكون ذلك في مسائل الأحوال الشخصية من زواج وطلاق وعدة ورضاع وحضانة ... الخ، وفي الوصايا والمواريث والهبات، وفي المنازعات العقارية عامة التي تخضع لأحكام الشريعة الاسلامية ويقوم هذا النظام على تعدد درجات التقاضي.

ب ــ نظام الحكم الجماعي أو القضاء الشعبي وهو نظام يعتمد الاحتكام إلى عرفاء أو أ عيان القبيلة المعروفين ب (انفلاس) في منطقة تزنيت و (آيت أربعين) في مناطق أخرى كما في ادارتنان ونواحيها، وليس من الصواب في شيء ما يشاع من أن هذه الظاهرة خاصة بحزولة أو منطقة سوس عامة بل هي معروفة في مناطق أخرى من المغرب مثل فكيك حيث تسود ظاهرة قانون (قانون القصر) برئاسة الأعيان والعرفاء ومثل نظام القصبات في نواحي أخرى كقبائل قصور وادي دواحيت يعرف (إنرزاف) وخاصة في حقل تنظيم وتوزيع المياه.

والمجال الموضوعي لهذا النظام، أو ما يمكن التعبير عنه بآختصاصه النوعي، يشمل ما يدخل في الأنظمة المعاصرة في سياسة التجريم والعقاب أي ما يدخل في نطاق القانون الجنائي بصفة عامة. وأحكام هذا النظام الأخير أعني نظام انفلاس لا معقب عليها. وليس من المستبعد أن تكون الرغبة في تجنب طغيان سلطة العرفاء (اينفلاس) والحد من تعسفاتهم من جهة، واتاحة الفرصة لكافة الناس للعلم مسبق بالأفعال المحظورة وبالجزاء المترتب عليها من جهة ثانية هي التي تكمن خلف تدوين الأعراف المعمول بها في لوح القبيلة الذي يجسد قانونها.

ومهما كانت الانتقادات التي توجه إلى تلك الألواح ــ وخاصة من طرف بعض الفقهاء والمفتين ــ فإنه كما سطر الأستاذ المرحوم سيدي امحمد العثماني : (ليس في الامكان ابدع مما كان في تلك المناطق النائية عن مركز السلطة، وأهل جزولة لا يأبون أن يكون لديهم قضاة رسميون وعمال ديموقراطيون، لكن السلطة المركزية في كثير من العصور أشغل عنهم من ذات النحيين). ص 6.7.

ودون الدخول في دراسة تفصيلية للألواح لأن ذلك يتطلب إسهابا واستفاضة مما لا يتسع له مجال هذا العرض .
فإني سأعمد إلى دراسة تحليلية موجزة للوح تيزنيت الذي لا يخرج عن القواعد العامة التي تخضع لها في الغالب الأعم كل الألواح ببلاد المصامدة أو بمنطقة جزولة شكلا ومضمونا لا في وضعه ولا في محتواه ومضمونه.

وسأعالج هذا اللوح بكثير من الايجاز من خلال الفقرات الاتية :
أولا : الكيفية التي وضع بها اللوح.
ثانيا : المجال الزماني للوح.
ثالثا : النطاق الترابي أو المكاني لأحكام اللوح.
رابعا : نماذج من الأفعال المشينة المحظورة وعقوباتها في اللوح نفسه.

أولا : الكيفية التي وضع بها اللــوح :

يفهم من اللوح نفسه بدأ بفدلكته أو استهلاله وانتهاء بخاتمته، بعد

حصر موضوعه، أنه وضع من طرف (اينفلاس) القبائل مجتمعين وعلى رأسهم مقدمهم وقد وردت في اللوح أسماء الممثلين لكل المداشر التي تتكون منها قبيلة نزنيت، والتي سنبينها بعد حين.

ويستنتج من التعابير المستعملة في طليعة اللوح وفي خاتمته أنه محل آتفاق بين (النفاليس) الذين سهروا على اعداده، والأمر الذي يشكل قرينة على أنه كان ثمرة نقاش وأخذ ورد بينهم إلى أن ثم اتفاقهم عليه بصيغته التي دون بها.

ويقوي هذا الاستنتاج ما ورد في مفتتح اللوح بعد الحمدلة والتصلية والحوملة :(اتفقت قبيلتنا، آل تزنيت أعني جميع نفاليسهم ومقدمهم وهو الطالب الأبر... ومن معه).

ثم تكرر نفس اللفظ في خاتمة الديباجة أو الاستهلال مباشرة قبل الدخول في صلب موضوع اللوح (اتفقوا على جميع مصالح بلدتهم تزنيت المذكورة، وجميع أحوازها المذكورة، أن من اتهم منها بالسرقة...).

وبنفس التعبير سالف الذكر ختم اللوح :(وهذا ما آتفقت عليه القبيلة...).

ويبدو واضحا أن ما اتفق عليه ممثلو القبيلة، (أي اينفلاس) يكون محل الرضا والقبول من طرف كافة طلبتها وأعيانها وعامتها، بدليل ما ورد في خاتمة اللوح هكذا : (وهذا ما اتفقت عليه القبيلة كافة طلبتهم وأعيانهم وعامتهم وغيرهم من أهل الصلاح والفلاح).

وأغلب الظن أن اينفلاس يعينون أو يختارون من بين أهل الحل والعقد من الاعيان ومن عامة الناس، ويبدو أن الرغبة في إعطاء المصداقية لمضمون اللوح، هي التي تدفع ولا شك إلى توثيقه وتحريره وتدوين بنوده من طرف فقيه القبيلة، أو أحد طلبتها، ويعطف معه بما يشبه الخطاب عليه فقهاء آخرون وطلبة ومرابطون فضلاء ممن يحظون بالاحترام والتوفير في القبيلة.

ثانيا : المجال الزمني للوح :

يبدو أن ظاهرة التشريع بالألواح قديمة نسبيا، ببلاد المصامدة (منطقة سوس أو جزولة) وأقدم لوح عثر عليه حسب الدراسة القيمة التي قام بها الأستاذ السيد محمد العثماني ــ رحمه الله ــ هو لوح حصن أكادير أو جاريف الدي يرجع تاريخه إلى 904هـ موافق 1498م.

أما لوح أهل نزنيت والعوينة الموجودة نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط فيرجع إلى تاريخ 1277هـ وقد اعتمدت في هذا العرض على نسخة منقولة عام 1327هـ ويبدو أن هذا اللوح قد سبقته في المنطقة ألواح لقبائل مجاورة مثل لوح قبيلة آيت برابيم المدون 1245هـ ولوح قبيلة بني جزولة بنواحي أنزي المحرر في 1261هـ ، ولوح قبيلة مجاطة وجيرانهم المكتوب في عام 1263هـ، ولوح ماسة الموضوع بداية من 1266هـ. وجاء في الفترة التالية للوح نزنيت لوح قبيلة أهل المعدر المؤسس بداية من 1299هـ.

ويستنتج من مضمون اللوح الذي نحن بصدده أن مقتضياته تسري على المستقبل بداية من تاريخه، ولا تطبق بأثر رجعي بدليل ما ورد في النص على سبيل المثال لا الحصر : (.. وكذلك من قبض ماء المصرف الذي لم يكن في العين أصلا، فكل من قبضهم أو رهنهم بعد يومنا هذا، فعليه مائة مثقال إنصافا....)، وفي مكان آخر ورد : (وأما من تبع (مزواكه) وقتله قبل تاريخ هذا، ليس عليه هذا الانصراف المذكور، وإنما انصافه انصاف الذي كان قبل هذا التاريخ وهو أربعون ريالة)، و(المزوال) هو من أهدر دمه بسبب جريمة أو هو المنفي.

وفي مقابل عدم قابلية مقتضيات اللوح للتطبيق بأثر رجعي فإن الظاهر أن اللوح يلغي بعض الأحكام العرفية المخالفة السائدة في القبيلة من قبل، وكذلك اعراف القبائل الأخرى المخالفة ويستفاد ما ذكر مما ورد في اللوح :(... ان ادعى بعرف البلد، غير بلادنا لا عمل ولا عبرة بدعواه، انما العمل على ماكتبنا بهذا القرطاس).

ثالثا : النطاق الترابي أو المكاني لأحكام اللوح :

يتحدد النطاق المكاني لسريان أحكام اللوح موضوع العرض بما ثم التعبير عنه فيه بقبيلة لك تيزنيت مرة، وببلدة تيزنيت وأحوازها المحددة فيه مرة ثانية، وبالقبيلة (مجردة) مرة ثالثة.

وإذا أردنا التدقيق في الأماكن الواردة بالتحديد في اللوح والتي تتألف منها قبيلة تيزنيت وتشكل مجالا لسريان أحكامه فسنجد أنها تتكون من المداشر التي شارك ممثلوها (أو انفلاسها) في إعداد اللوح وهي الآتية :

بنو وكف (إداكفا)

بنو طلحة (إضلحة)

بنو امحمد (آيت امحمد)

بنو زكرياء (إدريري)، وهذه عبارة عن الاحياء العتيقة والأصلية المعروفة بتزنيت، وكلها تقع داخل سور المدينة الحسني، ولكل حي منها جامعه الصغير (تمزكيدا) يعرف بآسمه، وإمام خاص به يقوم بالامامة وتعليم القرآن للصغار وذلك بجانب جامع المدينة الكبير الوحيد بها إلى حدود ما بعد السبعينات.

ويضاف إلى الاحياء الأربعة المذكورة المداشر القريبة منها وهي:

آل تحت الساقية. (دو تركا)

آل اتبـــان (أتبان)

آل تضـــوارت (تضوارت)

بنـــو العوينـــة.(العوينة)

ومن الواضح انطلاقا مما هو منصوص عليه في صلب اللوح أن أحكامه وبنوده تطبق تطبيقا إقليميا بحيث أنه لا يطبق أي عرف من أعراف القبائل الأخرى المخالفة لما هو وارد فيه : (ولا إن آدعى بعرف البلد أو غير عرف بلادنا لا عبرة ولا عمل بدعواه، إنما العمل على ما كتبنا في هذا القرطاس).

رابعا :نماذج من الأفعال المحظورة باللوح وعقمانها :

إن اللوح في حقيقة الأمر الواقع ما هو إلا زمام لجملة أعمال مشينة في نظر أفراد القبيلة، مضرة بالمصالح العامة والخاصة، اقتضت ضرورات الأمن والسلم الاجتماعي ان تجرم وتعاقب وقاية للجماعة من جهة، وردها للجناة من جهة ثانية.

وإن تحليل بنود اللوح يوضح أن الأفعال المشينة والمعاقبة تكاد تستغرق كل التصرفات التي تضر بالأنفس والأموال والثمرات، وتهدد السكينة والأمن، وتقود إلى الفتنة والفساد، ومن أهم تلك الأفعال ــ على سبيل المثال لا الحصر ما يلي حسب تعبير اللوح :

1. السرقة صغيرة كانت أم كبيرة، وكل الأفعال والمهاملات الفاضحات القبيحات في الديور والجنانات الساقية والفدادين وجواميزهم.

2. خيانة القبيلة أو الخيانة العظمى المعبر عنها في اللوح ب : (من باع القبيلة لعدوهم إذا خرجوا للغيرة اليه).

3. الفساد وشبهاته كاللاختلاء بامرأة معروفة بالفساد.

4. الرشوة ويعاقب الراشي والمرتشي أو بحسب تعبير اللوح العاطي والقابض.

5. سرقة العبيد وتهريبهم.

6. الغدر.

7. قذف مقدم القبيلة والمشاجرة معه وقتله.

8. قلع وقطع الدغموس والهرجان(وتللت) وغيرها كالبشنة وثمار وبلح النخيل.

9. قذف المرأة الرجــــل.

10. آفتتان ومشاجرة النسوة بينهن وجرح بعضهن البعض.

11. سرقة البهائم (البقر والحمير والشياه).

12. الجرح بالرصاص والهنت (الخنجر أو الكمية).

13. قتل الأخ أو الأب أو غيرهما من أهل قبيلة تيزنيت.

14. الفتنة (المشاجرة) بين أهل القبيلة والغير والتي ينجم عنها القتل.

15. التربص والترصد للاشخاص المسبوق باتفاق بين شخصين أو ثلاثة أو أربعة، أي تكوين العصابات الاجرامية بمفهوم القانون الوضعي.

16. السرقة والأعمال المشينة في المساجد وعند الطاسة (أي عند توزيع المياه) وفي بيت الحداد وديار المرابطين ودار المقدم وديار الموقرين.

17. أعمال الفحش المضرة بالجيران من غير شبهة وبدون مشاورة القبيلة.

18. السرقة في الأزقة والديور في حالة (الحركة) أي الاستنقار.

19. حجز الأشخاص وسجنهم.

20. كتابة الزور (يعاقب الكاتب ومن خرج بيده ما كتب زورا).

21 السرقة في النـــوادر.

22. الوشاية الكاذبة التي تصدر من إنفلاس الساقية في حق أحد أفراد القبيلة.

23. الرجوع في الشهادة.

24. تحويل المياه وقطعه من الجار.

25. الزنا واللواط وما فيه شبهتهما.

26. اخلال الطالب (فقيه الجامع) بالشرط.

27. آكتراء الماء في عين تيزنيت من الترجمان .....الخ.

وإلى جانب هذه الأفعال التي تكون جرائم إيجابية وتامة فان اللوح يعاقب كذلك على بعض الجرائم السلبية المعبر عنها بجرائم الارتكاب بالترك : مثل عدم الوفاء بما تتطلبه نزلة النفاليس، كما يعاقب على الجرائم غير التامة أي

المحاولة مثل إخراج الزناد أو العمارة (الطلقة النارية) بالبندقية وإخراج الهنت (أي الخنجر أو الكمية) ولم يجرح أحد.

ولا يسوى اللوح في العقوبة بين الجاني البالغ والجاني القاصر، وخاصة في الجرح بالرصاص أو الهنت (الخنجر) بل يميز بينهما في المسؤولية وفي العقوبة.

ومن بين ما تضمنه اللوح كذلك ما يعرف بدفع الصائل أو الجرائم التي ترتكب في حالة الدفاع الشرعي (ومن مات في الديور بوجه السرقة أو غيرها كالزنا وشبهة ليس على من قتله الانصاف ولا الدية ولا امزوك، وديته على القبيلة)...(وإذا أتى إليهم أحد بوجه السرقة في الليل وقتلوه أي الطوافون ليس على القاتل الانصاف ولادية ولا امزوك).

هذه في عجالة بعض الأفعال المجرمة والمحظورة ببنود اللوح وقد اكتفينا بأهمها على سبيل المثال فقط.

أما العقوبات الواردة في اللوح زجرا للأفعال المشار إليها فتختلف بحسب خطورة الجرم وتتراوح بين ما يلي :

1.الحلاق أو إمزكان أو المرضيين، ومفاد ذلك أنه في حالة التهمة يكلف المتهم الظنين بإحضار عدد من أقاربه أو من الغير بحسب الألواح لأداء أيمان تزكية له وتنزيها لشخصه عما ألصق به من تهم، وقد فصل اللوح في الجزئيات المتعلقة بالحلاف فبين كيفية أداء اليمين وأين ومتى تودى وحكم النكول وما يترتب عنه.

2.الانصاف وهو مصطلح يقصد به الذعيرة المالية التي تفرض على الجاني وتخرج من أمواله إن كان ميسورا، قال العلامة الجشتيمي : كمثل ما يوصف بالذعيرة : أو بآسم آنصاف على جريرة. وبعض الألواح تنص على الكيفية التي تصرف بها الأموال المتحصلة من الانصافات مثل لوح ايت وادريم 1235هـ /1819م الذي نص على أن الانصاف في عرفهم يقسم إلى ثلاثة أثلاث : الثلث للمصالح والثلثان للاعيان.

ويضاف إلى عقبوبة الانصاف التي هي عقوبة مالية صرف في بعض الجرائم ما يعرف بالخدمة (أو المونة) التي تكون عبارة عن خبز وزيت في بعض الحالات ويضاف إليها الكسكس في بعض الحالات الأخرى.

وفي حالة عجز الجاني عن أداء الانصاف فإنه يتعرض إلى عقوبات بديلة بالغة الخطورة قد تصل إلى حد قدح عينيه أو تخريب داره وهدمها.

وإلى جانب الانصاف هناك ما يعرف بالرد أو استرداد المال المعتدى عليه كالمسروق مثلا.

ثم أخيرا هناك (ازووك) أي النفي أو التغريب قد يكون لمدة محدودة أو لمدة غير محدودة.

يقول الاستاذ سيدي محمد العثماني رحمه الله أن ازووك يكون كتابة عن الاعدام إذا لم يقيد بمدة، أما إذا قيد بمدة فهو على أصله في اللغة، ويضيف قائلا : وقليل من يعرف هذا.

هذه جملة ملاحظات وأفكار أولية خرجت بها من خلال تأملات عابرة في بنود لوح تيزنيت قصدت بها توطيد الطريق لمن يروم من الدارسين تعميق البحث في تلكم الاعراف التي كانت وستظل جزءا من ثرات المغرب التنظيمي المغمور. وبالله التوفيق.

قصيدة شعرية
حول
ندوة تزنيت

اليزيد الراضي
كلية الآداب والعلوم الانسانية
اكادير

عندما وصل المشاركون في ندوة «مدينة تزنيت وباديتها»، إلى مدينة تزنيت مساء يوم الخميس 1993.11.11 م تهاطلت على المدينة أمطار غزيرة نتجت عنها سيول عارمة غمرت جوانب من المدينة، فأوحى إلي ذلك بالأبيات المتواضعة التالية :

أتينا إلى «تزنيت» باليمن والسعد   فرحبت الأمطار بالجمع والفرد
وجدنا سيولا في الطريق كأنما   تقول لنا : أهلا وسهلا بلا حد
وما إن وصلنا الربع حتى تهاطلت   على الربع أمطار تبشر بالرغد
تصفق للأضياف تبدي حبورها   تجدد بالرعد القوي عرى العهد
وقفنا بباب «النزل» وقفة خاشع   نشاهد ما في المزن من خالص الود
وجدنا سحاب الخير ينشر دره   يفك عن الأعناق ما دار من قيد
ومن فرحة لامطار بالوفد أنها   أتت بسيول تملأ السهل بالورد
تمر بجنب «النزل» شوقا إليكم   وتعلن أن الخصب ياتيكم بعدى
نطل على النهر الجديد كأننا   بشاطئ بحر في دنا الجزر والمد
رأينا على الأمواج سفنا عجيبة   وخلقا كثيرا لا يقدر با العد
عجبت وحُقَّ أن أرى متعجبا   لما شمت في «تزنيت» من منظر فرد
الا أيها الزوار «تزنيت» أنطقت   لسان بنيها بالثناء وبالحمد
بمقدمكم حلت بها خير نعمة   يجود بها المولى على السهل والنجد
زيارتكم ترياق كل ملمة   وندوتكم رمز السعادة والمجد
أفيضوا على الأجيال علما وحكمة   كما فاضت الأمطار بالخير والسعد
وأنتم لدى «تزنيت» وفد مكرم   تخصكم ببالغ البشر والرفد

بسـم الله الرحمـن الرحيـم   وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله

وقال أيضا :

أنشأ كاتبه عفا الله عنه القصيدة المتواضعة الآتية، على إثر الزيارة التي قام بها المشاركون في ندوة «تزنيت وباديتها»، يوم السبت 1993.11.13 لمدينة سيدي افني بأيت باعمران، ونصها :

أحييك يا «إفني» تحية من يفدي ... بمهجته ربع الشهامة والعهد

أحييك يا «إفني» وأنت مناهض ... قوى البغي في عهد الحماية والكيد

أحييك في عهد التحرر والمنى ... وأنت تروم الفوز بالسؤل والقصد

جريت على الأفواه رمز بسالة ... يحب بنوك العز أو جنة الخلد

تلقن للأجيال في كل فترة ... دروس إباء، لا تمل من السرد

أحن إلى تلك الشجاعة إنها ... لمغربنا الأقصى أعز من النقد

بها انعتق الأحرار من ربقة الردى ... بها فك عن أعناقنا كل ما قيد

فهل لبني عمران علم بأنني ... أكن لهم في مهجتي أيما عهد

أقدرهم في الحرب والسلم إنهم ... جديرون بالتقدير في البدء والعود

بدوا أسدا في الحرب قل نظيرها ... وهل يحرز النصر العظيم سوى الأسد

أذاقوا العدا في حومة الحرب مابدت ... به لهم الدنيا جحيما بلا وقد

حظينا لديهم يوم زرنا ديارهم ... بما شئت من خير يجل عن الند

وجدنا هناك البشر والبشر خير ما ... يقدم للأضياف في الحر والبرد

وجدنا كبابا طيبا لذ طعمه ... وتمرا وحلوى لا تماثل بالشهد

وجدنا كؤوس الشاي تبدي سرورها ... تسر بما تخفي من الود للوفد

حبتها يد الاتقان طعما مميزا ... وريحا زرت في الطيب بالمسك والند

وجدنا رجالا صالحين تواضعوا ... تواضع من يسمو إلى الكل ما يجدي

دعونا إلى التجوال في كل بقعة ... ورافقنا منهم ذوو الحل والعقد

وقفنا على شط بدا في انتعاشه ... تراوده الآمال والتوق للمجد

بدا الشغل في المرسى بعزم مؤكد ... يبشر بالاسعاد للمجمع والفرد

وجدنا نواة «الصنع» تنمو فروعها ... لتشمل ما يربو على الحصر والعد

بدايتها عنوان خير نهاية ... ومطمحها الأعلى ينم عن الجد

رأينا على موج هنالك منظرا ... جميلا وقرص الشمس يحمر كالخد

كسا الأفق لونا رائعا متميزا ... يثير شعورا بالجمال وبالسعد

أرحنا هناك النفس بالمشهد الذي ... يجدد عزم الشيخ والكهل والولد

رجعنا إلى «تزنيت» والقلب مفعم ... بحب بني عمران في القرب والبعد

رجعنا وفي النفس اعتزاز بأننا ... لدينا رجال حازمون إلى الحد

رجعنا وللوفد التفات إلى الورا ... ومنيتنا المثلى التشرف بالعود

AXE CULTUREL :

SOMMAIRE

Royaume du Maroc
Université Ibn Zohr
PUBLICATIONS DE LA FACULTÉ DES LETTRES
ET DES SCIENCES HUMAINES
AGADIR
Série : Colloques et Journées d'étude

LA VILLE DE TIZNIT ET SA CAMPAGNE

Histoire, espace et culture

Actes des journées d'étude
12 - 13 - 14 Novembre 1993

1996



Université Ibn Zohr
PUBLICATIONS DE LA FACULTÉ DES LETTRES
ET DES SCIENCES HUMAINES
AGADIR

LA VILLE DE TIZNIT ET SA CAMPAGNE

Histoire, espace et culture